المركز الديمقراطي العربي؛ برلين - ألمانيا

مجلة المؤتمرات العلمية الدولية

دورية دولية محكمة
تعنى بنشر وقائع المؤتمرات العلمية
في جميع التخصصات

العدد العاشر

ISSN . 2701 – 3995

المركز الديمقراطي العربي

مجلة المؤتمرات العلمية الدولية

International Journal of Scientific Confrences

International scientifie periodical journal
Deals with publishing the proceedings of scientifie
conférences in all disciplines

JISC.DAC

DEMOCRATIC ARABIC CENTER
Germany: Berlin 10315 Gensinger- Str: 112
http://democraticac.de
TEL: 0049-CODE
030-89005468/030-898999419/030-57348845
MOBILTELEFON: 0049174274278717

الناشر:

المركز الديمقراطي العربي
للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية
برلين/ألمانيا

Democratic Arabic Center
Berlin / Germany

لا يسمح بإعادة إصدار هذه المجلة أو أي جزء منها أو تخزينها
في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق خطي من الناشر.
جميع حقوق الطبع محفوظة: المركز الديمقراطي العربي برلين-ألمانيا

All rights reserved
No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, without the prior written permission of the publisher

المركز الديمقراطي العربي
للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية ألمانيا/برلين

Tel : 0049-code Germany
030-54884375
030-91499898
030-86450098

البريد الإلكتروني
j.conferences@democraticac.de

المركز الديمقراطي العربي
للدراسات الاستراتيجية، الاقتصادية والسياسية
Democratic Arabic Center
for Strategic, Political & Economic Studies

مجلة المؤتمرات العلمية الدولية
International Journal of Scientific Confrences

رئيس التحرير: د. شاهر إسماعيل الشاهر، جامعة صن يات سين الحكومية، الصين

رئيس اللجنة العلمية: د. طرشان حنان، جامعة باتنة1، الجزائر

مدير التحرير: د. بن دريدي منير، جامعة سوق أهراس، الجزائر

مساعد رئيس التحرير: د. عمارة بوجمعة، جامعة برج بوعريريج، الجزائر

اللجنة العلمية: أد. البوسيفي حميدة-أد. إبريعم سامية-د .بن عون الزبير-د. طرابلسي عبد الحق -د. مراد جمال -د. ليفة آسيا- در محمد -د. لفقير علي-د. بداوي عبد القادر-د. العيمش محمد-د. بن عيسى الأزهاري- د. حميدان سلمى-د.زويتي سارة – د.عيشوش رياض-عطا الله النوعي-د. جميل إطميزي-د. عكة محمد

الطبعة الأولى

جانفي 2021 م

البريد الالكتروني للمجلة:

j.conferences@democraticac.de

Nationales ISSN-Zentrum für Deutschland

ISSN 2701-3995

لا تُعبّر بالضرورة الأبحاث *المنشورة* في *المجلة* عن رأي المجلة وانما عن آراء أصحابها

المركز الديمقراطي العربي-برلين (ألمانيا)

بالتعاون مع

المركز متعدد التخصصات للبحث في حسن الاداء والتنافسية، جامعة محمد الخامس

– المغرب

مكتب الثقافة مسلاته – وزارة الثقافة والتنمية المعرفية – ليبيا

ينظمون المؤتمر الدَّولي العلمي تحت عنوان:

المجاعات والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور

أيام 24 / 25 – 07 – 2021

إقامة المؤتمر بواسطة تقنيَّة التَّحاضر المرئي عبر تطبيقZoom

ملاحظة: المشاركة مجانا بدون رسوم

رئيس المؤتمر:

د. تلي رفيق/ جامعة سعيدة/الجزائر

الرئاسة الشرفية:

أ.د. عمر حنيش – المركز متعدد التخصصات للبحث في حسن الاداء والتنافسية، جامعة محمد الخامس – المغرب.

د. نصرالدين البشير العربي – مكتب الثقافة مسلاته – وزارة الثقافة والتنمية المعرفية – ليبيا

أ. عمار شرعان – رئيس المركز الديمقراطي العربي – برلين – ألمانيا

رئيس اللجنة العلمية:

د. موسم عبد الحفيظ/ جامعة سعيدة/الجزائر

مدير المؤتمر:

د. قدوري عبد الرحمن رئيس شعبة التاريخ جامعة سعيدة-الجزائر

منسق عام المؤتمر:

د. ناجية سليمان عبد الله / رئيسة تحرير مجلة العلوم السياسية والقانون

رئيس اللجنة الاستشارية:

أ. حسن عبد السلام العربي – مكتب الثقافة مسلاته – وزارة الثقافة والتنمية المعرفية – ليبيا

رئيس اللجنة التنظيمية:

أ. كريم عايش / المركز الديمقراطي العربي.

رئيس اللجنة التحضيرية:

أ.صهيب شاهين/ المركز الديمقراطي العربي.

أعضاء اللجنة العلمية

أ.د مقنونيف شعيب، جامعة تلمسان، الجزائر	د. دلباز محمد، جامعة سعيدة، الجزائر
أ.د عبد الحق زريوح، جامعة تلمسان، الجزائر	د. بوشيبة ذهبية، جامعة سعيدة، الجزائر
أ.د الطاهر جبلي، جامعة تلمسان، الجزائر	د. بوحسون عبد القادر، جامعة سعيدة، الجزائر
أ.د بلعربي خالد، جامعة بلعباس، الجزائر	د. داعي محمد، جامعة سعيدة، الجزائر
أ.د العايب معمر، جامعة تلمسان، الجزائر	د.كبداني فؤاد، جامعة سعيدة، الجزائر
أ.د دريس بن مصطفي، جامعة سعيدة، الجزائر	د. قراوي نادية، جامعة سعيدة، الجزائر
أ.د كريم مطر حمزة الزبيدي، جامعة بابل، العراق	د. بن دحمان حاج، جامعة غليزان، الجزائر
أد. يوسف كاظم الشمري، جامعة بابل، العراق	د. طويلب عبد الله، جامعة سعيدة، الجزائر
أد شيبوط سعاد يمينة، جامعة تلمسان، الجزائر	د. شباب عبد الكريم، جامعة سعيدة، الجزائر
أد حمدادو بن عمر، جامعة وهران01، الجزائر	د. شيخ فطيمة، جامعة سعيدة، الجزائر
د. لوصيف موسى، جامعة قسنطينة 02، الجزائر	د. جبران لعرج، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر
د. تلي رفيق، جامعة سعيدة، الجزائر	د. داعي محمد، جامعة سعيدة، الجزائر
د. بوداعة نجادي، جامعة سعيدة، الجزائر	د. مجاود حسين، جامعة سعيدة، الجزائر
د. حبيب حسن اللولب، جامعة صفاقس، تونس	د.بكوش فافة، جامعة سعيدة، الجزائر
د. يماني رشيد، جامعة تلمسان، الجزائر	د. بوشاقور عبد الرحيم، جامعة عين تموشنت، الجزائر
د. مهدي قصير، جامعة غليزان، الجزائر	د. كوشنان محمد، جامعة المدية، الجزائر
د. مجدوب موساوي، جامعة سعيدة، الجزائر	د. بوزياني فاطمة الزهراء، جامعة تلمسان، الجزائر
د. لطرش صليحة، جامعة البويرة، الجزائر	د. بوزياني زبيدة، جامعة تلمسان، الجزائر
د. بن دوبة شريف الدين، جامعة سعيدة، الجزائر	د. جحنيط حمزة، جامعة برج بوعريريج، الجزائر
د. حميد آيت حبوش، جامعة وهران، الجزائر	د. عبد الرحيم براوكي، جامعة مكناس، االمغرب
د. براهيمي محمد، جامعة وهران02، الجزائر	د. سعيداني لخضر، جامعة تيسمسيلت، الجزائر
د. نوال مجدوب، جامعة تلمسان، الجزائر	د. كركب عبد الحق، جامعة تيارت، الجزائر
د. طالب دليلة، باحثة، الجزائر	د. وهيبة حليمي، جامعة تلمسان، الجزائر
د. جواد الرباع، جامعة ابن زهر، المغرب	د. مجدوب خيرة، جامعة تيارت، الجزائر
د. سالم مفتاح أبو القاسم، مكتب الثقافة، مسلاتة، ليبيا	د. إبراهيم الانصاري، جامعة الحسن الثاني، المغرب

كلمة رئيس المؤتمر:

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين، وبعد؛

أستاذي الفاضل/ الأستاذ عمار شرعان -رئيس المركز الديمقراطي العربي -برلين -ألمانيا.

أد. عمر حنيش رئيس المركز متعدد التخصصات للبحث في حسن الاداء والتنافسية، جامعة محمد الخامس – المغرب.

د. نصر الدين البشير العربي رئيس مكتب الثقافة مسلاته – وزارة الثقافة والتنمية المعرفية – ليبيا.

الدكتور موسم عبد الحفيظ رئيس اللجنة العلمية جامعة سعيدة – الجزائر.

الأخ الفاضل الأستاذ كريم عايش المدير الإداري للمركز الديمقراطي العربي ورئيس اللجنة التنظيمية للمؤتمر.

الأخ الدكتور أحمد بوهكو مدير النشر المركز الديمقراطي العربي-برلين -ألمانيا.

مدير المؤتمر :د. قدوري عبد الرحمن رئيس شعبة التاريخ جامعة سعيدة، الجزائر

منسق عام المؤتمر :د. ناجية سليمان عبد الله – رئيسة تحرير مجلة العلوم السياسية والقانون.

رئيس اللجنة الاستشارية :أ. حسن عبد السلام العربي – مكتب الثقافة مسلاته – وزارة الثقافة والتنمية المعرفية – ليبيا.

رئيس اللجنة التحضيرية :أ. صهيب شاهين، المركز الديمقراطي العربي.

السادة الأساتذة أعضاء اللجنة العلمية للمؤتمر، والسادة الأساتذة رؤساء الجلسات العلمية كلّ باسمه ورسمه ووسمه.

السادة الأساتذة الباحثين المشاركين في هذا المحفل العلمي، سلام الله عليكم ورحمته تعالى وبركاته، أحييكم بتحية من القلب تحمل في طياتها حبا وفاء واحتراما.

إنه لمن دواعي السرور أن تنطلق وبحمد الله فعاليات المؤتمر الدولي الافتراضي الموسوم بـ: **المجاعات والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور**

الذي ينظمه المركز الديمقراطي العربي ببرلين-ألمانيا بالتعاون مع المركز متعدد التخصصات للبحث في حسن الآداء والتنافسية، جامعة محمد الخامس، المغرب ومكتب الثقافة مسلاته، وزارة الثقافة والتنمية المعرفية، ليبيا وينعقد هذا المؤتمر العلمي افتراضيا بسبب جائحة كورونا التي ألمت بالجميع فندعو الله عز وجل أن يرفع عنّا البلاء والوباء.

ومن باب من لم يشكر الناس لم يشكر الله أسجي شكري وامتناني واحترامي للأستاذ الفاضل عمار شرعان على منحنا ثقته في احتضان هذا المؤتمر الدولي العلمي على انجاحه عن طريق الاشراف وتذليل الصعوبات إيمانا منه بضرورة خروج المؤتمر بالشكل اللائق فبجده وصبره وتفانيه في العمل استطاع أن يجعل المركز الديمقراطي العربي منارة للعلم والفكر والمعرفة والابداع في مجال البحث العلمي، كما أعرب عن شكري وامتناني للأستاذ الدكتور عمر حنيش رئيس المركز متعدد التخصصات للبحث في حسن الاداء والتنافسية، جامعة محمد الخامس، المغرب، والشكر موصول إلى الدكتور نصر الدين البشير العربي رئيس مكتب الثقافة مسلاته، وزارة الثقافة والتنمية المعرفية، ليبيا على مدهم يد المساعدة واحتضان هذا المحفل العلمي ليخرج في أبهى حلة.

كما أتوجه بالشكر الجزيل لأعضاء اللجنة العلمية على رأسهم الدكتور موسم عبد الحفيظ على سهرهم وتفانيهم في تحكيم الأوراق العلمية الخاصة بالأساتذة والباحثين المشاركين في هذا المؤتمر، كما أشكر السادة أعضاء المركز

الديمقراطي العربي ببرلين وعلى رأسهم الأستاذ كريم عايش رئيس اللجنة التنظيمية للمؤتمر والمدير الإداري للمركز، وأشكر الدكتور أحمد بوهكو مدير النشر بالمركز، والشكر موصول إلى أعضاء اللجنة الاستشارية والتحضيرية للمؤتمر.

يطيب لي أن أرحب بالسادة الأساتذة الأفاضل ونسعد باستقبال مداخلاتهم واقتراحاتهم وتصوراتهم في هذا المؤتمر العلمي الدولي، ونعتذر لهم عن أي تقصير بذر منا في التواصل مع حضراتهم، كما أتمنى لهم مشاركة موفقة طيبة بإذن الله تعالى.

يسعى المؤتمر الموسوم بـ: **المجاعات والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور** إلى التعرف على مختلف المجاعات والأمراض والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور، ومحاولة الوقوف على أسبابها وتداعياتها، وإزالة اللبس والغموض عن مراحل صعبة عاشها الوطن العربي إثر تعرضه لمثل هذه الأزمات، ودراسة المستوى المعيشي والوضع الصحي لمجتمعات الوطن العربي عبر العصور في ظل هذه الأزمات، والتعرف على المظاهر الناتجة عن المجاعات والأوبئة عبر العصور، والتعرف على مواقف السلطات في الوطن العربي عند التعرض لمثل هذه الأزمات، والتعرف على الإجراءات الوقائية عند حدوث مثل هكذا أزمات في الوطن العربي عبر العصور، ومن خلال هذا المؤتمر نحاول خلق جو من التفاعل العلمي وتبادل المعارف.

أجدد شكري وترحابي وأسأل الله عز وجل أن تكلّل أعمال هذا المؤتمر بالنجاح والتوفيق والسداد وأن يحقق الأهداف المرجوة راجيا السلامة والصحة والعافية للأمة العربية والإنسانية جمعاء، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

رئيس المؤتمر:

د. تلي رفيق

جامعة سعيدة، الجزائر

تقديم:

تعد المجاعات والأوبئة من العوامل التي تتسبب في تأخر المجتمعات وضعفها، نظرا لما تلحقه بها من أضرار (اقتصادية، اجتماعية، ديمغرافية ...)، فقد تعرض الوطن العربي عبر العصور إلى عدّة أوبئة ومجاعات، حصدت منه عدّة أرواح وكادت أن تغير مجرى التاريخ فيه، وهو ما نود معالجته من خلال هذا المؤتمر العلمي.

لقد عرفت المنطقة العربية على إثر هذه المجاعات والأوبئة سلسلة من التحولات الكبرى والانعطافات الحاسمة في مسارها التاريخي، فكانت المجاعات والأوبئة من أشد البلايا وقعا على المجتمع العربي، خاصة وأنها أفرزت واقعا مريرا صعَّب على الإنسان العربي حياته ومعايشته لتلك الفترات. كما عرف الوطن العربي طيلة فتراته التاريخية تقلبات مناخية ومراحل جفاف قاسية نجم عنها قحط ومجاعات. أدّت إلى ظهور القحط والمجاعات والأوبئة التي أصابت ساكنته، بدرجات متفاوتة من حيث الخطورة. هذا فضلا عن الحروب والنزاعات السياسية التي كانت على قدر كبير من الأهمية في انتشار المحن الاجتماعية التي تسببت هي الأخرى في ظهور عدّة أوبئة ومجاعات على مرّ التاريخ.

شكلت المجاعات والأوبئة خطرًا حقيقيًا على حياة السكان في الوطن العربي، حيث ظلت تهدّدهم بالفناء، لذلك لم يكن من المستطاع إسقاط هاتين الكارثتين من ذاكرة التاريخ، ذلك أن النتائج التي تمخضت عنها قد ساهمت في تكوين جزء كبير من مصير الأحداث التي اعتني برصدها. وبالبحث عن أسباب حدوث المجاعات والأوبئة، نكشف عن وجود نوعين من الأسباب؛ طبيعية وبشرية تتفاعل كل واحدة مع الأخرى بدرجات متفاوتة في حدوثها (الجفاف الذي كان من الظواهر المألوفة في البلاد العربية، الحروب والفتن...).

إن موضوع المجاعات والأوبئة من الموضوعات الحياتية والمصيرية التي نحياها؛ إذ يترتب عليه مصير بشرية أو أمة بأكملها في تلك الفترة الحرجة؛ فهي نوع من أنواع التهديدات الخطيرة خاصة لصغار السن، كما أنها تتحكم في سلوكيات الأمة وتعاملاتها. فهذه الأزمات تعتبر تجربة صعبة وقاسية مر بها الوطن العربي على مر العصور، ولها تأثير كبير جدا على كل شيء يحيط بالإنسان، وكان التأثير الأكبر لها على الحالة النفسية السيئة للبشرية. ولم يكن الأثر النفسي السيء المترتب على المجاعات والأوبئة في تلك الفترة للعامة فقط، بل كان تأثيرها كبير أيضا على الأمراء والخلفاء الذين ظلوا يسعون جاهدين من أجل إيجاد الحلول.

لقد عاش أفراد المجتمع العربي في ظل هذه الأزمات أوضاعا مزرية، من أبرز مظاهرها الاقتصادية انخفاض محسوس لمستوى المعيشة، ونفاذ الأغذية من المخازن، حتى أصبح غذاء الإنسان العربي في كثير من المناطق العربية يقتصر على بعض الحشائش البرية، ولحوم الميتة مما سرّع عجلة الموت أكثر؛ بسبب ظهور الأمراض وحتى فساد الأغذية كان من العوامل المؤدية إلى حدوث الأوبئة والأمراض. هذا فضلا على التحولات الديمغرافية الكبرى المتمثلة في الحركة السكانية، وهجرة أفراد المجتمع العربي للبحث عن الغذاء من جهات أخرى. هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد أفرزت هذه الأزمات عن ظهور نوع من التضامن والتكافل الإنساني على أكثر من صعيد.

إشكالية المؤتمر:

يعالج هذا المؤتمر إشكالية المجاعات والأوبئة في الوطن العربي عبر مراحل التاريخ المختلفة من خلال محاولات الإجابة على التساؤلات التالية:

- ✓ فيما تتمثل أهم المجاعات والأوبئة التي حلت بالوطن العربي عبر العصور؟

- ✓ كيف كان الوضع الصحي والمعيشي للوطن العربي في ظل هذه الأزمات؟
- ✓ ما مدى انعكاس المجاعات والأوبئة على الوضع الديمغرافي والاجتماعي والاقتصادي في الوطن العربي عبر العصور؟
- ✓ كيف تعايش سكان الوطن العربي مع الأوبئة والمجاعات التي حلت به عبر العصور؟

أهداف المؤتمر:

- ✓ التعرف على مختلف المجاعات والأمراض والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور، ومحاولة الوقوف على أسبابها وتداعياتها.
- ✓ إزالة اللبس والغموض عن مراحل صعبة عاشها الوطن العربي إثر تعرضه لمثل هذه الأزمات (المجاعات والأوبئة).
- ✓ دراسة المستوى المعيشي والوضع الصحي لمجتمعات الوطن العربي عبر العصور في ظل هذه الأزمات.
- ✓ التعرف على المظاهر الناتجة عن المجاعات والأوبئة عبر العصور.
- ✓ التعرف على مواقف السلطات في الوطن العربي عند التعرض لمثل هذه الأزمات.
- ✓ التعرف على الإجراءات الوقائية عند حدوث مثل هكذا أزمات في الوطن العربي عبر العصور.

محاور المؤتمر:

- ✓ مفاهيم ومصطلحات: المجاعات، الأمراض، الأوبئة...
- ✓ المجاعات في الوطن العربي عبر العصور.
- ✓ الأمراض والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور.
- ✓ الأسباب والعوامل المؤدية للمجاعات والأوبئة.
- ✓ الفترات التاريخية لظهور المجاعات والأوبئة عبر العصور في الوطن العربي.
- ✓ المستوى المعيشي في ظل المجاعات والأوبئة عبر العصور.
- ✓ المظاهر الناتجة عن المجاعات والأوبئة عبر العصور.
- ✓ الآثار والانعكاسات للمجاعات والأوبئة على كافة المستويات (السياسي؛ الاقتصادي؛ الاجتماعي والديمغرافي...) في الوطن العربي عبر العصور.
- ✓ مواقف السلطات في الوطن العربي عند التعرض لمثل هذه الأزمات.
- ✓ الصحة والسكان في ظل زمن المجاعات والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور.
- ✓ طرق ووسائل المعالجة من الأمراض والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور.
- ✓ الجهود المبذولة لتجاوز المجاعات والأوبئة في الوطن العربي عبر العصور.
- ✓ التأريخ للمجاعات والأوبئة في الوطن العربي.
- ✓ المجاعات والأوبئة في الوطن العربي في الكتابات الأجنبية.
- ✓ مجاعات وأوبئة العصر..

فهرس المحتويات

صفحة	عنوان المداخلة	الباحث
12	الأدب الشعري والروائي كمرآة عاكسة لتاريخ الأوبئة في الوطن العربي	د. محمود موسى زياد
27	قراءة في وباء قرطاج 396 ق.م من خلال كتاب ديودروس الصقلي	د. تلي محمد العيد ط.د. رزوق نجاة
37	أثر الأوبئة والمجاعات على السلوك الغذائي بالمجتمع الأندلسي خلال القرنين (6-8هـ/12-14م): دراسة في المواقف الذهنية والممارسات الاجتماعية	د.بن خيرة رقية
52	الوباء بمدينة تلمسان وضواحيها من خلال الكتابات الشاهدية من القرن 10-13هـ/16-19م	د. عياش محمد
66	المجاعات الكبرى بقسنطينة: سنوات البلاء العظيم على ضوء المصادر التاريخية	د. موسم عبد الحفيظ
74	مجـــاعة أهـالي مدينة تلمسان إبَّان الحصار المريني.	د. محـمد بن زغـــادي د.بودعة نجادي
83	الطب الوقائي في الحضارة الإسلامية: طاعون القرن الثامن الهجري أنموذجا	د. بوحسون عبد القادر
89	واقع مجاعة 1867 الاقتصادي والديمغرافي على منطقة سيدي بلعباس	د.مجاود حسين
97	الإيكولوجيا والأمراض بالمجتمعات الحدودية الإفريقية " دراسة في الأنثروبولوجيا الطبية "	د. محمد مسعد إمام
111	الأوبئة والإلهام الأدبي رواية الطاعون لألبير كامو أنموذجا	د.بن مصطفي دريس
121	السلوك الإنساني في زمن المجاعات والأوبئة: معركة البقاء	د. بوزياني زبيدة د. بوزياني فاطمة الزهراء د. غفور عبد الباقي
129	الطاعون الجارف وأثره على الحياة الفكرية في بلاد المغرب الإسلامي	د.محروق إسماعيل
143	المجاعة وانتشار الأمراض: معالم المأساة الإنسانية بالجزائر 1866-1868م من خلال الكتابات الأجنبية	د. كبداني فؤاد د.قدوري عبد الرحمن
154	انتشار الطاعون والكوليرا في ولاية طرابلس الغرب خلال العهد العثماني الثاني 1835-1911	د. الزرقاء سالم محمد
163	دور المستشفيات العربية الاسلامية في علاج الأمراض والأوبئة في الوطن العربي خلال العصور الوسطى	د. زواوي مراد
174	المجاعات والأوبئة في إفريقيا أثناء العهد الحفصي في الفترة من (625-980هـ/ 1228-1572م)	د. مريم الصغير عبد السلام المقطوف
186	الأوضاع الصحية في إيالة طرابلس الغرب في عهد الاسرة القرمانلية 1711. 1835م	د . علي سعد مسعود محمد
198	المجاعات والأوبئة في الوطن العربي دراسة لواقع المجتمع العربي في ظل طاعون عمواس في عهد الخلافة العمرية	د. عمر حسيني د. زهرة شوشان

الأدب الشعري والروائي كمرآة عاكسة لتاريخ الأوبئة في الوطن العربي

Poetic and novel literature as a reflection of the history of epidemics in the Arab world

د. محمود موسى زياد
Dr. Mahmoud Mousa Ziad
موظف/وزارة التربية والتعليم/ رام الله/ فلسطين
Employee/Ministry of Education/ Ramallah/Palestine

الملخص:

تهدف هذه الدراسة التعرف إلى موضوع أدب الوباء، حيث شكلت الأوبئة وما تزال عاملا من عوامل القلق والإرباك اللذين تصاب بهما الأمم على مر العصور. وقد أصيب العالم العربي والاسلامي بأوبئة كالطاعون والكوليرا، وكان لها آثار متنوعة على نواحي الحياة المختلفة وقد تنوعت الفنون الأدبية التي عبرت عن هذه الأوبئة سواء شعرا أو نثرا؛ ولذلك تحاول هذه الدراسة معالجة إشكالية البحث التالية: هل دوّن الأدباء والشعراء لهذه الأوبئة من خلال كتاباتهم الأدبية؛ وبالتالي شكلت هذه الكتابات مرآة عاكسة لتلك الأوبئة؟ ولتحقيق هدف الدراسة استخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي لمناسبته لمثل هذا النوع من الدراسات، وتم الاستعانة بالشعر والرواية وربطهما بوقائع الوباء. وقد توصلت الدراسة إلى النتائج التالية:

- ✓ واكب الأدب العربي بشقيه الشعري والنثري الأوبئة التي حلت بهم.
- ✓ أصابت الأوبئة عددا كبيرا من الأدباء والشعراء؛ ما جعل ذلك حافزا لهم على الكتابة.
- ✓ اهتم الأدباء والشعراء بالوباء باعتباره تجربة عايشوها وكابدوا آلامها وأوجاعها.
- ✓ لم يكن الحديث عن الوباء هدفا لذاته؛ ورؤاه وطروحاته سواء كانت فلسفية أو اجتماعية.

الكلمات المفتاحية: أدب، شعر، تاريخ، أوبئة، الوطن العربي

Abstract:

This study aims to identify the topic of epidemic literature, where epidemics have constituted and still are a factor of anxiety and confusion that afflicts nations throughout the ages. The Arab and Islamic world was hit by epidemics such as the plague and cholera, which had a variety of effects on different aspects of life. The literary arts that expressed these epidemics varied, whether in poetry or prose; Therefore, this paper seeks to attempt to answer the following main question: Did the writers and poets record these epidemics in their literary writings; And therefore, these writings formed a mirror reflecting those epidemics؟To achieve the goal of the study, the researcher used the descriptive analytical method for its relevance to this type of studies. Poetry and novel were used and linked to the facts of the epidemic. The study reached the following results :

- ✓ Arabic literature, with its two parts, poetry and prose, kept pace with the epidemics that afflicted them.
- ✓ Epidemics affected a large number of writers and poets; this motivated them to write.
- ✓ Writers and poets were interested in the epidemic as an experience they lived through and suffered from its pain and aches. Talking about the epidemic was not an objective; rather, it was a tool for expressing some of his views, visions and propositions, whether philosophical or social.

Keywords: Literature, poetry, history, epidemics, the Arab world

مقدمة:

تعتبر الأوبئة والأمراض المعدية واجهة من واجهات التاريخ البشري، وقد تناولها المؤرخون بصفتها حروباً غير معلنة قضت على أعداد هائلة من البشر على مر العصور. فالأوبئة اجتاحت العالم وغزت التاريخ، وأحدثت هزات عنيفة في الحياة الاجتماعية متخطية الحدود الجغرافية والسياسية مخلفة وراءها مآس ما زالت محفورة في ذاكرة العالم حتى اليوم.

عالج الأدب الوباء في تجليات متعددة، وهناك الكثير من الروايات التي تحمل بين ثناياها معاني عميقة لتلك الأوبئة التي فتكت بالمجتمعات والبشر، فكانت محركا أساسيا في بعضها وأحياناً ذات طابع درامي تراجيدي لزمن وقوع الوباء وتاريخه. يرى البعض بأن الهدف الأساسي من توظيف الوباء هو تعرية الواقع الراهن أو نقد أوضاع سياسية أو اجتماعية أو صحية أو فكرية. لكن جدير بالقول: إن الرواية التي تحمل بين طياتها وباء هي بحد ذاتها تستحضر التاريخ؛ لأنه يتضاعف عند الكاتب النص السردي المتخيل بسبب تلك الوقائع التاريخية.

شكّل موضوع الوباء تقليدا أدبيا في التاريخ الأدبي؛ فقد تناول عدد من الروائيين والشعراء قصصا إنسانية عبرت عن مشاعر الحزن التي انتابت من فقد حبيبا بسبب الوباء. كما تطرقت إلى المحاصرين في الحجر الصحي، أو الخائفين من العدوى، أو الفارين من الموت.

تنوعت موضوعات الأدب وتناولت أشياء نحبها وأشياء نبغضها، فخرجت كثير من القصائد والقصص والروايات من رحم المعاناة الإنسانية. فقصيدة الشاعر المصري علي الجارم كتبها عندما ضربت الكوليرا مدينة رشيد مسقط رأسه بمصر عام 1895. وكذلك قصيدة "الكوليرا" للشاعرة العراقية الراحلة نازك الملائكة من أشهر القصائد التي كان الوباء موضوعها. فالأدب سواء شعرا أو سردا أوجد نصوصا إبداعية تناولت موضوع الأوبئة؛ ما جعل مؤرخي الأدب يصنفون هذه النصوص ضمن ما أسموه أدب الأوبئة. وتأتي هذه الورقة لتعالج هذا الموضوع من زاويتين: الشعر الذي تناول موضوع الوباء والرواية.

الإشكالية:

معظم الأوبئة كائنات دقيقة لا تُرى بالعين المجردة، إلا أنها تركت أثرا في تاريخ البشرية لم يزل حتى الآن. وقد حرص الأدباء والمفكرون على تخليد هذه الأوبئة وأحداثها التي أطاحت بملايين البشر من قبل. ولذلك تسعى هذه الورقة إلى محاولة الإجابة عن الأسئلة التالية: هل دوّن الأدباء والشعراء لهذه الأوبئة في كتاباتهم الأدبية؛ وبالتالي شكلت هذه الكتابات مرآة عاكسة لتلك الأوبئة؟ ويتفرع من هذه الإشكالية مجموعة من الأسئلة الفرعية منها: هل كانت الأوبئة طاغية ما دفع الكتّاب لتوجيه أقلامهم ناحية هذه الأمراض؟ كيف عبر الشعراء والأدباء عن هذه الأوبئة؟

أهمية الموضوع:

تكمن أهمية الموضوع في أن العلاقة بين الأعمال الأدبية -غالبا -وبين الأوبئة التي شهدتها البشرية تنطلق من كون الأدب -في حقيقته-تعبير عن حركة الحياة في مختلف الأوقات سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل. ولا يعني ذلك أن يكون من وظيفة الأدب تأريخ الأوبئة بل مُلامسة آلام الناس ومُعاناتهم.

الأهداف:

- ✓ إظهار كيف عايش الأدب الأوبئة التي أصابت الوطن العربي تأثيرا وتأثرا.
- ✓ إظهار كيف يسجل الأدب مقطوعات أدبية ونصوصا فنية ماتعة رغم الأوجاع والآلام.
- ✓ إظهار التجارب الأدبية التي تحدثت عن الأوبئة.
- ✓ إظهار دور الأدب في ظل انتشار الأوبئة وتأثيرها في البيئة والمجتمع.
- ✓ إظهار دور الأدب في الكشف عن حجم الفاجعة وقسوة المشاهد التي تعرض لها المجتمع من الأوبئة.

أسباب اختيار الموضوع: يمكن الحديث عن أسباب ذاتية وأخرى موضوعية

أ) الأسباب الذاتية:

- ✓ يقع البحث ضمن اهتمامات الباحث الأدبية.
- ✓ رغبة الباحث في المشاركة في مؤتمر المجاعات والأوبئة ضمن بحث يعالج قضية تاريخية بطريقة أدبية.

ب) الأسباب الموضوعية:

- ✓ محاولة الباحث إنعاش ذاكرة القارئ بما يخص فن الأدب الذي تناول الأوبئة في الوطن العربي والإسلامي.
- ✓ التركيز على دور الأدب في توثيق تلك الأوبئة التي أصابت الوطن العربي والإسلامي وتسجيلها، وكيف يكون الأدب بشقيه النثري والشعري ديوانا لموضوع الأوبئة كما في تجارب عالمية روائية وثقت للأوبئة كرواية الطاعون لألبير كامو ورواية كوليرا لماركيز.

منهج الدراسة:

سوف تعتمد هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي حيث قام الباحث بجمع المادة الأولية المتمثلة فيما كتب حول موضوع الأوبئة، وعمل على دراستها وتحليلها إلى جانب بعض المصادر الثانوية التي تتحدث عن أدب الوباء؛ لتوظيف ذلك من أجل دعم إشكالية البحث الرئيسة.

المصطلحات:

الوباء: جاء في لسان العرب: وَبَأُ :الطَّاعُونُ أو كُلُّ مَرَضٍ عامٍّ، الجمع :أَوْبَاءٌ، كالوَبَاءُ، الجمع: أَوْبِيَةٌ (ابن منظور: د. ت، ص. 4751)

أدب الأوبئة: يُعرَّف الأدب -غالبا -بأنّه ضرب من ضروب الفنّ الإبداعيّ ابتكره الإنسان ليُعبّر عمّا يدور في نفسه من خلجات إزاء الجمال والعاطفة والخيال. ويُعرَّف الوباء بأنّه حزن وسُقم ومرض يتعلّق بقلب الإنسان وكينونته. و"أدب الوباء" يرجع عمليّا إلى تفشّي عدد من الأوبئة على مرّ العصور وأثرها في السّرد الغربي، لذلك كان من الطبيعي أن ينعكس هذا على الأدب، كما على شتّى مجالات الحياة الإنسانية. فالأدب فنّ يعكس صورة حياة الناس في المجتمع؛ ولهذا نجد الأمراض تستفزّ إبداع الكاتب ليوظّفها في أدبه (شحود: 2020، https://bit.ly/3dgXDW3).

الدراسات السابقة:

دراسة سالم (2020) هدفت الدراسة إلى تناول ما بات يطفو على سطح الساحة الأدبية والنقدية من جديد، وهو ما يسمى ب بمصطلح الأدب الوبائي أو أدب الأوبئة الذي انبرى له الشعراء مسجلين تجارب شعرية مريرة. بدا في

هذه التجارب حجم الفاجعة وقسوة المشهد، وأثر الطواعين في البيئة والمجتمع وقتئذ؛ واصفين حجم المأساة مقدمين واجب المواساة. وقد تناول الباحث شاعرين من هؤلاء الشعراء هما: علي الدرويش (1796م-1853) ونقولا الإسطنبولي (1763م-1828) اللذان قاما في إنتاجهما الشعري بتناول الوباء الذي ضرب البلاد في القرن الثامن عشر الميلادي في تجربة شعرية تستحق الوقوف عليها وتحليلها ومعرفة ما لها وما عليها. وكذلك الوقوف على الفروق لتفقد مسيرتهما ومتابعة سيرتهما؛ تحليلا لما غمض وإظهارا لما خفي؛ إسهاما من الباحث في الإشارة لهذا النوع من الأدب.

دراسة خوري (2020) هدفت الدراسة إلى محاولة الإجابة عن أسئلة كبرى وبخاصة بعد أن جاءت كورونا لتذكر بتاريخ منسي عن علاقة الأوبئة بالتاريخ: هل كانت الأنفلونزا الإسبانية أحد الأسباب غير المباشرة لصعود النازية والعنصرية في ألمانيا؟ وهل يجب قراءة سقوط الإمبراطورية الرومانية بالنظر إلى الطواعين التي ضربتها؟ وما علاقة الأوبئة بالتطور الفكري والفلسفي في العالم؟ فقد احتلت الأوبئة حيزا مهما في المدونة التاريخية من مؤرخي اليونان إلى المؤرخين العرب، وصولا إلى وثيقة دانيال ديفو "يوميات سنة الطاعون" (١٧٢٢) الذي يروي فيها وقائع توثيقية عن أهوال طاعون لندن الكبير في سنة 1665. ونص ديفو الذي اعتبر شهادة شخصية سرعان ما يتكشف أنه عمل متخيل قد يكون مستندا إلى يوميات هنري فو عم المؤلف.

دراسة القرعان (2012) تتناول هذه الدراسة خطاب المرض في السرد العربي الحديث؛ بهدف الوقوف على محمولاته الثقافية والاجتماعية والأيديولوجية. وقد انطلقت الدراسة من التصورات التي أنتجتها الذهنية العربية الإسلامية حوله، فعملت على استقصاء مدونات المرض في الثقافة العربية الإسلامية واستجلاء أهم الأفكار والتصورات التي نسجت حوله. وقد بحثت عنها الباحثة في سرود المرض الأسطورية والنصوص الدينية والتاريخية وبعض المتون الفقهية؛ لغرض الكشف عن الأنساق والقيم الثقافية القارة في تشكل هذا الخطاب في السرد العربي الحديث. وكيف تم تجاوزها عبر ظهور قيم وأنساق ثقافية جديدة تعبر عن انفتاح الخطاب السردي الحديث على الخطاب الطبي الرسمي والمعارف المتعلقة بالجسد والمرض. وعملت الباحثة على قراءة خطاب المرض في السيرة الذاتية باعتبارها تجربة واقعية عايشها الكاتب وغدت خبرة لها أدبيّاتها الخاصة، وعمدت كذلك إلى قراءة خطاب المرض في الرواية من خلال تحليل أهم الرؤى والمجازات والتصورات التي نسجت خطابها المرضي.

دراسة عبد الرحيم (2010) هدفت الدراسة إلى تناول رسالة من الرسائل المهمة وهي رسالة "النبا عن الوبا" لزين الدين ابن الوردي الذي يعدّ من الأدباء العظام في العصر المملوكي الأول. فقد قال الشعر وكتب في فنون النثر المختلفة ومنها فن المقامة والخطابة والرسائل. فالباحث سعى من خلال هذه الدراسة إلى تناول الرسالة من الناحيتين الموضوعية والفنية. فرسالة ابن الوردي كان قد كتبها إبان انتشار مرض الطاعون في بقاع كثيرة من العالم ومنها مدينة الأديب حلب سنة (749هـ) وهو المرض الذي أودى بحياته. وقد أشاد مؤرخو العصر المملوكي ونقاده بهذه الرسالة.

دراسة ماجدولين (2009) تناول فيها الباحث خطاب الألم في الرواية المغربية، ملتفتا إلى محكيات السجن والمرض التي شكل فيها "الألم" نواة مركزية بقدر ما عكست تحولا في نهج تدبر الألم روائيا، وتصوير تفاصيله الخفية وما يتصل به من عوالم سفلية، ويلتبس به من عواطف وأفكار وطيدة الصلة بالتشظي الوجودي للفرد، في صراعه الدائب مع المحيط والجغرافيا والذاكرة ومؤسسات المجتمع والسلطة.

مقالة جابر عصفور (2005) تناول فيها الكاتب تجربة الشاعر المصري حلمي سالم "مدائح جلطة المخ" مأخوذا بأصداء تجربته الخاصة التي خاضها مع جلطة المخ وما تمخض عنها من ألم ومعاناة. حيث يمضي الكاتب مع قصائد ديوان حلمي سالم كما لو كان يستعيد ما مر به عبر موازيات رمزية ومعادلات إبداعية مقرونة بلوازمها من الصور التي تتحدث عن رسم المخ، وعن إمكان شلل نصف الجسم وعن قصبة الساق التي تطير في الفراغ غير بعيدة عن عضلات الذراع المفكوكة والاضطراب الكامل الذي تبعثه الرقيقة التي تبدو كأنها صورة معاصرة من زائرة ليس بها حياء.

دراسة الشيخ (1997) هدفت الدراسة إلى تحليل تجربة المرض كما تتجلى في قصيدة "زنابق" للشاعرة الأمريكية سيلفيا بلاث وقصيدتي الشاعر المصري أمل دنقل "ضد من" و"زهور" من منظور دراسات التوازي في الأدب المقارن الذي لا يتكئ على وجود علاقات التأثر والتأثير مثلما لا يسعى إلى إيجادها. وتخلص الدراسة إلى اكتشاف التماثل في التجربتين نظرا لانبثاقهما من تجربة إنسانية. وقد وضحت الدراسة هذا التماثل كما بيّنت لحظات الاختلاف بالنظر إلى انتماء الشاعرة والشاعر إلى تقليد أدبي مختلف.

أولا: الوباء في الشعر العربي

يعدّ الأدب مرآة تعكس الواقع ويتضح ذلك من خلال مطالعة الشعر الجاهلي الذي يعد أحد أهم المصادر للفترة التي سبقت الإسلام. فكان الشعر ديوانا وكتابا لمفاخر العرب ومآثرهم وسجلا لأيامهم وحروبهم. وقد عني الأدب منذ القدم بالحديث عن المصائب سواء على المستوى الشخصي أو القبلي أو الوطني أو الإنساني. فعلى المستوى الشخصي يرصد الشعر مأساة امرئ القيس فهو مريض ولكن نفسه لا تخرج مرة واحدة بل تموت شيئا بعد شيء. وقد عبر عن ذلك بقوله:

فلو أنها نفس تموت جميعةً ولكنها نفسٌ تساقط أنفسا

وبُدّلت قرحا داميا بعد صحة لعل منايانا تحولن أبؤسا (امرؤ القيس: 1984، ص. 107)

وقد اصطلى الأدباء والشعراء والخطباء بنار الأوبئة حتى صارت جزءا من تراجمهم، فلا يكاد يخلو كتاب في التراجم أو تاريخ الأدب العربي من إشارة خفيفة أو ظاهرة إلى الوباء وما نتج عنه من أسباب أودت بحياة ذاك الأديب أو هذا العالم. وقد أصيب الشاعر أبو ذؤيب الهذلي بنار الوباء فقتل الطاعون خمسة من أبنائه في سنة واحدة فجزع لذلك ورثاهم بقصيدة مشهورة يقول فيها: (الهذلي: 2003، ص. 138-143)

أمن المنون وريبها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع

قالت أميمة ما لجسمك شاحبا منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع

فأجبتها أن ما لجسمي أنه أودى بني من البلاد فودّعوا

أودي بنيّ وأعقبوني غصة بعد الرقاد وعبرة لا تقلع

ولقد حرصت أن أدافع عنهم فإذا المنية أقبلت لا تدفع

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

فالقصيدة مشحونة بمشاعر مختلفة متباينة إزاء هذه الفاجعة التي عاشها أبو ذؤيب. وقد جرت أبيات القصيدة مجرى الحِكم على ألسنة الناس إلى يومنا. وتجسد فاجعة مالك بن الريب مأساة شخصية أخرى فقد هلك في بلاد فارس متأثرا بسم العقرب ونظم قصيدة تعدّ من أعظم المراثي والمآسي حيث يقول فيها: (ابن الريب: 1969، ص. 91-92).

ولما تراءت عند مرو منيتي وخلّ بها جسمي وحانت وفاتيا

أقول لأصحابي ارفعوني فإنه يقرّ بعيني إن سهيل بدا ليا

فيا صاحبيّ رحلي دنا الموت فانزلا برابية إني مقيم لياليا

وقوما إذا ما استل روحي فهيئا لي السدر والأكفان عند فنائيا

وتجرع اللغوي المشهور أبو الأسود الدؤلي مرارة هذه الكأس المترعة بالموت، فمات مصابا بوباء الطاعون سنة 69هـ كما ذُكر في كتاب معجم الأدباء (الحموي: 1993، ص. 1465).

لقد تعرض المجتمع العربي الإسلامي في مصر والشام والعراق والحجاز وغيرها من المناطق في العصر المملوكي إلى نكبات متوالية أثرت سلبا في الأرض والإنسان في ذلك الوقت، وكثرت الأوبئة التي أصابت بلاد المسلمين وأنزلت بهم صنوفا شتى من البلاء وبخاصة مرض الطاعون الذي انتشر غير مرة في مصر والشام في العصر المملوكي وقتل ألوفا من سكانها. وكانت الحروب التي دارت بين المسلمين والمغول من عوامل انتشار هذا المرض (عبد الرحيم: 2010، ص. 1496). فقد ترك المغول مئات آلاف القتلى في بغداد سنة 656 هـ ووقع الوباء فيمن تخلف بعد الواقعة.

كما دفع انتشار الوباء ابن حجر العسقلاني (773-852 هـ) إلى تأليف كتاب سمّاه "بذل الماعون في مرض الطاعون". ويذكر أن الطاعون أصاب ثلاثا من بناته: اثنتين في طاعون سنة 819 هـ وواحدة في طاعون سنة 833 هـ، وربما يكون هذا دافعا لتصنيف الكتاب (العسقلاني: 1411 هـ، ص. 9) الذي تحدث فيه عن الوباء وأحوال الناس المصابين به.

وقد واكب الأدب العربي شعرا ونثرا هذا الحدث العظيم فذكر المؤرخون أن الشعر في هذا كثير كما يقول ابن تغري بردي (813-852 هـ): "وقد أكثر الناس ذكر هذا الوباء في أشعارهم"(ابن تغري: 1992، ص. 166)، وقال المقريزي (764-845 هـ): "وقد أكثر الناس من ذكره في أشعارهم"(المقريزي: 1970، ص. 787)، وقال السخاوي (831-902 هـ): "وأكثر الشعراء وغيرهم في ذكره"(السخاوي: 1995، ص. 35) وأورد ابن حجر في كتابه "بذل الماعون" مقامة لابن الوردي عن الطاعون سمّاها: "رسالة النبا عن الوبا" تناول فيها تاريخ ما سمّاه "طاعون الأنساب" الذي استشرى عام 749هـ (العسقلاني: 1411 هـ، ص. 371)

وقد اتكأ ابن الوردي في حديثه عن الطاعون والوباء على السخرية أو ما يعرف بالكوميديا السوداء، سخرية ترسم الواقع كما هو وكما تراه عينه هو لا غيره. فسخرية ابن الوردي في مقامته سخرية شاملة حيث تراه يسخر من الشعر ونصوصه والنثر ودروسه والمرض والأماكن والبلدان والسياسة وأصحابها. فهي كوميديا سوداء تبكينا بقدر أو

يزيد عما تضحكنا وتلطمنا بقدر ما تمسح عن وجناتنا الدموع المتحدرة من عيوننا جراء هذا اللطم فهي تجمع بين الشيء ومقابله وتلك هي المأساة! (السيد: 2020، ص. 181).

قدمت رسالة ابن الوردي صورة مفصلة عن انتشار الوباء في حلب وعن حال أهل هذه المدينة المنكوبة. فهي وثيقة تاريخية واجتماعية كتبها أديب عايش الحدث واكتوى بناره فرسم صورة واقعية لمدينة حلب إبان انتشار الطاعون فيها. فالرسالة تقدم صورة للمدينة الإسلامية المنكوبة في ذلك العصر.

وصف ابن الوردي أعراض هذا الوباء بقوله: "وقتل خلق ببثرة، ومنها ومن الأقدار أنه يتتبع أهل الدار، فمتى بصق أحد منهم دما تحققوا كلهم عدما ثم يسكن الباصق الأجداث بعد ليلتين أو ثلاث"(العسقلاني: 1411 هـ، ص. 375). وعبّر عن ذلك شعرا بقوله: (ابن الوردي: 1986، ص.87)

سألت باري النّسمْ في دفع طاعون صدمْ

فمن أحسّ بلْعَ دمٍ فقد أحسّ بالعدمْ

ولا تمدنا المصادر بمعلومات كافية عن كيفية توقف هذا الوباء. واعتبره ابن الوردي عقابا من الله تعالى على كثرة الخطايا وحياة الانحراف التي كان يعيشها المسلمون في ذلك الوقت فقال: "فنستغفر الله تعالى من هوى النفوس فهذا بعض عقابه، ونعود برضاه من سخطه، وبمعافاته من عذابه" (العسقلاني: 1411 هـ، ص. 377).

قالوا: فساد الهواء فيردي فقلت: يردي هوى الفساد

كم سيئات وكم خطايا نادى عليكم بها المنادي (ابن الوردي: 1986، ص. 87)

وبين ابن الوردي أن الطاعون ما إن وصل إلى حلب حتى فقد كثيرا من تأثيره فكان "أخف وطأة"، ورغم ذلك فقد خلف آثارا كارثية هناك فقال: (ابن الوردي: 1986، ص. 90)

إن الوبا قد غلبا وقد بدا في حلبا

قالوا: له على الورى كافٌ ورا، قلت: وبا

لكنه وصف حال المدينة مع الموت الجارف بقوله: (العسقلاني: 1411 هـ، ص. 376).

اسودّت الشهباء في عيني من رممٍ وغش

كانت بنو نعشٍ بها أن يلحقوا ببنات نعش

فالنعوش ملأت المكان وصارت المدينة أشبه بمقبرة وكثر استغلال الجنائزية للموقف حيث يقول: "ولو شاهدت كثرة النعوش وحملة الموتى وسمعت في كل قطر من حلب نحيبا وصوتا لوليت منهم فرارا ولأبيت فيهم قرارا فلقد كثرت فيها أرزاق الجنائزية فلا رزقوا وهم يلهون ويلعبون ويتقاعدون على الزبون" (العسقلاني: 1411 هـ، ص. 376)، ثم بين في أبيات شعرية قوة تأثير الطاعون، وأنه لن ينجو بشر منه إلا برحمة الله تعالى، فقال: (ابن الوردي: 1986، ص. 94)

ألا إن هذا الوبا قد سبا وقد كاد يرسل طوفانه

"فلا عاصم اليوم من أمره" سوى رحمة الله سبحانه

ووصف حال أهل حلب بقوله: (ابن الوردي: 1986، ص. 94)

فهذا يوصي بأولاد وهذا يودع جيرانه

وهذا يهيئ أشغاله وهذا يجهز أكفانه

وهذا يصالح أعداءه وهذا يلاطف إخوانه

وهذا يوسع إنفاقه وهذا يخالل من خانه

وهذا يحبّس أمواله وهذا يحرر غلمانه

وهذا يغير أخلاقه وهذا يعيّر ميزانه

وقد رسم ابن الوردي في رسالته صورة لنفوس الناس في حلب في تلك الفترة العصيبة التي شعروا فيها بدنو أجلهم، واقترابهم من لقاء وجه الله الكريم فأخذوا يتوبون عن معاصيهم ويعودون إلى الله تعالى ويعملون الصالحات. وجعل الأديب هذه الأمور من النتائج الإيجابية لهذا المرض كما يبدو في قوله: "ومن فوائده تقصير الآمال وتحسين الأعمال واليقظة من الغفلة والتزود للرحلة" (ابن الوردي: 1986، ص 90).

وقد عبر في غير موضع من رسالته عن رأيه في الواقع السياسي والاجتماعي في بعض البلدان الإسلامية، ولجأ إلى أسلوبي النقد والتجريح. فالأبيات السابقة تقف على جانب من الحياة الاجتماعية في حلب في العصر المملوكي الأول وتُبيّن جانبا من المفاسد التي كان عليها المسلمون في ذلك الوقت.

ترك هذا الوباء أثرا كبيرا في نفوس شعراء غير ابن الوردي ومنهم الشاعر الصلاح خليل بن أيبك الصفدي (-696 764هـ) صاحب كتاب "التاريخ الكبير الوافي بالوفيات" (ابن حجر: 1997، ص.49-50) الذي عبر عن الوباء وما خلفه من مآس في غزة وبيروت وعامة الشام سنة 749 هـ بقوله: (الصفدي: 2007، ص. 112)

قد قلت الطاعون وهو بغزة قد جال من قطيا إلى بيروت

أخليت أرض الشام من سكانها وحكمت يا طاعون بالطاغوت

ومن أبلغ ما قاله في الطاعون الذي فتك به لاحقاً بعد أن فتك بجماعة من أصحابه، فقدم صورة مختلفة للمرض تدل على سرعة فتكه بالناس، حيث صور الطاعون بالوحش المفترس الذي ينقض على فريسته على حين غرة فيقتلها. فعام 749 هـ لم يكن عاما عاديا بل كان عام الموت الذي ينقض فيه الموت على الناس مسرعا كما ينقض السبع على فريسته حيث عبر عن ذلك بقوله: (الصفدي: 2007، ص. 113).

لما افترست صحابي يا عام تسع وأربعينا

ما كنت والله تسعة بل كنت سبعة يقينا

وقال ابن أبي حجلة (725- 766 ه): (السخاوي: 1995، ص. 99).

أرى الطاعون يفتك في البرايا ويطعن طعن أرباب الحراب

وينشد عند هدم العمر منا لدوا للموت وابنوا للخراب

أما في العصر الحديث فقد ظهرت نماذج شعرية عديدة جسدت الوباء ومنها: قصيدة الكوليرا للشاعرة العراقية نازك الملائكة التي نظمتها عندما كانت تستمع لمآسي الكوليرا في مصر عام 1947 وكأنها تسمع صوت عجلات العربات التي تنقل جثث الموتى "فانبثقت القصيدة الجديدة بإيقاعها الذي تحسس صوت أقدام الخيل" (خوري: 2020، ص. 149) وتقول فيها:

سكن الليل

أصغ إلى وقع صدى الأنّات

في عمق الظلمة تحت الصمت على الأموات

في كل مكان يبكي صوت

هذا قد مزّقه الموت

الموت الموت الموت

ثانيا: الوباء في فن الرواية

اهتم الأدب بشقه النثري كما الشعري بتجربة المرض وربما كان النثر أكثر اهتماما، حيث يمكن النظر إليه بوصفه القالب أو الشكل الأمثل لتجسيدها وتمثيلها؛ لما يتيحه المتن السردي كالرواية من مساحة تمكن الكاتب من التقاط تفاصيل هذه التجربة والخوض في تداعياتها النفسية والاجتماعية والجسدية. ومن جهة أخرى فإن هذه التجربة تنزع على نحو ما إلى تشكيل قصة أو حكاية تنطوي على خبرة إنسانية، وترتبط بجملة من التصورات والمجازات والأفكار تنفتح - بدورها - على محددات وأنساق ثقافية وشعبية أسهمت إلى حد كبير في صياغة مفهوم المرض وتأويله؛ بغية اكتشاف معناه الإنساني الحميم. ذلك أن المرض بقدر ما هو حادث فسيولوجي هو في الوقت ذاته ينتمي إلى الأشكال الأولى للحدث (الولادة / الموت)، ما جعل كل المجتمعات والثقافات تقبل على تأويله وتحديد معانيه الإنسانية لما يحمله من رهانات رمزية تتجاوز أبعاده البيولوجية، وتضفي شرعية ما على وجوده الاجتماعي. (القرعان: 2012، ص. 1)

وقد أدى ذلك كله إلى اهتمام الروائيين العرب بتجسيده، وسبر دلالاته ومحمولاتها الثقافية والرمزية وتمثيله جسديا واجتماعيا. وظهر ذلك جليا في عدد وفير من الأعمال السردية الروائية على امتداد التجربة الإبداعية العربية منذ ظهور رواية "زينب" التي ماتت بطلتها في نهاية العمل مسلولة، وكذلك الأمر في سيرة طه حسين "الأيام" التي يرسم فيها المرض قدر شخصية صاحبها (القرعان: 2012، ص. 1)

وتمثل موضوعة المرض في الرواية العربية إحدى مقولاتها الفكرية والثقافية، ويستبطن الروائي عبرها مأساة الإنسان الوجودية في صراعه مع القوى السالبة في الحياة التي تحول دون استمتاعه بالعيش. وقد يمثل المرض -أحيانا-

لحظة بينية بين الحياة والموت أو التلاشي. لذلك يمكن النظر إلى الرواية بما تمتلكه من قدرة على اختراق هذه اللحظة الفارقة والوقوف عند تخوم الألم وصياغته بوصفها إنضاجا لتجربة الذات في ذروة تأزمها أنها قادرة على عكس الخلل في التوازن بين مكنونات الجسد والوعي والوجدان. ومحاولة فهم ماهية الذات وآلامها لتحويله إلى وعي يفارق العلة الغامضة إلى عمقها القيمي وبعدها الإنساني الخفي، ثم التشوف إلى الارتقاء بها من قاعدة الألم الموضوعي إلى صورة مفارقة تكسب الخطاب تكوينا ذهنيا وثقافيا يحمل وظائف وسمات، ويولد معجما وينشئ بلاغة من الإمكانات الماتعة للتخييل الروائي (ماجدولين: 2009، https://bit.ly/3w32dh5) التي يمكن أن نطلق عليها شعرية المرض - بحسب جابر عصفور- وهي التسمية التي أطلقها على الأعمال الإبداعية التي تتخذ من المرض موضوعا لها منتجة خصائص جمالية تميزها؛ فتغدو نوعا من التقاليد التي يتخلل ثناياها. يمكن استخلاصها من الإبداعات التي تبدأ بالمرض أو تنتهي به أو واصفة إياه ومراقبة أعراضه ومحللة المشاعر والانفعالات الناشئة عنه، راصدة استجابات النفس وخلجاتها في عراكها معه (عصفور: 2009، ص. 235).

ومن أهم الأعمال الروائية التي جسدت وباء الطاعون رواية نجيب محفوظ "ملحمة الحرافيش" التي تجسد نموذجا للروايات التي تتخذ من الوباء خلفية لها، إذ غالبا ما يحتفظ الوباء بطريقة ظهور معينة، فهو يأتي بغتة ثم يمتد، وينشر هلعا فرديا وجماعيا، ويطال الخراب والدمار المكان الذي يظهر فيه، ويحاول الكتاب أن يطرحوا عبره قضية فساد الأخلاق والحياة الاجتماعية، بحيث يصبح الوباء وسيلة أخلاقية ونفسية؛ لتعرية السلوك والمعتقدات الدينية، وإدانة الظلم الاجتماعي (هنري: 1997، ص. 130).

يأخذ الوباء في "ملحمة الحرافيش" دلالات وأبعادا رمزية متعددة، فهو يستحضر الطوفان الذي أرسله الله سبحانه وتعالى إلى الأرض زمن سيدنا نوح عليه السلام عقابا لقومه على طغيانهم وتكذيبهم لدعوته. ويذكرنا موقف أبناء عاشور الناجي بطل الرواية -عندما دعاهم إلى الخروج معه-بموقف ابن نوح عليه السلام الذي طلب منه نوح أن يصعد على ظهر السفينة فرفض قائلا: "سآوي إلى جبل يعصمني من الماء" (القرآن الكريم: سورة هود، آية 43)، ومن جهة أخرى فإن محفوظ يستدعي واقعة تاريخية بعينها وهي انتشار الطاعون في القرن الثامن عشر إبان العصر المملوكي الذي استحضرته الرواية.

ويقف المتلقي في رواية "تغريبة بني حتحوت" لمجيد طوبيا على وصف وباء الطاعون الذي ضرب مصر أيام المماليك وما خلفه من موت في القرن الثامن عشر وسمي بطاعون إسماعيل والي مصر آنذاك؛ لأنه مات فيه ومات بعده ثلاثة ولاة تباعا في جمعة واحدة. فالرواية تشير إلى أن خبر تفشي الطاعون وصل إلى مرسي وهو متوجه بصحبة أخيه حتحوت إلى مصر في إشارة إلى بداية تحقق نبوءة العرافة لأم الخير عندما حملت بحتحوت حين قالت لها عن الولد الذي ستضعه: "سيسيح في أرض الله يكابد ويعاني تغريبته في بلاد الناس تطول عدة أعوام، ينزل شمالا فيجد قتالا ونزالا ويرى الأحوال وانقلاب الأحوال حيث يتسلطن الفأر على القط ويركع الأسد للقرد ثم يصعد جنوبا فيعاشر السباع ويسبح بين التماسيح لكنه ينجو بإذن الله"(طوبيا: 1988، ص. 40).

وقد تحققت أولى بوادر تلك النبوءة بتفشي الطاعون في مصر حين سافر حتحوت بصحبة أخيه مرسي إلى الشمال وهو ما زال في مقتبل عمره. فقد ورد في الرواية ما نصه "ولأجل أن يتم المكتوب جاءت الأخبار بتفشي الطاعون

في مدينة مصر، وبقفل أبوابها وأسواقها، وبموت العشرات ثم المئات ثم الآلاف، وبموت إسماعيل بك شيخ البلد ذاته، وبموت من حل مكانه، وبتغير الحكام ثلاث مرات في جمعة واحدة لموتهم تباعا بالكبة" (طوبيا: 1988، ص. 109).

وعندما دخل مرسي يرافقه حتحوت وجد المدينة مختلفة تماما، فشاهد الحزن في وجوه الرجال ووجد النساء في حداد وبيوتا كثيرة مقفلة لموت أهلها بالوباء (طوبيا: 1988، ص. 114). وكان ممن تعرض لهذه المحنة سالم مدكور الزيات الذي مات ابنه بالطاعون وهو أحد التجار الذين كان مرسي ينقل إليهم البضاعة بمركبه. وقد روى لمرسي ما حل بالمدينة من موت وهلاك بسبب الطاعون، وكان يعتقد جازما أن الطاعون الذي تفشى في البلاد، وما نتج عنه من ويلات وبلاء إنما بسبب فجور القوم وفسقهم وإمعانهم في الفساد والظلم فعمهم الله بالسخط والعذاب بعد أن بعث إليهم إشارة من السماء تمثلت بهطول أمطار غزيرة هدمت الترب وخسفت القبور وأغرقت الوكالات وقتلت أناسا كثيرين. يقول: "ثم زالت الغمة لكنها كانت علامة من السماء عن غضب الله من فجور القوم، فلما لم يتعظ أحد بدأ ظهور الطاعون، وزاد أمره بانتشار الفئران بالمئات في الغيطان (طوبيا: 1988، ص. 117). وقدم الزيات وصفا مرعبا للطاعون وهو يمارس سلطته اللانهائية يضرب يمينا وشمالا ويحصد البشر غير مفرق بين غني وفقير وطفل وشيخ ودميم وقبيح. وبعد موت إسماعيل بك والأمراء أعلنت التوبة والإقلاع عن المظالم ولكن عندما زالت الغمة وانحسر الوباء وكان ذلك في مطلع رمضان، عاد القوم إلى سيرتهم القديمة.

وينبغي القول: إن الوباء في هذا العمل لم يظهر باعتباره إحدى الثيمات الأساسية التي انبنى عليها العمل كما في "ملحمة الحرافيش" الذي كان محركا رئيسا لأحداثها وأمثولاتها الوعظية. فهو يمر مرورا يسيرا ولم تظهر آثاره إلا في لمحات سريعة بغرض إضفاء طابع درامي على الأحداث عبر قصة الزيات وابنه الذي مات في الطاعون، وكذلك الإفصاح عن الزمن الروائي الذي جرت فيه الأحداث كنوع من المهاد الفني التاريخي الذي يضيء العمل أمام القارئ. ولذلك، فإن قيمة الوباء في هذا العمل نابعة من بعده وخلفيته التاريخية بطريقة غدا فيها الوباء في تضاعيف العمل المتخيل وسيلة سعى الكاتب عبرها إلى ردم الفجوات التاريخية، وملء ثغراتها وإضاءة الزاوية المعتمة في الحدث التاريخي.

ومن الروايات التي عالجت الوباء أيضا "رواية إيبولا 76 "للروائي السوداني تاج السر. وتدور أحداثها حول الحمى النزيفية التي يسببها فيروس إيبولا. ويصف الروائي فيها وباء إيبولا الذي ضرب الكونغو وامتد إلى مدينة أنزارا في جنوب السودان. فالكاتب يأخذ قرّاءه في مسيرة مع هذا الوحش الكاسر إيبولا الذي صوّره كشبح رجل يتحرك في الخفاء، ولكن خفاءه لا ينفي أبدا حضوره الذي يفتك بالناس من حوله. فهو يتكلم ويخطط ويقرر أن يقتل وأن يصيب كما يقرر أن يترك (حسني: 2020، https://bit.ly/3wkdKtx).

تقدم الرواية صورة بانورامية لمسار الوباء الذي انتقل من عاهرة في كينشاسا إلى جسد لويس نوا، العامل في مصنع النسيج في مدينة أنزارا التي احتلها الموت "تتبع إيبولا القاتل لويس نوا ظُهْر ذلك اليوم الحار من شهر أغسطس عام 1976 وهو يتحرّق شوقًا ليسكن دمه" (تاج السر: 2012، ص 4). وللسخرية فإن فيروس المرض لا يقضي على العامل بقدر ما يتخذ من جسده جسرا يعبر به نحو السودان. فالرواية تتبع حركة الوباء الذي يحوم حول ضحاياه من الناس.

لقد تجسّدت في الرواية وحشية المرض وتفاصيل إيلامه للجسد وأعراضه التي تنتشر سريعة ببراعة، كما تناولت هذه الرواية شكل المجتمع أثناء أزمه الوباء وأوضحت لنا العديد من المظاهر التي تكاد تكون نمطًا متكررًا في المجتمعات الإنسانية في أوقات الأمراض وتفشي الأوبئة.

ثالثا: دلالة الوباء في المخيلة العربية

ترسخ في المخيلة الإنسانية فكرة مفادها أن الأوبئة عقوبة وعذاب وابتلاء يرسلها الله إلى الناس؛ بسبب غلوهم في الفسق والفجور وانتهاك المحرمات. ولذلك تذهب عنهم الحماية الإلهية ويتعرضون لغضبه وسخطه وتحل عليهم لعنته. ولعل أقدم توظيفات الوباء المبنية على هذا التصور ما نعثر عليه في مسرحية سوفيكلس "أوديب ملكا" حيث ينزل الوباء على أهل طيبة حتى يكاد يفتك بأهلها ويحولها إلى خراب. ويتبين أن هذا الوباء الذي حل بالمدينة ما هو إلا عقوبة لأهلها على ما اقترفه ملكها من خطيئة عندما قتل أباه وتزوج أمه منتهكا بذلك المحرمات. ولقد أخبرتهم الإلهة أن هذا البلاء لن يزول إلا بإيجاد القائل والقصاص منه.

ولعل من أهم الأوبئة التي جسدت الهلع والرعب البشري وباء الطاعون الذي ضرب المجتمعات الإنسانية بقوة، إذ أطلق عليه "الموت الأسود" واعتقد الناس أن غضب الله وحده هو القادر على نشر هذا المرض. وقد رأى المقريزي وغيره أن أسباب الوباء تعود إلى البعد عن الدين والأخلاق الحميدة فوجه النقد إلى بعض السلوكات السلبية التي كان الناس يقومون بها؛ ما جلب عليهم وعلى غيرهم الوباء حيث يقول: "هذه سنة الله تعالى في الخلق إذا خالفوا أمره وأتوا محارمه، أن تصيبهم بذلك جزاء ما كسبت أيديهم" (المقريزي: 2007، ص. 115). ويرى الصفدي أن الناس كانوا في غفلة من أمرهم ولذلك حق عليهم ما حل بهم فيقول: (الصفدي: 2007، ص. 114)

رعى الرحمن دهرا قد تولى يجازي بالسلامة كل شرط
وكان الناس في غفلات أمر فجا طاعونهم من تحت إبط

وقد عبّر البوصيري عن غضب الله على الناس حينما لم يحسنوا في سلوكياتهم وأخلاقهم، فأساؤوا بذلك لدين الله تعالى ونبيه الكريم، فاستحقوا بذلك غضب الله، فيقول: (البوصيري: 2007، ص. 86).

ولما أساء الناس جيرة ربهم ولم يرعها منهم رئيس ولا وغد
أرى لهم مقاما ليس يرعى لجاره ذمام ولم يحفظ لساكنه عهد

فالسبب في الكوارث التي تحل بالناس هو إقبال الناس على الشهوات رغم خوفهم من الموت، كما يقول ابن إياس عن الطاعون الذي أصاب الناس عام 749 هـ: (ابن إياس: 1982، ص.532)

تروعنا الجنائز مقبلات ونلهو حين تذهب مدبرات

ولا تقتصر المعصية على عامة الناس بل كان كثير من الساسة يظلمون ويسيئون إلى عامة الناس؛ ولذلك حق عليهم غضب الله تعالى فبعض البلاد اشتهرت بظلم حكامها ومنها معرة النعمان التي أشار إليها ابن الوردي بقوله: (ابن الوردي: 1986، ص.89)

رأى المعرة عينا زانها حور لكن حاجبها بالجور مقرون

ما الذي يصنع الطاعون في بلد في كل يوم له بالظلم طاعون

جدير بالذكر أن ابن الوردي قال هذين البيتين في الطاعون الذي حدث عام 749 هـ، ولم يكن الطاعون حينها قد دخل معرة النعمان. فإذا كان الطاعون -بحسب ابن الوردي-يأتي على الناس ويتسلط عليهم ويفتك بهم فيكفي هذا البلد ما بها من ظلم واقع عليها فهو كالطاعون الدائم الجاثم على صدورهم.

خاتمة:

تساوق ظهور المرض في السرد العربي الحديث مع ظهوره في الشعر، فظهرت نماذج شعرية عديدة جسدت الإصابة بالمرض باعتباره أحد الخبرات الإنسانية التي يجلو فيها الشاعر أحاسيسه ومشاعره ورؤيته للحياة في لحظة فارقة من حياته. وإذا كانت قد ظهرت في الشعر العربي الحديث صور متعددة لما يسمى شعرية المرض، فإن هناك تجليات متعددة لصورة المرض في الرواية العربية الحديثة وفي أجيال مختلفة عبّرت عن آلامه بلغة فيها من التحدي والمواجهة بقدر ما فيها من شجن وألم وإحساس بالنهاية.

فالرواية العربية تعبر عن المكان والزمان والذات في تجلياتها المختلفة في أفراحها وأحزانها وآلامها وأمراضها. وهي -كما يرى الروائي محمد جبريل-كانت دائما ومنذ بداياتها الأولى تعبيرا واضحا عن الحياة اليومية للمواطن العربي وبطرق مختلفة، فهي نتاج خبرات يجمعها الكاتب من رؤيته المتأنية للواقع الذي يعيشه (الخليج: 2019، https://bit.ly/3zmdEn2). وقد عبرت بعض الأعمال الإبداعية في مجال الرواية عن آلام المرض وتأثيرها في الشخصية. فالأدب حينما ينظر إلى الواقع يعيده خلقا آخر، فإذا أردتَ أن تفهم الحياة فانظر في الأدب وإذا أردت أن تفهم الإنسان فانظر في الأدب فهما الوجهان لعملة الإنسان.

يعبر الإنسان من خلال الأدب عمّا يدور في نفسه من خلجات إزاء الجمال والعاطفة والخيال. فالأدب ضرب من ضروب الفنّ الإبداعيّ، أما الوباء فحزن ومرض يتعلّق بقلب الإنسان وكينونته. ولذلك ترتبط بعض الأعمال الأدبية بالأوبئة التي شهدتها البشرية من خلال كون الأدب تعبير عن حركة الحياة في مختلف الأوقات سواء في الماضي والحاضر والمستقبل.

خلق الأدب الإنساني تراكما إبداعيا سواء شعرا أو سردا من النصوص التي تناولت موضوع الأوبئة ولذلك صنّف مؤرخو الأدب هذه الأعمال ضمن ما أسموه أدب الأوبئة، الذي يرجع عمليّا إلى تفشّي عدد من الأوبئة على مرّ العصور وأثرها في السّرد الغربي. فكان من الطبيعي أن ينعكس هذا على الأدب كما على شتّى مجالات الحياة الإنسانية. فالأدب فنّ يعكس صورة حياة الناس في المجتمع، ولهذا نجد الأمراض تستفزّ إبداع الكاتب ليوظّفها في أدبه.

لقد تجسّدت في هذه الكتابات وحشية المرض وتفاصيل ما يصيب الجسد والأعراض التي تنتشر سريعا. كما تناولت الكتابات شكل المجتمع أثناء أزمه الوباء وأوضحت العديد من المظاهر التي تكاد تكون نمطا متكررا في المجتمعات الإنسانية في أوقات الأمراض وتفشي الأوبئة.

ولا بد من القول: إن الحديث عن المرض في هذه الكتابات لم يكن -دائما -هدفا في ذاته وإنما جاء في بعض الأعمال كأداة أو وسيلة تم توظيفها للتعبير عن بعض القضايا الفكرية والثقافية والاجتماعية التي تشغل الكاتب. فليس غريبا على الأدب أن يواكب الظرف ولا يغض الطرف فهو مرآة صادقة وعاكسة لما يدور حوله يسجل الأحداث ويوثقها ويبين أسبابها ويوضح تداعياتها في أحيان كثيرة.

أهم النتائج:

- ✓ واكب الأدب العربي بشقيه الشعري والنثري الأوبئة التي حلت بهم.
- ✓ أصابت الأوبئة عددا كبيرا من الأدباء والشعراء ما جعل ذلك حافزا لهم على الكتابة.
- ✓ اهتم الأدباء والشعراء بالوباء باعتباره تجربة عايشوها وكابدوا آلامها وأوجاعها.
- ✓ لم يكن الحديث عن الوباء في الأعمال الأدبية هدفا لذاته وإنما كان أداة للتعبير عن بعض آرائه ورؤاه وطروحاته سواء كانت فلسفية أو اجتماعية.

قائمة المراجع:

1) القرآن الكريم.

2) ابن الريب، مالك (1969): ديوان مالك بن الريب حياته وشعره، مج 15، ج 1، تحقيق، نوري حمودي القيسي، معهد المخطوطات العربية، لمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم -معهد المخطوطات العربية، مصر.

3) ابن الوردي، زين الدين (1970): تتمة المختصر في أخبار البشر، مج 2، تحقيق، أحمد البدراوي، دار المعرفة، بيروت.

4) ابن الوردي، زين الدين (1986): الديوان، تحقيق، أحمد فوزي، دار القلم، الكويت.

5) ابن إياس، محمد بن الحنفي (1982): بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج 2، تحقيق، محمد مصطفي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.

6) امرؤ القيس، جندح بن حجر (1984): ديوان امرؤ القيس، ط 4، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر.

7) باجو، دانييل هنري (1997): الأدب العام والأدب المقارن، تر، غسان السيد، اتحاد الكتاب العرب، دمشق.

8) البوصيري، محمد بن سعيد (207)، الديوان، دار المعرفة، بيروت.

9) تاج السر، أمير (2012): إيبولا 76، ط 2، دار الساقي، بيروت.

10) حسني، آية "قصة حياة قاتل مراجعة رواية إيبولا 76-لأمير تاج السر"، الموقع الإلكتروني: زد، https://bit.ly/3wkdKtx

11) الحموي، ياقوت (1993): معجم الأدباء، تحقيق، إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

12) الخليج "السرد يواجه الألم"، الموقع الالكتروني: https://bit.ly/3zmdEn2

13) خوري، إلياس (2020): "الأدب في زمن الوباء" مجلة الدراسات الفلسطينية، ع 123، مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

14) سالم، السيد محمد (2020): "أدبيات الوباء في الخطاب الشعري الواقع والأثر"، مجلة الرسالة، ع 4، كلية المعرفة الإسلامية وعلوم الإنسان، الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا.

15) السخاوي، شمس الدين (1995): وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، ج 1، تحقيق، بشار معروف، وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت.

16) الصفدي، خليل بن أيبك (2007): ألحان السواجع بين البادئ والمُراجع، ج 1، تحقيق، محمد عايش، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

17) طوبيا، مجيد (1988): تغريبة بني حتحوت، دار الشروق، القاهرة.

18) عبد الرحيم، رائد، (2010): "رسالة "النبا عن الوبا" لزين الدين بن الوردي ت 749 هـ دراسة نقدية" مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)، مج 24 (5)، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين.

19) العسقلاني، الحافظ بن حجر (1411هـ): بذل الماعون في فضل الطاعون، تحقيق أحمد عصام الكاتب، دار العاصمة، الرياض، السعودية.

20) عصفور، جابر (2009): في محبة الشعر، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة.

21) القرعان، فاطمة يوسف (2012): خطاب المرض في السرد العربي الحديث السيرة والرواية، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

22) ماجدولين، شرف الدين "خطاب الألم في الرواية المغربية الآن"، الموقع الالكتروني: مجلة نزوى: https://bit.ly/3w32dh5

23) المقريزي، تقي الدين (1970): السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 2، تصحيح وحواشي، محمد زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1970.

24) المقريزي، تقي الدين (2007): إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق، كرم فرحات، عين للدراسات، القاهرة.

25) الهذلي، أبو ذؤيب (2003): ديوان أبي ذؤيب الهذلي، تحقيق وشرح، أنطونيوس بطرس، دار صادر، بيروت، لبنان.

قراءة في وباء قرطاج 396 ق.م من خلال كتاب ديودروس الصقلي

A reading of the plague of Carthage 396 BC through the book of Diodorus of Sicily

د. تلي محمد العيد

ط.د. رزوق نجاة

Dr. Telli Mohammed laid

PhD. Rezzoug Nadjat

جامعة الوادي/ الجزائر

University of Eloued / Algeria

الملخص:

جاء على لسان ديودور الصقلي عند سرده للصراع القرطاجي الإغريقي في كتابه المكتبة التاريخية إشارات لإصابة القرطاجيين بالوباء بصقلية سنة 396 ق.م، خلال حصار هملكون لمدينة سيراكوزة، مشيرا لهلاك أكثر من نصف جيشهم. وحتى بوصولهم إلى بلاد المغرب القديم استمر الوباء في الانتشار أيضا، وتم القضاء على أعداد كبيرة من القرطاجيين أنفسهم وحلفائهم، وقد قدم ديودور الصقلي شذرات تبين أسباب هذا الوباء كان أولها حسب رأيه غضب الآلهة والثاني عسكري والثالث علمي، لذلك جاءت هذه الورقة البحثية بغرض قراءة كل سبب على حدا، في محاولة منا لفهم فكر ديودور الصقلي ومعرفة السبب الجوهري وراء هذا الوباء.

الكلمات المفتاحية: الوباء، قرطاج، سيراكوزة، ديودورس الصقلي، المكتبة التاريخية.

Abstract:

In his book, The Historical Library, Diodorus Sicilian mentioned the Greek Carthaginian conflict in Sicily in the year 396 BC, during the siege of Hamilcon, indicating the destruction of more than half of their army. Even with their arrival in the ancient Maghreb, the epidemic continued to spread as well, and large numbers of the Carthaginians themselves and their allies were eliminated, and Diodore Sicilian presented fragments showing the causes of this epidemic, the first of which, according to his opinion, was the wrath of the gods, the second military, and the third scientific, so this research paper came with the purpose of reading all A reason alone, in an attempt to understand the thought of Diodorus Sicilian and to know the root cause behind this epidemic .

Keywords: Pestilence, Carthage, Syracuse, Diodorus of Sicily, Historical Library.

مقدمة:

انطلق النزاع بين قرطاج واليونانيين الغربيين سنة 480 ق.م ليتواصل بصفة متقطعة على امتداد قرنين كاملين إلى حدود سنة 275 ق.م، ومن الظواهر التي برزت خلال هذا الصراع الأزمات الصحية التي كان يتعرض لها الجنود وكان لها التأثير الواضح في ميادين القتال من حيث تحويل الانتصارات إلى هزائم، ومن ذلك صراع القرطاجيين مع طاغية سيراكوزة ديونيسيوس، الذي استغل تفشي الوباء بين جندهم وحقق انتصاره عليهم 396 ق.م، رواية ديودور هي الوحيدة التي تصف هذا المرض بحيث يتحدث عن انتشار مرض معدي في المعسكر مشيرا لهلاك أكثر من نصف الجيش وبوصولهم إلى ليبيا استمر هذا الوباء بحصدهم وحلفاءهم. وقد قدم لنا في كتابه المكتبة التاريخية اشارات لهذا الوباء وأسبابه حينما كان يسرد أحداث هذا الصراع ومخلفاته إذ قدم أسباب ميتافيزيقية وعسكرية وأخرى علمية، وقد جاءت هذه الدراسة بهدف تقديم تحليل منهجي لأعراض هذا الوباء، وفقا لما قدمه ديودور، وعليه جاءت اشكالية الموضوع: **كيف يمكننا قراءة ما قدمه ديودور حول هذا الوباء بصورة تاريخية موضوعية؟.**

أولا: تعريف ديودور الصقلي ومؤلفه:

مؤرخ إغريقي من أصل صقلي، عاش في القرن الأول 80-30 ق.م، عاصر يوليوس قيصر وأغسطس، مصنفه الرئيسي المكتبة التاريخية الذي ينتهي زمن سردياته إلى سنة 60 ق.م، معتمدا على هيرودوت بشكل أساسي، زار مصر وكتب عنها من النواحي الدينية والتاريخية والجغرافية والاقتصادية والطبيعية، وتحدث في ما يعرف بالكتاب الثالث عن ليبيا وقبائلها وظواهرها الطبيعية، وكان ميالا إلى إيراد كل ما هو طريف وغريب، ولا تخلوا كتابته من النقل والتكرار (عبد المنعم المحجوب، 2017، صفحة 170)، وقد أورد معلوماته على قرطاج في الأجزاء 18- 19-20 (أحمد الفرجاوي، 1993، صفحة 35).

يتحدث ديودور منذ البداية عن نشاط قرطاج في إنشاء المستعمرات فيذكر تأسيسها ل إيبيزا شرقي إسبانيا في القرن السابع قبل الميلاد (H. Donald, 1963, p. 58)، تلك المستعمرة التي أمنت لقرطاج ميناء ما بين سردينيا وإسبانيا، ونفوذا في البليار ولابد من علاقة بين ميناء ماغون والاسم القرطاجي ماغون (محمد أبو المحاسن عصفور، 1981، صفحة 72).

ويتحدث ديودور الصقلي في تاريخه عن حملة أجاثوكليس على قرطاج بإسهاب لا سيما في وصف حياة المدينة. أما عن تفاصيل الحملة فقد ذكر ديودور تحالف ملك لوبي اسمه إيلماس مع أجاثوكليس لكنه أي الصقلي لم يقدم معلومات حول هذا الملك اللوبي (محمد أبو المحاسن عصفور، 1981، صفحة 72).

ويذكر الصقلي أيضا أن فرق أجاثوكليس وحين حلت في الوطن القبلي وجدت الريف مكتظا بالمساكن ولاحظت اهتماما بتربية الماشية وجمع الكرمة والزيتون (محمد أبو المحاسن عصفور، 1981، صفحة 127)، (H. Donald, 1963, p. 129). وللصقلي وصف مثير حول ما رآه الإغريق في المنطقة قرطاج وماجاورها إبان حملة أجاثوكليس كتالي:

" في وسط الأرض التي كان عليهم أن يجتازوها، انتشرت الحدائق وبساتين الشجر المثمرة من كل الأنواع لأن كثيرا من سواقي المياه والترع كانت قد حفرت لتروي كل جزء... ولم تبد نهاية لبيوت المدينة المترفة البناء، الفخمة المطلية بالكلس الأبيض الذي يرهن على غنى أصحابها... الفلل كانت مليئة بما يمتع ويبهج، أثثها السكان أيام السلم (R. Charles, 2011, p. 351)

" أما محاصيل تلك الأرض فكانت الكرمة والزيتون وأشجار فاكهة متنوعة، وفي بقية المناطق انتشرت الماشية من الأبقار والأغنام، وفي المروج المجاورة كانت حظائر الخيول...لقد اكتنزت المنطقة ثروة ضخمة، فمعظم نبلاء قرطاج كانت لهم أملاك هناك، وإلى مواردهم يعود الفضل في ذلك... لقد كرسوا أنفسهم لكي يستمتعوا بهجة الحياة" (S Moscati, 1968, p. 57)..

نص ديودور هذا صورة غنية الملامح عن ازدهار قرطاج وضواحيها وتطور وسائل الحياة فيها، فضلا عن المعلومات الواردة فيه حول الثروة الحيوانية والزراعية.

والنص السابق كما رأى أحد المؤرخين المعاصرين حرية بأن تحفظ وتروى بعد ما استبد بأفهام الناس من أن قرطاج مجرد مدينة بحرية غرقت في الأعمال التجارية واستسلمت لها، مع ما ألصق بها من نعوت وأوصاف بشعة اعتادت الروايات القديمة المغرضة ترددها (إيمار أندريه، و أوبوايه جانين، 1986، صفحة 57) .

ثمة مسألة شائكة يثيرها ديودور الصقلي هي مسألة التضحية بالأطفال في قرطاج. هذه المسألة لم تتردد كثيرا في المصادر الأدبية الكلاسيكية، لكنها وجدت لها صدى كبيرا، في المؤلفات المعاصرة والحديثة، وهنا ليس بد من ذكر من أن معظم أخبار قرطاج جاء ت عن طريق أعدائها (ول ديورانت، (ب ت)، صفحة 89) الأمر الذي يجب أن يأخذه الباحثون في المصادر التاريخية القديمة عن الحضارة الفينيقية- البونية بعين الاعتبار.

ديودور الصقلي لم يكن شاهد عيان على ما ذكره عن التضحية بالأطفال في قرطاج وهو ابن القرن الأول قبل الميلاد إذ يجب معرفة مصادر روايته وإذا كانت مصادره حول تلك المسألة روايات مؤرخين سابقين له فإن بوليب هو المرشح الأقوى لأنه عاصر على الأقل آخر سنوات وأيام قرطاج (الصباغ ليلى، 1998، صفحة 25). ومع ذلك فإن روايات بوليب لم تأت على ذكر أضاحي الأطفال فيها.

لقد ذكر الصقلي أن عادة تقريب الأطفال مألوفة في قرطاج في أوقات الخطر لاسيما عند العائلات الراقية، ومثال ذلك حين حلت قوات أجاثوكليس في الوطن القبلي وهددت قرطاج (الأمين علي الأمين، 2006، صفحة 107) وعندها يتابع الصقلي فإن مكانة الأطفال من تلك العائلات تمت التضحية بهم عن طريق النار إرضاء ل "كرونوس (الأمين علي الأمين، 2006، صفحة 107).

وتحدث الصقلي عن العملية بوصفه تمثال الإله البرونزي الذي يمد يده نحو الأسفل بحيث ينحدر الطفل الضحية عليها ليهوي في حفرة متقدة. ويطفي على أصوات البكاء صوت الآلات الموسيقية من مزامير ودفوف وقيثار اتلأن العملية كانت احتفالا يتم في الليل على ضوء القمر بحضور أهالي الضحايا والكهنة والموسيقيين والراقصين حسب أحد المؤرخين واستنادا إلى الصقلي، ويضيف هذا المؤرخ 'إن نفس الكاهن كان يؤجج نيران الاتون، فيمسك بالطفل الضحية بعد قتله بمنأى من رؤية الحاضرين لئلا تنتبه الشياطين المرعبة وتتأثر، ثم تنطلق رقصات همجية (Diodorus Siculus, 1947, pp. 54-57).

لقد أمعن بعض المؤرخين المعاصرين في وصف العادة السابقة واستغلوا رواية الصقلي القديمة لنعت الحضارة القرطاجية بنعوت لا تتفق مع علم التاريخ فوصفوا العادة بأنها وحشية سببت بغضاء الناس للفينيقيين (جان مازيل، 1985، صفحة 160)،كما أنها روعت الفرس واليونان والرومان قديما وروعتنا نحن على رأي أحد المؤرخين وجعلت نفوس القدامى تنقبض هلعا كما هي نفوس المحدثين اليوم، لما تتركه الديانة القرطاجية حسب رأي مؤرخ آخر في

النفوس من إزعاج ورعب أبقى الحياة الدينية متخلفة قرونا وقرونا على عكس الديانة البونية اليونانية المتفتحة حسب المؤرخ الأخير (خلايلي إبراهيم خليل، 1995، صفحة 40).

ثانيا: صراع قرطاج مع ديونيسيوس وانتشار الوباء:

سبقت حقبة حكم ديونيسيوس بعض الأحداث السياسية والحربية المهمة، إذ أنتقل الصراع بين كل من أثينا وإسبارطة الذي عرف بالحرب البيلوبونيزية في بلاد الإغريق إلى جزيرة صقلية، ففي الوقت الذي كانت فيه مدينة سيركوزة تميل إلى السياسة الاسبارطية، كانت بعض المدن مثل سجستا وليونتيني تميل إلى أثينا، ووقفت قرطاج موقف المترقب لهذا الصراع الإغريقي الداخلي (Diodorus Siculus, 1947, pp. 34-43).

تنفس القرطاجيون الصعداء لهذا الصراع، لما فيه من تأثير في القوى الإغريقية الصقلية بوجه عام، لذلك قامت قرطاج في عام 406 ق.م بغزو جزيرة صقلية، بعد أن هاجم أراضيها بعض السيراكوزيين، ومن ثم أرسلت في عام 406 ق.م قوة كبيرة للاستيلاء على مدينة اكراجاس (Diodorus Siculus, 1947, pp. 55-58).

وفي عام 405 ق.م تم الاستيلاء على جيلا، ولكن هانيبال لم يستطع ان يتوج انتصاره بالاستيلاء على سرقوسة نفسها، بعد ان تفشت الحمى بين جنوده المرتزقة من ناحية، وانتهاء الحرب البيلوبونيزية وانتصار اسبارطة حليفة سيراكوزة من ناحية أخرى، فأضطر إلى عقد المعاهدة مع ديونيسيوس حاكم سرقوسة (Diodorus Siculus, 1947, p. 62).

يعد ديونيسيوس من الشخصيات القوية، وموضع ثقة الشعب السيراكوزي وقد اتبع في سياسته أول الأمر كل ما يكفل تدعيم مركزه الداخلي في المدينة حتى إن كانت على حساب السيادة السيراكوزية في صقلية (Diodorus Siculus, 1947, p. 91).

استولى على الحكم ورتب انتخابه كقائد أعلى للقوات اليونانية المتحالفة في سيراكوزة، ثم قاد اليونان المتحالفين معه ضد قوة هملكون في جيلا، وعسكر غرب المدينة على طول الساحل، كان تحت إمرة ديونيسيوس جيش كبير يقدر تقريبا بعشرة ألف من المشاة وألفين وخمسمائة فارس، إلا أنه كان قلقا من أن تجري المعركة في السهل الواقع شمال المدينة، مما سيعطي للقوات القرطاجية حرية الحركة لتستهدف الجناحين، ولتفادي عمل كهذا قسم قواته إلى أربع مجموعات، وأرسل أخاه ليبتينيس ليقوم بهجوم برمائي بأربعة آلاف مقاتل على طول الشاطئ المفتوح جنوب معسكر القرطاجيين الساحلي (Diodorus Siculus, 1947, p. 41.44.45.47).

عندما بدأت المعركة شق هملكون صفوف وحدات المرتزقة اليونانية في هذه الأثناء كان ديونيسوس في الشمال على رأس قوة سيراكوزة الرئيسية والتي بلغ تعدادها ثمانية آلاف مقاتل، مدعومة بألفين وخمسمئة من سلاح الفرسان، وبينما كان ديونيسيوس يشغل ويقاتل المرتزقة الليبيين، نفذ ليبتنيس الهجوم البرمائي محققا عنصر المفاجأة، واقتحمت قواته معسكر القرطاجيين واستطاعت أن تحقق نجاحا أوليا، إلا أن اليونان لم يفلحوا في استثمار هذا النصر بسبب بطء حركة قواتهم، وتمكن مرتزقة هملكون من طرد إتاليوتس برغم من الخسائر التي تكبدوها. تزعم كامبانيانس الهجوم المضاد. في هذه الأثناء تقدم الجيش الصقلي الرئيسي نحو الشمال، لكن قبل أن يتمكنوا من هزيمة المرتزقة الليبيين، قام هملكون بدفع الليبيين لمهاجمة جناحي الجيش اليوناني، انسحب سيسيليوس بخسائر معتدلة، بينما تأخر ديونيسيوس وقواته جدا لذلك لم يؤثروا على سير المعركة. خطة ديونيسيوس المعقدة جدا فشلت، وانسحب إلى

سيراكوزة، واستولت القوات القرطاجية على جيلا، وما هو مثير للانتباه أن هملكون اعتمد في نصره مرة أخرى على القتال البطولي لثمانمائة من الكامبانيين، وخمسة آلاف محارب من المرتزقة الليبيين تابع هملكون زحفه على ليليبي واستولى عليها ثم على مسينا (Diodorus Siculus, 1947, p. 41).

شعرت سيراكوزة بحجم الخطر الذي يتهددها، واتخذ ديونيسيوس التدابير اللازمة لحشد القوات التي استقدمها من إيطاليا لتدعيم قوات سيراكوزة التي فشلت في مواجهة زحف الجيش القرطاجي في جيلا والذي أصبح على مشارف سيراكوزة ذاتها.

وبما أن ديونيسيوس كان يشعر بقوة قرطاج، وكان يرغب في تثبيت عرشه كمستبد، وأخذ استراحة المحارب، وافق على عقد معاهدة سلام مع هملكون سنة 397 ق.م ثم شرع يعمل بجهود جبارة لخلق إمبراطوريته الكبرى، التي صنعها فيما بعد، التي استمرت في عهده سبعة وثلاثون سنة، حيث شملت في النهاية شرق ووسط صقلية ومعظم بروتيوم ولوكانيا في جنوب إيطاليا، وأصبح سيراكوزة من أغنى وأقوى دول المدينة اليونانية (Diodorus Siculus, 1947, p. 42).

بالعودة لمعاهدة السلام فقد تعهدت سيراكوزة بموجبها أن تدفع لقرطاج ثلاثمائة وزنة أوقية فضة كغرامة، والتخلي عن سينولس وهيميرا، ولعل هذه المعاهدة أعطت سيادة كاملة للقرطاجيين على صقلية، باستثناء سيراكوزة التي تعهدت بدفع الغرامة، وغدت قرطاج تحكم غرب جزيرة صقلية بما فيها المجتمعات الإغريقية المتبقية من سيليسنوس وأكراكاس وهيميرا (Diodorus Siculus, 1947, p. 43).

بالطبع لم يستطع ديونيسيوس أن يقبل بالوضع الجديد، وما إن شعر بالتقاط أنفاسه حتى بدأ بالتحضير للحرب، من خلال بناء أسس سلمية لدولته، فأعلن عن أعظم الجوائز لكل من يقدم ابتكارا صناعيا، واستقدم العمال والفنانين من كل أرجاء العالم الإغريقي، حتى أن سيراكوزة أصبحت ورشة عمل متكاملة، أنتجت السيف والدروع والخوذ وتم تحضير كل ما يلزم لبناء وتسليح الأسطول، وتم اختراع السفن بخمسة مجاديف، كما فرض ديونيسيوس على حلفائه أن يقدموا له عدد معينا من القوات لتكون تحت إمرته، ويذكر المؤرخون أن ديونيسيوس كان صاحب سلوك شعبي جذاب، يتابع عمل العمال بنفسه، ويوزع المكافآت بسخاء، ومنح كثيرا من المبدعين شرف تناول العشاء معه (Diodorus Siculus, 1947, p. 44).

كما امتلك خطابا سياسيا قويا نشره في بلاد اليونان وصقلية يصور فيه القرطاجيين على أنهم العدو الأوحد ووجد ديونيسيوس في الخطيب الأثيني يزوكراتيس طلبه فقد ظل يناشد ديونيسيوس طوال حياته لإنقاذ صقلية من خطر البرابرة دون كلل أو ملل وهكذا اكتسب ديونيسيوس صفة المدافع (Diodorus Siculus, 1947, p. 45).

بدأ ديونيسيوس تحركاته العسكرية ضد قرطاج بالاستلاء على المدن المستقلة ذاتيا، خارقا بذلك اتفاقية الصلح مع القرطاجيين، كما قام بتحريض المدن الإغريقية التي لم تكن مسرورة أبدا بالسيطرة القرطاجية على جزيرة صقلية، وانتهي الأمر مع ديونيسيوس بأن أرسل النواب إلى قرطاج ليطالبوها بإعطاء الحرية للمدن الإغريقية في صقلية، ولما رفضت قرطاج بدأ عملا عسكريا مفتوحا بجيش يقدر بثمانين ألف من المشاة، وثلاثة آلاف فارس، ومئتي سفينة حربية، وحاصر موتي في سنة 396 ق.م، ثم احتلها ودمرها وقتل أهلها، حتى الذين لجأوا إلى المعابد، ثم وضع فيها حامية عسكرية، وعاد إلى سيراكوزة (Diodorus Siculus, 1947, p. 46.48).

لم يكن بوسع قرطاج أن تصمت على أعمال ديونيسيوس، لذلك نزلت قوات هملكون في باليرمو واستعادت موتي وعدة مدن أخرى في غرب صقلية، وأسس هملكون مكانها مدينة ليليبايون والتي ازدهرت بسرعة كبيرة بفضل موقعها المتميز، وقد قام هملكون بعد نصر حققه على ديونيسيوس في كاتانا بمحاصرة سيراكوزة، والتي كان ديونيسيوس قد حولها إلى قلعة ضخمة (Diodorus Siculus, 1947, p. 49.59).

كان هملكون يرغب في أن يتوج تحركه العسكري بالاستيلاء على سيراكوزة التي غدت على وشك السقوط لولا لا الوباء الذي فتك بجيشه، فقد انتشر وباء قاتل بين صفوف جيشه. وفسر ديودور أن سبب هذا الوباء جاء نتيجة إلى غضب الآلهة على هملكون الذي استخدم حجارة المقبرة أثناء حصاره لأكراكس، ونبشه قبر تيرون، حتى إن كثيرا من جنوده أخبروه أنهم شاهدوا أشباح الموتى تطاردهم ورغم ذلك بقيت قوات هملكون تضغط بقوة على سيراكوزة حتى أن هملكون جعل من معبد زيوس في سيراكوزة مقرا عسكريا له، ونبش قبر جيلون وزوجته ديماريته، ونهب معبد ديميتر وكوري في ضاحية أخرادينة السيراكوزية، وكان الوقت منتصف الصيف وكانت حرارة الشمس مرتفعة مما أدى إلى تفشي الوباء، في البدء كان دفن الموتى يتم يوميا، لكن بعد مدة وجيزة لم تعد جثث الموتى تجد من يدفنها (Diodorus Siculus, 1947, p. 63).

كما أن ديونيسيوس قام بمهاجمة القوات المحاصرة بشدة، فما كان هملكون إلا أن بدأ في بالتفاوض لعقد صفقة سرية تسمح له وللمواطنين القرطاجيين بالعودة الآمنة، مقابل أن يترك المرتزقة الليبيين واليونان العاملين في صفوفه جيشه للدمار، وبالفعل تم اتفاقية سلام عاد على إثرها هملكون والقرطاجيون الذين كانوا معه إلى إفريقيا، وتركوا حلفاءهم في الجزيرة في موقف لا يحسدون عليه، مما اضطرهم للتفاهم مع ديونيسيوس (Diodorus Siculus, 1947, p. 75.76).

وهكذا آثر الملك هملكون الانسحاب المعيب، في وقت سقط فيه الحكم الملكي في قرطاج، واستبدل بنظام جمهوري، ويضيف لنا ديودور أحداث تراجيدية عن عودة هملكون إلى قرطاج، فقد كان يرتدي معطفا باليا، وجرى الناس إليه لرؤيته في جماعات وسكبوا دموعا، ويد هملكون، مرفوعتان إلى السماء، بكى حظه ومصير دولته، بعد ذلك اشتكى الآلهة التي أعطته الكثير من الأوسمة الحربية والآن أخذتها منه، بمثل هذه الشكوى تجول في المدينة، وعندما وصل إلى عتبة بيته صرف الجماعة التي تبعته وكأنه يتحدث لهم مرة بعد ذلك أوصد الباب، ولم يدع أحد يأتي إليه، حتى أولاده ثم انتحر بضربة سيفه القاضية (Diodorus Siculus, 1947, pp. 76.3-5).

عندما انتشرت أخبار الكارثة القرطاجية في جميع أنحاء ليبيا، أشهر عليهم حلفائهم النيران، الذين انزعجوا من السياسة القرطاجية اتجاههم وبسبب ما حدث للجند اللبيين في الجيش القرطاجي، ونتيجة لذلك فإنهم كانوا مدفوعين بعدة أسباب ناهيك عن استغلالهم تفشي الوباء في قرطاج، سعوا إلى تأكيد استقلالهم بعد مفاوضات بين بعضهم جمعوا جيشا وتحركوا إلى الأمام ونصبوا معسكرا في العراء نظرا لأنهم انظموا بسرعة للثورة ليس فقط من قبل الأحرار ولكن أيضا من قبل العبيد، فقد تم جمع ما يقارب مئتي ألف رجل في وقت قصير، استولوا تاينز وهي مدينة ليست بعيدة عن قرطاج، وأقاموا خط معركتهم عليها، وبما أنهم كانوا الأفضل في القتال، فقط حصروا الفينيقيين داخل أسوارهم (Diodorus Siculus, 1947, pp. 77.1-4).

إن القرطاجيين الذين كانت الآلهة تقاتلهم بوضوح اجتمعوا في البداية في مجموعات صغيرة وفي ارتباك شديد وطلبوا من الآلهة أن تضع حدا لغضبها عندئذ استولى الخوف والرهبة الخرافية على المدينة بأكملها كما توقع كل إنسان في الخيال استعباد المدينة وبالتالي صوتوا بكل الوسائل لاسترضاء الآلهة الذين أخطأوا. في حقها نظرا لأنهم لم يدرجوا كوري ولا ديميتر في طقوسهم فقد عينوا أشهر مواطنيهم ليكونوا كهنة لهذه الآلهة وقاموا بتكريس تماثيلهم بكل احتفال وأقاموا طقوسهم متبعين الطقوس التي استخدمها اليونانيون كما اختاروا أبرز اليونانيين الذين عاشوا بينهم وخصصوهم لخدمة الآلهة بعد ذلك قاموا ببناء السفن وتوفير الإمدادات للحرب بعناية (Diodorus Siculus, 1947, pp. 77.5-4).

في هذه الأثناء لم يكن لدى الثوار الذين كانوا كتلة متنافرة قادة مؤهلين والأهم من ذلك أنهم كانوا يفتقرون إلى المؤن لأنهم كانوا كثيرين للغاية بينما جلب القرطاجيون الإمدادات عن طريق البحر من سردينيا. علاوة على ذلك تشاجروا فيما بينهم على القيادة العليا وتم شراء بعضهم بالمال القرطاجي وهجروا القضية المشتركة. نتيجة لذلك وبسبب نقص المؤن والخيانة من جانب البعض انفصلوا وتشتتوا في أراضيهم الأصلية، وبالتالي خففوا على القرطاجيين الخوف الأكبر كان هذا هو الوضع في ليبيا في هذا الوقت (Diodorus Siculus, 1947, p. 77.6).

أما ديونسيوس فقد استعمل في السنوات التسعة اللاحقة كل طرق البطش والقوة ليصنع لنفسه سيادة مطلقة على شرق جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا، وقام بأعمال عسكرية في الأدرياتيك. ثم عاد وركز كل جهوده وجعلها تنصب على الاستيلاء على كامل جزيرة صقلية وطرد القرطاجيين منها وللأبد (Diodorus Siculus, 1947, p. 77).

ثالثا: قراءة في أسباب الوباء:

أ- التفسير الميتافيزيقي:

يذكر ديودور أنه عند حصار هملكون لسيراكوزة حوالي 396 ق.م أقدم جنده على نهب معبد الإلهتين ديميتر وكورى وصادف أن تعرضوا بعد ذلك لبعض الكوارث الصحية فتصورا أن السبب يرجع إلى تعديهم على معبد هاتين الإلهتين فما كان منهم إلا أن بادروا بالتكفير عن هذا الذنب بإدراج عبادتهما بقرطاج وتكليف بعض الكهنة بالإشراف على تطبيق الطقوس الدينية الإغريقية المتعلقة بهما (Diodorus Siculus, 1947, pp. 63.1-3).

عندما نحاول دراسة النص ومؤلفه ديودرو نكتشف أن ديودرو دائما يطوع الأحداث حسب ما تمليه عليه قناعته الأخلاقية الشخصية، كما نلاحظ أن تدخل الآلهة في شؤون البشر يمثل محورا يكاد يكون ثابتا في كل ما كتب ديودرو (Diodorus Siculus, 1947, p. 63).

ونلاحظ أن ديودرو ربط في تفسيره في نطاق ما أطلقنا عليه قناعات ديودرو الأخلاقية الشخصية وهذه القناعات ترتبط بصورة قرطاج وقادتها، فهو دائما يعتبر قادة قرطاج منتهكين لحرمات الآلهة، كما أن قرطاجة من وجهة نظره مدينة متعالية ظالمة عنيفة، ولذلك فإن نكبتها نتيجة طبيعية لأخطائها، ومن الطبيعي في النهاية أن تبدو قرطاج بصورة المدينة الآثمة (Diodorus Siculus, 1947, p. 63).

ب- التفسير العسكري:

إذا حاولنا دراسة وصف ديودور للمواجهات العسكرية، فإننا نلاحظ أن المواجهات حسب رؤيته تنقسم دائما إلى مرحلتين؛ في المرحلة الأولى يظل مصير المواجهة غير واضح، وأحيانا تتطور الأحداث لصالح الصف الذي سينهزم في نهاية المطاف (Diodorus Siculus, 1947, p. 50.53).

وفي المرحلة الثانية تنقلب الوضعية فجأة بسبب وفاة قائد الجيش المهزوم أو بسبب تدخل قائد الجيش المنتصر في المواجهة الأخيرة (Diodorus Siculus, 1947, p. 63).

في رواية ديودور، يخضع سرد أحداث سنة 396 ق.م لهذا التصور، قرطاجة كانت تبدو منتصرة في البداية، بينما كانت سيراكوزة في وضع مأسوي، ثم تنقلب الأحداث فجأة ويصبح المنتصر مهزوما والمهزوم منتصرا، لكننا نلاحظ هنا أن انقلاب الأوضاع لم يحدث بسبب وفاة هملكون قائد قرطاج أو تدخل ديونيسيوس قائد سيراكوزة، ونتسأل هنا عن السبب الذي جعله يغير من طريقة سرده للأحداث هذه المرة (Diodorus Siculus, 1947, p. 78).

السبب في قناعات ديودور الشخصية كان ديودور يكره ديونيسيوس لأنه طاغية، ولذلك أراد أن لا يضفي على طاغية سيراكوزة مجدا هو غير جدير به، ولذلك اختار أن يكون الانتصار بسبب تدخل الآلهة، وبذلك خلق ديودور ما يسمى بصراع الآلهة، وفي هذا الصراع تفوقت آلهة الإغريق على آلهة قرطاج (Diodorus Siculus, 1947, p. 112).

ج- التفسير العلمي:

بعد أن حاصر القرطاجيون سيراكوزة ونهبوا معبد ديميتر وكوري، أصاب الوباء الجيش. علاوة على الكارثة التي أحدثها تأثير المدينة، كانت هناك أسباب تساهم في ذلك أن عددا لا يحصى من الناس اجتمعوا معا، وأن الوقت من العام هو الأكثر إنتاجية للأوبئة، كانت حرارة الصيف مرتفعة في هذه السنة. يبدو من المحتمل أيضا أن المكان نفسه كان مسؤولا عن المدى المفرط للكارثة لأنه في مناسبة سابقة، مات الأثينيون أيضا، الذين احتلوا نفس المعسكر، بأعداد كبيرة من الوباء، لأن الأرض كانت مستنقعية، في البداية وقبل شروق الشمس تهب ريح باردة ورطبة تتسبب في قشعريرة تتحكم في الأجساد، وفي وقت الظهر تخنق الحرارة هذه الجموع من الرجال المتراكمين في مجال ضيق (Diodorus Siculus, 1947, p. 70.4).

هاجم الوباء الليبيين أولا، ومع مقتل العديد منهم، دفنوا الموتى في البداية، ولكن لاحقا، بسبب كثرة الجثث ولأن الوباء استولى على أولئك الذين كانوا يعتنون بالمرضى، لم يجرؤ أحد على الاقتراب. حتى عندما تم استدعاء ممرضين، لم يكن هناك علاج للكارثة. بسبب الرائحة النتنة للغير المدفون، بدأ الوباء بالانتشار. في البداية تبدأ نزلات زكامية حادة، يليها ظهور دمامل انتفاخ العقد اللمفاوية في العنق، وسرعان ما تظهر حمى وآلام في أعصاب الظهر وتتثاقل الأرجل، ويلي هذه الأعراض إسهال وبثور في كل أنحاء الجسد (Diodorus Siculus, 1947, p. 71).

في معظم الحالات كان هذا هو مسار المرض الذي أصاب القرطاجيين. لكن البعض أصيب بالجنون وفقد ذاكرته تماما. طافوا في المخيم من غير عقلهم وضربوا كل من قابلوه. بشكل عام، كما اتضح، كانت حتى مساعدة الأطباء بلا جدوى بسبب شدة المرض وسرعة الوفاة، الموتى كانوا يموتون في اليوم الخامس أو السادس على أبعد تقدير، مصابين بآلام شديدة ورهيبة حتى أنهم نظروا إلى الذين ماتوا في الحرب على أنهم مباركون. في الواقع، كل من اقترب من المرضى أصيب بالوباء، وهكذا كانت حظ المرضى بائسة، حيث لم يكن أحد على استعداد لخدمة البائسين. لم يقتصر الأمر

على عدم تخلي أي شخص عن الآخر فحسب، بل أجبر حتى الإخوة على ترك الإخوة والأصدقاء للتضحية بأصدقائهم خوفا على حياتهم (Diodorus Siculus, 1947, p. 71).

خاتمة:

هذه هي إذن أهم الفقرات التي ارتأينا ترجمتها بأكثر دقة ممكنة عن ديودور الصقلي، وهي بما احتوت عليه من معلومات وبالخصوص ما أشارت إليه من أسباب الوباء وإن كان يعتقد أن السبب الجوهري للمرض إنما يعود لغضب آلهة إغريق صقلية عليهم لذلك عمدوا إلى استرضائها ببناء المعابد، واعتبر أن الكوارث الصحية التي تعرض لها جند قرطاج جاءت بمحض الصدفة، لكن قراءتنا للأحداث العسكرية والمعطيات الجغرافية وهي قراءة لم تعتمد على علم الحفريات والخرائط الأثرية وإنما على نص تاريخي مكنتنا من فهم أن السبب الحقيقي وراء هذا الوباء يعود إلى عدم اتباع الوسائل الصحية وإقامة المعسكرات في المناطق المنخفضة للأنهار والتي تتجمع عندها الحشرات كانت السبب في انتشار هذا المرض، فليس من المستبعد أن يكون المكان نفسه مسؤولا عن المدى المفرط للكارثة إذ قدم ديودور الصقلي قرينة تاريخية مهمة عندما أشار إلى أنه في مناسبة سابقة، مات الأثينيون أيضا، الذين احتلوا نفس المعسكر، بأعداد كبيرة بسبب الطاعون، وهذا ما يدفعنا لتحديد هوية هذا الوباء واعتبار ذلك التفشي للمرض في المعسكر القرطاجي هو جزءا من نفس الطاعون الذي أصاب الأثينيين سابقا.

قائمة المراجع:

المراجع باللغة العربية:

1) أحمد الفرجاوي. (1993). بحوث حول العلاقات بين الشرق الفينيقي وقرطاجة (المجلد 1). تونس: المعهد الوطني للتراث.

2) الأمين علي الأمين. (2006). العقائد الفينيقية في المدن الطرابلسية من العصور الأولى ق.م وحتى القرن الأول ق.م". مصر: كلية الآداب جامعة الزقازيق.

3) الصباغ ليلى. (1998). دراسة في منهجية البحث التاريخي. سوريا: جامعة دمشق.

4) إيمار أندريه، و أوبوايه جانين. (1986). تاريخ الحضارات العام (المجلد 2). (فريدم داغر، فؤاد ح أبو ريحانة، المترجمون) بيروت. باريس: الشرق واليونان القديمة.

5) جان مازيل. (1985). تاريخ الحضارة الفينيقية الكنعانية (المجلد 1). (ربا الخش، المترجمون) سورية.

6) خلايلي إبراهيم خليل. (1995). مصادر البحث عن الحضارة الفينيقية البونية المصادر التاريخية -المصادر الأثرية- النقائش. تونس: جامعة تونس الأولى.

7) عبد المنعم المحجوب. (2017). ليبيا القديمة (المجلد 1). تونس: دار الفكر للنشر والتوزيع.

8) محمد أبو المحاسن عصفور. (1981). المدن الفينيقية (المجلد 1). بيروت: دار النهضة العربية.

9) ول ديورانت. (ب ت). قصة الحضارة. (محمد بدران، المترجمون) (د ب ن): جامعة الدول العربية.

المراجع باللغة الأجنبية

10) Diodorus Siculus. (1947). Bibliotheca Histories, XIII. Loeb Classical Library.

11) Diodorus Siculus. (1947). Bibliotheca Histories.XIV. Loeb Classical Library.

12) H. Donald. (1963). The Phoenicians. London.

13) R. Charles. (2011). The Ancient History of The Egyptians, Carthaginians, Assyrians, Babylonians. London: Medes and Persians, Macedonians and Grecians.

14) S .Moscati. (1968). The World Of The Phoenicians. London: Translated From The Italian.

أثر الأوبئة والمجاعات على السلوك الغذائي بالمجتمع الأندلسي خلال القرنين (6-8هـ/12-14م): دراسة في المواقف الذهنية والممارسات الاجتماعية

The Impact of Epidemics and Famines on the Nutritional Behaviour of the Andalusian Society during the Two Centuries (6-8 A.H / 12-14 A.D): A Study of Mental Attitudes and Social Practices

د(ة)بن خيرة رقية

Dr.Benkhira Roqiya

جامعة مولود معمري/ تيزي وزو/ الجزائر

University of Mouloud Mammeri/ Tizi Ouzo / Algeria

الملخص:

تهدف ورقتنا البحثية هذه إلى دراسة تجاذبات العلاقة بين الوباء ومتغيرات السلوك الغذائي بالمجتمع الأندلسي خلال القرنين (6-8هـ/12-14م)، إذ لا يخفى علينا أنّ أي أزمة وبائية كان يعقبها مجاعات ينتفي معها العيش الكريم للسكان ويتغير بموجبها نظامهم الغذائي، مما يضطرهم إلى استحداث سلوكيات مختلفة من شأنها تحقيق الوظيفتين الفيزيولوجية والنفسية.

تباينت السلوكات التي اتبعها الأندلسيون في سبيل ذلك بين الجني وقطف الثمار والصيد، كما أجبرهم الذعر وعدم القدرة على تحصيل الطعام أحيانا إلى نهج سلوك عدواني أفضى إلى انحلال الروابط الاجتماعية، ولم تقتصر تأثيرات هذه المجاعة على الممارسات الاجتماعية وحسب؛ إذ يلاحظ أنّها أحدثت تغيرا على مستوى الذهنيات تجلت معالمه في اتجاه الأندلسيين إلى تناول أطعمة شاذة ومستهجنة أصبح بموجبها سد الرمق في نظرهم أولى من إرضاء الذوق.

إنّ هذه السلوكات وإن ظهر أنّها تعارضت مع منظومة القيم السائدة آنذاك، غير أنّها شكلت في مجملها آليات المواجهة التي ابتكرها الأندلسيون ضمن جدلية التحدي والاستجابة التي فرضت عليهم استحداث سلوكات تباينت أهمية الوظائف الواجب عليها تحقيقها، إذ تراجعت على إثر ذلك وظائفها الرمزية والانفعالية على حساب أخرى بيولوجية.

الكلمات المفتاحية: أثر، وباء، مجاعة، غذاء، سلوك، مجتمع، ذهنية، ممارسة.

Abstract:

This paper aims at studying the relationship between epidemics and nutritional behaviours in the Andalusian society during the periods (6-8 A.H / 12-14 A.D). Any epidemiological crisis was often followed by famine during which people would end up changing their diet, forcing them to develop different behaviours that would achieve physiological and psychological functions.

The behaviours Andalusians followed included harvesting, picking up fruits, and hunting. Panic and inability to obtain food forced them to adopt aggressive behaviours that resulted in the dissolution of social bonds. The impacts of this famine were not limited to social practices alone. It brought a change in mentalities that was marked by the tendency of Andalusians to eat abnormal and reprehensible food, which in their eyes became more important than satisfying the taste.

Even though these behaviours contradicted the value system that prevailed at the time, they formed the coping mechanisms devised by the Andalusians as part of the dialectic challenge that forced them to develop behaviours of varying importance to the functions they must perform. This led to a decrease in symbolic and emotional functions to the detriment of other biological functions, considered vital.

Keywords: Impact, epidemic, food, behaviour, society, mentality, practice.

مقدمة:

تعيد جائحة كورونا الحالية وتداعياتها الاجتماعية والمعيشية إلى الأذهان صورة العديد من الأوبئة والطواعين التي شهدها الغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط وظلت ماثلة في متخيله الجمعي بوصفها أفتك الأوبئة وأكثرها تأثيرا على البشرية آنذاك، نظرا لما خلفته من آثار مست مختلف جوانب الحياة الإنسانية وطوت كثيرا من مظاهر الحضارة ومحاسن العمران، على أنّ أبرز نتائجها ما مس منها أقوات الساكنة؛ إذ لا يخفى علينا أنّ أي أزمة وبائية قد تعقبها مجاعة وندرة في الطعام ينتفي معها العيش الكريم للسكان ويتغير بموجبها نظامهم الغذائي.

فيركنون إلى الكفاف أو يلتفتون إلى تناول أغذية محرمة أو غير معهودة، وهو ما أشارت إليه العديد من المتون المصدرية التي تحدثت عن اتجاه السكان لأكل الجيف أو أكل الحبوب المتعفنة في ظل ندرة مادة القمح واحتكارها من قبل التجار، فضلا عن المضاربة في أسعارها، كاشفة بذلك عن حدوث تعارض بين المثال والواقع، عكسته متغيرات سلوكية ألغت جملة من الأعراف والقواعد الغذائية السائدة في المجتمع.

تم ربط تأثير الأزمات الوبائية بتغيرات السلوك الغذائي لا يقتصر على هذه التصورات أو المقاربات التي أشرنا إليها، إذ لم تكن سوى مقدمة شاملة لورقتنا البحثية التي سنحاول من خلالها التأسيس لطرح يبحث في أثر الوباء وعلاقته بتغيرات السلوك الغذائي بالمجتمع الأندلسي خلال القرنين(6-8هـ/12-14م)، وهو طرح لا ندع السبق فيه ولكن إيمانا منّا بأنّ البحث التاريخي ما هو إلاّ رؤى بحثية متجددة لا تلغ ما سبق إنجازه تجاوزا بقدر ما تأتلف معه تكاملا، لذا سنحاول بما توفر لدينا من مصادر تاريخية وطبية وجغرافية وفقهية وبرؤية منهجية شمولية يتداخل فيها المعطى التاريخي بالمعطى الاجتماعي والذهني، أن نكتشف تجاذبات العلاقة بين الوباء والسلوك الغذائي ضمن دراسة يكون وكدها تتبع مختلف المواقف الذهنية والممارسات الاجتماعية الناتجة عن الأوبئة والمجاعات.

تشكل هذه التوطئة المعرفية والمنهجية عتبتين أوليتين للفهم، تهتم الأولى برصد مختلف النّصوص التاريخية الكفيلة بتأسيس طرح يتم على ضوئه قراءة تجاذبات الوباء والغذاء في المجتمع الأندلسي، ذلك أنّ قراءتنا ما كانت لتتم دون مدخل يؤطر لأثر الأوبئة والمجاعات على الأنماط السلوكية المختلفة بما فيها الأنماط الغذائية في حين تتجه الثانية إلى إبراز عينات منها، بما يتوافق وعملية بحثية تكون فيها هذه التوطئة مدخلا وجزء في نفس الوقت،؛ فماهي إذن تجليات هذا التأثير، وكيف أمكن للأندلسيين تكييف سلوكاتهم الغذائية لتغطية حاجياتهم البيولوجية والنفسية؟.

أولا: الوباء وأزمة الغذاء: أي علاقة؟

يرتبط التأريخ لأزمة الغذاء في الأسطوغرافيا التاريخية الوسيطية بمسببات متباينة تراوحت بين الفعل البشري من فتن وحروب وبين تقلبات مناخية، ما فتئت تتمظهر علائقها في حدوث مجاعات وأزمات غذائية، بات من المستحيل التأريخ للأولى دون الإشارة إلى الثانية؛ وهو ما ألمح إليه ابن هيدور ضمن قاعدة نظرية حاول فيها تعليل هذه العلاقة التلازمية بقوله:" إذا ظهرت الخوارج(الثوار) واشتدت الفتنة؛ فحقق الغلاء لأنّه لازم لها وناشئ عنها، وإذا كان الغلاء واشتدت أسبابه لزم عنه الوباء، وهو علم صحيح وقانون مطرد لا يحتاج فيه إلى تعديل ولا نظر في النجوم"(بولقطيب:2002، ص.33).

إنّ الاعتقاد بهذا الترابط الجدلي أمر لا يستدعي أن نرص القرائن المختلفة للتأكيد عليه؛ إذ أنّ الحاجة لعملية كهذه لا تعوزنا في ظل ما تحتويه المتون المصدرية على تعدد مشاربها وموضوعاتها من إشارات لم تنفك عن رصد

تجاذباتهما، وإن بدت إشاراتها عرضية ومقتضبة ولا ترقى لتطلعات الباحث بالنظر إلى سياقات استحضارها؛ فنجدها قد حشرت إمّا في سياق التأريخ للسلالات الحاكمة وما اعترض سلاطينها من جوائح وأزمات كبرى قضت مضجعهم، وإمّا تأريخا للفردانية الفاعلة في حلها وتجاوزها، كما هو شأن كتب المناقب والتراجم.

وإذا كانت ضرورة الفهم والتبسيط تدفعنا إلى تقديم شواهد تاريخية من شأنها اجلاء خيوطها الناظمة؛ فإنّ ذلك لا يصنفها ضمن عملية تكرارية واجترارية لما سبق إنجازه، بقدر ما يجعل منها أرضية للمسوغات التي تتيح لنا إعادة النظر في ميكانيزمات هذه العلاقة وتأثيراتها على السلوك الغذائي، وفي هذا الصدد يمكننا أن نستشهد على سبيل المثال لا الحصر بما ورد ذكره عند ابن عذاري في خضم تأريخه لحوادث سنة 571هـــ/1176م، بالوباء الذي ألم بالعدوتين (المغرب والأندلس) "ولم يعهد مثله فيما تقدم من الأزمنة قبله"، أعقبته مجاعة رهيبة(ابن عذاري:1985، ص.136)، وهي المجاعة التي يرجح أنّها استمرت سنة كاملة إلى غاية 572هـ/1177م،.

كما يمكننا أن نستشهد أيضا بالمجاعة التي نتجت عن هزيمة الموحدين في معركة العقاب وصحبها وباء 610هـــ/1213م (الناصري: 1997، ج3، ص.4)، ناهيك عما أشار إليه المؤرخ عبد الواحد المراكشي في معجبه أنّه في سنة645هـــ/1247م، تعرضت إشبيلية لحصار، عانى النّاس على إثره من الوباء والجوع وأيقنوا الموت والهلاك(المراكشي: 1978، ص202).

لا يقتصر الجزم بوجود صلة مطردة بين الأوبئة والمجاعات على المؤرخين القدامى وحسب، بل نلاحظ امتداده إلى المحدثين منهم، أولئك الذين تبنوا في دراساتهم الطرح ذاته، حتّى غدا التأريخ لهما أحد اتجاهات الكتابة التاريخية الجديدة تحت مسمى" تاريخ الأوبئة والمجاعات"، اتجاه أخذ يعنى أكثر فأكثر بالبحث في علاقتهما بما تنطوي عليه من إشكاليات تصب برمتها في تعميق أساسيات المعرفة حول الإنسان والمجتمع، وفي هذا السياق ربط شيخ المؤرخين الفرنسيين وأحد رواد مدرسة الحوليات التاريخية فرناند بروديل"Fernand Braudel"بين المجاعة والفتن والكوارث الطبيعية مشيرا إلى:" أنّ الغلاء يحدث لسببين، إمّا احتباس مطر وإمّا لظهور الفتن والحروب بسبب خروج الخوارج عن الملوك"(العرجاوي:2019، ص201)،

لم ينفك الباحث المغربي عبد الهادي البياض عن تبنيه أيضا، وذلك حينما أشار في معرض دراسته الموسومة بـــ: "الكوارث الطبيعية وأثرها على سلوكيات وذهنيات الإنسان بالمغرب والأندلس خلال القرنين(6-8هـــ/12-14م)"، قائلا أنّه:" أضحى من الصعب الفصل بين الكوارث الطبيعية والبشرية ...، وأنّ العلاقة بين القحط والغلاء هي علاقة مثير طبيعي ونتيجة اقتصادية واجتماعية مأساوية تعصف في الغالب بذوي الدخل المتواضع الذين لا يستطيعون مجاراة تقلبات السوق وارتفاع الأسعار، وكان هذا الوضع مهددا لما بعده بحيث إذا اشتد الغلاء واستمر القحط غالبا ما كان يؤدي إلى المجاعة والأمراض" (البياض:2008، ص22).

يقودنا هذا التحليل البنيوي إلى استنتاجين هامين: يتعلق أوله بالتغير الحاصل في المعادلة (وباء/ مجاعة)، إذ نلاحظ تعدد أطرافها إلى حرب/ كارثة/غلاء/ مجاعة/ وباء، وتداخلها على نحو أصبحت فيه أي محاولة للفهم وللتفسير لا تؤمن بتعددية هذه العوامل المؤثرة بعضها في بعض مبتورة ولا طائل منها، وهو تداخل كان ابن هيدور قد صاغه ضمن القانون المذكور آنفا، وعُد سابقة في التحليل للأوبئة والمجاعات أجلى من خلاله العلاقة البنيوية القائمة بينها، وتقتضي أنّ كل غلاء تصحبه مجاعة وكل مجاعة يصحبها وباء"، وإن كان أحد الباحثين قد رأى في ذلك مغالاة وأنّه لا

يمكن القول بأنّ كل مجاعة تستدعي أي طاعون أو أي وباء آخر، ولكنّه تدارك قوله هذا بتعليل ذكر فيه أنّ الساكنة التي أضعفتها المجاعة تكون معرضة أكثر من غيرها للأثار المدمرة للوباء"(العرجاوي: 2019، ص.201).

بينما يرتكز الاستنتاج الآخر على ضرورة الربط بين المجاعات وسياقاتها التاريخية مثل واقع المجتمع الأندلسي وتراتبية فئاته وتفاضل أحوالهم المعيشية، لاسيما ما تعلق بنظامهم الغذائي الذي أخذ تراتبا هرميا تحكمت فيه مستويات اقتصادية واجتماعية جعلته ذو طابع مطبخي(كوينهان:2013، ص25)، كما تباينت تبعا له تأثيرات المجاعات والأوبئة التي ظهرت معالمها واضحة بشكل كبير على الفئات الفقيرة المشكلة للسواد الأعظم من الساكنة والمتضررة أكثر من غيرها من تداعيات الوباء الغذائية، ما جعلها عرضة للجوع وللمجاعات بسبب اختلال الأنماط المعيشية وسوء التغذية(عدالة:2018، ص.193).

ولعل ما يزكي مقاربتنا تلك المقارنة التي سنعقدها بين نصين كفيلين بإظهار البون الشاسع في المستوى المعيشي بالمجتمع الأندلسي بين فئاته المختلفة؛ إذ جاء على لسان أحد الوجهاء:" بلغت من الدنيا أطايب لذاتها؛ فأكلت صدور الدجاج وشربت في الزجاج، ولبست الديباج..."(العاملي: 1980، ص ص.27- 28) في حين نقل لنا المقري في إحدى روايات نفحه ما كان يكابده الفقراء والمساكين من ضنك العيش وانعدام القوت في حدثيه عن متسول عاري الجسم قابله هذيل الإشبيلي (ت602هـ/1205م) وهو خارج من مجلسه، وجده يرعد ويصيح الجوع والبرد، فنقله إلى موضع بلغته الشمس وقال له صِحِ الجوع؛ فقد كفاك الله مؤونة البرد"(المقري: 1988، ج4، ص.127).

كان من الطبيعي أن تتأثر فئة العوام من قلة المؤن وغلاء الأسعار المصاحبان عادة لأي أزمة وبائية، على أنّ ما زاد من معاناتها ضعف مقدرتها الشرائية وارتفاع أسعار المواد الغذائية الضرورية للمعاش اليومي، التي أصبح الحصول عليها ضربا من المستحيل وأمر مقتصر على أصحاب الجاه والثروة على حد تعبير ابن عذاري (ابن عذاري:1983، ج4، ص.38)، ففي المجاعة التي ضربت مدينة بلنسية سنة 567هـ/1172م ندر وجود مادة القمح وبلغ فيها الدقيق أربعة دراهم بسبب احتكار التجار له والمضاربة في أثمانه، ما انعكس على أحوال الساكنة التي ألّم بها الجوع والعدم والضعف والألم"، حسب وصف ابن صاحب الصلاة الذي عايش أحداثها(ابن صاحب الصلاة: 1964، ص.397)، فضلا عن المجاعات التي حدثت سنوات 624هـ/1224م، 635هـ/1237 وأشتد فيها الغلاء والوباء(ابن أبي زرع: 1999، ص.362).

وبالرغم من أنّ المصادر تشير إلى أنّ العقدين الأخيرين من القرن السابع الهجري لم تشهد فيهما الأندلس أية كوارث أو مجاعات أو أوبئة، بل على العكس من ذلك أُخصب فيها النّاس وانبسطت أحوالهم بسبب السنوات المطيرة التي دامت بين (674-690هـ/1275-1291م)، غير أنّ الفترات اللاحقة يمكن القول أنّها شكلت بداية منعطفات وتقلبات كسرت رتابة هذا الخصب والانبساط، حيث عرفت مدينة غرناطة خلال العقد الأول من القرن الثامن الهجري/14م موجة غلاء "أعادت إحياء حالات البؤس والجوع بسبب انعدام الأقوات وغلاء المتوفر منه في السوق السوداء" (البياض:2008، ص.23).

كما عرفت مدينة ألمرية مجاعة عظيمة سنة730هـ/1330م (الخطابي:1988، ج1، ص.171، 172) أعقبها قحط شديد سنة748هـ/1374م، كان ممهدا للطاعون الأسود الذي حل بالأندلس في السنة الموالية، ولم يكد ينقض هذا القرن إلاّ بتواتر المجاعات على سنوات عديدة كان آخرها مجاعة سنة 799هـ/1397م (ابن الأحمر:1991، ص.50).

رافق الأزمات الوبائية التي كانت تعصف بالمجتمع الأندلسي نزيف ديموغرافي ميزه كثرة الموتى لاسيما في صفوف الفئات الهشة والمعدمة التي اعتبرت خزانا لليد العاملة وموردا هاما "لقوى الإنتاج"، لعل أشدها وطأة طاعون منتصف القرن الثامن الهجري/ 14م الذي "تحيّف الأمم وذهب بأهل الجيل" (ابن خلدون:2015، ص.34)، وما نقوله عن وباء الطاعون الأسود يمكننا أن نسحبه على باقي الأوبئة لتشابه نتائجها وتأثيراتها؛ إذ لا نستبعد أن تؤثر خسائرها البشرية على تراجع الإنتاج الزراعي نتيجة إهمال الأرض والماشية،

نتج عن ذلك نقص في الأعلاف والحشائش ونفاق في الدواب والماشية، جعل الناجون منها يفقدون وسائل إعادة استغلال المجال بسبب كثرة الموتان (الإنسان والحيوان)، ما انعكس سلبا على وضعية الأرض التي حالت إلى البوار وقلت على إثر ذلك خصوبتها، وبالتالي سبب ذلك ندرة في المحاصيل الغذائية سهل عمل المجاعات والأوبئة اللاحقة وتكرر الدورات من جديد (بودلال:2019، ص.312).

لعل هذا ما وقع بين مجاعتي (567هـ/1172م)، (572هـ/1177م)، حيث نلاحظ أنّ السنوات الخمس لم تكن كافية لإنتاج وفير يغطي حاجيات المجتمع الغذائية الذي سرعان ما تهاوى أمام مجاعة أخرى صحبها طاعون جارف شكى فيه النّاس الضعف وعدم القدرة على الحركة (ابن عذاري:1985، ص.137)، فحصول نزيف ديموغرافي حاد يصعب معه تدارك النقص الحاصل في اليد العاملة بوتيرة نمو بطيئة جراء تبعات الموت وسوء التغذية، يضاف إليه تذبذب في التساقطات وقحوط توسطت المجاعتين، كلها عوامل وقفت حائلا أمام تعويض إنتاج سنوات العجاف السابقة لتتلوها سنوات عجاف أخرى تناوب خلالها الوباء والمجاعة على تبادل أدوار التأثير والتأثر.

إنّ البحث في علاقة الوباء بالأزمات الغذائية تبدو كتحصيل حاصل كون مظاهر التأثير والتأثر بينهما جلية ولا تستدعي بيان أو برهان، إلاّ أنّ البحث فيها ليس بالبساطة التي نتخيلها؛ فعلى وضوحها الظاهري تحتاج إلى التنقيب في مختلف العوامل التحتية المحركة لهذه العلاقة من حروب وكوارث وغلاء، تمثل قاطبة نسيج الخيوط الناظمة لها؛ فمهما بدت هذه الخيوط مشتتة وغير متماسكة غير أنّها في الواقع كل مرتبط، يتيح الإمساك بها إيضاح الروابط الخفية التي تشد بعض عناصرها إلى بعض.

ثانيا: السلوك الغذائي زمن الأوبئة والمجاعات: قراءة في الأنماط والأذواق:

يعرف السلوك الغذائي بأنّه مجموعة من الممارسات المرتبطة باستهلاك الغذاء، والموجهة لتحقيق ثلاث وظائف أساسية، وهي الوظيفة البيولوجية المتمثلة في عملية التزود بالمغذيات اللازمة للجسم، الوظيفة الانفعالية التي تتجسد بالأساس في المتعة، اللذة، السعادة، والوظيفة الرمزية المرتبطة بالجوانب العلائقية للأفراد في السياقات الاجتماعية والثقافية (درياس: 2019، ص.40-41)، كما يعرف بأنّه نتاج لما يختبره الفرد ويتعلمه من تجارب متنوعة، وتكون في سياقات زمنية (أوقات الوجبات)، فيزيقية (أماكن تناول الغذاء وتحضيره)، ثقافية (مناسبات الأكل ذات خصوصية دينية أو احتفالية) (درياس:2019، ص.40)

لئن كشفت لنا المصادر التاريخية أنّ الممارسات والسلوكيات الغذائية بالمجتمع الأندلسي في الفترات العادية، بما تنطوي عليه من عوائد وموائد ومواقف وطرق تدبيرها الزمنية والجغرافية تميزت بالسكون وبطء في التحول لخضوعها للموجهات الطبيعية والعادات والتقاليد الاجتماعية، غير أنّ البحث في تغيراتها زمن الأوبئة والمجاعات يظهر

لنا تحولا في أنماطها ميزه خروجها عن العادة والمألوف، وانتقالها من المباح إلى المحرم، ومن المستحسن إلى المستهجن في مشهد القيم المتداولة (بوتشيش، البياض:2013، ص.31).

هذه السلوكات وإن بدا لنا في الظاهر أنّها أحدثت تعارضا بين المثال والواقع، غير أنّ سعت في جوهرها إلى تحقيق وظيفتين، بيولوجية تكفل خلق توازن فيزيولوجي يضمن استمرارية البقاء والعيش سواء بكمية كبيرة أو صغيرة من الطعام. وفق ما تقتضيه وظائف التغذية (حبيدة: 2016، ص.121)، في حين تتيح الوظيفة النفسية القدرة على تلافي العجز عن تحصيل القوت ذلك أنّه: "لا توجد علامة مطلقة على فقدان الحول والقوة أكثر من الجوع؛ فالجوع مؤشر صريح على أنّ الشخص تنقصه القدرة على اشباع أكثر احتياجات الكفاف أساسية لديه" (كوينهان: 2013، ص.25)، ولعل الحاجة الملحة لتحقيق هاتين الوظيفتين دفعت بهم إلى اتباع السلوكيات الآتية ذكرها:

أ.سلوك الجمع والتقاط الثمار: من اليد إلى الفم:

نستعير عبارة **من اليد إلى الفم** التي استعملها الأنثروبولوجي الألماني يوليوس ليبس في كتابه "أصل الأشياء" الذي خصّه للحديث عن التاريخ الاجتماعي والثقافي للشعوب السابقة بما فيها ثقافة الجني وجمع الثمار المتبعة من قبلها (ليبس: 2006، ص.71) لنقارب على ضوئها سلوك الجمع الذي عمد إليه الأندلسيون أثناء فترات الأوبئة والمجاعات؛ فبسبب تواتر سنوات المسغبة وانعدام الأقوات؛ اضطر هؤلاء إلى البحث عن بدائل غذائية تسد حاجياتهم، لذا لجأوا إلى "تناول مواد تكميلية حيث يرتد الاقتصاد إلى شكله البدائي؛ فيسود القطف والالتقاط والصيد والقنص، وكلها مظاهر تعكس عودة الإنسان للطبيعة"(البياض:2008، ص.184)،

يفهم من النّص حدوث تغير في التمثلات الرمزية للطعام بالمجتمع الأندلسي تم رصدها على مستوى الأطعمة المستهلكة؛ حيث تراجعت الحبوب والحنطة والخضر والفواكه؛ فاسحة بذلك المجال للنباتات والثمار والأعشاب البرية لتغدو بديلا غذائيا دفع بالساكنة إلى البحث عنها وجمعها في جنبات الأودية وفي سفوح الجبال وعلى قممها، وإن كانت الطبيعة الأندلسية أسعفتهم أحيانا بما يمكن أن يسد جوعهم، غير أنّ بحثهم الحثيث عن الطعام كثيرا ما اصطدم بثمار ونباتات سامة دفعتهم الحاجة إليها، فهذا "عقار ناعمة" رغم طبيعته السامة غير أنّه ظل مقصدا للسكان زمن المجاعات حتّى أنّه أهلك بعضهم (الإشبيلي: 1990، ق2، ص.588)، وبالمثل عمد سكان ألمرية إلى التقاط أعشاب الحمض التي تنبت بالأرض المالحة (الإشبيلي:1990،ق، ص.227).

بالرغم من براعة الأندلسيين في علم النبات ودرايتهم العميقة بمنافعه ومضاره، وقدرتهم على تكييفه بما يلائم نمطهم الغذائي، غير أنّ هذا الأمر لا يمنعنا من القول بأنّ استهلاكهم لهذه النباتات والأعشاب كان أشد ضررا عليهم، فالإضافة إلى طبيعتها السامة والمضرة بالجسد، كان الاقدام على تناولها نتيجة تغير عاداتهم الغذائية يعرضهم لانتكاسات ومضاعفات صحية ساهمت في رفع عدد الوفيات التي غالبا ما كانت تتزايد نسبها بسبب التغير الحاصل في النمط الغذائي وتعارضه مع أسس التغذية الصحية والسليمة.

إلى جانب النباتات والأعشاب أقبل الأندلسيون على استهلاك ثمار الأشجار؛ فكانت ملاذهم زمن المسغبة لتنوعها وسهولة الحصول عليها من الطبيعة؛ فهي لا تتطلب جهدا مضنيا في زراعتها أو حصادها، علاوة على تواجدها طوال السنة مما يوفر غذاء سنويا متنوعا، عكس الحبوب التي يكون إنتاجها موسميا وفي فترات محددة، كما أنّها

تتماشى أكثر مع نمط الاستهلاك السريع الذي فرضته تداعيات الأوبئة والمجاعات التي صرفت الأنظار إلى الكمالي المتوفر في غياب الضروري الممتنع، وإن لم يوافق هذا المتغير المستجد الثابت المألوف.

ويتضح أنّ أكثر الثمار استهلاكا وقتئذ ثمار البلوط التي ألف أهالي حصن بطريوش في طريق قرطبة استغلالها كطعام في سني الشدة والمجاعة فصار لهم اهتمام بحفظه وخدمته (الحميري:1984، ص.93)، وعلى ما يبدو أنّ استغلاله كان واسع الانتشار في الأندلس على المستويين الشعبوي والسلطوي؛ ففي رسالة وردت من والي الموحدين على إشبيلية إلى الخليفة المستنصر المؤرخة سنة 612هـ/1215م، أي بعد سنتين من وباء 610هـ/1213م، وهي فترة عرف عنها بأنّها فترة مجاعات وحروب وأوبئة، لجأ الساكنة وقتها إلى جمع ثمار البلوط واتخاذها قوتا تتحفظ به النفس من الهلاك، ومما جاء في فحواها:" وقد تم الإعلام بأحوال الثغور غير مرة، وشرح العبد ما مسها من الضيق والضعف وغلاء الأسعار وعدم الطعام...وكان من جميل صنع الله وفضله أن أغاث أهلها في هذا العام بالبلوط فإنّ شجرها حملت حملا كثيرا؛ فاتخذها أهلها قوتا لأنفسهم ودوابهم وسدت لهم مسدا كثيرا حتى لا يكاد يوجد دقيق إلا منها"(عزاوي: 1995، ج1، ص.301-302).

ويلاحظ أنّ استعمالاته في المجتمع الأندلسي جاءت بصيغ مختلفة؛ إذ يظهر من النّص أعلاه استغلاله من قبل السكان على طريقتين ثمارا ثم دقيقا لصنع الخبز الذي عد أهم عنصر في نظامهم الغذائي، وكان يتخذ في العادة من الحنطة على اعتبارها أفضل أصناف الحبوب الملائمة لصناعته حتّى قيل أنّ أجود الخبز ما كان مصنوعا منها (بن خيرة: 2018، ص.87)، ولكن مع ندرتها وغلاء أسعارها، وجد الأندلسيون في ثمار البلوط، والنبق ما يعوضهم عن الحبوب؛ ففي إطار التوجه دوما إلى المتوفر كما ونوعا، اهتدى هؤلاء لثمار النبق المتواجد بكثرة في حيز مدينة أقليش ومدينة سالم وغيرها، واتخذوها خبز الجذب(الإشبيلي: 1990، ق2، ص.605)، كما اتخذوه أيضا من بعض النباتات والبقل(الإشبيلي:1990، ق1، ص.81، 297).

والجدير بالإشارة أنّ الأندلسيون أبدعوا في ابتكار أساليب لمواجهة شبح الجوع والمحافظة على تنوع أطعمتهم وإن اقتضى الأمر التعديل في مكونات اعدادها؛ فإلى جانب تمكنهم من المحافظة على تواجد الخبز ذو الرمزية الثقافية والاجتماعية في متخيلهم الجمعي، أبقوا كذلك على طبق العصيدة الذي صار يعد في فترات الشدة من نباتات وأعشاب برية، كنبات "استب" الذي كان يأكله سكان المناطق الجبلية فيختبزونه ويعتصدونه، وبالمثل شكلت "بقلة دعاع" مادة لصنعها يستخرجون منها طحينا يكون عصيدة بعد تجفيفه وطحن ثماره، (الإشبيلي:1990، ق1، ص.81، 297).

إنّ المقاربة التي عمدنا إلي تبنّيها انطلاقا من عبارة "من اليد إلى الفم" وقراءتها قراءة تأويلية نبتغي من ورائها إعادة بناء تصورنا عن السلوك الغذائي الذي يظهر أنّه ركن إلى الجمع والقطف في فترات الشدة والمسغبة، تجد ما يعضدها من إشارات مصدرية كلها أحالت إلى اتباعهم هذا السلوك؛ فتكررت كلمة المحل للدلالة على ذلك؛ فمثلا نبات "الطهف" كان يختبر في المحل، ونبات "استب" السالف الذكر كان يؤكل هو الآخر في المحل (الإشبيلي:1990، ق1، ص.369، 297)،. ما يشي باتباع الأندلسيين لنمط الاستهلاك السريع (من اليد إلى الفم) لمؤامته السياقات الظرفية، وإن كانت الإشارات المصدرية ذاتها قد كشفت لنا سعيهم من جهة أخرى إلى تكييف الثمار المقتطفة والنباتات التي تم جمعها بما يلائم نمطهم الغذائي ضمن سلوك مزجوا فيه بين الارتداد والتكييف.

ب.أكل الصيد والطرائد: إلغاء للفوارق الاجتماعية وتعميم للظاهرة :

أشار الباحث محمد ياسر الهلالي في دراسة عنوانها "أسس التراتب الاجتماعي في المدينة المغربية أواخر العصر الوسيط"، إلى عدم ثبات الترابيات الاجتماعية التي ظلت خاضعة في نظره إلى مجموعة من العوامل والمؤثرات أبرزها

عاملي الثروة والجاه لهشاشتهما، ولارتباط التراتب الناشيء عنهما باستمراريتهما، كما توصل بتحليلاته العميقة إلى ما أسماه "بقابلية الترقي الاجتماعي"، وهي محاولة للانتقال من مرتبة إلى أخرى أعلى منها في ظل سياقات تاريخية تختلف من مجتمع إلى آخر و تتفاوت بين فترة الاستقرار وفترة الأزمة (الهلالي: 2019، ص.68)

وإذا كان الباحث الهلالي قد نبّه إلى ملاحظة هامة تتعلق بأثر الأزمات في الحراك الاجتماعي استنادا إلى الفكر الخلدوني الذي خبر صاحبه طبيعة العمران البشري خبرة واسعة جعلت من أفكاره نظريات عامة وصالحة للمقاربات التاريخية التي تأرجحت مواضيعها بين سكون البنية وحركية النظم؛ فإنّه غض الطرف عن التفصيل في طبيعة تلك الأزمات والكيفية التي تسهم من خلالها في إعادة صياغة المعايير الموكل لها تحديد التراتبيات الاجتماعية، لاسيما منها الأزمات الطبيعية والأوبئة والمجاعات.

على غرار ما قدمه الهلالي نجد باحثا آخر قارب بين الأزمات المناخية واختلال الفوارق الاجتماعية مشيرا إلى دورها المزدوج في تعميقها من جهة وإلغائها من جهة أخرى، مستندا في ذلك على ما ذكره روزنبرجي " Rosenberge"، والتريكي بأنّ الكوارث الطبيعية تُدخل تعديلات على التوازن الاجتماعي وعلى توزيع الثروات(العرجاوي: 2019، ص.213)؛ فالقول بتضرر الفئات الفقيرة والمعدمة بتأثيرات الأوبئة والمجاعات أكثر من غيرها أصبح قابلا لإعادة النظر والمراجعة؛ مع ما بسطه ابن خلدون من تحليلات أشار فيها إلى تضرر الميسورين أكثر من الفقراء بسبب التغير المفاجئ في نمطهم الغذائي وعدم مقدرة أبدانهم على مواكبته، عكس أولئك الفقراء الذين ألفوا شظف العيش هيأهم لمقاومة الجوع وأكسبهم مناعة ضده(ابن خلدون: 2015، ص.89).

وسواء صحت تحليلاته أم أخطأت، لا نشك أنّ الأوبئة والمجاعات ما كانت لتفرق تأثيراتها وإن تفاوتت بين فقير وغني حيث يمكننا القول أنّ الاثنان تساوا أمام الموت والهلاك وحتّى في انعدام الأقوات وقد صرح بذلك ابن عذاري قائلا عن احدة مجاعات القرن الخامس الهجري/11م:"واستوى في عدم القوت الفقراء والأغنياء"(ابن عذاري:1984، ص.38)، وحسبنا أنّ الطاعون الأسود أتى على الأعيان مثلما أتى على الفقراء، كما لا نعدم مساواته أحيانا بينهما في نمط المعيشة وأسلوب الحياة ولو مؤقتا؛ فكيف يكون ذلك؟

يتميز علية القوم بنمط معيشي محدد تحيطه الكثير من مظاهر الترف والبذخ، ويمارسون هوايات ونشاطات تميزهم عن باقي الفئات الاجتماعية، نجد من بينها هواية الصيد الذي ارتبط الحديث عنه في الفترة الوسيطة بفئة اجتماعية معينة هم أشراف القوم وملوكهم؛ ولا غرو أن يقترن تعريفه بالفئة الممارسة له؛ ففي نظر أحد المؤرخين هو:" نزهة الملوك ورياضة الأشراف"(المنكالي: 1880، ص.15)،

يلج الصيد بهذا المعنى ضمن نشاطات الفئة الخاصة وهذا ما أعطاه رمزية أحال مدلولها إلى تراتبية اجتماعية يكون كل ممتهن له مشار إليه بالانتماء لطبقة الخواص والأعيان، وهو أمر ظل مقتصرا وفق النصوص المصدرية وغيرها على هؤلاء فقط لارتباطه بحياة البلاط، ولا يعدو أن يكون الصيد وفق هذا المنظور نشاط ملوكي وحسب، بل يأخذ أبعادا ثقافية واجتماعية تجعل منه معيارا هاما تقاس به المستويات المعيشية والترفيهية وتتفاضل به حياة الخواص عن العوام؛ فهو ما انفك يظهر على أنّه نمط من أنماط الترويح وضرب من ضروب الرياضة ومتعة من متع النفس التي مارسها هؤلاء (بودالية: 2015، ص.122).

ولكن يبقى هذا الحصر نسبي بالنظر إلى ما أفرزته الأوبئة وتداعياتها الغذائية التي جعلت الساكنة بالمجتمع الأندلسي تتجه مع غياب المواد الاستهلاكية الضرورية لمعاشها اليومي إلى سلوك الصيد والقنص؛ إذ لا نستبعد أن يلجأ هؤلاء إليه لتغطية النقص الحاصل في الغذاء مع ما تتمتع به البيئة الأندلسية من فضاءات برية وبحرية لا تسمح بممارسته وحسب، بل وتوفر من خلاله غذاء من شأنه أن يسد حاجياتهم؛ فقد كانت أشبونة مقصدا لصيد البر والبحر(ابن الخطيب: 2009، ص.47)، ومثلها عرفت بليش وجزيرة ميورقة باهتمام أهلها بالصيد(العذري: 1965،ص.120).

إنّ هذه الأمثلة المستشهد بها هنا على أهميتها تبدو غير كافية من أجل الوقوف على سلوك الصيد والقنص المتبع في فترات المجاعات؛ فإذا كانت كتب الحوليات والمصادر الأدبية تفصح وبإسهاب عن مختلف أدوات وطرائق الصيد المتبعة من قبل الملوك والأعيان أثناء ممارسته؛ فإنّ الأمر يختلف حين يصبح الصيد نشاطا مشاعا بين كافة المجتمع؛ حيث تقل إن لم نقل تنعدم المعطيات التاريخية التي تكشف لنا عن طبيعة الحيوانات التي كان يتم اصطيادها أو الأدوات والطرائق المتبعة في ذلك، وهو تعتيم يصعب تفسيره في غياب المعطيات المساعدة؛ وإن كنا لا نستبعد ارتباطه بذهنية المؤرخين وطبيعة تصورهم للتاريخ والقوى الفاعلة في تحركيه.

وإذا كان الباحث في التاريخ المغربي في نفس الفترة على غرار الباحث في التاريخ الأندلسي تسعفه المادة التاريخية بإشارات تظهر له اتجاه المغاربة إلى الصيد لتأمين حاجياتهم الغذائية؛ مثلما فعل أحد صلحاء أزمور وهو حفص بن معاذ الصنهاجي(ت561هـ/1156م)، بجمعه لكثير من المساكين في مجاعة 535هـ/1140م؛ حيث كان يقوم بمؤونتهم وينفق عليهم من الحوت وغيره إلى أن أخصب النّاس"(ابن الزيات: 1984،ص.183)، وبغض النظر عن سياقات النّص وخلفياته نقول أنّ المجاعات كثيرا ما دفعت بالجائعين إلى الصيد خاصة البحري نظرا لما يوفره من أسماك وحيتان تغطي الحاجة الغذائية من جهة، وتمتثل من جهة أخرى لضوابط الشرع في تحري الأكل الحلال والابتعاد عن الشاذ والمحرم؛ وهو ما نلمسه في ارتباط مسألة الصيد البحري هنا بأحد المتصوفة على ما يحمله النّص من كرامات الإطعام والبركة؛ فهو يؤسس لسلوك غذائي يمتثل كما أشرنا لضوابط الشرع والقيم الدينية المؤطرة للسلوك.

مع التحفظ الذي نبديه بخصوص الاستشهاد بأمثلة من المصادر المغربية لاختلاف طبيعة المجتمعين المغربي والأندلسي، ولخصوصية بعض الأوبئة والمجاعات بعدوة دون أخرى، غير أنّنا لا نتحرج من القول أنّ المجاعات والأوبئة وإن اختلفت شدتها وتباين انتشارها من عدوة إلى أخرى؛ فالسلوكيات الغذائية المتبعة لغرض تلافيها تبقى واحدة، وهو ما أوضحه من قبل عبد الهادي البياض في كتابه السالف الذكر، لطبيعة النفس الإنسانية الساعية دوما للحفاظ على الاستمرار وديمومة البقاء.

لا نستبعد أنّ الأندلسيون وفي رحلة بحثهم عن الطعام وجمع الأعشاب البرية وقطف الثمار من جنبات الأودية وسفوح الجبال وقممها، أن يكونوا قد مارسوا إلى جانب ذلك القنص والصيد أيضا، كما أنّه من غير المعقول أن تزين الأسماك والحيتان موائدهم اليومية لتغيب في فترات المجاعات، وهي الأطعمة الأكثر وفرة ومن اليسر الحصول عليها لاعتبارات عديدة منها؛ "أنّ البحر لا تطاله التقلبات المناخية إذ يبقى بمنأى عنها، كما أنّه مصدر للأطعمة التي تدخل في خانة الحلال وتتوافق مع قيم المجتمع"(بوتشيش، البياض:2013، ص.36).

خلاصة ما نود الانتهاء إليه أنّ الصيد والقنص بشقيه البري والبحري، عد أحد الأنماط السلوكية التي اتبعها الأندلسيون وقت الأزمات والمجاعات، وإن كان الركون إلى هذه الخلاصة يتنافي وقلة المعطيات الواردة في هذا الشأن التي لم تسمح لنا ببناء فكرة شاملة عن طبيعة هذا النمط السلوكي بجزئياته الدقيقة، ولكن يبقى القول بأنّ اتباع الأندلسيين له قد كسر قاعدة التراتب الاجتماعي التي لطالما أدرجته ضمن أنشطة الملوك والأعيان ليصبح بذلك أحد السلوكيات التي يمكنُ البحث فيها من إعادة رسم صورة المجتمع وبنائه الطبقي.

ج.السلوك الغذائي العدواني وانتفاء الروابط الاجتماعية:

يجرنا البحث في أثر الأوبئة والطواعين على السلوك الغذائي بالمجتمع الأندلسي إلى الالتفات إلى دراسة أثرها في بروز السلوكيات العدوانية التي واكبت عملية تحصيل الأقوات إبّان فترات المجاعات؛ إذ لا مراء من القول أنّ الجوع وما يفرزه من شعور بالعجز وعدم القدرة على اشباع الحاجيات الضرورية ينتج عنه احباط وتقييد للدوافع الحيوية التي غالبا ما تسعى للإشباع وتحقيق الرضا والسرور والابتعاد عن المواقف المؤلمة، مما يدفع بالفرد إلى اتباع السلوك العدواني على اعتباره ردة فعل لمثيرات انفعالية ما انفك اليأس والتوتر والإحباط يقويانها.

وعلى قلة ما احتفظت به النصوص التاريخية بخصوص نزوح الساكنة إلى هذه السلوكيات التي أقل ما يقال عنها أنّها قفزت على القيم والمثل العليا وانحدرت إلى قيم حيوانية جردت الإنسان من صفته الآدمية (بوتشيش، البياض: 2013، ص.39)، لكنّها صورت لنا مشاهد عن لجوء الفرد الأندلسي تحت طائلة الجوع إلى أكل لحم أخيه أو ما عرف بالأنثروفاجيا أين أصبحت جثث الأموات هدفا للجياع المتربصين(الطبّابي:1997، ص.174)؛ يذكر ابن عذارى أنّه في سنة 487هـ/1094م، أفضت المجاعة التي حلت بالسكان إلى "أكل جيف بني آدم...وقد عثر على نصراني وقع في الحفير فأخذ باليد ووزع لحمه"(ابن عذاري: 1984،ج4، ص.38).

يفصح ابن الخطيب من جهته في نفاضة الجراب عن تبعات وباء الطاعون الأسود(749هـ/1348م) التي دفعت بالساكنة وقتئذ إلى انتهاج السلوك نفسه بقوله:" حتّى امتكت العظام الرفات واستنقعت الجلود وأكلت الجيف (ابن الخطيب: ج2، ص224)، ويبدو أنّ هذه الظاهرة لم تكن قصرا على بلاد الأندلس؛ ففي المجاعة التي ضربت مصر سنة662هـ/1263 أكل النّاس بعضهم بعضا (الطبّابي: 1997، ص.175).

قد تظهر هذه الأقوال أنّها مجرد صيغ بلاغية نسجت من خيال الكاتب للدلالة على فظاعة المجاعة وشدتها، ولكن لا ريب أن يبمم الجائعون بوصلتهم البيولوجية شطر الجثث الآدمية كلما زادت حاجاتهم وتمكنّ منهم الجوع، فتبرز الأنثروفاجيا بقوة في الأزمات الغذائية العنيفة يؤول معها كل سلوك من شأنه أن يسد رمق الجوع ويدفع ضرره المادي والنفسي مباح.

أحدثت هذه الظاهرة خلخلة في المنظومة القيمية والاجتماعية انتفت معها الروابط الإنسانية التي عادة ما تنشأ في ظل الالتقاء بين المصلحة والمشاعر فتتسامى عن الصراعات والنزاعات الناتجة عن اختلافهما، فالأزمة الغذائية وإن كانت عامة ستبقى شأنا فرديا يسعى كل حي لتفاديه إبقاء للنفس؛ فتفضي حينئذ مسألة البحث عن الطعام ولو مؤقتا إلى حل الروابط الاجتماعية؛ فتتلاشى كل القيم الأخلاقية والاجتماعية والثقافية أمام المجاعة، حتّى العلاقات الدموية الحميمية يمكن لها أن تختفي لتصبح الحاجة والغرائز المحدد في كل العلاقات البشرية(الطبّابي:1997، ص.175).

تتعدى وظيفة السلوك الغذائي الأبعاد البيولوجية إلى أخرى رمزية تكون غايتها خلق جوانب علائقية للأفراد في سياقاتهم الثقافية والاجتماعية، وفي هذا السياق يراهن كثيرا على أهميته في إثارة التفاعل والتواصل بين النّاس لما فيه من إلغاء للعدوانية وابعاد للخطر (زيان، بووشومة:2020، ص.105-106)، إذ قيل هذا المنحى:" أنّ الرفيق حرفيا الشخص الذي يأكل المرء معه الخبز، ورفض المشاركة في الطعام علامة على العداوة والكراهية (كونيهان:2013، ص.31).

وإذا كانت المشاركة في الطعام تقتضي بقاء الجماعة على قيد الحياة على المستويين الاجتماعي والمادي؛ فإنّ اتجاه الإنسان تحت ضربات الجوع واكراهات المجاعات إلى أكل الجيف الأدمية يشكل تهديدا للجماعة وتكريسا للعدوانية التي كثيرا ما سعى الخطاب الفقهي إلى محاربتها موضحا أنّه "لو وقع جزء من آدمي ميت في قدر ولو وزن دانق؛ فإنّ أكله محرم احتراما لا استقذار"(الوليدي:1990، ص190)؛ والسؤال المطروح هنا ما هو سبب تحريمها مع إباحة غيرها من الميتة التي رخص الفقهاء أكلها إذا عدم المضطر شيئا حلالا يتغذى به (ابن رشد، ج1، ص461).

ويرجح أنّ هذا التحريم جاء من منطلق حرمة وقدسية الجسد الآدمي في المتخيل الديني جعلت أي محاولة تعدي عليه هي بالضرورة تعد على ذلك المقدس، وإن كانت الظاهرة قد ألغت مثل هذا التحليل، حيث غدت حرمة الموت والخشية من الموتى ذكرى عفا عليها النسيان وتوارت بعيدا في اللاوعي البشري (الطبّابي:1997، ص.175). كما يرجح تحريمها مخافة أن يستساغ أكلها وتتحول مع توالي السنون إلى عوائد غذائية يصعب تغييرها في المجتمع بسبب استحكام العادات نتيجة التكرار الذي يعطيها صفة الثبات والرسمية، وربما هذا ما حدث مع أكل ذوات الأنياب من الكلاب والذئاب التي رغم التحريم والنهي عن أكلها (بوتشيش، البياض:2013، ص.38) أدرجت بفعل العادة والعرف ضمن النظام الغذائي لبعض المناطق بالمغرب، وبات من العسير تغييرها.

د. الأطعمة الشاذة والمستهجنة: تحصيل الأقوات واختلال الأذواق:

يهدف السلوك الغذائي إلى جانب تحقيق الوظيفة البيولوجية إلى تحقيق اللذة والمتعة الذوقية، وقد اعتنى الأندلسيون بهذه المسألة أيّما اعتناء؛ حتى غدت لهم فلسفتهم الخاصة للأكل وفن الطبخ صاغوها في قولهم: " أنّ أطيب الطعام ما وقع عليه الحس ورأته العين ووثقت به النفس واطمأنت إليه وعملت حقيقة صنعته"(مؤلف مجهول: 1961، ص79)، والظاهر أنّها فلسفة شاملة راعت تحصيل الذوق بشكل عام يضمن لكل حاسة من الحواس نصيبها، فضلا على التنبيه إلى عامل نفسي هام يتمثل في طمأنينة الفرد ومعرفته المسبقة بما يأكله.

وبالموازاة مع ذلك عملوا على تكريس فلسفتهم هذه ضمن كتب الطبيخ التي غصت بالعديد من الوصفات والأطباق وما تستلزمه من نكهات وتوابل وأفاويه يمكن إضافتها أثناء طهوها لتتناسب والذائقة الأندلسية؛ والأمر ذاته نلمسه في كتب التدبير وحفظ الأبدان التي سعت هي الأخرى إلى تقديم طريقة مثلى للغذاء تجمع بين ضمان الذوق وسلامة الصحة.

ليس غرضنا أن نتتبع هنا مميزات المطبخ الأندلسي وما اشتمل عليه من أطباق زينت موائدهم وكشفت عن عوائدهم وتراتبيتهم؛ فعلي أهميتها في دراسة سلوكهم الغذائي بأبعاده الانفعالية والرمزية، غير أنّها لا تشكل معيارا حقيقيا وسليما لضبطه ما لم يتم الوقوف على أنماطها أثناء الأزمات الغذائية والمجاعات أين تنتكس الفطرة الإنسانية

ويحدث خللا في الأذواق يصبح فيها سد الرمق أولى من إرضاء الذوق، وإن تطلب الأمر تناول أغذية كانت بالأمس القريب مستهجنة في منظومته القيمية.

جنح الأندلسيون تحت ضغط الجوع واكراهات المجاعات وتواترها إلى بعض الأطعمة الشاذة التي تتعارض والذوق؛ فحالة الذعر والخوف المصاحبة عادة لمثل هذه الأزمات مع ما يعززها من العجز عن تحصيل القوت والطعام، دفعت بهؤلاء إلى استهلاك الجلود (المراكشي: 1978، ص.202)، كما دفعت بهم إلى أكل ما هو مستقذر وتعافه النفس، نلمس ذلك في لجوء سكان قرية مغانم الواقعة قرب طليطلة إلى أكل التراب والطين؛ بعد أن أعياهم درك الشقاء والمجاعة، حتّى أنّهم تكيفوا معه في الأوقات العادية وغدا جزءا من نظامهم الغذائي (الإدريسي: 1994، ج2، ص .552). ويسوق لنا ابن الخطيب نّصا يوضح فيه اضطرار السكان إلى أكل الحشرات والهوام في بعض أعوام المجاعة التي أعقبت وباء الطاعون الأسود (ابن الخطيب: 1985، ج2، ص.334).

هذا السلوك وإن ظهر أنّه منافي للمعايير والقيم الضابطة للسلوكيات الفردية والجماعية بالمجتمع؛ غير أنّه في الواقع يعد سلوكا وقائيا أملاه الخوف وحب السلامة وغريزة حفظ الذات، فهو من هذا المنطلق لا يعدو أن يكون رد فعل طبيعي يتبعه الفرد لإرضاء حاجته البيولوجية؛ فلا يعبأ حينها إلى طبيعة ما يأكله إن تناسب مع ذوقه أم لم يتناسب؛ ويمكن اعتباره أيضا أحد الآليات الدفاعية التي استحدثها الفرد الأندلسي لمواجهة شبح الجوع انضافت إلى مجموعة الآليات والتدابير التي ابتكرها في سبيل ذلك، ومع وجاهة هذا التحليل؛ فلا ننكر أنّ اتجاهه إلى أكل الأطعمة الشاذة لاعتبارات بيولوجية ونفسية أحدثت رجة في الذهنيات والعقليات التي لطالما تغنت بالأذواق وبيّنت سبل تحصيلها.

خاتمة:

تثير دراسة أثر الأوبئة والمجاعات على السلوك الغذائي بالمجتمع الأندلسي خلال القرنين(6-8هـ/12-14م)، العديد من القضايا والإشكاليات، تكون محاولة تتبعها وفكها بمنأى عن رؤية شمولية يتداخل فيها المعطى التاريخي والاجتماعي والذهني ضربا من المستحيل؛ ذلك أنّ قراءة متغيراته في سياقها التاريخي لوحده لن تحررنا من الطابع السردي ما لم يتم تطعيمها بمقاربات اجتماعية ونفسية وأنثروبولوجية تتيح لنا الكشف عن المواقف الذهنية والممارسات الاجتماعية التي أفرزتها الأوبئة والمجاعات خلال هذه الفترة على مستوى السلوك الغذائي.

أثبت الدراسة حدوث تغير ات في أنماط السلوكيات الغذائية ميزها ارتداد الأندلسيين أحيانا إلى الطبيعة واتباع أسلوب الجني وقطف الثمار، وهو أسلوب على ما يبدو تم الركون إليه لمؤامته السياقات الظرفية وطبيعة النمط الاستهلاكي الذي فرض الاتجاه إلى الموجود والمتوفر؛ ناهيك عن اتباعهم أسلوب الصيد والقنص، وهي كلها أساليب اندرجت ضمن ما يعرف بالاقتصاد الطبيعي القادر على سد الحاجيات الغذائية.

لم يكن أسلوب الجمع والصيد الوحيدين اللذين ابتكرهما الأندلسيون لمواجهة المسغبة وتبعاتها؛ ففي إطار جدلية التحدي والاستجابة انتهجوا أيضا سلوكيات عدوانية حركتها غريزة البقاء وأوقدها الخوف والذعر، مما اضطرهم إلى أكل الجيف والميتة في مشاهد تصور قفزهم على القيم الدينية والاجتماعية، كما لجأوا تحت ضغط الجوع واكراهاته إلى تناول الأطعمة الشاذة ما ينم عن حدوث تغير في الذهنيات باتت فيها مسألة سد الرمق أولى من إرضاء الذوق.

إنّ هذه المتغيرات السلوكية وإن ظهر تعارضها بين المثال والواقع؛ فهي سلوكيات إن قرئت ضمن سياقها التاريخي على اعتبارها جزءا من البنى الاجتماعية والذهنية الخفية التي رغم سكونها وتحولاتها البطيئة تظل أكثر فاعلية

من غيرها، فلو وضعت هذه المتغيرات على أنّها فعل مبدع في تاريخها، لكشفت عن حركية الثابت والمتحول ولكانت مدخلا يمكننا على ضوئه مقاربة العديد من القضايا التاريخية كأن تصبح ذا أولوية في إعادة النظر في مسألة التراتب الاجتماعي في أحد جزئياته مثل الصيد الذي ألغى الفوارق الاجتماعية ولو بصورة مؤقتة.

ختاما نقول أنّ دراستنا هذه لم تكن مجرد وقوف على متغيرات السلوك الغذائي بمحركاته البيولوجية والنفسية، بقدر ما هي دراسة حاولت التعمق في البنيات الفكرية والاجتماعية التي لم يكن بإمكاننا تلافيها ونحن نبحث في هذه المتغيرات، إذ ظلت رغم ثباتها وسكونها معرضة لتحولات مهما بلغت شدتها وعنفوانها ما كانت لتخرج عن حدود النسق المحتضن لها، لتكون بذلك متغير ا حافظا، أي أنّها متغيرات لازمة لبناها لا تخرج عنها إلاّ بالقدر الذي تعود فيه إليها لتضبط توازنها وتحافظ على قوانينها.

قائمة المراجع:

1) ابن الأحمر (1991): روضة النسرين في التعريف ببني مرين، تحقيق، محمد عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط.

2) الإشبيلي أبو الخير(1990): عمدة الطبيب في معرفة النبات، تحقيق، محمد العربي الخطابي، ج2، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط.

3) الإدريسي(1994): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج2، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

4) بوتشيش، القادري إبراهيم، البياض عبد الهادي(2013)، ثقافة الطعام وتنوع خطاباتها في زمن المجاعات بالمغرب والأندلس من القرن 6 حتّى القرن8هـ/12-14م، مجلة عصور الجديدة، ع8، مختبر تاريخ الجزائر، جامعة وهران1، 1-49.

5) بن خيرة، رقية(2018): التدابير الطبية والوقائية للعناية بالصحة العامة في الأندلس التدبير بالأغذية نموذجا"، مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، ع.30، فريق بحث المعارف للدراسات التاريخية والاجتماعية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، موريتانيا، 85-98.

6) بودالية، تواتية(2015): هواية صيد الحيوانات البرية في الأندلس، مجلة عصور الجديدة، ع19، مختبر تاريخ الجزائر، جامعة وهران1، 122-134.

7) بودلال، حسن(2019): الإنسان والحيوان إبّان الأزمات بالمغرب، من كتاب الأزمات والهشاشة بالمغرب مقار بات متقاطعة، تنسيق مصطفي نشاط وآخرون، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، المغرب، 305، 320.

8) بولقطيب، الحسن(2002): جوائح وأوبئة مغرب عهد الموحدين، منشورات الزمن، المغرب.

9) البياض عبد الهادي (2008): الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس (ق6-8هـ/12-14م)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت.

10) حبيدة، محمد(2016): بؤس التاريخ مراجعات ومقاربات، ط2، دار الأمان، المغرب.

11) الحميري(1984): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق، إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، بيروت.

12) الخطابي، محمد العربي(1988): الطب والأطباء في الأندلس، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

13) ابن الخطيب(1985): نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقيق، أحمد مختار العبادي، ج2، دار النشر المغربية، الدار البيضاء.

14) ابن الخطيب(2009): اللمحة البدرية في الدولة النصرية، دراسة وتحقيق، محمود مسعود جبران، دار المدار الإسلامي، بيروت.

15) ابن خلدون، عبد الرحمن(2015): مقدمة، تحقيق، محمد الشامي، شركة دار الكتاب الحديث، الجزائر.

16) درياس، ليلى(2020): جودة الحياة لدى المتفوقين في ضوء السلوك الغذائي، أطروحة دكتوراه LMD، علم نفس الصحة الإكلينكي، قسم علم النفس وعلوم التربية والأرطوفونيا، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الحاج لخضر، باتنة1.

17) ابن أبي، زرع(1999): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، راجعه، عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، مكتب الثقافة الرباط.

18) ابن الزيات التادلي(1984): التشوف لرجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق، أحمد التوفيق، منشورات، كلية العلوم الإنسانية والآداب، الرباط.

19) زيان محمد، بوشومة الهادي(2020): الطعام والرباط الاجتماعي في مجتمع محلي متوسطي دراسة أنثروبولوجية الشلف الجزائر، مجلة الأكاديمية للدراسات الاجتماعية والإنسانية، مج12، ع1، جامعة حسيبة بن بوعلي، الجزائر، 102-110.

20) ابن رشد(1996): بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ج1، المكتب الثقافي السعودي بالمغرب، المغرب.

21) الطبّابي، بلقاسم(1997): الموت في مصر والشام في العهد المملوكي، أطروحة دكتوراه في التاريخ، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى.

22) ابن عذاري، المراكشي(1985): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق، محمد إبراهيم وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

23) ابن عذاري، المراكشي(1984): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق، إحسان عباس، ج4، دار الثقافة، بيروت.

24) عدالة، مليكة(2018): عامة الأندلس في العصر الموحدي، أطروحة دكتوراه علوم في التاريخ الإسلامي الوسيط، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أحمد بن بلة، وهران1.

25) العذري(1965): نصوص من الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق، عبد العزيز الأهواني، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد.

26) العرجاوي، كريم(2019): المناخ والمجتمع ملاحظات حول أثر الأزمات المناخية على مغاربة القرن17م، من كتاب الأزمات والهشاشة بالمغرب مقاربات متقاطعة، تنسيق مصطفي نشاط وآخرون، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، المغرب، 199، 219.

27) عزاوي، أحمد(1995): رسائل موحدية مجموعة جديدة، ج1، منشورات جامعة ابن طفيل، المغرب.

28) العاملي، ابن السماك(1980): الزهرات المنثورة في الأخبار المأثورة، تقديم وتحقيق، محمود علي مكي، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مج20، المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد.

29) ابن صاحب الصلاة(1964): المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تحقيق، عبد الهادي التازي، دار الأندلس للطباعة والنشر، المغرب.

30) كونيهان، كارول(2013): أنثروبولوجيا الطعام والجسد، ط1، ترجمة، سهام عبد السلام، المركز القومي للترجمة، القاهرة.

31) ليبس، يوليوس(2006): أصل الأشياء بدايات الثقافة الإنسانية، ترجمة كامل إسماعيل، دار المدى للنشر والتوزيع.

32) المراكشي عبد الواحد(1978): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق، محمد سعد العريان، دار الكتاب، الدار البيضاء.

33) المنكالي، سيدي محمد (1880): كتاب أنس الملا بوحش الفلا، طبعة باريس.

34) مؤلف مجهول(1961): الطبيخ في المغرب والأندلس، تقديم، أمبرزيو أويتي ميراندا، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مج9، 10، المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد.

35) المقري، أحمد(1988): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق، إحسان عباس، ج4، دار صادر، بيروت.

36) الناصري(1997): الاستقصا بدول المغرب الأقصى، تحقيق، جعفر ومحمد الناصري، ج3، دار الكتاب، الدار البيضاء.

37) الوليدي، أبو الفضل(1990)، الحلال والحرام، دراسة وتحقيق، عبد الرحمن العمراني، منشورات وزارة الثقافة والشؤون الإسلامية.

38) الهلالي، محمد ياسر(2019): أسس التراتب الاجتماعي في المدينة المغربية أواخر العصر الوسيط، من كتاب الأزمات والهشاشة بالمغرب مقار بات متقاطعة، تنسيق مصطفي نشاط وآخرون، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، المغرب، 53- 70.

الوباء بمدينة تلمسان وضواحيها من خلال الكتابات الشاهدية من القرن 10-13هـ/16-19م

Epidemic in Tlemcen and its environs through witness writings 10th-13th century/16-19 AD

د. عياش محمد
Dr.Ayache Mohammed
جامعة الشلف/الجزائر
university of chlef /Algeria

الملخص:

يندرج موضوع دراستنا حول الأوبئة والأمراض الفتاكة التي شهدتها مدينة تلمسان وضواحيها من خلال الكتابات الشاهدية، هذه الأخيرة شهدت كغيرها من الأقاليم الجغرافية الأخرى أزمات وكوارث عديدة عبر مسارها التاريخي، فكانت أزمة الوباء والطاعون من أشد الأزمات التي كان لها وقع عليها من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والديموغرافية، ومن هنا جاءت دراستنا لإماطة اللثام عن هذا الموضوع بالاعتماد على المصادر الأثرية وأخص بالذكر الكتابات الشاهدية فهي بمثابة مصادر أثرية أصيلة معاصرة للأحداث والوقائع ويصعب الطعن فيها أو التشكيك في معلوماتها، بالإضافة إلى المعلومات التي تحملها من اسم المتوفي ولقبه ونسبه وأصوله القبلية والجغرافية ووظائفه أو حرفته وتاريخ وفاته وانتمائه الفكري والديني وأسباب وفاته، وقد احصينا خلال الفترة المدروسة (13 شاهد) موزعة على الشكل التالي: وباء (964هـ/ 1556م) تم احصاء أربعة شواهد، أما في سنة(1154هـ/1741م) تم احصاء شاهد واحد، وفيما يخص وباء سنة (1213هـ/1799م) ممثلا بشاهدين، ثم وباء سنة (1234هـ- 1238/1816-1818م) ممثلا بستة شواهد، مع مقارنتهم بالمصادر التاريخية لتأكيد حقيقة وجود الوباء في تلك الفترات كما تثبت لنا الامتداد الجغرافي والزماني للوباء في بلاد المغرب الإسلامي.

كما تجرنا هذه الشواهد إلى طرح العديد من التساؤلات حول عدم ذكر سبب الوفاة على أغلب الشواهد وذكرها على البعض القليل منها؟ أيضا القيمة الجمالية والفنية للكتابات الشاهدية التي تم فيها ذكر الوباء وهذا ما يتنافى مع حالة الهلع والخوف؟ وأكثر من ذلك نجد عدد كبير من شواهد القبور في بعض السنوات التي عاصرت وجود الوباء، لكن تكتمها عن عدم ذكر سبب الوفاة بالوباء، كل هذا سنتناوله بشيء من التفصيل والتحليل بقراءة مضامين نصوصها ووصف شواهدها وتحليلها للوصول إلى بعض النتائج العلمية.

الكلمات المفتاحية: شواهد القبور، الوباء، الطاعون، الكتابات الشاهدية، النقائش الجنائزية.

Abstract:

The subject of our study on epidemics and deadly diseases witnessed in Tlemcen and its environs through witness writings, the latter has witnessed, like other geographical regions, many crises and disasters through its historical course, The epidemic and plague crisis was one of the most severe political, economic, social and demographic crises, hence our study to reveal this subject based on archaeological sources, in particular witness writings, which serve as authentic contemporary archaeological sources of events and facts and are difficult to challenge or question their information, In addition to the information it carries from the deceased's name, surname, lineage, tribal and geographical origins, functions or craft, date of death, intellectual and religious affiliation and causes of death, we were counted during the period studied (13 witnesses) distributed as follows: B (964 Ah/ 1556 AD) four witnesses were counted, but in 1154 Ah/1741 AD) One witness was counted, and for the epidemic of the year (1213 Ah/1799 AD) represented by two witnesses, and then the epidemic of the

year (1234 Ah - 1238/1816-1818 AD) represented by six witnesses, compared to historical sources to confirm the fact that the epidemic existed in those periods as evidenced by the geographical and temporal extension of the epidemic in the Islamic Maghreb.

This evidence also brings us to many questions about the non-mention of the cause of death on most of the evidence and mentions it to some of them? Also the aesthetic and artistic value of the witness writings in which the epidemic was mentioned and this is contrary to the state of panic and fear? What is more, we find a large number of tombstones in some of the years since the epidemic, but its secrecy about not mentioning the cause of death in the epidemic, all of this will be addressed in some detail and analysis by reading the contents of its texts, describing its evidence and analysing it to reach some scientific results.

Keywords: Tombstones, Epidemic, Plague, Witness writings, Funeral grunts

مقدمة:

تمدنا الكتابات الشاهدية (الكتابات المقبرية او الكتابات الجنائزية) في بلاد المغرب الاسلامي بصفة عامة بمعلومات هامة متعلقة بالمتوفي ونسبه واصوله القبلية والجغرافية والقابه وتاريخ وفاته، وفي بعضها تاريخ الميلاد والفئة العمرية والطبقة الاجتماعية ووظيفته و مهنته، إضافة إلى مستواه العلمي واتجاهه الفكري والعقائدي والديني ونادرا ما تمدنا بسبب الوفاة، وحالتها، وإذا ذكرت تتراوح هذه الأسباب بين الاستشهاد في المعارك أو الصراعات الداخلية والخارجية أو القتل العمدي، أو الموت جراء الوباء والطاعون، ومن هذا المنطلق فهي تعتبر مصدرا مهما في الدراسات التاريخية فهي لا يستغني عنها الباحث في التحقيق والتوثيق والتأليف، (عياش محمد: 2017-2018، ,(Vatin(N) 1991وتعتبر مصدرا أثريا أصيلا معاصر للأحداث والوقائع حيث يصعب الطعن فيها أو التشكيك في معلوماتها، سنحاول في هذه الدراسة تبيان أهمية الكتابات الشاهدية في دراسة الاوبئة والامراض في بلاد المغرب الاوسط(الجزائر) وبالضبط في مدينة تلمسان وضواحيها.

وركزنا على الناحية الغربية للجزائر واخص بالذكر مدينة تلمسان، نظرا لما تتوفر فيها من مادة أثرية، وبعد عملية الجمع والإحصاء استطعنا إحصاء حوالي 13 شاهد موزعة على مدينة وهران (2) ومدينة تلمسان(11)، أقدمها يؤرخ سنة (1154هـ/ 1741م)، وأحدثها يؤرخ سنة (1235هـ/ 1819م)، ومن هذا المقام نطرح الاشكالية التالية:

- ✓ ماهي الأوبئة التي تعرض لها سكان بلاد الغرب الجزائري خلال الفترة ما بين نهاية القرن 10-13هـ من خلال الكتابات الشاهدية ؟.
- ✓ وكيف أثرت هذه الأوبئة على الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية؟
- ✓ وهل حافظ الفنان والنقاش على نفس العناصر المكونة لنصوص الكتابة الشاهدية وزخرفتها؟

أولا: الوباء (964هـ/1556م)

حسبما ذكره ابن مريم ان سنة(964هـ/ 1555م) انتشر الوباء في تلمسان (يعتبر النصف الثاني من القرن السادس عشر فترة تميزت بانتشار الاوبئة، ودام ثمانية عشر سنة، واستقرت الطاعون أثناءها بوهران وتلمسان وامتاز بطابعه المحلي) (فلة موساوي القشاعي: 2001، ص. 139) ومن بين أحد ضحايا هذا الوباء العالم الفقيه سيدي محمد بن محمد بن الحاج المكنى بامزيان وتوفي شابا رحمه الله(الفقيه العالم المتفنن كان يحفظ مختصر ابن الحاجب الفرعي ورسالة ابن ابي زيد وألفية ابن مالك والتلمسانية والفرائض والاجرومية قرأ القرآن على أبيه وآخذ عنه جميع العلوم

وعلى علي اللواتي وتفقه على الشيخ سيدي محمد ابى السادات المديوني وأخذ عن الشيخ الولي الصالح سيدي علي بن يحي السلكسيني الرسالة ومختصر ابن الحاجب الفرعي والتلمسانية والفرائض والحساب توفي عام اربعة وستين وتسعمائة في الوباء) (ابن مريم التلمساني: 1991، ص. 284)، والصالح رايس، وامدتنا الكتابات الشاهدية في مقابر مدينة تلمسان التي تعود الى فترة انتشار الوباء على اربعة شواهد تنحصر بين شهر صفر ورجب من نفس السنة وثلاثة منها لعائلة العقباني أولاد أبي العباس أحمد وهم: ابنه محمد الخروبي (شهر رجب 964هـ)، واثنين من بناته هن: أمة الحق(شهر جمادى الثانية 964هـ) و فتوحة(شهر جمادى الثانية 964هـ)، ويضاف إليهم شاهد رابع يؤرخ بشهر صفر (964هـ/ 1556م)صعب تحديد اسمه ولقبه، ومن خلال النص يتضح انه كان قاضيا، ولقد توفي كلهم في العام نفسه في مدة لا تتجاوز خمسة أشهر (Bosselard(ch), pp. 413-421، سمية مزود: 2009، ص. 134-144، عبد الحق معزوز، لخضر درياس: 2000، ص. 77-82، جيلالي صاري، 2011، ص. 83).

والمثير أنه لم يرد ذكر سبب الوفاة على الكتابة الشاهدية رغم وجود تقارب كبير في تاريخ الوفاة والذي يدل على وجود جائحة وهذا ما تأكده المصادر التاريخية، حيث يجعلنا نتساءل: عن سر كتمان سبب الوفاة في الكتابات الشاهدية هل هي كانت صدفة أم مقصودة؟ أو ربما كانت وفاتهم وفاة طبيعية؟ كما يجعلنا أيضا نثير قضية مهمة وهي أن نصوص الكتابات الشاهدية كانت تخضع لمراقبة معينة من طرف عائلات الميت، أو هي تطبيق وصية الميت والسؤال الذي يطرح نفسه: لماذا يتستر أهل الميت عن سبب الوفاة؟ ونشير أن هذه الظاهرة الاجتماعية مازالت الى يومنا هذا.

وقد صادفتنا عدة نصوص لكتابات شاهدية أثناء دراستنا لهذا الموضوع، لاحظنا أن عدد شواهد القبور التي عاصرت فترة انتشار الوباء، فمثلا في مدينة تونس صادفنا أكثر من أربع عشرة شاهدا تؤرخ بين(صفر 872هـ/ 1467م وذي الحجة 873هـ/1469م)، (El Aoudi Adouni: 1997, p. 477-483) إلا أنها لا تشير إلى سبب الوفاة بالطاعون، وكذلك شاهد قبر لأبو عبد الله الصفار (750هـ/1349م) (عبد الحق معزوز، لخضر درياس: 2000، ر140، ص. 321-322)وهو عبارة عن لوحة من الحجر مستطيلة الشكل، تتكون من سبعة أسطر، وعثر على شاهد قبره بزاوية سيدي الصفار، وهذا نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم / لا إله إلا هو العلي العظيم / توفي برحمة الله الشيخ الصالح /. الولي أبو عبد الله الصفار / يوم خمسة من شهر رجب / سنة خمسين وسبعماية / برد الله ضريحه ءامين /".

من خلال النص يتبين لنا عدم ذكر سبب الوفاة، والمعروف أن سنة (750هـ/1349م) عرفت بلاد المغرب وتلمسان وباء الطاعون الجارف الذي كان يعرف بالطاعون الاسود مخلفا كثيرا من الضحايا وقد عاصره ابن خلدون ووصفه وصفا دقيقا ونعته بالكارثة الكونية، وكان الموتى من جراءه يعدون بالمئات في اليوم الواحد (عبد العزيز فيلالي: 2014، ص. 124-125).

وحسب كتاب الوفيات لابن القنفد الذي يقول فيه (ابن قنفذ القسنطيني:1983،ص. 354-356): "وفي سنة خمسين وسبعمائة وقع الوباء الاول العام في الارض، وتوفي في هذه السنة الكثير من الفقهاء.... منهم أبو عبد الله الصفار الذي دفن في مسجده قرب باب القنطرة كان أحد تلامذة جدي للام". وبالتالي تبقى ظاهرة التكتم عن سبب الوفاة بسبب الوباء في كثير من الكتابات الشاهدية تثير عدة تساؤلات، وسنحاول التطرق إلى الكتابات الشاهدية لمدينة تلمسان التي بدورها أيضا تسترت عن سبب الوفاة بداية ب:

1.كتابة شاهدية أبو مدين القاضي (964هـ/ 1556م) (عبد الحق معزوز، لخضر درياس: 2000، ر35، ص.77):

لوحة مستطيلة الشكل من الحجر الرملي مقاساتها (55× 32سم) نفذت بأسلوب الحفر الغائر وبخط النسخ المغربي التلمساني، محفوظة بمتحف تلمسان، تتكون من سبعة أسطر وهذا نصها: " الحمد لله هذا/ ...../.... بومدين/ القاضي توفي/ أوايل صفر/ عام اربعة وستين/ وتسعماية".

نظرا لحالة الحفظ السيئة لشاهد قبر، حيث تعرض للأضرار على مستوى الجهة العلوية، ضاع لنا اسم ولقب المتوفي ونسبه، ومن خلال النص يتضح أنه كان قاضيا وتوفي في اواخر حكم السلطان مولاي حسين(960-964هـ/1550-1554م) وبداية الحكم الفعلي للدولة العثمانية في حكم صالح رايس باشا .

2.كتابة شاهدية لأبو عبد الله محمد الخروبي ابن أبي العباس أحمد العقباني المتوفي سنة (964هـ/1556م) (عبد الحق معزوز، لخضر درياس: 2000، ر 38، ص. 81-82)

لوحة من الحجر مقاساتها (46.5×35 سم) مستطيلة الشكل نقشت بتقنية النحت البارز وبأسلوب الخط النسخ المغربي التلمساني، تتكون من تسعة أسطر، عثر على شاهد قبره بمقبرة سيدي إبراهيم بمدينة تلمسان، وهذا نصها:" الحمد لله/ هذا قبر الشاب المكرم/ الأفضل الأجود أبو عبد الله/ محمد الخروبي بن السيد الفقيه/ العالم العلم القاضي أبي/ أبي العباس أحمد العقباني/ توفي أوايل رجب عام/ أربعة وستين/ وتسعماية/".

يحمل هذا الشاهد اسم أبو عبد الله محمد الخروبي بن ابي العباس احمد العقباني وهو أحد أبناء الفقيه العالم القاضي توفي في أوائل رجب سنة (964هـ/ 1556م) فترة انهيار الدولة الزيانية وهو في مرحلة الشباب، حيث حددت الفئة العمرية للمتوفي دليل على ثقل هذا المصاب وما أعظم الجلل عندما تختطف الموت شابا في مقتبل العمر، ودلالة على الموت المبكر وظاهرة تحديد الصفة العمرية للميت تدل على تأثير أهل الميت بالمتوفي.

3.كتابة شاهدية لآمة الحق بنت أبي العباس أحمد العقباني المتوفية سنة (964هـ/1555م) (عبد الحق معزوز،لخضر درياس: 2000، ر 36، ص. 78-79):

لوحة من الحجر مقاساتها (48.5×37.5سم) مستطيلة الشكل نقشت بأسلوب النقش البارز بخط النسخ المغربي التلمساني، من تسعة أسطر، عثر على شاهد قبرها بمقبرة سيدي إبراهيم (مقبرة سيدي ابراهيم: وتدعى بروضة آل زيان ثم تحولت إلى اسم سيدي إبراهيم نسبة إلى الشيخ العالم الولي الزاهد أبو إسحاق أحد شيوخ الإمام بن مرزوق الحفيد الصالح المصمودي) (عياش محمد: 2019، ص.97) محفوظة بمتحف تلمسان، وهذا نصها:" الحمد لله/ هذا قبر الحرة المصونة/ الدرة المكنونة آمة/ الحق بنت السيد الفقيه/ العالم العلم أبي العباس؟ أحمد/ العقباني توفيت أول/ جمادى الأخرى عام/ أربعة وستين/ وتسعماية/".

يحمل هذا الشاهد اسم المتوفي وهي امرأة بنت ابي العباس احمد العقباني، حيث جاء نصها شاهدها مختصرا واكتفي بذكر الحمدلة واسم المتوفي وتاريخ الوفاة، وعدم ذكر اسمها واكتفي بذكر القابها " الحرة (الحرة: بدأ استعماله في القرن السابع الهجري في بلاد المغرب، حيث جاء متأخرا بالمقارنة مع المشرق، والحرة هو خلاف الأمة أي الكريمة، وهي حرائر وحراث: مؤنث حر) (القلقشندي: ص. 12) المصونة (مأخوذ من الصيانة وهو من ألقاب النساء، ومعناه صيانة الشيء ووقايته من النظر واللمس وما نحو ذلك) (حسن باشا : 1989، ص. 472) الدرة المكنونة امة الحق" وهي من الالقاب الخاصة بنساء الطبقة الحاكمة وطبقة العلماء والقضاة ويعتبر من اكثر الالقاب تداولا على شواهد قبور

النساء تكريما للمرأة والرفع من شأنها وانتشر في الفترة الزيانية بداية من القرن السابع الهجري، ويفترض أنها توفيت بسب الطاعون الذي كان منتشرا بمنطقة تلمسان.

4.كتابة شاهدية لفتوحة أم ولد أبي العباس أحمد العقباني المتوفية سنة (964هـ/1557م): (عبد الحق معزوز، لخضر درياس: 2000: ر37، ص. 80-81)

لوحة من الحجر الرملي مقاساتها (44×44سم) مستطيلة الشكل، نقشت بتقنية النحت البارز وبأسلوب الخط النسخ المغربي التلمساني، تتكون من ثمانية أسطر، عثر على شاهد قبرها بمقبرة سيدي إبراهيم، وهذا نصها:" الحمد لله/ هذا قبر الحرة الجليلة/ فتوحة أم ولد السيد/ الفقيه العالم النبي أبو/ العباس أحمد العقباني/ توفيت أواسط جمادى/ الأخرى عام أربعة/ وستين وتسعماية/".

يحمل هذا الشاهد اسم المتوفية وهي فتوحة ام ولد ابي العباس احمد العقباني وهي احدى زوجاته، ولقبت بالحرة وهي في منزلة الجارية، حيث إذا انجبت من سيدها تلقب بأم الولد (هذا اللقب أطلق على الجارية أو الأمة التي أنجبت من سيدها ولدا ثم اعتقها وتزوجها، ويقال حررها ولدها وتسمى ب أم الولد) (ابن منظور، ص. 156) ويبدو أنها توفيت في شهر واحد وسنة واحدة في اواخر الدولة الزيانية مع أمة الحق، وتشكلت عناصر كتابتها من الحمدلة واسم المتوفي وتاريخ الوفاة. ومن المحتمل أن سبب وفاتها جراء الطاعون الذي اصاب تلمسان في هذه الفترة.

ثانيا: وباء (1154هـ/1741م):

يعود جذور وباء الطاعون سنة(1740-1741م) الذي أرجعه بعض الباحثين إلى المجاعة التي عاشتها الجزائر سنة(1738م)، واستمر حوالي ثلاث سنوات (سعيدوني: 2000، ص. 561)، عرف بشدته خلال فصلي الربيع والخريف، ويرجعه البعض إلى سفينة فرنسية قدمت من الاسكندرية حاملة للعدوى (Marchika: 1927, p. 79)، ولقد تبين أن هذا الوباء عبارة عن الطاعون الخراجي أو الدملي، وتفاقم الأمر عند مخالفة " الداي ابراهيم" الاجراءات الوقائية وعدم أخذ الاحتياطات اللازمة، اذا أمر هذا الاخير انزال البضائع وتسويقها، فتسبب في انتشار الوباء وكان الداي إبراهيم أحد الضحايا، وخلف في اسبوعه الاول حوالي ألف ضحية انتشر الوباء في كل من بلاد الجزائر (فلة موساوي القشاعي: 2003-2004، ص. 73-74، مجاهد يمينة: 2017-2018، ص.15)، حيث انتشر في كل الايالة وبصورة أخص بايلك قسنطينة بين ستني (1740- 1741م)، و في مدن الغرب الجزائري(مستغانم، وهران، وتلمسان) وبدأ يتلاشى مع نهاية 1741م، ولكن سرعان ما عاد في أفريل عام 1742م في مدينة قسنطينة والجزائر (فلة موساوي القشاعي: 2003-2004، ص 73-74) مخلفا وفيات قدرت ما بين 25 و30 ضحية يوميا، كما استمر هذا الوباء إلى غاية 1749م بحدة قليلة (Marchika: 1927, p. 97)، وامدتنا الكتابات الشاهدية بشاهد قبر واحد يؤرخ لهذا المرض وهي:

1.كتابة شاهدية لخديجة بنت الحاج محمد ابن عياد (1154هـ/ 1741م) (عبد الحق معزوز، لخضر درياس: 2000، ر100، ص. 182)

لوحة من الحجر الرملي مقاساتها (31×41سم) مستطيلة الشكل، نقشت بتقنية النحت البارز وبأسلوب الخط النسخ المغربي التلمساني، محفوظة بمتحف تلمسان تتكون من سبعة أسطر، وهذا نصها:" .... [خ]ـديجة / بنت الحاج امحمد / بن بعياد توفيت / بالوبى رحمة الله عليها / عام أربعة وخمسين وماية / وألف /".

تحمل الكتابة اسم المتوفي وهي امرأة تدعى" خديجة بنت الحاج امحمد ابن بعياد"، هذه العائلة تعد أيضا من العائلات العريقة المعروفة في تلمسان ومازال بعض من افرادها يعيشون إلى يومنا هذا في تلمسان، وذكر سبب وفاة هذه المرأة التي حصدها مرض الوباء، لكن دون ذكر اسمه مما يدل على أن ذلك العام عرفت المنطقة وباء قاتلا تسبب في موت الكثير من الأفراد.

ثالثا: وباء (1213هـ/ 1798م):

عرفت الجزائر ما بين (1796-1804م) ظهور أوبئة طاعونية في كل البلاد وهران، تلمسان، معسكر، الجزائر، قسنطينة، عنابة، دلس، واستمر الوباء حتى عام(1799م) في مدينة الجزائر، (فلة موساوي القشاعي: 2003-2004، ص 88) (حفيظة عتوان، ربيعة أرسان : 2018-2019، ص. 61) تواصلت الأوبئة في عامين(1798-1799م) في كل من مدينة الجزائر وتلمسان، وفي نفس السنة انتقلت العدوى إلى وهران ومعسكر وتلمسان، وبقي يضرب أرياف الجزائر عام(1802م) مصحوبة بتلك الاوبئة وبكارثة زلزال. (Marchika : 1927, p. 150)

وحسب المصادر التاريخية ان الاوبئة في هذه الفترة كانت تتكرر في كل 10 أو 15 عاما وفي بعض الاحيان تستمر إلى عدة سنوات مثل وباء (1784-1798 م) (ناصر الدين سعيدوني، ص. 126)، ووباء(1804-1808م) (دحماني توفيق : 2013، ص. 2) و(1816-1822م) (Marchika : 1927, p. 310) وكانت تمس في الغالب جميع جهات البلاد وأول كتابة شاهدية تؤرخ لهذا الوباء هي:

1.كتابة شاهدية أمة الله فاطمة بنت الحسن محمد بن السلجماسي (1213هـ/1798م) (عبد الحق معزوز، لخضر درياس: 2000، ر117، ص. 213)

لوحة من الحجر الرملي مقاساتها (60× 44.5سم) أسطوانية الشكل، نقشت بتقنية النحت البارز وبأسلوب خط النسخ المغربي التلمساني، محفوظة بمتحف تلمسان تتكون من ثمانية أسطر، وهذا نصها: "هذا قبر الحر / ة الجليلة الشريفة الحس / الحسيبة آمة الله فاطمة بنت / الشريف الحسن مولاي محمد / بن السجلماسي توفت بالوباء / رحمة الله عليها عام / ثلاثة عشر ومايتين / الألف [كذا] /".

تحمل الكتابة اسم المتوفي وهي امرأة تدعى: فاطمة بنت مولاي محمد بن السلجماسي التي توفت بداء الوباء، كما تشير إلى ذلك الكتابة وتعتبر الحالة الأولى التي توفت بداء الوباء وينتهي بها النسب إلى عائلة شريفة ذات أصول سلجماسية بجنوب المغرب، توفيت في عهد حكم الداي مصطفي باشا (1212-1220هـ/ 1798-1805م).

2.كتابة شاهدية فاطمة بنت محمد بن عبد الكريم (1214هـ/ 1800-1801م) (يحياوي العمري: 2014-2015،ص. 103-104)

لوحة مستطيلة الشكل مقاساتها(60×37سم) نفذت بطريقة بأسلوب النقش البارز وبخط الثلث المغربي، محفوظة بمتحف أحمد زبانة بوهران، يتكون من ثمانية أسطر وهذا نصها: «هذا قبر الحرة / الجليلة الاصيلة أمة الله/ السيدة فاطمة بنت الطالب/ الاديب السيد محمد بن عبد/ الكريم توفيت بالوباء رحمة/ الله عليها في شهر ربيع/ النبوي سنة اربعة عشر/ ومائتين بعد الالف". (Demaeght: 1932, P. 114)

تحمل الكتابة الشاهدية اسم المتوفي وهي امرأة تدعى فاطمة بنت محمد بن عبد الكريم، والتي توفت بالوباء سنة(1214هـ/1800-1801م).

رابعا: وباء(1231-1238هـ/1816-1823م):

عرفت بلاد المغرب الاوسط انتشار وباء سنة(1232هـ/ 1817م) وحسب مارشيكا (Marchika)أن مصدر العدوى سفينة سويدية قادمة من ميناء إزمير إلى الجزائر (Marchika , 1927, p. 152-153)، كما يرى أن الوباء تسرب عبر سفينتين قادمتين من القسطنطنية، واصل وباء الطاعون انتشاره في مارس(1818م)، بمدينة الجزائر ويتضح أن وباء(1817م)، عرف بشدته وحدته، واستمر الطاعون في الجزائر سنة(1822م)، حيث تسلط على مدينة الجزائر وصولا الى معسكر وهران تلمسان، حيث قدر عدد الضحايا بعشرين ألف ضحية، وصلت نسبة الاموات في شهري أوت وسبتمبر من سنة(1818م) إلى 6.095ن (سعيدوني :2013، ص. 329)في حدود خمسة مئة نسمة في كل يوم (عبد الرحمن الجيلالي: 1983، ص. 82)، ثم انتقل الطاعون الى تونس والمغرب الاقصى وقد خلف عدة اضرار على الناحية الاقتصادية منها نقص اليد العاملة، هجرة السكان نحو المناطق الداخلية تسبب في افراغ المدن والارياف، هذا الاخير أدى إلى نقص الانتاج و التبادل التجاري (عائشة غطاش: 1988، ص. 367) (حفيظة عتوان، ربيعة أرسان: 2018-2019، ص. 62-63)، و من ضحايا وباء سنة(1818م) علي باشا يكنى بخوجة الخيل (وولف جون : 2009، ص. 447) (الزهار أحمد الشريف: 2009، ص.139)، والفقيه والعالم أبو راس محمد بن احمد بن عبد القادر الراشدي المعسكري(1238هـ/1822م) (توفي سنة (1238هـ/ 1822م) في عمر يتجاوز تسعين سنة بمدينة معسكر، بلغ مؤلفاته في التفسير وعلوم الدين نحو 132 تأليفا، خريج زاوية سيدي محي الدين والد الامير عبد القادر) (بهاشمي بن بكار: 1961، ص. 13-14) في فترة حكم الباي حسن آخر بابات وهران (بن عبد القادر مسلم : 1974، ص. 30) وأول كتابة شاهدية تؤرخ لهذا الوباء هي:

1.كتابة شاهدية محمد بن أحمد بن إسماعيل(1234هـ/1818م) (عبد الحق معزوز، لخضر درياس: 2000، ر 120، ص. 217):

الصورة 1: شاهد قبر محمد بن أحمد بن اسماعيل(1234هـ/ 1818م)

(من تصوير الباحث)

لوحة من الحجر الرملي مقاساتها (52×52سم) مستطيلة الشكل، نقشت بتقنية النحت البارز وبأسلوب خط النسخ المغربي التلمساني، محفوظة بمتحف تلمسان، تتكون من تسعة أسطر، (الصورة 1) وهذا نصها: "هذا قبر الشا / ب الأسعد المرحوم بكر / م الله الحي القيوم الابن الناسك / المعتمر السيد الحاج محمد بن / الحاج أحمد بن اسماعيل توفي / بالوبا رحمة الله عليه عام / أربعة وثلاثين ومايتين بعد / الألف وكيف يجنب من / كان بساحة الرحمان /".

تحمل الكتابة اسم المتوفي وهو رجل يدعى الحاج محمد بن الحاج احمد بن اسماعيل الذي توفي بالوباء.

2.كتابة شاهدية محمد بن الصابر محمد بن الكلبي(1234هـ/ 1818م) (عبد الحق معزوز، لخضر درياس:2000، ر 121، ص. 219)

لوحة من الحجر الرملي مقاساتها(46×30سم) مستطيلة الشكل، نقشت بتقنية النحت البارز وبأسلوب خط النسخ المغربي التلمساني، محفوظة بمتحف تلمسان،تتكون من تسعة أسطر، وهذا نصها: "هذا قبر الصبي / محمد بن الصابر إلى عفو / الله الكريم محمد بن الكلبي / توفي بالوبا رحمة الله عليه / عام أربعة وثلاثين ومايتين / بعد الألف وكيف يخيب / من كان بساحة / الرحمن".

تتضمن الكتابة اسم المتوفي وهو ولد يدعى محمد بن الكلبي مات بالوباء على غرار فاطمة والحاج محمد وهو صبي صغير وتعتبر الحالة الثالثة في هذه المنطقة التي أصابها الوباء في هذه الفترة.

2.كتابة شاهدية مولاي محمد بن الشيب بالحاج الناصر (1234هـ/ 1818م) (عبد الحق معزوز، لخضر درياس: 2000، ر122، ص. 220-221)

الصورة 2: شاهد قبر شاهدية مولاي محمد بن الشيب بالحاج الناصر (1234هـ/ 1818م)
(من تصوير الباحث)

لوحة من الحجر الرملي مقاساتها (61× 46سم) أسطوانية الشكل، نقشت بتقنية النحت البارز وبأسلوب خط النسخ المغربي التلمساني، محفوظة بمتحف تلمسان، تتكون من تسعة أسطر، (الصورة 2)، وهذا نصها: "هذا قبر الشاب الأ / سعد المرحوم بكرم الله ا / لحي القيوم الشريف الحسني مو / لاي محمد بن الصابر على عفو الله / الكريم مولاي الشيب{كذا}بالحاج النا / صر توفي بالوبا رحمة الله عليه / عام أربعة وثلاثين ومايتين / بعد الألف يا خفي الأ / صاف نجنا؟ /.

تحمل الكتابة اسم المتوفي وهو شاب يدعى محمد بن الشيب بالحاج الناصر الذي وافتنه المنية وهو شاب في مقتبل عمره بالوباء ليلتحق بالثلاثة الاخرين.

3.كتابة شاهدية فاطمة بنت محمد الريس (1234هـ/ 1818م) (عبد الحق معزوز،لخضر درياس: 2000، ر123، ص. 222-223)

لوحة من الحجر الرملي مقاساتها (74× 45سم) مستطيلة الشكل، نقشت بتقنية النحت البارز وبأسلوب خط النسخ المغربي التلمساني، محفوظة بمتحف تلمسان، تتكون من سبعة أسطر، وهذا نصها: "هذا قبر ا/ لحرة الجليلة الدرة ال / الأصيلة آمة الله فاطمة بنت / المرحوم بكرم الله محمد الريس توفت / بالوبا رحمة الله عليها عام / أربعة وثلاثين ومايتين بعد / الألف كيف يخيب /".

تحمل الكتابة اسم المتوفي وهي امرأة تدعى فاطمة بنت الريس وهذه الحالة الخامسة التي توفت بالوباء في نفس السنة.

4.كتابة شاهدية فاطمة بنت الصابر (1234هـ/ 1818م) (عبد الحق معزوز، لخضر درياس: 2000، ر124، ص. 224)

الصورة 3: فاطمة بنت الصابر (1234هـ/ 1818م)
(من تصوير الباحث)

لوحة من الحجر الرملي مقاساتها (52× 55سم) مستطيلة الشكل، نقشت بتقنية النحت البارز وبأسلوب خط النسخ المغربي التلمساني، محفوظة بمتحف تلمسان تتكون من سبعة أسطر، (الصورة 3)، وهذا نصها: "هذا قبر الحرة الجليلة الدرة الأ / صيلة آمة الله فاطمة بنت الصا / بر إلى عفو مولانا الحاج العربي / هل بن المستفي توفت بالوبا رحمة ا / الله عليها عام اربعة وثلاثين / ومايتين بعد الألف وكيف/ يخيب من كان بساحة الرحمان /" .

تحمل الكتابة اسم المتوفي وهي امرأة تدعى: فاطمة بنت الحاج العربي بن مصطفي وهذه الحالة السادسة التي توفت بالوباء في نفس الفترة.

5.كتابة شاهدية لمحمد بن الحسن بن مدين (1235هـ/ 1819م) (يحياوي العمري: 2014-2015، ص. 108)

لوحة من الحجر الرملي مقاساتها (40× 18سم) أسطواني الشكل، نقشت بتقنية النحت البارز وبأسلوب الخط المغربي، محفوظة بمتحف احمد زبانة بوهران، تتكون من سبعة أسطر، (الصورة 4)، وهذا نصها: " هذا قبر الشريف / الحسن مولاي محمد بن/ الشريف الحسن بن مولاي الحاج/ مدين بن مولاي(...) توفي بالوبا/ رحمة الله عليه عام/ خمسة وثلاثين وما/ يتين بعد الالف".

الصورة 4: شاهد قبر لمحمد بن الحسن بن مدين (1235هـ/ 1819م)

(عن: يحياوي العمري)

تحمل الكتابة الشاهدية اسم المتوفي وهو محمد بن الحسن بن مدين الذي توفي بالوباء سنة 1235هـ/1819م).

خاتمة:

فبعد هذا العرض الطفيف لضحايا الوباء من خلال الكتابات الشاهدية نستخلص مايلي:

- ✓ تعتبر الكتابات الشاهدية مصدر لتأكيد وجود الوباء وانتشاره وتحديد الحيز الجغرافي والزمني للوباء وتحمل كثيرا من التأويلات، مهما كان الامر تبقى الاحصائيات دائما نسبية وهذا لندرتها حيث يمكن ارجاعها الى سببين هو الدفن الجماعي او الدفن المستعجل (لطفي عبد الجواد: 2009، ص 89-105).
- ✓ نلاحظ أن مدينة تلمسان والغرب الجزائري منطقة مستوطنة للوباء وخاصة في الفترة العثمانية من خلال الكتابات الشاهدية، حيث يتكرر ظهوره(964هـ/1555م) إلى غاية (1235هـ/ 1819م)، يعد هذا الاخير أخطر وباء عرفته بلاد الغرب الجزائري، حيث اعتبر كارثة ديمغرافية حقيقة.
- ✓ من خلال قراءتنا للنصوص نلاحظ الصيغة التي ذكرت فيها سبب الوفاة نجدها مشتركة في جميع الكتابات الشاهدية وهي عبارة (توفي أو توفيا بالوباء)، نلاحظ عدم ذكر نوع الوباء وحدته فهي تفتقر للوصف الدقيق للمرض ومواصفاته رغم أن المنطقة عرفت عدة أوبئة فتاكة على عكس الكتابات الشاهدية بإفريقية حددت لنا نوع الوباء، حيث نجد الصيغة التالية:
- ✓ (شهيد الطاعون) (أقدم كتابة شاهدية تذكر لنا سبب الوفاة بالطاعون تعود إلى سنة(871هـ/ 1466م) لابي الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر الانصاري الخزرجي بالأندلس والثاني بالقيروان تعود إلى سنة (873هـ/ 1468م) لابي عبد الله محمد بن ابي اسحاق الربعي) (Levi provncal: N 185, p.177 ، لطفي عبد الجواد : 2009، ص. 92-93) شاهد لأبي عباس أحمد المتوفي (981هـ/1573م) (أما طاعون 981هـ فقد أمدتنا الكتابات الشاهدية بشاهد قبر يوثق هذا الوباء بزاوية الجديدي وهذا نص شاهده، وهو لوحة من مقاساتها(0.60× 0.48م) تتكون من إثنى عشر سطرا، عثر على شاهد قبره بالجناح الأخضر بالزاوية المنوبية) (Roy Bernard: 1983 p. 148) وهذا نصه: "...بسم الله الرحمن الرحيم/صلى الله على سيدنا محمد/النبي الشـ(فـ)يع واله وصحبه وامته/ قل هو نبا عظيم انتم عنه معرضون/هذا قبر القاري الاكمل الاحفل الامام/المرحوم أبي العباس احمد بن الشيخ/المرابطي محمد بن الشيخ احمد/بن عبد الرحمن

بن الشيخ محمد/بن الشيخ عبد الله بن الشيخ الوالي/الصالح أبو محمد (هكذا) بن عبيد الغرياني صاحب/ زاوية شيخة الجديدي توفي في اوايل/محرم شهيد الطاعون (هكذا) عام احد (هكذا) وثمانين تسعماية/".

✓ حافظ اهالي مدينة تلمسان على استعمال شواهد القبور على قبور موتاهم رغم الظروف الصعبة التي كانت تمر بها أثناء الجائحة الوبائية، فتميزت ببساطتها الفنية والزخرفية، فجاءت على شكل المنضادي (مربع، مستطيل) والشكل القرصي أو الاهليجي وهذان النوعين انتشرا بكثرة في الفترة العثمانية (عبد الحق معزوز، لخضر درياس : 2011، ص. 199-218)

✓ فيما يخص المادة التي نفذت عليها نصوص الكتابات الشاهدية فهي مواد محلية من الثروات الطبيعية التي تزخر بها المنطقة، أغلبها استعمل فيها مادة الحجر الرملي والقليل منها رخام الاونيكس الابيض اللون، أما فيما يتعلق بنوع الخط المنفذ بالكتابات الشاهدية بمدينة تلمسان انفرد بخاصية فنية واقتصرت على استخدام الخط النسخ المغربي التلمساني.

✓ المرض والوباء يصيب جميع الفئات العمرية بدون تمييز والفئات الاجتماعية العلماء والاشراف والطبقة الحاكمة والعامة...إلخ، مما فتك بعائلات بكاملها مثلما حدث مع عائلة ابو العباس احمد العقباني، و نلاحظ في بعض شواهد القبور أنها لم تذكر سبب الوفاة بالمرض، رغم معاصرتها له، حيث يتبين من خلال شكلها ومضمون نصوصها وكتابتها أنها متأثرة بحالة الهلع والضرر والمعاناة الفاجعة الوبائية، ومن هنا نتساءل عن عدم ذكر سبب الوفاة في نصوصها ؟.

✓ رغم طول الفترة الزمنية التي امتدت على اربعة قرون كاملة، إلا أنها حافظت على نفس العبارات والصيغ التي كتبت بها الكتابات الشاهدية، نلاحظ أن الفنان في هذه الفترة قلص في نصوص الشاهدية حيث جاءت في الغالب على الشكل التالي: ذكر اسم ولقب المتوفي ونسبه ووظيفته وتاريخ وفاته وإذا استثنيا الكتابات الشاهدية المعاصرة لنهاية الدولة الزيانية التي استهلت بصيغة الحمدلة على عكس الكتابات الشاهدية بإفريقية فجاءت ثرية من حيث الصيغ والعبارات والابيات الشعرية.

✓ وخير مثال على ذلك شاهد قبر عطاء الله بن القلاق (لطفي عبد الجواد، 2009، ص. 99) المؤرخ بسنة (1199هـ/1785م) وشاهده محفوظ بمتحف رقادة بالقيروان (الصورة 5)

الصورة 5: شاهد قبر عطاء الله بن القلاق(1199هـ/1785م)

(من تصوير الباحث)

(المكان الحالي: مستودع أولاد فرحان بالقيروان (رقم الجرد 1010)، وصف المحمل: لوحة مستطيلة الشكل من الرخام الأبيض يبلغ ارتفاعها 00 سم وعرضها 00 سم، وصف النص: ورد النص تاما في 12 سطرا كتبت بخط الثلث المعجم والمشكول، وقد أنجز بتقنية الترصيع والتي قوامها نحت غائر للكتابة تحفر فيه ثقوب صغيرة يصب عليها الرصاص أو النحاس فينتج تناقضا بينه وبين لون الرخام، يحيط بالنص إطار على شكل محراب بعقد متجاوز يرسمه شريط تتخلله ثقوب دائرية وتحيط به زخرفة نباتية وهندسية، وقد ظهر هذا الطاعون في عهد حمودة باشا وكان شديد الوقع على البلاد حتى عرف بالطاعون الكبير، ويذكر ابن أبي الضياف أنه بدأ في سنة 1198هـ/1784م، وأما نهايته فكانت في شهر ذي القعدة من سنة 1199هـ الموافق لشهر سبتمبر من عام

1785م، ويبدو أنه قادم من مصر التي ضربها منذ سنة 1197هـ1783م، على إثر عودة الحجيج بعد محطة استراحة في ميناء الإسكندرية وهذا نصها:

- ✓ بسم الله الرحمن الرحيم *** وصلى الله على سيدنا محمد
- ✓ يا زائرا ذا القبر قف واستوقف *** واقرا له فاتحة واستعطف
- ✓ وانظر لقوم قد غدوا تحت الثرا *** لمريد .... من المستكف
- ✓ كانوا كمثلك في الدنيا فكأنهم *** لم يلبثوا إلا كلمح المشرف
- ✓ فانهد وعض وارفض سوى ما نافع **** في الخير يوم يطول المستوقف
- ✓ وسئل (هكذا) ختاما بالشهادة مثل ما **** في ذي الضريح الاطيبي الاعرف
- ✓ يدعى عطاء الله كان دراية **** بالعلم والنظم البديع المرهف
- ✓ عدلا فقيها عارفا ومدرسا **** ومجودا أي الكتاب الاشرف
- ✓ قد مات بالطاعون يوم عروبة **** في مولد المختار امن المخوف
- ✓ فارحمه واغفر له ذنبه واسكنه في *** جنة الفردوس باللطف الخفي
- ✓ تاريخه يا جامعا بنبينا **** امن علي السلمي في الموقف
- ✓ سنة 1199")

وخير ما نختم به هو قول ابن خلدون حول أسباب الوباء (ابن خلدون: 1984، ص. 367-368)

... وأما كثرة الموتان: فلها أسباب من كثرة المجاعات كما ذكرناه، أو كثرة الفتن لاختلال(الدول) فيكثر الهجر والقتل أو وقوع الوباء، وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة، وإذ فسد الهواء وهو غداء الروح الحيواني وملابسه دائما فيسري الفساد إلى مزاجه، فإن كان الفساد قويا وقع المرض في الرئة، وهذه هي الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة، وإن كان الفساد دون القوي والكثير فيكثر العفن ويتضاعف، فتكثر الحميات في الأمزجة وتمرض الابدان وتهلك، وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة في هذا كله كثرة العمران ووفوره آخر الدولة، لما كان في أوائلها من حسن الملكة ورفقها(وعظم الحماية) وقلة المعزم، وهو ظاهر ولهذا يتبين في موضعه من الحكمة أن تخلل الخلاء والقفر والعفن بمخالطة ضروري، ليكون تموج الهواء الصحيح، ولهذا أيضا فإن الموتان يكون في المدن الموفورة الحيوانات ويأتي بالهواء الصحيح، لهذا أيضا فإن الموتان يكون في المدن الموفورة العمران أكثر من غيرها بكثير، كمصر بالمشرق وفاس بالمغرب والله يقدر ما يشاء....

قائمة المصادر والمراجع:

المراجع باللغة العربية

1) ابن خلدون، عبد الرحمن. (1984). المقدمة، ج 1. تونس: الدار التونسية الوطنية للنشر المؤسسة الوطنية للكتاب.

2) القسنطيني، ابن قنفذ. (1983م). كتاب الوفيات، تح: عادل نويهض. بيروت: منشورات دار الافاق الجديدة.

3) ابن مريم التلمساني، محمد. (1908م). البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مرا: محمد ابن ابي شنب. الجزائر: المطبعة الثعالبية.

4) ابن منظور، جمال الدين. لسان العرب، بيروت: دار الصادر.

5) وولف، جون. (2009م). الجزائر وأوربا 1500-1830م، تر: ابو القاسم سعد الله. طبعة خاصة. الجزائر: دار الرائد.

6) بلهاشمي، بن بكار. (1961م). كتاب الحسب والنسب والفضائل والتاريخ والادب في أربعة كتب، تلمسان: مطبعة ابن خلدون.

7) مسلم الوهراني، بن عبد القادر. (1974م). ذخائر المغرب الغربي تاريخ بايات وهران المتأخر أو خاتمة أنيس الغريب والمسافر، تح: رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.

8) باشا حسن، (1989م). الألقاب الاسلامية في التاريخ والوثائق والأثار، القاهرة: الدار الفنية للنشر والتوزيع.

9) عتوان، حفيظة وأرسان، ربيعة. (2018-2019). الظاهرة الوبائية في الجزائر خلال عهد الدايات(1671-1830م) اسبابها وانعكاساتها، مذكرة ماستر، جامعة الجيلالي بونعامة خميس مليانة.

10) دحماني، توفيق. (2013). الاوضاع الصحية والكوارث الطبيعية، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية، ع6.

11) الزهار، أحمد الشريف. (2009م). مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار، تح: توفيق المدني، الجزائر: دار البصائر.

12) سعيدوني، ناصر الدين. (2000). الاحوال الصحية والوضع الديمغرافي في الجزائر أثناء العهد العثماني في ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1. دار الغرب الاسلامي.

13) (2013)، الحياة الريفية بإقليم مدينة الجزائر دار السلطان، أواخر العهد العثماني 1791-1830م، الجزائر: البصائر للنشر والتوزيع،

14) دراسات وابحاث في تاريخ الجزائر، دراسات وابحاث في تاريخ الجزائر المعاصرة، ج2.

15) مزدور، سمية. (2009). المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، قسم التاريخ والآثار، كلية الآداب والعلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة.

16) الجيلالي، عبد الرحمن. (1983م). تاريخ الجزائر العام، ج4، بيروت، لبنان: دار الثقافة.

17) صاري، جيلالي. (2011). تلمسان الزيانية ارهاصات ظهور الدولة الجزائرية في العصر الحديث، تر: مسعود حاج مسعود، تلمسان: دار القصبة للنشر.

18) فيلالي، عبد العزيز. (2014). بحوث في تاريخ المغرب الاوسط في العصر الوسيط، عين مليلة، الجزائر: دار الهدى.

19) غطاس، عائشة. (1998م). الأوضاع المعاشية والصحية في اواخر العهد العثماني المجاعات والاوبئة 1787-1830م، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، ع 1 17-18.

20) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تح: محمد حسين شمس الدين، ج6، بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

21) لطفي، عبد الجواد. (2009). الطاعون في إفريقيا من خلال الشواهد قبور القيروانية، القيروان وجهتها دراسات جديدة في الآثار والتراث، الندوة العلمية الدولية الثالثة، جامعة منوبة، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، تونس.

22) مجاهد، يمينة. (2017-2018). تاريخ الطب في الجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية.

23) عياش، محمد. (2017-2018). الكتابات الشاهدية في بلاد المغرب الإسلامي من القرن الثاني حتى نهاية القرن العاشر الهجريين /الثامن السادس عشر الميلاديين-دراسة في الشّكل والمضمون-، رسالة دكتوراه في الاثار الاسلامية، جامعة الجزائر 2.

24) (2019). المقابر الخاصة والروضات الملكية في حواضر بلاد المغرب الإسلامي من القرن الأول إلى نهاية القرن العاشر هجريين/السابع السادس عشر ميلاديين، المجلة الاكاديمية للدراسات الاجتماعية والانسانية، مج 12، ع 1.

25) معزوز، عبد الحق ودرياس، لخضر. (2000). جامع الكتابات الأثرية العربية بالجزائر، ج1، ج2، الجزائر: مطبعة سومر بئر خادم.

26) (2011). شواهد القبور في المغرب الأوسط بين القرنين (2-13هـ/8-19م)، تلمسان: منشورات وزارة الشؤون الدينية والاوقاف.

27) موساوي، فلة. (2003-2004). الصحة والسكان في الجزائر أثناء العهد العثماني واوائل احتلال الفرنسي (1518-1831م)، دكتوراه دولة في التاريخ المعاصر، جامعة الجزائر.

28) (2001). وباء الطاعون في الجزائر العثمانية، دوراته وسلم حدته وطرق انتقاله، دراسات انسانية، ع1، جامعة الجزائر.

29) يحياوي، العمري. (2014-2015). الكتابات الأثرية في الغرب الجزائري – دراسة تنميطية-، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في تخصص علم الأثار الإسلامية، جامعة تلمسان، قسم الأثار.

المراجع باللغة الأجنبية:

30) Bosselard, (CH.).(1861). Les Inscriptions Arabes de Tlemcen, La Coudée Royale de Tlemcen, Revu Africain, n° 30.

31) Demaeght,(1932). Catalogue raisonné des objets archéologiques du musée de la ville d'Oran, extrait de bulletin de la société de géographie et d'archéologie de la province d'Oran, tome 53, Oran.

32) El-Aoudi- Adouni (R),(1997). Stèles Funéraires Tunisoises De L'époque Hafside (628- 975/ 1230-1574), vol 2, Tunis.

33) Lévi-provençal (Evariste). Inscriptions Arabes d' Espagne, librairie et imprimerie a devant, E-J Brill Leyde, librairie colncal et orientaliste E. la rose, paris.

34) Marchika,(1927). la peste en Afrique septentrionale : histoire de la peste en aléria de 1363-1830, julien carbonel, Alger.

35) ROY (Bernard) et Poinssot (Paule), Slimane Mostafa Zbiss , (1983), Inscriptions Arabes De Kairouan, 3e Partie., volume 5, 3em partie (I.N.A.A.T.) Tunis.

36) Vatin n,(1991). les cimetières musulmans ottomans : source d'histoire sociale, in les villes- dans l'empire ottoman : et sociétés, sous la direction de d. panzac, éditions du cnrs.

المجاعات الكبرى بقسنطينة: سنوات البلاء العظيم
على ضوء المصادر التاريخية

The Great Famines in Constantine ; years of great affliction
in light of historical sources

د. موسم عبد الحفيظ
جامعة سعيدة/ الجزائر
Dr. Moussem Abd Elhafid
University of Saiida /Algeria

الملخص:

تتناول هذه الدراسة موضوع المجاعات الكبرى في قسنطينة من خلال المصادر التاريخية، وهي تهدف إلى تسليط الضوء على أهم المجاعات التي ظهرت بقسنطينة ونواحيها مع أواخر العهد العثماني وبداية عهد الاحتلال الفرنسي، وذلك من خلال محاولة الوقوف على أسبابها وآثارها المختلفة على الوضع العام في المنطقة؛ انطلاقا من المصادر التاريخية التي عالجت الموضوع، وفي مقدمتها كتاب "مجاعات قسنطينة" لصالح العنتري، باعتباره من أهم الكتابات التي عالجت موضوع الدراسة بنوع من التفصيل.

الكلمات المفتاحية: المجاعات، قسنطينة، الجزائر، المصادر التاريخية، الأزمة.

Abstract:

This study deals with the issue of the major famines in Constantine through historical sources. It aims to shed light on the most important famines that appeared in Constantine and its aspects with the end of the Ottoman era and the beginning of the era of the French occupation, by trying to identify their causes and various effects on the general situation in the region; Based on the historical sources that dealt with the subject, foremost of which is the book "The Famines of Constantine" in favor of Al-Antari, as it is one of the most important writings that dealt with the subject of the study in some detail.

Keywords : Famines, Constantine, Algeria, historical sources, crisis.

مقدمة:

تعتبر المقاطعة الشرقية من الجزائر؛ إقليم بايلك الشرق وعاصمته قسنطينة، من المناطق التي تعرّضت لعدّة أزمات طبيعية، على غرار المجاعات التي كانت تحلّ بقسنطينة وضواحيها بين الآونة والأخرى، خاصة مع أواخر العهد العثماني وبداية عهد الاحتلال الفرنسي، وذلك بفعل توالي الكوارث المتعدّدة بدون انقطاع.

وسنحاول من خلال هذه الدراسة تتبع ورصد أهم المجاعات التي حلت بقسنطينة والوقوف على مخلفاتها وتأثيراتها الواسعة، انطلاقا من المصادر التاريخية التي أتيحت لنا فرصة الاطلاع عليها، مع الإشارة هنا ومن باب الموضوعية التي يقتضيها البحث العلمي الجاد؛ إلى التركيز على كتاب "مجاعات قسنطينة" لصاحبه صالح العنتري، باعتباره من أهم المصادر الذي انفرد بالحديث عن موضوع بحثنا بنوع من الدراسة والتفصيل. وعليه نطرح الإشكالية التالية: فيما تتمثل أهم المجاعات التي حلت بقسنطينة وضواحيها؟ . وما مدى تأثيرها على الوضع العام للمنطقة؟.

1.تعريف المجاعات:

تعددت التسميات والمصطلحات التي أطلقت على لفظ المجاعة، وإن كانت كلها تصب في مفهوم واحد؛ يدل على أنها مرتبطة بنقص الغداء أو انعدامه، وبحدوثها يختل نظام الكون، فما هو تعريف المجاعة ؟، وما هي مرادفاتها في اللغة؟

1.1.المجاعة لغة:

إن الجوع اسم للمخمصة، وهو نقيض الشبع، والفعل جاع يجوع وجوعة ومجاعة، فهو جائع وجوعان، والجمع جوعى وجيّاع، وهي خلاء البطن من الطعام جوعا (ابن منظور، د.ت، ص. 61).

وللمجاعة عدة مرادفات من بينها "القحط"؛ بمعنى "احتباس المطر"، والقحط الجدب؛ لأنه من أمره، وقحطت الأرض فهي مقحوطة، والقحط ضرب من النبت؛ أي ليس ينبت، والقحطي من الرجال؛ بمعنى الأكول الذي لا يبقى من الطعام شيئا (ابن منظور، د.ت، ص. 374)

ويطلق على المجاعة مصطلح "المسبغة، وهي مشتقة من أسغب الرجل فهو مسغب، إذا دخل في المجاعة، كما نقول أقحط الرجل إذا دخل في القحط، وكما ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ".. وَيَتيمًا ذَا مَسغَبَة..."(سورة البلد،14)؛ بمعنى ذو مجاعة.

ويقال سغب. الرجل يسغب، وسغب يسغب سغبا: جاع، والسغبة بمعنى الجوع، وقيل الجوع مع التعب، وربما سمي العطش سغبا (ابن منظور، 1968، د.ت، ص. 368).

ووردت المجاعة تحت مصطلح "الألبة" وهي مأخوذة من التألب والتجمع؛ لأن الناس يجتمعون في المجاعة، ويقال للجو أيضا الخوبة، وأصابتهم خوبة؛ أي مجاعة، ولفظ الخوبة يطلق على الأرض التي لم تمطر (الجوهري،1984، ص. 123).

وقد أطلق على السنة التي تحدث فيها المجاعة تسميات عديدة، كالسنة الغبراء، وسنة لزبة، هو كلمة مفردة، جمعها لزب، ونقول سنة لزبة شديدة البلاء، واللزوب هو القحط، ويقال أصابتهم لزبة يعني شدة السنة وهي القحط (ابن منظور د.ت، ص. 783)

ويقال أيضا للسنة الشديدة القحمة، وسنون خداعة، أي تكثر فيها الأمطار ويقل الريع فيها، وكذلك السنة السنهاء: وهي السنة التي لا نبات بها ولا مطر أي سنة فيها قحط (الفيروز آبادي د.ت، ص. 287)

ويعتبر القحط من أنواع الجوائح، والجوائح في اللغة: من حاج الشيء بمعنى استأصله، ومنه الجائحة يعني الشدة والنازلة الكبيرة التي تنزل بالناس، وتأتي في أغلبها على الثمار (ابن منظور، د.ت، ص. 338)، وهناك من يربط أن مدلول الجوائح من مسببات المجاعة، فيقال "أنها الجائحة اسم فاعل مؤنث الجائح، جمع جوائح، وهي المصيبة، والجائحة من السنين الجذبة، وأجاح الله المال بمعنى أهلكه، وهي الآفة التي تهلك الثمار والأموال (قلعه جي، قنيبي،1988، ص. 157)، والجدير بالذكر أن هناك من يصنف أن الجوائح من الآفات السماوية التي لا دخل للإنسان فيها بل هي من أمر السبب، وهي تعود للاضطرابات المناخية (البياض، 2008،ص. 19)

2.1.المجاعة في الاصطلاح:

أما اصطلاحا فهي إحدى الكوارث الطبيعية التي تتعرض لها منطقة معينة، أو البلاد بأكملها، وما يميزها أنها تمس النصر البشري بالدرجة الأولى، وقد ارتبطت هذه الظاهرة بالعوامل الطبيعية خاصة المناخ الذي لعب دورا في حدو المجاعات، إذ أن طول فترة الجفاف وارتفاع درجات الحرارة كلها عوامل مؤدية لها، غير أن تأثيرات المجاعات كبير في تراجع النمو الديموغرافي (كريمي، 2002، ص. 106)

وبالتالي فإن المجاعة جملة من المشاكل التي تعترض الناس باختلاف أصنافهم، وجعلته بسببها يبحثون عن شرعية دينية عند الفقهاء لبعض السلوكات التي فرضتها الأزمة حتى لا يقعون في الخطأ (مزدور، ص. 19)

2.التعريف بالمجال الجغرافي للدراسة:

1.2.الموقع الجغرافي:

يعد بايلك الشرق من أكبر بايلكات الجزائر خلال الفترة العثمانية (عبد القادر الجزائري، 1903، ص 15)، وتعتبر عاصمته قسنطينة من أحصن الحواضر، حيث تشرف على سهول واسعة وأرياف، كما تمتلك قلاع حصينة، و من جهة نجد المدينة أقل اتساعا من مدينة الجزائر، في حين أكبر من المدية عاصمة إقليم التيطري بثلاث مرات (nouchi,1955, p. 171) .

يمتد إقليم الشرق من البحر شمالا إلى ما وراء بسكرة ووادى سوف، ويشمل حوض ريغ، وايغرغر جنوبا، ومن الحدود التونسية شرقا إلى ما وراء إقليم ونوغة وبرج حمزة (البويرة)، وسفوح جبال جرجرة غربا (غطاس، د.ت، ص. 210).

ويحتوي هذا الإقليم على جبال البيبان وحوض وأدى الصومام وجبال بابور، وقسنطينة، عنابة، سوق اهراس، وعلى السهول العليا القسنطينية وكتلة جبال الأوراس، والنمامشة، وتبسة، وجبال الحضنة، وجبال الزاب والزيبان، وواحات سوف في حوض واد ريغ، وواحات الصحراء الشمالية الشرقية وعلى رأسها: بسكرة، تقرت، ورقلة، واحات ميزاب (العنتري، د.ت، ص. 17)

2.2.التعريف بقسنطينة:

بما أن دراستنا تتحدث عن أهم عاصمة لبايلك الشرق خاصة وأنها مكان حدوث المجاعات، لذلك ارتأيت التعريف بمدينة قسنطينة.

من الناحية التاريخية يعود تأسيس قسنطينة إلى فترة ما قبل الميلاد، وبالضبط إلى سنة 203 ق.م والتي أسسها الرومان (حساني، 2007، ص. 130)، وقد عرفت في بداية الأمر باسم "سرت" لتتحول إلى اسم "قسنطينة "منذ 313م (برنشفيك، 1988، ص. 418)

ويذكر العدواني أن تسمية قسنطينة قد تم اقتباسها من شجرة توجد في أعالي الجبال حيث تكون كثيرة الأغصان تسمى قطنطينة (العدواني، 1996، ص280)، وقد بنيت قسنطينة على جبل تحيط بها الصخور الكبيرة من ناحية الجنوب مما جعلها مدينة محصنة، ويمر بها واد الرمال (برنشفيك، 1988، ص. 418).

أما من الناحية الفلكية فتقع قسنطينة على خط 20°و 36°شمالا، وخط30°و 6° شرقا (شالر،1982، ص. 36)، وتتوسط إقليم شرق الجزائر، حيث تبعد بمسافة 245 كلم عن الحدود الشرقية الجزائرية التونسية، وحوالي 431 كلم عن العاصمة غربا، و235 كلم عن بسكرة جنوبا، وتتربع قسنطينة فوق الصخرة العتيقة على واد الرمال (قشوان، 2010، ص. 10).

تعتبر مدينة قسنطينة من أهم المراكز الصناعية في العهد العثماني، مما يعني أنها كانت ذو وزن اقتصادي في بداية الاستعمار الفرنسي أيضا، حيث اشتهرت بها صناعات من أهمها الطرز، الحلي (سبنسر، 2006، ص. 120)

ومن حيث تقديرات أحد الرحالة الإيطاليين فإن عدد السكان بها كبيرا حيث وصل حسب تقديراته إلى مائة ألف نسمة (سعد الله، د.ت، ص. 170)، وهذا الارتفاع الكبير لعدد السكان قد جعل المؤرخين يطلقون عليها اسم مملكة (فيلالي، د.ت، ص. 161).

أما فيما يخص الوضع الاقتصادي فقد كانت هناك حركية نشطة في قسنطينة، إلا أن الأوضاع السياسية كانت تساهم في انتشار الفوضى والمجاعات وتدهور الحالة الاقتصادية، وبالتالي فالزراعة قد اشتهرت في الشرق الجزائري قبل مجيء العثمانيين، وبالرغم من عدم اهتمامهم بها، إلا أن الإنتاج الزراعي كان يغطي حاجيات السكان، كما أن المحاصيل في هذا البايلك والذي سيعرف فيما بعد بعمالة قسنطينة في العهد الاستعماري، كانت ذو شهرة عالمية (الزبيري، 1984، ص. 60)

ويذكر حسن الوزان أن قسنطينة توجد بها عدة أراضي خصبة صالحة للزراعة، وتحيط بها بساتين جميلة، ونفس الشيء ينطبق على عنابة التي هي الأخرى تتوفر على عدة أراضي (الوزان، 1983، ص 58)، لكن المناخ الذي ميز الجزائر في تلك الفترة عموما هو قلة الأمطار في فصل الصيف، وسوء توزيعها خلال الموسم الزراعي، فالعامل المناخي كان سببا في انعدام الموسم الزراعي، فالعامل المناخي إذن كان سببا في انعدام الإنتاج وظهور المجاعات (مجاهد يمينة، 2018، ص. 10).

3.المجاعات الكبرى في قسنطينة:

عرفت الجزائر خلال أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الاستعماري عدة مجاعات، والتي اتسمت فيها الأوضاع بالتردي والفوضى وغلاء الأسعار، مما أثر كثيرا على قدرة السكان في تحمّل الفقر وغلاء المعيشة، وهو ما انعكس سلبا على الوضع الاجتماعي والاقتصادي مؤديا إلى انهيار ديموغرافي، وفي هذا الصدد ذكر عبد الرحمان الجيلالي أن الجزائر قد عانت من الحرب، حتى فاجأها الجذب والقحط بكامل البلاد، وأصبحت تعاني مجاعة حادة وخانقة، ارتفعت فيها الأسعار، وغلاء المعاش غلاء فاحشا. (الجيلالي، د.ت، ص. 261).

1.3.أزمة القحط بقسنطينة خلال أواخر القرن 17 م:

تشير المصادر التاريخية إلى تعرض قسنطينة لأزمة القحط نهاية القرن 17 م، ورغم سكوت غالبية الكتابات عن إبراز أسبابها، إلا أن العنتري قد أشار إلى انتشارها بين عموم الناس؛ مما تسبب في قلة مؤونتهم وغلاء الأسعار، حتى أنّ الصاع الواحد من البرّ قد بيع بخمسة ريالات (العنتري، 1974، ص 13).

2.3.أزمة القحط والمجاعة الشديدة بقسنطينة سنوات 1804 – 1808:

تعرضت قسنطينة على حسب ما جاء في المصادر التاريخية إلى المجاعة الشديدة التي أصابت ساكنتها سنة 1804، وامتدت على مدار أربع سنوات إلى غاية 1808، هذه المجاعة التي مهدت لها حسب ما جاء في المصادر التاريخية ثورة الشريف ابن الأحراش التي اندلعت في وادي الزهور التابع لقسنطينة سنة 1803، حيث تكاثرت الفتن واشتدت الأهوال التي حالت بين الفلاحين وفلاحة الأرض، مما أدى إلى قلة الحبوب في الأسواق وارتفاع الأسعار ارتفاعا فاحشا، لدرجة أن الصاع الواحد من البر قد بيع بخمسة عشر ريالا حينذاك، وبيع الصاع الواحد من الشعير بسبعة ريالات، واستمر الحال على وضعه تقريبا إلى غاية 1808.

وقد تضرر الناس كثيرا من هذه المجاعة خصوصا منهم ساكنة البادية الذين فضلوا النزوح نحو قسنطينة المدينة للاستنجاد بالسلطة هناك. وعن وضعهم المزرى تحدث العنتري قائلا: "كانوا يغادرون منازلهم وقراهم ويزحفون إلى المدينة قسنطينة في حالة رثة تعيسة للاستنجاد برجال المخزن وبعض أعيانها الموسرين، وقد وجدوا مساعدة من الأعيان وبعض إسعاف من رجال المخزن، وكان باي هذه الآونة -وهو الباي عبد الله-يكاتب رجال الأعراش ويستحثهم على حمل الحبوب إلى المدينة، وأشرفت الحكومة على عملية توزيع الحبوب على المحتاجين" (العنتري، 1974، ص ص.14.-15).

3.3.أزمة القحط التي أدت إلى حدوث المجاعة بقسنطينة سنة 1838:

أشارت المصادر التاريخية إلى تسبّب أزمة القحط التي حلت بقسنطينة عام 1838 في مجاعة حادّة، ففي سنة 1838 نزل قحط شديد أضر بسكان قسنطينة فأدى إلى المجاعة، وترجع المصادر التاريخية أسباب هذه المجاعة إلى حدوث جائحة كبرى خلال نفس السنة أصابت الزروع وأتلفتها، فانقبض الفلاحون على الحراثة لما غمرهم من فتن وأهوال باعتداء بعض الأعراش على بعض؛ نتيجة البلبلة التي تركها احتلال الفرنسيين لمدينة قسنطينة (عاصمة الولاية)، هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد تسببت الأمطار التي نزلت في ذات السنة وكثرة الثلوج في حدوث مجاعة 1838، خصوصا وأنها قد حالت دون القيام بالأعمال الفلاحية .(العنتري، 1974، ص. 16).

4. 3. أزمة القحط التي أدت إلى حدوث مجاعة الثلاث سنوات بقسنطينة 1847 – 1850:

تطرقت المصادر التاريخية أيضا إلى مجاعة السنوات الثلاثة التي حلت بقسنطينة من سنة 1847 إلى غاية 1850، والتي أجدب خلالها سكان قسنطينة ونواحيها، بعدما أصيبوا بقحط شديد انعدمت معه الأقوات، وحسب ما أوردته المصادر التاريخية فإن أسباب هذه المجاعة تعود بالدرجة الأولى إلى عموم الجراد الذي حلّ بالوطن وما أحدثه من إتلاف وإفساد للزرع والنبات، والملاحظ خلال هذه المجاعة عكس سابقاتها هو أن التجار الفرنسيين قد ساعدوا الناس على مواجهة هذه المجاعة بجلب الحبوب من مختلف الجهات وتوزيعها على المحتاجين في قسنطينة ونواحيها بواسطة تذاكر كان يوزعها المكتب العربي بالمدينة على المحتاجين .(العنتري، 1974، ص. 16).

5.3. المجاعة السوداء: مجاعة الثلاث سنوات بقسنطينة 1866 – 1868:

تحدثت المصادر التاريخية أيضا عن المجاعة السوداء أو مجاعة الثلاث سنوات الكبرى التي حلت بالجزائر بصفة عامة وقسنطينة بصفة خاصة على مدار ثلاثة سنوات من 1866 إلى 1868، هذه المجاعة التي قضى الجوع والمرض فيها على خمس سكان الجزائر حسب غالبية المصادر التاريخية التي أتيحت لنا فرصة الاطلاع عليها، والتي ترجع في مجملها أسباب المجاعة السوداء إلى حدوث الجوائح التي نزلت بالزروع والنباتات وأتلفتها، وكذا انتشار مرض الرهمة الذي هلك المواشي سنة 1867، هذا فضلا على زحف الجراد سنة 1868 وما أحدثه من تلف بالزروع والأشجار والنباتات. (العنتري، 1974، ص.17)

وحسب ما ذكره الباحث كمال بن صحراوي فإن السبب في نعتها بالمجاعة السوداء يعود لكونها مظلمة ليس فيها رحمة للخلق، فالأغنياء افتقروا وتبدلت أحوالهم، والفقراء أهلكتهم ودمرتهم تدميرا كأن لم يكونوا بالأمس، وقد بدأت المأساة بفساد الزرع فأعدم حصاده برا وشعيرا، ثم جاء دور المواشي بعد أن قل العلف فأهلكتها "الرهمة" وهي مرض يصيب البقر والثيران، وانتهت الكارثة إلى انتشار الوباء وموت كثير من الخلق. وبعد أن وقع هذا كله جاء الجراد عام 1868، فأهلك الحرث والنسل ولم ينج من المزارع إلا القليل (بن صحروي، 2017، ص. 278).

هذا ويصف العنتري هول هذه المجاعة فيقول: "... وفيها أشرف الناس على الهلاك على الهلاك الأليم والبلاء العظيم، بحيث أنه لم يسمع في الزمان بمثلها، وقد حصل فيها لضعفاء عامة الخلق، بل ولكثير من خواصهم أيضا؛ بادية وحاضرة من التشتت والفناء وأكل الحشيش ونحوه ...، ولما اشتد هولها بالأرياف بدأ الناس يزحفون إلى قسنطينة جماعات ووحدانا، نساء ورجالا، فالطرق بهم ممتلئة يمينا وشمالا، وجوههم مقشعرة بالية، وظهورهم عارية ....". (العنتري، 1974، ص ص. 17- 18).

كان أن ترتب عن هذه المجاعة ما يلي:

- ✓ انعدام الحبوب في الأسواق،
- ✓ موت المواشي،
- ✓ ارتفاع أسعار الحبوب ارتفاعا فاحشا طيلة ثلاث سنوات،
- ✓ انتشار وباء الكوليرا والتيفيس وغيرها من الأمراض الفتاكة،
- ✓ ضياع الأملاك والثروات التي تركت أصحابها السابقين فقراء. (العنتري، 1974، ص. 17).

وعن أثر هذه المجاعة التي حلت بالجزائر بصفة عامة وقسنطينة بصفة خاصة، يذكر أندري نوشي أن حصيلتها البشرية كانت وخيمة بمقاطعة الشرق الجزائري التي كانت تفقد في اليوم الواحد ما يزيد عن مائة شخص من ساكنتها (A. Nouchi, 1960, P. 371)، ومثله أيضا فقد عبر الأسقف بورزي عن خطورة هذه المجاعة قائلا: "... هدّدت المجاعة الرهيبة والمخيفة القبائل العربية بالشرق الجزائري خاصة ... وأدت إلى وفاة عدد غير محدد ... ازدادت معاناة الناس كثيرا بسبب شح العيون والينابيع سنة بعد أخرى حتى جفت تماما....، لم تعد الأرض خلال هذه السنوات توفر نباتا ولا عشبا.... استمرت معاناة الناس كثيرا لغاية 1868 ..." (Burzet, s. d, P. 75 – 79).

خاتمة:

يمكننا القول في خاتمة هذه الدراسة أن المجاعات قد شهدت ظهورا متكرّرا بإقليم الشرق الجزائري (قسنطينة)، عبر فترات زمنية متقطعة من أواخر العهد العثماني وبداية عهد الاحتلال الفرنسي للجزائر، مع اختلاف في شدّة تأثيرها على ساكنة المنطقة، وقد تركت المجاعات التي نزلت بقسنطينة أثارا وانعكاسات سلبية على الوضع الاقتصادي للبلاد

آنذاك ومن ثمّ على الوضع الاجتماعي. وقد اعتبرتها المصادر التاريخية من أشد المحن التي عرفتها المنطقة؛ نظرا لتكرار ظهورها باستمرار وخلال مراحل زمنية متقاربة.

قائمة المصادر والمراجع:

المراجع باللغة العربية

1) الجيلالي، عبد الرحمان، (د.ت): تاريخ الجزائر العام، ج3.
2) بن عبد القادر الجزائري، محمد، (د.ت): تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر، ج1، المطبعة التجارية.
3) بن العنتري، محمد الصالح، (د.ت): الفريدة المنيسة في حال دخول بلد الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانهما أو تاريخ قسنطينة، ديوان المطبوعات الجامعية، الساحة المركزية، بن عكنون، الجزائر.
4) بن صحراوي كمال، 2016-2017، مجاعة 1868 بالجزائر من خلال نصوص محلية وأخرى فرنسية، مجلة عصور الجديدة، المجلد 07، العدد 26، مختبر تاريخ الجزائر، جامعة وهر.
5) حساني، مختار، (2007): موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، ج3، مدن الشرق، دار الحكمة، الجزائر.
6) غطاس، عائشة، (د.س): الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954.
7) برنشفيك، روبار، (1988): تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15، تعريب حمادي الساحلي، ج1، ط1، دار الغرب الإسلامي.
8) العدواني، محمد بن محمد، (1996): تاريخ العدواني، تح: أبو القاسم سعد الله، جامعة الجزائر، ط1، دار الغرب الإسلامي.
9) سبنسر، وليام، (2006): الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زبادية، دار القصبة للنشر، الجزائر.
10) سعد الله، أبو القاسم، (د.س): تاريخ الجزائر الثقافي 1500 1830، ج 1، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
11) فيلالي، عبد العزيز، (د.س): مدينة قسنطينة (تاريخ، معالم وحضارة)، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة.
12) الزبري، محمد العربي، (1984): التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة مابين 1792-1830، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
13) الوزان، حسن، (1983): وصف افريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، ج1، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
14) مجاهد، يمينة، (2018/2017): تاريخ الطب في الجزائر في ظل الاستعمار الفرنسي 1830-1962، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة وهران، اشراف فغرور دحو.
15) قشوان، عبد الرزاق، (2010/2009): السلطة المحلية في بايلك قسنطينة، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجيستر في التاريخ الحديث، اشراف فلة القشاعي، جامعة الجزائر.
16) ابن منظور، (1968): لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج 3.
17) ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، (د.ت): لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، مج 1،8،3

18) الجوهري، (1984): الصحاح (تاج اللغة وصحاح العربية)، تحق: أحمد عبد الغفور عطار، ط3، دار العلم للملايين، بيروت، ج3.

19) الفيروز آبادي، (د.ت): القاموس المحيط، دار صادر للملايين، بيروت، مج 3

20) قلعه جي، محمد رواس، قنبي، حامد صادق، (1988): معجم لغة الفقهاء، دار النفائس، ط2، بيروت

21) البياض بد الهادي، (2008): الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس، ط1، دار الطليعة للنشر والتوزيع، بيروت

22) شالر، وليام، (1982): مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824)، تر:إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر

23) مزدور، سمية، (2009/2008):المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588-927هـ/1192-1520 م)، مذكرة لنيل شهادة الماجيستر في التاريخ الوسيط، جامعة قسنطينة، الجزائر

24) كريمي، ماجدة، (2002): قراءة في المدينة الموحدية والمرينية من خلال أزمات المجاعات والأوبئة، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، الجديدة.

المراجع باللغة الأجنبية :

25) Nouchi, André, (1955) : constantine à la ville de l'occupation, cahier tunisien, n 11.

26) Nouchi, André, Y. Lacoste A, et A. Prenant, L'Algerie passé et présent, Paris, 1960.

27) Abbé Burzet, Histoire des désastres de l'Algérie 1866 – 1867 – 1868, Sauterelle, Tremblement de terre, Choléra, famine, 1868.

مجـــاعة أهـالي مدينة تلمسان إبَّان الحصار المريني.

The famine of the people of the city of Tlemcen during the Marinidsiege.

د. محـــمد بن زغـــادي
Dr.Benzeghadi Mohammed
جامعة تلمسان/ الجزائر
University of Tlemcen /Algeria
د.بودعـــة نجـــادي
Dr.Boudaa Najadi
جامعة سعيدة/الجزائر
University Saïda/ Algeria

الملخص:

اكتسبت مدينة تلمسان مكانة مرموقة بين مصف مدن المشرق والمغرب الإسلامي، ذلك ما تؤكده البقايا المادية، وما كُتب عنها في كُتُب الرَّحالة، لقد تأتى لها ذلك من مجموعة عوامل، أولها الموقع الجغرافي، هذا الأخير وصفه الخليفة العباسي في حادثة الإمام إدريس، حينما استقر بمدينة تلمسان بالباب، حيث قال"... من ملك الباب يوشك أن يدخل الدار..."، كنايةً عن موقعها الاستراتيجي، أدَّى هذا التميز الجغرافي، إضافة إلى توفرها على الماء والتربة الخصبة ذات المنبت الكريم في حدوث معارك حامية الوطيس بينها وبين من عاصرها من الدول، لاحتلالها والاستيلاء على خيراتها، ولعَّل أبرز تلك الصراعات ما وقع بينها وبين المرنيين في القرن الرابع عشرة ميلادي.

تمخض عن ذلك النزاع حصار طويل الأمد استمر الحصار لمدة ثمان سنوات وثلاثة أشهر، ما يُذكرنا بحصار طروادة الإغريقية الذي دام عشرة سنوات، وهو ما يجعله ثاني أطول حصار في العالم بعد حصار طروادة، لكن تلمسان غير طروادة، فقد خرجت منتصرة من ذلك الحصار الطويل رغم ما تكبدته من خسائر، أبرزها المجـــاعة التي حدثت بفعل الحصارموضوع ورقتنا البحثية، حيث نفذت مطامر القمح والشعير وغيرها من المزروعات، وتفشَّت في أهل تلمسان المجاعة والأمراض.

الكلمات المفتاحية: المجاعة، الدولة الزيانية، الدولة المرينية، الحصار، المصادر التاريخية.

Abstract:

The city of Tlemcen has gained a prominent position among the cities of the Levant and the Islamic Maghreb,This isconfirmed by the physicalremains,And whatwaswritten about her in the books of travellers,It came from a number of factors,The first is the geographical location,The latter wasdescribed by the AbbasidCaliph in the incident of Imam Idris,Whenhesettled in the door, wherehesaid, "...whom the king of the dooris about to enter the house...", as a metaphor for itsstrategic location,This geographical distinction and itsavailability on water and fertile soilwith a decentbreedinggroundled to fiercebattlesbetweenit and itscontemporaries,, to occupyit and seize itsbounties, and perhaps the mostprominent of theseconflictsoccurredbetweenthem and the Marinids in the fourteenthcentury,The conflictresulted in a prolongedsiegethatlasted for eightyears and threemonths,It reminds us of the ten-yearsiege of Troy,This makesit the second longestsiege in the world after the siege of Troy,Tlemcen, however, is not Troy, as itemergedvictoriousfromthat long siege, despite the lossesithadincurred,The mostprominent of themwas the famine thatoccurred as a result of the siege, wherelandfills for wheat and barleywerecarried out, and famine spread among the people of Tlemcen.

Keywords: The famine, Zayan State, the Marinid state, the siege, historical sources.

مقدمة:

حياة الحواضر الإسلامية تماثل حياة الواحد منا، فلها عمرٌ كأعمارنا، تولد ضعيفة ثم تشبُّ وتصبح يافعةً قويةً، لتهرم بعد ذلك ويعتريها الكِبر وتتوارى عن الأنظار تحت التراب، أي أنها تعيش أياماً لَهَا وعليها، هكذا كانت حياة مدينة تلمسان، سجَّلت بصمتها في سجل الحضارة الإنسانية عبر ما أُنجز فيها من عمائر تنم عن الذوق الرفيع والرقي الحضاري، ولعَّل ما بقي ظاهراً للعيان من آثار كالجامع الكبير ومساجد الأحياء والدور خير دليل على ذلك، لأنها تعد بحق شواهد تنطق بلسان الصدق عمَّا كان واقعاً في الماضي البعيد.

عاشت تلمسان خلال هذه الفترة حركة مدٍّ وجزرٍ في أجوائها السياسية فقد واجهتها الأخطار من الشرق والغرب، وبلغ بها الحد في بعض فترات حياتها ألا تتجاوز أسوار العاصمة أي تلمسان، وكان ذلك على وجه التحديد في الفترة التي شهدت فيها الحصار الطويل المضروب عليها من طرف المرنيين، تمخض عنه مجاعة ربما لم يسبق لتلمسان أن عاشتها من قبل هذه القضية محور الورقة البحثية، سنعالج فيها أسباب الصراع ونقدِّم فيه قراءة متأنية للحالة المأساوية التي أتى على ذكرها من عاشها من الجغرافيين ورحالة.

أولا: اللمحة الجغرافية والتاريخية لمدينة تلمسان:

تعتبر مدينة تلمسان إحدى أهم حواضر المغرب الأوسط تراثاً، لم يكن لها أن تصل إلى ذلك محض صدفةٍ، إنما مما تجمَّع لها من موقع استراتيجي، لقد أصبحت من خلاله نقطة التقاء الثقافات الوافدة من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب عبر ما يأتيها من علماء وقوافل تجارية، ضف إلى ذلك اهتمام سلاطينها بالعمارة جعل منها حاضرة مرموقة بين حواضر الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

1.اللمحة الجغرافية:

اكتسبت مدينة تلمسان مكانة مرموقة بين مصف مدن المشرق والمغرب الإسلامي، ذلك ما تؤكده البقايا المادية، وما كُتب عنها مثل ما ذكره صاحب القرطاس عمَّا قام به الإمام إدريس حينما دخل أغادير، وما كان رد فعل الخليفة العباسي قائلا"...اغتَّم لذلك غمّا شديداً فبعث إلى وزيره...فاستشاره وقال له إنه ولد علي بن أبي طالب وبن فاطمة بنت النبي صلّى الله عليه وسلَّم وقد قوى سلطانه وفتح مدينة تلمسان...ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار..."(أبو الحسن علي بن عبد الله ابن أبي زرع الفاسي:1972،ص.21-23)، هذا ما يؤكد بكل جلاء أهمية موقعها عند السلاطين.

1.1.الموقع:

ساعد الموقع الجغرافي الاستراتيجي مدينة تلمسان أن تكون منذ العصر الوسيط من أهم حواضر المغرب الإسلامي وعاصمة المغرب الأوسط لأكثر من ثلاثة قرون، تتمركز هذه المدينة في الجهة الشمالية الغربية من الجزائر عند خط طول1°و33 دقيقة غرباً، ودائرة عرض33°و53 دقيقة شمالاً وترتفع عن سطح البحر بحوالي 850متر، وحاليا تبلغ مساحتها الاجمالية حوالي 9061كم^2 (محمد الهادي لعروق، سمير بوريمة: دت، ص.33)، أما عدد سكانها الكلي فقد قُدِّر في آخر إحصاء أنجز سنة 2008بـ 140158.

ويبدو أن قيام دولة بني عبد الواد يغمراسن بن زيان واتخاذه تلمسان عاصمة له لا يرجع إلى عبقرية منشئها، بقدر ما يرجع إلى الحظ الذي ساقهم إلى الموقع المتميز اقتداءً بالمرابطين والموحدين من بعدهم، وطول تاريخ بني عبد

الواد الذي قارب الثلاثة قرون لا يرجع كذلك إلى صلابة بنيان الأسرة التي وضعت أسس الدولة ومن أيدها من القبائل الزناتية فقط، إنما يرجع إلى حصـانة الموقع وقدرته على مقاومة عوامل الانهيار، إذ تتبوأ موقعاً وعراً يحكم الطريق القادم من الصحراء إلى البحر(ابن الأحمر :2001،ص.15)،وقد تحدَّث يحي بن خلدون عن هذا الموقع أثناء وصفه لتلمسان بقوله:"...مدينة عريقة في التمدن لدنة الهواء عذبة الماء، كريمة المنبت، اقتعدت سفح جبل عروساً منصة والشماريخ مشرفة عليها إشراف التاج على الجبين بها للملك قصورا زاهرات اشتملت على المصانع الفائقة والصروح الشاهقة والبساتين الرائقة مما زخرفت عروشه..." (يحي بن خلدون:1903،ص.09-10)

وليومنا هذا لا تزال مدينة تلمسـان ذات مكانة مرموقة بموقعها بين المدن، إذ تطل على سـهل الحنايا الذي يسمح لهواء البحر المنعش الولوج إلى داخلها مُخفضا بذلك درجة الحرارة وجالباً للسحب الممطرة شتاءً، وهو ما ذكره بن مرزوق وهو يتغنى بجودة موقعها ومناخها قائلاً: يا عاذلي كن عاذري في حبها*.*يكفيك منها ماؤها وهواؤها". (نقلاً عن: أحمد بن محمد المقري التلمساني:1998، ص.433).

كما عاد موقعها عليها بالنفع في المجال التجاري، حيث أصبحت بموقعها الاستراتيجي نقطة التقاء التجار، لعرض سلعهم، وممر عبور للقوافل التجارية من الشمال نحو الجنوب ومن الشرق نحو الغرب، وقد تضافرت مجموعة من العوامل جعلت هذه المدينة قِبلة الخاصة والعامة من الناس، ولعل أهم تلك العوامل توفرها على الماء والتربة الخصبة ذات المنبت الكريم، إضافة إلى الجانب الأمني الذي تتميز به كون موقعها يعتبر بحق حصناً طبيعياً، يحتمي به أهلها من الغزاة كل ذلك جعلها محلا لاستيطان البشري منذ أمد بعيد، إذ تعاقبت عليها عدّة حضارات.

2.2.1.اللمحة التاريخية:

تلمسان مدينة قديمة، تعاقبت عليها عدّة دول خلّفت عدّة مآثر معمارية تعكس مستواها الحضاري الذي عاشته آنذاك في عدّة مجالات سواء اقتصادية أو سياسية وتعكس مدى وملاءمتها للعيش.

1.2.2.1.أصل التسمية:

في الفترة التي استقـر فيها الرومـان بمـدينة تلمسان لُقبت ببُومَارْيَا Pomarius وهي كلمة لاتينية تعني بستان الفواكه: (PélixGaffiot،2000.121, P .121)،ما يؤكد أن المدينة كانت تتوفر منذ القدم على مقومات طبيعية جعلتها مطمع العديد من السـلاطين والملوك لذلك اختارها الرومان لتكون نقطة مراقبة للمناطق التي احتلوها بالقرب منها .(Augustin Bernard, 1901,P277)، وفيما يخص هذا الاسـم لم يرد ذكره في مؤلفات المسـلمين الأوائل ولا حتى عند المؤرخين الرومان ما عدا جدول الأساقفة بكنيسة قرطاجة الذي ذكر أسقفية باما ريانسيس أي نسبة لبوماريا،(نقادي سـيدي محمد :1991، ص.11)، وتبقى الشـواهد المادية المرجع الوحيد الذي يشـير إلى وجود الرومان بها، وتتمثل في بقايا من الجزء السـفلي لجدار من الحجارة المشـذبة، وأيضًا لجزء السـفلي من بدن مئذنة أغادير، إضـافة إلى أحجار جنـائزيـة مصـقـولـة وجـدت بشـرق أغـادير(Deloum Saïd :2012, P.20)، بعـدمـا تقلص نفوذ الرومـان والونـدال والبيزنطيين في إفريقية استتب الأمر للبربر، ومع مجيء الفتح الإسلامي ظهر الاسم الجديد وهو أغادير، باللهجة المحلية معناه الحصـن أو الصخرة المنيعة أو جدار المدينة، هناك من ربط هذا الجدار بما ورد بالقرآن الكريم ﴿وَأَمَّا الجِدَار فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي المَدِينَة﴾(القرآن الكريم: سـورة الكهف، الأية 81)، أي أن الجدار الذي وصـل إليه سـيدنا موسى والخضر عليهما السلام هو بمدينة أغادير، (يحي بوعزيز:2003، ص.15)، وقد تحدَّث عبد الرحمن بن خلدون

عن هذه الحادثة مستبعداً إياها باستهجان قائلا"...أن مُوسى عليه السَّلام لَم يفارق المشرق إلى المغرب، وبنو إسرائيل لم يبلغ ملكهم عما وراءها..."(عبد الرحمن بن خلدون:2000،ص.102)،تميزت مدينة أغادير قديماً بتجمع عمراني معتبر ونشاط تجاري متميز من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى والأندلس وبلاد السودان انعكس كل ذلك على رقي مجالها العمراني.(محمد بن عمرو الطمار:1984،ص.07)

بقي الاسم ساري المفعول إلى أن دخل يوسف بن تاشفين المدينة، واختط بغربها معسكراً أصبح نواة لمدينة اسمها تاجرارت والتي تعني: المحلة أو المعسكر المحصن، حسب ما أورده يحي بن خلدون قائلاً :...تعرف بتجرارت بناها ملك لمتونة يوسف بن تاشفين في حدود اثنين وستين وأربع مائة بمكان محلته فلذلك سميت بتاجرارت فإنه اسم المحلة بلسان زناتة..." (يحي بن خلدون:1903،ص. 21)

بعد ذلك سُميت المدينة بتلمسان وهو الاسم الذي لازالت تتقلده لحدِّ الساعة، وفي معناه أقاويل، إذ ذكر يحي بن خلدون معنيين، الأول ما رواه عن أستاذه أبي عبد الله الآبلي قائلاً"...تسمى بلغة البربر تْلَمْسَانْ كَلِمَة مُرَكَبَة مِنْ "تْلَمْ" ومعناه تجمع وَ"سَانْ" معناه اثنان أي الصحراء والتل..."أي تجمع بين التل والصحراء، أما الثاني ذكره قائلاً:"...ويقال أيضا تلشان وهو أيضا مركب من "تِلِ"ومعناه: بَالْ وَ"شَانْ" أي لها شأن عظيم، وهي مدينة عريقة في التمدن..." (يحي بن خلدون:1903، ص.09)، وإلى جانب يحي بن خلدون ذكر ياقوت الحموي أن تلمسان اسم لمدينتين يجمعهما مكان واحد معبراً عن ذلك بقوله:"...تلمسان ... وبعضه يقول تنمسان بالنون عوض اللام بالمغرب وهما مدينتان متجاورتا مسورتان بينهما رمية حجر إحداهما قديمة والأخرى حديثة اختطها الملثمون ملوك المغرب واسمها تاقررت يسكنها الجند...واسم القديمة أغادير..."(شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي:1977، ص. 44)،نفس الأمر تحدَّث عنه البغدادي في كتابه مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة. والبقاع أي أن اسمها تلمسان أوتنمسان.(صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي:1992،ص.272)

وهناك عدد من المؤلفين العرب الذين تناولوا ذكر اسم المدينة وأطلقوا عليها اسم تلمسان، وذلك قبل العهد المرابطي أي قبل مجيئ المرابطين وبنائهم لتاجرارت، ومن بينهم اليعقوبي الذي عاش خلال القرن الثالث هجري الموافق للقرن التاسع ميلادي في مؤلفه البلدان قائلاً:"...ثم إلى المدينة العظمى المشهورة بالمغرب التي يقال لها تلمسان وعليها سور حجارة وخلفه سور حجارة، وبها خلق عظيم وقصور ومنازل مشيدة..."(أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن واضح اليعقوبي:2002،ص.196)،نفس الأمر ذكره أبو عبيد الله البكري المتوفي سنة 487هـ قائلاً :"... وهذه تلمسان قاعدة المغرب الأَوْسَط ولها مساجد...وهي دار مملكة زناتة..." (أبو عبيد الله البكري:دت،ص.76).

كل هذه الأوصاف تؤكد ما كان للمدينة من مستوًى حضاري، يعكس مدى براعة معماريها في الفن المعماري وأيضاً مدى تشبتهم بالعقيدة الإسلامية، كل هذه الأوصاف تؤكد ما كان للمدينة من مستوًى حضاري، يعكس مدى براعة معماريها في الفن المعماري وأيضاً مدى تشبتهم بالعقيدة الإسلامية.

ثانياً: أسباب نشوب الصراع الزياني المريني:

لم ينشب هذا الصراع من العدم، بل عن عوامل أدرمت نار الفتنة بين الدولتين، وتتلخص في مايلي:

1. الموقــع الجــغرافي:

كما أشارنا سالفاً، تبوأت تلمسان مكانة مرموقة بين الحواضر الإسلامية، لموقعها الاستراتيجي الذي جعل منها باباً مفتوحاً على جنوب إفريقيا، تستعمله جميع القوافل التجارية، فضلاً عن ذلك استيعابها للشروط الأساسية التي أتى على ذكرها ابن الربيع في كتابه سلوك المالك في تدبـير الممالك، وابن الأزرق في كتابه بدائع السِّلْك في طبائع الملك، وهي تتمثل أساساً في وفرة الماء، والتربة المعطاءة، والشَّعراء للحطب، وأن يكون طيب المرعى، وذي هواء جيد محصَّن تحصيناً طبيعياً، كل هذه الوصاف تقلدها تلمسان.

2. السياسة التوسعية للدولة المرينية:

أَوْلَى البِلاط الملكي المريني لسـياسـة التوسـع أهمية كبرى، فلطالما كانت تراود السـلاطين فكرة أمجاد الدولة الموحدية التي كانت تبسط هيمنتها على المغربين الأوسط والأقصى، ولم يجد إلاَّ الجهة الشرقية لتطبيقها وتجسيدها على أرض الواقع، إذ يحدُّهم البحر من جهة الشـمال والغرب، والصحراء جهة الجنوب، فضـلاً عن ذلك أغرى موقع تلمسان وما جادت به من خيرات السلاطين المرينيين.

ثالثاً: قراءة تاريخية للصراع الزياني المريني:

بدأت أولى محاولات الغزو المريني على يد السـلطان المريني أبو يعقوب يوسـف بشـن أربع غارات، قام خلالها بإتلاف المزروعات لإغراق تلمسان في شبح المجاعة كما أتلف عمرانها، إلاَّ أن أهل المدينة بقُوا جاثمين في مراكزهم، ما دفع بالسـلطان المريني إلى خوض حصـار طويل بدأ تنفيذه يوم 02 شـعبان 698هـــ (عبد الرحمن بن خلدون، ج7، ص127).

أثناء هذا الحصار قام يوسف المريني ببناء مدينة جديدة بكل مرافقها من منازل وحمامات ومسـجد جامـع وقصـر ...إلخ، وتحـدث عن ذلـك أبـي الـحسن علـي بن عبد الله ابن أبي زرع الفاسي قائلاً"...وبنى تلمسان الجديدة وهذبها وبنا بها الحمامات العظيمة والفنادق والمارستان وجامعاً كبيراً للخطبة...وبنا بها مناراً عظيماً، وجعل على رأسه تفافيحاً من الذهب بسبع مائة دينار ذهباً..."(أبو الحسن علي بن عبد الله ابن أبي زرع الفاسي:1972،ص: 387)،بُنيت مجاورة لتلمسان من الناحية الغربية وأطلق عليها اسم المنصورة تيمناً بنصره على الزيانيين استمر الحصار لمدة ثمان سـنوات وثلاثة أشـهر وخمسـة أيام (يحي بن خلدون، ص.125)،ما يُذكرنا بحصـار طروادة الإغريقية الذي دام عشـرة سنوات (يحي بوعزيز:2003،ص.34)،لكن تلمسان غير طروادة، فقد خرجت منتصرة من ذلك الحصار الطويل رغم ما تكبدته من خسائر.

انتهي الحصار بموت السلطان المريني أبو يعقوب يوسف على يد أحد خدمه في قصره بمدينة المنصورة حسب ما أورده أبي الحسـن علي بن عبد الله ابن أبي زرع الفاسـي قائلاً"...وقُتل أمير المسـلمين أبو يعقوب غيلة بقصـره من حضـرة تلمسـان الجديدة يوم الأربعاء السـابع لذي القعدة من سـنة ست وسـبعمائة...وهو نائم خصـي من فتيانه...". (عبد الرحمن بن خلدون:2000، ص.129).

تجدَّد الحصـار على يد السـلطان أبي الحسـن المريني الذي أخبرنا عنه عبد الرحمن ابن خلدون أنه كان يقوم بنفسـه بإصلاح الثغرات ومراقبة المواقع قائلاً"...وذلك أن السـلطان أبا الحسـن كان يباكرهم في الأسحار فيطوف من

وراء أسواره...يرتب المقاتلة ويثقف الأطراف ويسد الفروج ويصلح الخلل ... واستمرت منازلة السلطان أبي الحسن إياها إلى آخر رمضان من سنة سبع وثلاثين وسبعمائة فاقتحمها يوم السابع والعشرين منه غلاباً...."(عبد الرحمن بن خلدون:2000،ص147-148)الموافق لسنة1337م،سجَّل المرينيون في هذه الفترة الزمنية بصمتهم وذلك ببناء عمائر تنم عن الذوق الرفيع روعة الصنع بتناسق هندستها وجمال عناصرها المعمارية من قبب وأعمدة وزخرفة...الخ كصومعة المنصورة ومسجد سيدي الحلوي ومسجد سيدي بومدين، بقي الأمر على حاله بالنسبة للمدينة وبعد استعمار دام اثنين وعشرين سنة تمّ استرجاعها وإحيائها من جديد على يد أبي حمو موسى الثاني عام760ه/1359م الذي يعتبره المؤرخون السلطان الشاعر والسياسي المحنَّك، الذي استطاع بحنكته السياسية جمع قبائل بني عبد الواد.

رابعاً: فتنة المجاعة

نشير فقط إلى حدثٍ هام له علاقة بمأساة المجاعة، ويتمثل في أن الحصار وقع عندما كانت مدينة تلمسان تحت حكم السلطان الزياني أبو سعيد عثمان بن يغمراسن، يورد لنا ابن خلدون حديثاً استقاه من أستاذه محمد بن إبراهيم الآبلي عن هذا السلطان أنه دعي بكأس لبن في الديماس وهو بناء مخصص للسلطان تحت الأرض، لا يدخله الضوء، فلما شربه مات على حينه، وكانت السنة الخامسة من الحصار، حسب ما ذكره ابن خلدون أنَّ السلطان هو من تعمَّد فعل ذلك مخافة معرَّة وأذى غُلب عدوِّه له، وهذا ما يشير إلى حجم الكارثة التي ألمَّت بمدينته وعشيرته، وأنها كانت قاب قوسين أو أدنى من الهلاك الأبدي، وبعد وُصول خبر وفاة أبو سعيد إلى السلطان يوسف بن يعقوب تفجَّع له، واستغرب في نفس الوقت من صرامة قومه وعدم رضوخهم واستسلامهم،(عبد الرحمن بن خلدون:2000،ج07، ص.128).

ذكر محمد بن عبدالله التنسي، صاحب مؤلف تاريخ بني زيان ملوك بني تلمسان، ما آل إليه وضع المعيشة بالتفصيل، وقد وصف ذلك المشهد المأساوي قائلاً"....وكان على أهل تلمسان بلاءٌ عظيم من غلاء الأسعار، وموت الرجال، وتثقيف من يُخاف منه الفرار، بلغ فيه الرطل من الملح دينارين، وكذلك من الزيت والسمن والعسل واللحم، ويُضيف قائلاً أن الدجاجة بلغت ثمانية دنانير ذهباً، وكانوا يوقدون خشب دورهم ينقضونها لذلك، وفرَّ أكثر أهلها، فلم يبق فيها من الرعية إلاَّ حوالي المائتين، وكان فيها من المقاتلة نحو الألف، وكانوا كل يوم يطلبون القتال من محاصريهم، ويخرجون إليهم رجالة، كما أشار أيضاً أنَّ صاع القمح وصل ثمنه دينارين وربع، وعقب وصول خبر موت السلطان ونهاية الحصار، تراجع ثمنه إلى ثمن دينار،(محمد بن عبدالله التنسي:2010،ص132-135).

يتضح من خلال وصف محمد بن عبدالله التنسي المعروف بالحافظ والأديب والشاعر والفقيه التاريخي،(محمد بوشقيف:2011،ص.41)،النمط الغذائي الذي كانت تعتمد عليه الأسر الزيانية في تلك الفترة الزمنية العصيبة، وممَّا شك فيه فقد كان ذلك النمط المعتمد عليه حتى قبل حدوث الحصار وظهور المجاعة، ويتضح أيضاً أن جميع المواد المستهلكة ممَّا كانوا ينتجونه في حقولهم ومزارعهم، وأن انتاجهم كان وفيراً بدليل الكمية التي استطاعوا الصمود بها لمدة ثمانية سنوات وثلاثة أشهر، فلو لم يكن الإنتاج وفيراً، فلم يكن ليكفيهم حتى لبضعة أشهر فقط، وليس

لسنوات، ما يدل على وفرة المياه وغنى مدينة تلمسان بالتربة المعطاءة، وأن النشاط الفلاحي كان من الأنشطة الأساسية لسكان المدينة.

لقد ورد عن عبد الرحمن بن خلدون في كتابه وصفاً لما كابده أهالي مدينة تلمسان خلال الحصار، وممَّا جاء فيه مايلي"....واستمرَّ حصاره إيَّاهم إلى ثمانية سنين وثلاثة أشهر من نزوله، نالهم فيها من الجهد ما لم ينله أمَّة من الأمم، واضطروا إلى أكل الجيف والقطوط والفيران حتى أنهم زعموا أنهم أكلوا فيها أشلاء الموتى من الناس، وخرَّبوا السقف لوقود، وغلت أسعار الأقوات، والحبوب وسائر المرافق بما تجاوز حدود العوائد، وعجز وجدهم عنه فكان ثمن مكيال القمح الذي يسمُّونه البُرشَالة، ويتبايعونبه، مقداره إثنا عشرة رطلاً ونصف مثقالين ونصفاً من الذهب، وثَمُن البقر الواحد ستين مثقالاً، ومن الضأن سبعة مثاقيل ونصفاً، وأثمان اللحم من الجيف الرطل من لحم البغال والحمير بثمن المثقال، ومن الخيل بعشرة دراهم صغار من سكتِّهم، تكون عُشر المثقال والرطل من الجلد البقري ميتة، أو مذكى بثلاثين درهماً، والهِّر الداجن بمثقال ونصف، والكلب بمثله والفار بعشرة دراهم، والحية بمثله، والدجاجة بثلاثين درهماً، والبيض واحدة بستة دراهم، والعصافير كذلك، والأوقية من الزيت باثني عشرة درهماً، ومن السمن بمثلها و من الشحم بعشرين، ومن الفول بمثلها، ومن الملح بعشرة، ومن الحطب كذلك، والأصل الواحد من الكرنب بثلاثة أثمان المثقال، ومن الخس بعشرين درهماً ومن اللفت بخمسة عشر درهماً، والواحدة من القثاء والفقوس بأربعين درهماً، والخيار بثلاثة أثمان الدينار، والبطيخ بثلاثين درهماً، والحبة من التين والإجاص بدرهمين، واستهلك الناس أموالهم وموجودهم، وضاقت أحوالهم..."(عبد الرحمن بن خلدون:2000،ج07، ص.128).

جاء وصف عبد الرحمن بن خلدون دقيقاً وملمّاً بالأحداث التي جرت، ربما لأنه تناقلها عن أستاذه الآبلي الذي كان من جلساء البلاط الملكي، وعكس ما أتى على ذكره مأساة المجاعة التي عانى منها السكان حينذاك، حتى وصل بهم المطاف إلى أكل الجيف من الحيوانات، وانتزاع تسقيف مساكنهم للتدفئة وطهي ما يسدوا به رمقهم، وتعكس أيضاً وصفه الدقيق قوة العزيمة والإرادة التي تمتَّع بها سكان مدينة تلمسان، إلى الحدِّ الذي أدهش السلطان المريني.

في الوقت الذي كانت فيه مدينة تلمسان تحتضر، كانت مدينة المنصورة على النقيض من ذلك، حيث اتسعت خطة المدينة، وأصبحت قِبلة للتجار والفقهاء، ووفدت على يوسف بن يعقوب رسل السلاطين فيها بعد هذه المحنة ذكر عبد الرحمن بن خلدون أن موت السلطان المريني يوسف بن يعقوب فك الحصار وأذهب عن أهالي تلمسان العناءة، أي المجاعة، ومما جاء ذكره في كتابه من أوصاف عن ذلك مايلي"....حدثني شيخنا محمد بن إبراهيم الآبلي قال: جلس السلطان أبو زيان صبيحة يوم ذلك الفرج وهو يوم الأربعاء في خلوة زوايا قصره، واستدعى ابن حجاف خازن الزرع فسأله: كم بقي من الأهراء، أي مخازن الحبوب والمطامير المختومة؟ فقال له: إنما هي عولة اليوم وغداً فاستوصاه، وبينما هو على ذلك الحال حتى جاءه خبر مقتل السلطان المريني، فخرج أهل تلمسان ممَّا كانوا فيه، وكأنهم خرجوا من الأجداث، أي القبور، وهو ما يدل دلالة واضحة المعاني عمَّا كابده السكان آنذاك، إلى الحدِّ الذي سمُّوا فيه تلك السنة سنة الفرج، وكان لذلك الحدث وقعٌ على المجال الاقتصادي، حيث قاموا بتغير ضرب السكة، وكتبوا فيها ما أقرب فرج الله، فرحاً بزوال الحصار عنهم بطريقة لم تخطر على أذهانهم، وذلك من تقدير العزيز العليم.عبد الرحمن بن خلدون:2000، ج07، ص.128-129).

انتهي هذا الحصار يوم الأربعاء سابع ذي القعدة سنة 706هـ، و مات خلق كثير في هذا الحصار بسبب الحرب والمجاعة بلغ عددهم 120 ألف (يحي بن خلدون،ص.123، 125)، وقد أشـار القس بارجس من خلال ما ورده من أخبار في زيارته لمدينة تلمسـان أن عدد السـكان في خضـم الحصـار انخفض بشـكل كبير، حيث قُدِّر عددهم في فترة الحصار بـ200 شخص فقط، وما يُقارب 1000 عسكري، ما تبقى مات بفعل الجوع والقذائف النارية للآلة الحربية المسـمَّاة المنجنيق التي اسـتخدمها أبو يعقوب يوسـف في تحطيم أسـوار مدينة تلمسـان وما بداخلها، وهناك من لاذ بالفرار إلى الجبال المتاخمة للمدينة أو لأماكن أخرى بعيدة عن مكان الحرب والحصـار،(Abbé Bargés :1859,P.193)،وبعد انتهاء الحصار قام السلطان الزياني أبو حمو بترميم ما تثَّلم من الأسوار بفعل الضربات التي أصابتها من طرف المرينيين.

وقد قاوم أهل تلمسـان هذا الحصـار والمجاعة بكل شـجاعة وصـبر، فأثنى عليهم يحي بن خلدون بقوله: "بالله درهم ما أكرمهم وأشجعهم وأوفاهم وأصبرهم إلى أن حمدوا العقبى وحازوا شرف الدنيا ورعوا ثواب الآخرة" (يحي بن خلدون، ص125).

خاتمة:

يتضح من خلال ما أتينا على ذكره في هذه الورقة البحثية، أن حياة الدولة الزيانية كانت في مدٍّ وجزر دائم، في المجال السياسي، حيث لم يتعد مجالها بضع مرَّات حتى أسوارها، كما حدث خلال الحصار الأول الذي شنَّه السلطان يوسف بن يعقوب، والحصار الثاني الذي شنَّه حفيده أبي الحسن المريني، ويتضح أيضاً أن فكرة استشراف المستقبل لم تكن محط اهتمام سـلاطين الدولة الزيانية، بالرغم من أن القرآن الكريم كتاب هذه الدولة ومصـدر تشـريعاتها أشار في قصة سيدنا يوسف عليه أفضل الصلاة والسلام إلى أهمية هذا الموضوع، إذ أنهم لم يحتاطوا من مثل هذه الاعتداءات، حتى بعد الحصـار الأول، لم يكترثوا بأهمية الاحتياط من عاديات الزمن، إذ بمجرَّد ما تكرَّر الحصـار مجدَّداً على يد السلطان أبي الحسن حتى استسلموا له.

كما تبين من خلال ما أتينا على ذكره حول المجاعة التي عاشـها أهالي مدينة تلمسـان بسـبب الحصـار، أن لِلْعمارة معنًى أكبر من أتكون سكنى أو مكان للبيع والشراء أو حتى للتعبد، لكن تبيَّن أنها سلاحٌ يُستعمل لردع الأعداء، فلولا حصانة الأسوار ومتانتها لتمكَّن السلطان المريني من احتلال المدينة، وربما كان أذاقهم شرَّ العذاب، ضعف ويلات المجاعة.

قائمة المصادر المراجع:

المصادر:

1) القرآن الكريم، سورة الكهف، الأية (81).

2) أحمد بن محمد المقري التلمساني، (1998)، نـفح الـطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، مج05، دار صادر، بيروت.

3) أبو الحسن علي بن عبد الله ابن أبي زرع الفاسي، (1972)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، صور للطباعة والوراقة، الرباط.

4) ابن الأحمر، (2001)، تاريخ الدولة الزيانية تلمسان، تقديم وتحقيق هاني سلامة، ط1، مكتبة الثقافة الدينية، مصر.

5) يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، مج01، مطبعة بيير بونطانا الشرقية، الجزائر،1903.

6) عبد الرحمن بن خلدون، (2000)، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق سهيل زكار، ج07، دار الفكر، بيروت.

7) شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت الحموي، (1977)، معجم البلدان، مج02دار صادر، بيروت.

8) أبو عبيد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، (د ت).

9) مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، (2008)، القاموس المحيط، تحقيق أنس محمد الشامي وزكريا جابر محمد، دار الحديث، القاهرة.

10) أحمد بن أبي يعقوب إسحاق بن واضح اليعقوبي، (2002)، البلدان، تحقيق محمد أمين ضنّاوي، ط01، دار الكتب العلمية، لبنان.

11) صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي، (1992)، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق علي محمد البجاوي، مج01، دار الجيل، بيروت.

12) محمد بن عبد الله التنسي، (2010)، تاريخ بني زيان ملوك بني تلمسان، مقتطف من نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق محمود بوعياد، منشوراتANEP، الجزائر.

المراجع باللغة العربية:

13) محمد الهادي لعروق وسمير بوريمة(دت)، أطلس الجزائر والعالم، دار الهدى

14) يحي بوعزيز، (2003)، مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر.

15) محمد بن عمرو الطمار، (1984)، تلمسان عبر العصور، دورها في سياسة وحضارة الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

16) نقادي سيدي محمد، (1991)، التصميم العمراني لمدينة تلمسان ودلالته الاجتماعية، رسالة ماجستير، معهد الثقافة الشعبية، جامعة أبي بكر بلقايد.

17) محمد بوشقيف، محمد بن عبد الله التنسي، (2011)، مجلة عصور الجديدة، العدد3، جامعة أحمد بن بلّة، وهران.

المراجع باللغة الأجنبية

18) Pélix Gaffiot, (2000), Le Grand Gaffiot, Dictionnaire Latin Français, revue et augmantée par Pierre Flobert, Hachette livre, Paris,.

19) Augustin Bernard,(1901),En Oranie , Société de Geographie et d'archéologie de la Province d'Oran ,Tome 21,imprimerie typographique et lithographique L.fouque Oran.

20) Deloum Said,(2012),Essai de Synthèse des Etudes Historiques et Archéologiques dans la région de Tlemcen ,In)R(Minbar ET-tourath EL-etheri,n°1,réalisée par laboratoire: Patrimoine Archéologique et sa valorisation, Algérie.

الطب الوقائي في الحضارة الإسلامية: طاعون القرن الثامن الهجري أنموذجا

Preventive medicine in Islamic civilization: the plague of the eighth century AH as a model

د. بوحسون عبد القادر

Dr.Bouhassoun Abdelkader

جامعة سعيدة /الجزائر

University Of Saiida/Algeria

الملخص:

لطالما شكلت الأمراض والأوبئة عبر تاريخ البشرية خطرا يهدد الإنسان ووجوده، حيث خلفت ملايين القتلى ناهيك عن الآثار النفسية والاجتماعية والاقتصادية...، وحاول الإنسان جاهدا أن ينتصر عليها من خلال البحث عن العلاج ومسكنات الألم بالإضافة إلى طرق منع انتشار العدوى.

والحضارة الإسلامية مثل بقية الحضارات القديمة والحديثة لم تغفل هذا الجانب، فاهتمت بالعلم عموما والطب خصوصا، حيث برز العديد من الأطباء ممن كانت لهم شهرة واسعة وتركوا لنا مؤلفات مهمة في مجال الطب استفادت منها البشرية جمعاء.

ومن بين المجالات التي نجدها حاضرة في تاريخ الحضارة الإسلامية مجال الوقاية من الأمراض أو الطب الوقائي، حيث نجد الكثير من التدابير والنصائح في هذا المجال والتي استفادت منها الشعوب قديما في زمن الطاعون ويمكن الاستفادة منها حاليا زمن وباء الكورونا.

الكلمات المفتاحية: الحضارة الإسلامية، الطب، الوقاية، الطاعون.

Abstract:

Diseases and epidemics have always posed a threat to humans throughout human history, leaving millions of deaths, mot to mention other various effects, and man tried hard to conquer it bay searching for appropriate treatment and preventing the spread of infection .

The Islamic civilization like other, did not neglect this aspect so it was interested in science in general, including medicine, where many doctors who were famous have emerged and left important works that beneficed all mankind and one of the fields that we find strongly preset is the field of disease prevention, we find many measures and advice in this field which peoples have benefited from today in the time of corona.

Keywords: Islamic civilization, medicine, protection, the plague

مقدمة:

إن تاريخ البشرية مليء بالأحداث والوقائع التي نغصت على الإنسان حياته وهددت استقراره وحتى وجوده، ولم يكن عليه إلا أن يبحث جاهدا عن السبل والطرق الكفيلة للخروج من تلك الأزمات، أو على الأقل التقليل من حجم الخسائر، ومن جملة الوقائع التي هددت البشرية ولا زالت تهددها إلى يومنا هذا: الأوبئة والأمراض التي خلفت جروحا عميقة في التاريخ الإنساني عبر العصور.

وفهمت الشعوب والمجتمعات أنه يتحتم عليها التعايش مع تلك الجوائح والابتعاد عن مسببات العدوى، وبعدما فهم الفرد ذلك أضحى لزاما عليه العمل على الوقاية منها قبل حدوثها، باتباع جملة من التدابير التي أوصى بها أهل الاختصاص والتجربة. وهذا ما سنحاول التعرف عليه من خلال مقالنا المعنون ب:

الطب الوقائي في الحضارة الإسلامية، طاعون القرن الثامن الهجري أنموذجا:

والذي أحاول أن أبين وأوضح فيه مدى اهتمام المسلمين بجانب الوقاية من الأمراض والأوبئة او ما اصطلح عليه فيما بعد بالطب الوقائي، كما سأحاول الإجابة على تساؤل فرعي مهم جدا وهو مدى تقيد الشعوب والمجتمعات الإسلامية بهذه التدابير والإرشادات من خلال تعريف الطب، ووابراز واقع الطب الوقائي في الحضارة الإسلامية ثم تبيان الكيفية التي واجهت بها الشعوب الإسلامية للجوائح من خلال أخذ نموذج طاعون القرن الثامن الهجري.

1.تعريف الطب:

يُعرف عبد الرحمان بن خلدون الطب على انه صناعة تنظر في بدن الإنسان، حيث يحاول صاحب هذه الصناعة أو المهنة حفظ الصحة ومعالجة المرض بالأدوية والأغذية الملائمة (ابن خلدون، دت، ص 545)، ويُعرف كذلك على أنه محاولة معرفة مزاج الإنسان. (ابن زكري، 2005، ص. 337).

ونظرا لأهمية هذا العلم وحاجة البشرية اليه فقد لقي اهتماما كبيرا من قبل جميع الشعوب قديما وحديثا، كما لقي اهتماما وتشجيعا لأهله من قبل الحكام والملوك والسلاطين لاسيما من قبل المسلمين في العصر الوسيط (عبد القادر بوحسون، 2017، ص. 174)، حيث برز عدد كبير من الأطباء ممن بلغت شهرتهم الآفاق، وتركوا لنا مصنفات هامة في هذا العلم، (الذهبي، دت، ص، 487، عثمان مهملات، 2000، ص. 98.92) مما يدل على تفوق الحضارة الإسلامية في هذا المجال.

2.الطب الوقائي في الحضارة الإسلامية:

لقد وصلت الحضارة الإسلامية إلى درجة كبيرة من الرقي والإبداع في مجالات مختلفة لاسيما في المجال العلمي، وبالأخص في العلوم الطبية حيث أضافت الحضارة الإسلامية الكثير في هذا مجال، حيث تمسكت بالمنجزات المحققة من قبل الحضارات والشعوب الأخرى وعملت على تطويرها.

وقد حث الدين الإسلامي على الاهتمام بهذا المجال ونهانا عن الخرافة التي ارتبطت بالطب والرجوع إلى العرافين والمشعوذين والكهان، وأبطل المداواة بالسحر والشعوذة. (فتحي يونس، 1996، ص. 207)، كما وردت نصوص تحثنا على التداوي والتطبب، وهي نصوص تفتح المجال وتشجع على تعلم الطب، منها قوله صلى الله عليه وسلم:

" **لكل داء دواء فإذا أُصِب دواء الداء برأ باذن الله**" رواه مسلم.

وقوله صلى الله عليه وسلم: "**تداووا فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء**" رواه أبو ماجه والترمذي.

ونصوص أخرى كثيرة في هذا المجال تحث على الاهتمام بالطب والحرص على تعلم فنونه وقواعده، هذا وقد عُرف عن الرسول صلى الله عليه وسلم التداوي بأغذية وأعشاب معينة مثل: العسل والتمر والأعشاب الطبية وغيرها فيما عُرف بالطب النبوي. (راغب السرجاني، 2009، ص ص. 30- 31).

كما اهتم المنهج الإسلامي بتوعية المسلمين لما فيه خير لدينهم ودنياهم، ومن أهم المجالات التي حرص عليها : الوقاية من الأمراض أو ما اصطلح عليه الطب الوقائي، حيث حرص الإسلام على: حماية الإنسانية جمعاء لكون المرض لا يختص بدين معين أو جنس دون غيره، فالأمراض تؤثر سلبا على حياة عموم البشر، حتى أن المسلمين كانوا سباقين في علاج المرضى وبالمجان في المستشفيات مراعاة للجانب الإنساني (فتحي علي يونس، 1996، ص. 13)، حيث أضحت المستشفيات أو المارستنات كما كانت تسمى بمثابة مؤسسة طبية عمومية لخدمة المرضى الغرباء والفقراء والمجانين والذين لا يجدون أسرا تهتم بهم، فهي بذلك مؤسسة خيرية تكاد تشبه الزوايا في بعض أدوارها. (محمد حقي، 2018، ص ص. 39.40)

وفي الوقت الذي كانت فيه الكثير من الشعوب تعيش تخلفا ملحوظا في هذا المجال نجد الحضارة الإسلامية قد قطعت أشواطا كبيرة، حتى أن بعض كتب التاريخ تذكر أن الأوساخ والقذارة كانت سمة مميزة لحياة بعض الشعوب، ومنها الأوروبية، حتى أن بعضها كان يعتقد أن تلك الأوساخ بركة، ووصل بهم الأمر إلى الاغتسال مرة واحدة أو اثنين فقط في العام الواحد، في مقابل ذلك نجد الرسول الكريم يُرشد الناس إلى الطهارة ووجوب الغسل واستحبابه. (راغب السرجاني، 2009 ص. 91)

حتى أنه حدد فترة زمنية قصوى للفارق بين الغسلين (سبعة أيام)، كما أوصانا بطهارة الأعضاء المختلفة مثل: الفم فأرشدنا إلى السواك، ودعانا إلى تنظيف أماكن العرق والأوساخ (الإبط، الأظافر)، وحذرنا من التخمة الزائدة، وأوصانا بتغطية الإناء والصحن، وحرم ديننا أكل الميتة والدم وغيرها، والتي أثبت الطب الحديث أنها مضرة بالصحة. (السرجاني، 2009 ص ص. 93-94).

ولم يغفل الإسلام البيئة والمحيط حيث دعانا إلى الاهتمام بها والحرص على نظافتها، وأشار كذلك للحجر الصحي منعا لانتشار المرض والعدوى، حيث قال الرسول صلى الله عليه وسلم:" **لا يُورَد مُمرِض على مُصح " رواه البخاري، وقوله أيضا: " فِر من المجدوم كما تفر من الأسد"** رواه البخاري وقوله كذلك: " **إذا سمعتهم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها**"، وهذا بالذات ما يدعو إليه الأطباء حديثا في زمان الأمراض والأوبئة. (راغب سرجاني، ص 97، فتحي علي يونس، ص. 14).

كما أن الإسلام دعانا إلى التحمل والصبر ونكران الذات عند وقوع الأمراض والأزمات حيث روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: " **فليس من عبد يقع الطاعون فيمكث في بلده صابرا يعلم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له إلا كان له مثل أجر الشهيد** " رواه مسلم

فهذه التوجيهات وغيرها يتضح حرص الإسلام واهتمامه بالوقاية، وما اعتراف غير المسلمين والطب الحديث على نجاعة هذه التوجيهات إلا أكبر دليل على اهتمام الإسلام بحياة الفرد والإنسانية جمعاء.

3.التدابير الوقائية خلال طاعون القرن الثامن الهجري:

إن الطاعون هو مرض معدي ينجم عادة عن جرثومة تتشكل وتنتشر بفعل تلوث الجو وتسممه بفعل الروائح الكريهة، وهو عدة أنواع وأصناف، وعادة ما تنتقل العدوى إلى البشر عن طريق بعض الحشرات مثل القمل والبعوض والقوارض، بالإضافة إلى انتقاله من شخص لآخر سواء بالتنفس أو الملامسة. (علامة صليحة، 2015، ص ص 209.210).

وقد عرف الطاعون منذ القدم، وكان هاجسا يهدد البشرية حتى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تحدث عنه، وسبق الإشارة إلى بعض الأحاديث حوله، ومن أشهر الطواعين وأشدها فتكا بالبشر الطاعون الذي ضرب البشرية في منتصف القرن الثامن الهجري، 14م، والذي اصطلح عليه بالطاعون الأعظم أو الطاعون الأكبر أو الطاعون الجارف، (أحمد السعداوي، 1995. ص. 119)

وقد انتشر هذا الطاعون في الصين والهند ثم انتقل إلى آسيا الصغرى والشرق الأوسط ثم حوض البحر الأبيض المتوسط، وهلك جراؤه الآلاف من الناس، فعلى سبيل المثال لا الحصر كان يموت أكثر من ألف شخص يوميا في تونس، وما يقارب 700 بتلمسان، و 1500 ببلنسية (أحمد السعداوي، ص.121)، وقد ذكر أبو جعفر بن خاتمة الأندلسي، والذي عاصر الطاعون: " ...فقد بلغنا على ألسن الثقات أنه هلك في يوم واحد بتونس ألف نسمة ومائتا نسمة، وتلمسان سبعمائة نسمة...وأنه هلك ببلنسية ألف نسمة وخمسمائة نسمة وهلك بجزيرة ميورقة ألفا ومائتا وخمسون نسمة، وكذلك كان الأمر بسائر البلاد. (لسان الدين بن الخطيب، ص.. 44 مقدمة المحقق)

وتذكر المصادر التاريخية أن المجتمعات الإسلامية استسلمت للطاعون، فيذكر ابن حجر العسقلاني: " **وهذا الطاعون أعيا الأطباء دواؤه حتى سلَم حذاقهم أن لا دواء له ولا راجع له إلا الذي خلقه وقدره**. (أحمد السعداوي ص. 136)

ومع ذلك حاول المسلمون مواجهة الطاعون بإجراءات عديدة نذكر منها:

- ✓ تبخير البيوت بالعنبر والكافور وهو ما يصطلح عليه اليوم بالتعقيم
- ✓ ملازمة السكون تجنبا لانتقال العدوى، وعدم زيارة المرضى، وقد ذكر لسان الدين بن الخطيب أن الطاعون من جملة ما يصيب زوار المرضى، كما يذكر ابن حجر العسقلاني أن مجموعة من الأطباء نهووا عن مخالطة من أصابه الطاعون، وعدم حضور الجنائز والسهرات الجماعية في بيت الميت. (أحمد السعداوي، ص. 138)

ويذكر أبو جعفر بن خاتمة الأندلسي أن سكان بعض المدن كألمرية حرصوا على ان لا يدخل إليهم أحد من بلاد الوباء، وحافظوا على ذلك مدة من الزمن حتى غُلبوا على ذلك على حد تعبيره (ابن الخطيب، 2015، ص. 48 مقدمة المحقق)

كما يذكر لنا لسان الدين بن الخطيب أنه استعمل نوعين من العلاج من الطاعون، العلاج الأول يكون احترازيا قبل وقوع المرض بالشخص عن طريق التغذية الجيدة والهواء النقي ونظافة المجالس بالإضافة غلى اجتناب أي أمر له علاقة بشخص مريض بالطاعون او مات به مثل الملابس والأواني والمسكن...(ابن الخطيب، 2015، ص ص. 67.66)

أما العلاج الثاني فيخصص للمصاب بالمرض من خلال علاج الحمى والرئة وإزالة الأورام (ابن الخطيب، 2015، ص ص. 69.67)، ومن التدابير الاحترازية التي استعملت في ذلك العصر الابتعاد والانعزال عن الناس، فقد تواترت الأخبار لدى العامة بسلامة بعض الأماكن البعيدة والمنقطعة عن الطرق، فكان يلجأ إليها الكثير من الناس طلبا للسلامة.

(ابن الخطيب، 2015، ص. 73)، كما لا يمكن ان نُهمل الجانب الديني، فقد حرص المسلمون على التضرع لله عز وجل من أجل أن يرفع عنهم الوباء، ووردت الكثير من الأدعية المأثورة ببلاد الأندلس والمغرب

نذكر منها: " **اللهم سكن صدمات قهرمان الجبروت بألطافك النازلة من باب الملكوت، حتى نتشبث بأذيال قدرتك، ونعتصم بك، يا ذا القدرة الكاملة والرحمة الشاملة يا ذا الجلال والإكرام" وفي رواية " يا ذا النعمة الشاملة والقدرة الكاملة**" ابن الخطيب، 2015، ص. 57 مقدمة المحقق).

خاتمة:

وخلاصة القول: أن هذه التوجهات التي جاء بها الإسلام في مجال الطب الوقائي والتي جاء الطب الحديث وأكد عليها، ويؤكد الباحثون أن هذه الإجراءات لو اتبعت لما استفحل مرض الطاعون، ويمكننا القول بأن المجتمعات الإسلامية فشلت في التصدي للطاعون الأعظم الذي استفحل في القرن 8هـ/ 14م ليس بسبب محدودية هذه الإجراءات وإنما لعدم تقيد الشعوب بها، وتمسكهم ببعض العادات والتقاليد وحتى العبادات التي فيها اختلاط مما جعل الثمن باهضا جدا،

ونتمنى أن لا نقع في نفس الأخطاء التي وقع فيها أسلافنا، ونتقيد بالنصائح والتوجهات التي دعانا إليها الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرنا، وجاء الطب الحديث ليؤكد علينا كسبيل لمواجهة الأمراض والأوبئة مثل وباء كورونا.

قائمة المراجع:

1) ابن الخطيب لسان الدين، مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل، تحقيق وقديم حياة قارة، دار الأمان، الرباط، 2015.

2) (...)، الأصول لحفظ الصحة والوصول، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم d256.

3) ابن خلدون عبد الرحمان، المقدمة، دار الجيل، بيروت، (دت).

4) . ابن زكري أحمد التلمساني، غاية المرام في شرح مقدمة الإمام، تحقيق محند أو إيدير مشنان، المجلد الأول، ط1، دار التراث العربي، دار ابن حزم، الجزائر، 2005.

5) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج16، المكتبة التوفيقية، القاهرة، (دت).

6) راغب السرجاني، قصة العلوم الطبية في الحضارة الاسلامية، ط1، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 2009.

7) فتحي يونس، أثر العرب والمسلمين في الحضارة الأوروبية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلومن القاهرة، 1996.

8) عبد القادر بوحسون، الأندلس على عهد بني الأحمر، دراسة في التاريخ السياسي والثقافي، النشر الجامعي الجديد، تلمسان (الجزائر)، 2017.

9) .أحمد السعداوي، الطاعون الأعظم والطواعين التي تلته القرنين 8و9 هـ/14،15م revue de l'institut des belles lettre arabes , ibla, العدد 175، تونس، 1995.

10) . علامة صليحة، تاريخ الأوبئة في الجزائر (الطاعون، الجذري، اليفوس، الملاريا)، مجلة القرطاس، العدد الثاني، جانفي، 2015.

11) . عثمان مهملات، فضل المسلمين على الطب، مجلة العربي، العدد 504، الكويت، نوفمبر 2000.

12) محمد حقي، مؤسسات العلاج في المغرب والأندلس في العصر الوسيط، مجلة عصور جديدة، المجلد 08 العدد01، ماي 2017.2018.

واقع مجاعة 1867 الاقتصادي والديمغرافي على منطقة سيدي بلعباس

The economic and demographic reality of the famine of 1867 On the Sidi Bel Abbes

د.مجاود حسين
Dr.Medjaoud Hocine
جامعة سعيدة/ الجزائر
University of Saiida/ Algeria

الملخص:

تعد السياسة الاستعمارية الفرنسية التي انتهجتها فرنسا في منطقة سيدي بلعباس هي جزء من سياستها العامة التي شملت كل التراب الوطني، وقد ترتب عنها أخطار رهيبة وأثار بالغة ووخيمة العواقب، ومن هذه الآثار ما شاهدته الجزائر من مجاعة وانتشار لمختلف الأمراض والأوبئة بداية من سنة 1867 حتى سنة 1869، أدت إلى تغيير نمط حياة السكان الأصليين في مختلف الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

الكلمات المفتاحية: السياسة الاستعمارية، الإفراغ السكاني، مصادرة الأراضي، الزراعة المعاشية، المجاعة، الأوبئة، الفقر.

Abstract:

The French colonial policy pursued by France in the Sidi Bel Abbes region is part of its general policy that included all the national territory, and it resulted in terrible dangers and severe and dire consequences, and among these effects, what Algeria witnessed from the famine and the spread of various diseases and epidemics from the year 1867 until the year 1869, led to a change in the lifestyle of the indigenous population in various political, economic, social and cultural fields.

Keywords: Colonial policy, depopulation, land confiscation, subsistence agriculture, famine, epidemics, poverty.

مقدمة:

يعتمد المشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر على تكريس التبعية لفرنسا، وجعل استعمارها واقعا، كما أن الممارسة الاستعمارية في الجزائر تقوم بتحطيم بنية المجتمع في إطار وحدة القبيلة التي تعد عصبة المقاومة في نظر الفرنسيين، والقضاء على الأسس المادية التي يقوم عليها من خلال المصادرة والطرد وكذا سياسة الاستيطان الأوروبي. فكانت منطقة سيدي بلعباس نموذجا لتلك التجارب.

وعليه بمكن بلورة إشكالية هذه الدراسة على الشكل التالي: ما مدى تأثير مجاعة 1867 على سكان منطقة سيدي بلعباس في الجانبين الاقتصادي والديمغرافي؟

من هنا جاء موضوع بحثنا الموسوم بـ :" واقع مجاعة 1867 الاقتصادي والديمغرافي على منطقة سيدي بلعباس"، أين حاولنا التركيز على مخلفات السياسية الاستعمارية الفرنسية في المنطقة وتأثيراتها الاقتصادية والاجتماعية والصحية....ثم عمدنا على تسليط الضوء على انتشار المجاعة والأوبئة وتداعياتها على سكان المنطقة.

1. نبذة تاريخية عن منطقة سيدي بلعباس:

ترجع جذور التاريخية لمنطقة سيدي بلعباس حسب بعض الدراسات الأثرية إلى العصر الحجري، إذ نجد على سبيل المثال مدافن الموجودة بمنطقة ضايا Bossuet، وكذلك منطقة واد سفيون وسدي حمادوش، هذا دليل على تواجد الإنسان البدائي وإنسان العصر الحجري بهذه المنطقة، وما يدعم ذلك هو إنسان باليكاو الذي عاش ما بين 800000 إلى 400000 سنة قبل الميلاد بتيغنيف المتواجدة بولاية معسكر بالغرب الجزائري، ويعتبر الممثل الأول لشعوب شمال إفريقيا (غزال، ستيفان، 2007، صفحة 161).

أما في الفترة الاحتلال الروماني، فحول الرومان منطقة سيدي بلعباس إلى محطة عسكرية، حيث بنو حصن عين بنت السلطان بمرتفعات تسالة، وحصن ولاد علي، وحصن تنيرة، وهذا لتعزيز نفوذهم من خطر القبائل المحلية المتمردة. من بينها قبائل المورية التي كانت تشن هجماتها انطلاقا من الونشريس وبني شقران وجبال تسالة. (MM le capitaine, A; BER-BRUGGER, 1857, pp. 86-90).

من الواضح أن الرومان أثاروا إقامة هذه الحصون على قمم جبال تسالة نظرا لأهميتها الاستراتيجية، إذ تعد حاجزا أمنيا طبيعيا يفصل بين سهل مليتة القريب من الساحل وسهل بلعباس الواسع.

أما إذا أردنا التكلم على الحركية الديموغرافية لسكان منطقة سيدي بلعباس في الفترة الإسلامية، فهي تتلازم مع هجرة قبائل زغبة الهلالية الذين زحفوا إلى الشمال الأفريقي سنة 442هـ/1050م. في أيام المعز بن باديس الصنهاجي. واستوطن قبائل بني عامر -تنحدر من زغبة الهلالية العربية-في منطقة سيدي بلعباس حيث أنزلهم يغمراسن الزياني جنوب تلمسان (صحراء الأنجاد). وقد كانوا خلال العصر الوسيط، في عهد أمراء عبد الوادي، من أرباب الوظائف المخزنية فأكرموا حتى تولوا زمام الحكم في المملكة. غير أن وحدتهم العنصرية ما لبثت أن تفككت وأفقدتهم القوة مع مجيء الأتراك العثمانيين والإسبان مكان الصدارة. ورغم ذلك لعبت قبائل بنو عامر دورا بارزا وأساسيا في تحرير وهران سنة 1792 من نير الاحتلال الإسباني خلال الفترة العثمانية (أبو ضيف، مصطفى أحمد عمر، 1983، صفحة 155).

ولكن لما حاول العثمانيون في القرن الثامن عشر معاملتهم معاملة الرعية، لم يذعنوا بل قاوموا الأتراك ووجدوا في الطريقة الدرقاوية حافزاً على التمرد والعصيان حتى أنهم اشتركوا في ثورتها الكبرى سنة 1803، ثم هاجر بعضهم إلى المغرب الأقصى وكانت هذه هجرتهم الأولى.

وبعد الاحتلال الفرنسي سنة 1830، قاوم أهل المنطقة التواجد الفرنسي، حيث هاجموا ثكنة عسكرية (جانفي 1845) كانت مرابطة قرب ضريح سيدي بلعباس البوزيدي أحد الأولياء المشهورين في منطقة سيدي بلعباس، كما بايعت قبائل بني عامر الأمير عبد القادر و شاركوا في حركة الجهاد، و أمام صمود سكان المنطقة اضطر الجيش الاستعماري إنشاء مركز عسكري على مقربة من قبة ضريح « الولي الصالح سيدي بلعباس البوزيدي.« وتعرضت قبائل المنطقة خاصة بعد فشل ثورة أولاد ابراهيم إلى مصادرة أراضيها وتفتيت بنيتها الاجتماعية، إذ هاجر في سنة 1846 معظمهم إلى المغرب الأقصى (سعد الله، أبو القاسم، 1992، صفحة 278) .

2. **الاستيطاني الأوروبي بمنطقة سيدي بلعباس:**

تقوم السياسة الفرنسية على تحطيم البنية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للشعب الجزائري، وذلك من خلال تفكيك القبيلة –التي تعد عصبة المقاومة-والقضاء على الأسس المادية التي يقوم عليها من خلال المصادرة والطرد وكذا سياسة الاستيطان الأوروبي. فكانت منطقة سيدي بلعباس مجالا لتلك التجارب. حيث يذكر الجنرال "لامورسيير" من خلال مشروعا قدمه للجنرال" بيجو" أنه : "لا بد من تأسيس هنا –واد مكرة- بهذا المكان لأن الناحية أصبحت المفضل والضروري لنا، نحكم به كل بلاد القبائل الشاسعة، فهذا المركز السكاني سيكون بمثابة الدعم اللوجستيكي للتجمعات العسكرية العامة، أما الاحتياطي منها سيكون لتدعيم تواجدنا بمقاطعة وهران، فمنطقة سيدي بلعباس قريبة من البحر، سهلة الاتصال مع معسكر من الناحية الشرفية وتلمسان من الناحية الغربية، حيث تصبح المواصلات مع وهران أكثر أمنا، قريبة من الصحراء، تجعلنا نتحكم بشكل في الاضطرابات إنها إستراتيجية للمعمرين....لذا نطلب تأسيس مركز استيطاني بالقرب من سهل مكرة." (Adouné, Léon, 1927, pp. 43-44) .

استفادت الإدارة الفرنسية من الفراغ الذي تركته هجرة قبائل بني عامر إلى المغرب بداية من سنة 1845، حيث صرح الحاكم العام الجنرال بيجو (Bugeaud) بما يلي: " كل الأملاك العقارية والمنقولة الجماعية منها والفردية التابعة للقبائل التي هاجرت إلى المغرب أو الصحراء، أصبحت ملكا للإدارة الفرنسية" (Adouné, Léon, 1927, p. 44)، كما أصدر الحاكم العام دوك ديسلي (Doc Désiler) بتاريخ 18 أفريل 1846 قانون يسمح بمصادرة الأراضي القبائل المهاجرة والتي كانت تشارك في حرب ضد فرنسا، حيث بموجبه تم انتزاع أكثر من 35 ألف هكتار من قبيلة العمارنة لتأسيس أول مركز استيطاني بالمنطقة (Ageron, Charles Robert, 1979, p. 50).

تأسست مدينة سيدي يلعباس في أحضان المعمرين الأوروبيين، حيث بعد صدور قانون 19 سبتمبر 1848 القاضي بتأسيس مراكز استيطانية، أوكلت السلطات الفرنسية مهمة انجاز المدينة إلى المهندس النقيب برودون (Proudhon)، إذ صمم شوارعها وأحياءها ومرافقها الاقتصادية والاجتماعية (Adouné, Léon, 1927, pp. 47-55) وأخذت شكل شطرنجي plan en donnier، وحددت مساحة المدينة حينئذ بـ 42 هكتار، وخصص لهذا الغرض 16 هكتارا لبناء الثكنات ومراكز اللفيف الأجنبي، بالإضافة إلى بناء سور بطول 3 كلم وعلو 5 أمتار أخذ شكل مستطيل على طراز المدينة الرومانية القديمة في شمال افريقيا، كما يحيط هذا السور خنادق واقية بعرض 14 متر، ومع سنة 1854

كانت هناك أول توسعة، إذ أنجزت الحديقة العمومية والمستشفي العسكري، بالإضافة إلى بناء أربع أبواب من مختلف الاتجاهات، تفتح في الصباح وتغلق عند غروب الشمس، واحد في الشمال وهو باب وهران، والثاني باب الضاية بالجنوب، والثالث باب معسكر بالشرق، أما الرابع كان باب تلمسان بالغرب (Bastide, Léon, 1880, pp. 45-51) .

3. الأهمية الجغرافية لمنطقة سيدي بلعباس:

اكتسبت المنطقة بعدا استراتيجيا نتيجة لموقعها الممتاز، حيث تتوسط عمالة وهران، إذ تمتد داخل السهول الغربية للجزائر ما بين وهران وعين تيموشنت شمالا وتلمسان غربا والنعامة وسعيدة جنوبا ومعسكر شرقا على مساحة قدرت سنة 1930 بـ 102577 هكتارا،

تمتاز منطقة سيدي بلعباس بطابعها الزراعي والرعوي، نتيجة اتساع سهلها وتنوع غطائها النباتي، وتوفر المياه البطينية بها، رغم قلة ضعف المتوسط السنوي للأمطار الذي لا يزيد عن 474 ملم، ومن أهم منتجاتها الزراعية تتمثل في الحبوب، الخضر والفواكه، الزيتون، وتربية المواشي من أبقار وغنم ومعز، هذه الثروات أسالت لعاب المعمرين حيث استحوذ المعمرين القادمين من مناطق الألزاس واللورين، بالاضافة إلى الأوربيين القادمين من إسبانيا وألماني وإيطاليا ومالطة على الآلاف من أراضي، إذ بلغت 9651 هكتار سنة 1853، نتيجة لذلك ارتفع عددهم من 413 نسمة سنة 1849 إلى 1728 سنة 1852 ثم 5259 نسمة سنة 1859. (مجاود، محمد، 2001، الصفحات 90-102)

نشطت الحركة الاستيطانية بمنطقة سيدي بلعباس، بفضل الامتيازات والإعانات المادية والمعنوية المقدمة للمعمرين، حيث سارعت فرنسا إلى نزع الملكيات بمصادرة أملاك الأوقاف، واغتصاب ملكية القبائل وتجريد السكان من ممتلكاتهم ورفع التكاليف الضريبية لتهجيرهم، وتسهيل نقلها للأوروبيين بداية من إصدار مرسوم 1845 الذي يقضي: "بالسماح للعسكريين بحجز الأراضي الزراعية في حالة حدوث أي نشاط عدائي للوجود الفرنسي أو أهملوا أراضيهم والتحقوا بالثوار أو غادروا منازلهم لمدة تجاوزت ثلاثة أشهر" (بن داهة، 2005، الصفحات 317-327).

ثم أعقبته مجموعة من قوانين من بينها القرار المشيخي Sénatus –Consulte 1963، مرورا بقانون فارني La loi Warnier جويلية 1873 ومن بعده قانون 22 أفريل 1887، يهدفون كلهم إلى القضاء على الملكية الجماعية للأعراش وتسهيل عملية تحويلها إلى الأوروبيين، بالإضافة إلى قانون المستثمرات الفلاحية الذي يسمح للشركات الأوروبية بالاستثمار في قطاع الزراعة النقدية، وتملك المعمر لها، وأصبح الفرد الجزائري عامل في أرضه لا مالك لها (قنان، جمال، 1994، صفحة 117).

يؤكد هذا التوجه ما قاله الجنرال بيليسي Pélissier القائد العسكري لإقليم وهران بعد زيارته لمدينة سيدي بلعباس مخاطبا فرقة اللفيف الأجنبي: "لقد حولتم هذه المدينة الجميلة من حامية عسكرية إلى مدينة مزدهرة والتي تعد بحق نموذجا لفرنسا" (مجاود، محمد، 2001، الصفحات 90-102)

نتيجة التدفق الغير المسبوق من الأوربيين على المنطقة، تم إنشاء العديد من المراكز الاستيطانية نذكر منها: سيد لحسن على مساحة 2041 هكتار، سيدي خالد 1256 هكتار، سيد حمادوش 2221 هكتار، فرودا 1013 هكتار، الضاية بـ 662 هكتار، مولاي عبد القادر بـ 500هكتار، بوخنفيس بـ 450هكتار، لمطار بـ 584 هـ، طابيا بـ 480 ... (مجاود، محمد، 2001، الصفحات 90-102)

سمحت السياسة الاستيطانية لظهور طبقة الملاك الجدد (فئة المعمرين) أصحاب فكر ليبرالي مهيمن، أثر سلبا على مستوي الفرد الجزائري المعيشي والصحي والتعليمي في غياب مبدأ العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص، ستتجلى معالمها أكثر من خلال مجاعة 1867 الفتاكة.

4. تأثير مجاعة 1867 على سكان منطقة سيدي بلعباس:

لقد اعتمد المجتمع العباسي في بنيته الاقتصادية والاجتماعية على: الزراعة المعاشية المخصصة للعيش، باستعمال وسائل بسيطة وبدائية كالمحاريث والمنجل، والرعي المتنقل ضمن الترحال المؤقت، حيث كان بعض الأراضي تنتج من أجل السوق، أما الأخرى فكانت تنتج من أجل إشباع حاجيات أفراد الأسرة والتي تمثل القاعدة العامة . (Gauthier, Yves; Kermarec, Joel;, 1978, p. 185)

ولقد كانت للمنطقة خصوصية زراعية نظرا لتواجدها ضمن المناطق الداخلية القريبة من الساحل ومن المدن، فقد اهتم سكانها بزراعة الحبوب كالقمح والشعير، بالإضافة إلى المنتجات الزراعية والصناعية، كالقطن، العنب، زيت الزيتون، التين، الكتان، العسل، الشمع والتبغ، وتعد سيدي بلعباس في تلك الفترة من المناطق الرئيسة في تربية المواشي كالأبقار، الأغنام، الماعز، الدواجي، الإبل، النحل، ودودة القز (قداش، محفوظ؛، 1983، الصفحات 15-20).

ولقد أشار إلى ذلك وليام شالر ((... فإننا نجد هنا جميع أنواع الحيوانات، الدواجن بكثرة بما في ذلك الفرس، الجمل، والثور والحمار والغنم والبغل والماعز والخيول العربية التي تتمتع بشهرة عالية، وإن تربية الحيوانات تلائم عدم الاستقرار وتمكن أهل الريف من أن تتهرب من الضرائب التي كان يفرضها الأتراك على المزارعين والتي تأخذ عينا وكان اهتمام سكان الأرياف بتربية الحيوانات.)) (دودو، أبو العيد؛، 1990، صفحة 170)

وكان لتغيير البنية الاقتصادية والديمغرافية من قبل الاستيطان الأثر الكبير على المجتمع وعلى تركيبته البشرية وتشكيله الطبقي، زذلك بتحطيم الأسس الذاتية للشعب الجزائري بالدرجة الأولى وسكان منطقة سيدي بلعباس بصفة خاصة (الرزوق، مغنية؛، 1980، صفحة 67)، ومن خلال السياسة الاستعمارية قائمة على استيعاب الريف ودمج القطاع الزراعي في الحياة الاقتصادية، الأمر الذي سمح بتكوين رأسمال كولونيالي مهيمن على الاقتصاد، بعد الاستيلاء على الملكية الخاصة لأغلبية الشعب الجزائري، عن طريق إغراق الفلاحين الجزائريين بالديون الربوية، خاصة وأن الجزائري وبسبب قلة اقتصاده وقلة تحسبه للعواقب وعدم اكتراثه بالغد يرى في الاستدانة السلامة وفي اجلها المحدود أمدا طويلا لا ينقضي فهو لا يتردد والحالة هذه أدت إلى قبول العروض المفلسة (بلقاسم ، محمد؛، 1985، صفحة 30)

.

مما دفع بالعديد من الشرائح الاجتماعية التفكير في الهجرة سواء نحو المدن -في الداخل- أو الهجرة نحو الخارج (فرنسا أو المشرق العربي..)، نظرا للفقر والبطالة التي أصابت عددا كبيرا من سكان الريف، أدت هذه العملية إلى اختفاء المؤسسات القبلية وتفكيك البنية الاجتماعية التي كانت سائدة في الأرياف وبالتالي تقسيم المجتمع إلى مجموعات اجتماعية: عمال الأرض خماسين وعمال موسميين -يتمركزون في الريف-، عمال يدوين وحمالون في الموانئ، التجار والحرفيون المتوسطون -يتمركزون في المدن الكبرى- حتى هؤلاء تم مزاحمتهم من طرف الجالية الأوروبية، البرجوازية الصغيرة المندمجة في "النظام الاستيطاني"، البرجوازية الإدارية (Gauthier, Yves; Kermarec, Joel؛، 1978، صفحة 187).

من خلال هذه المجموعات الاجتماعية يمكن التعرف على التركيب الطبقي للمجتمع الجزائري في ظل الاستعمار، ويظهر لنا التفاوت الطبقي من خلال حجم ومستوى المعيشة بين الطبقتين: الطبقة الاجتماعية الجزائرية والطبقة الرأسمالية الأوربية.

هذا الوضع خلق فوارق اجتماعية في الجزائر عامة ومنطقة سيدي بلعباس خاصة، نتج عنها مظاهر الفقر والجهل، واستمرار ظروف العيش القاسية في أوساط الجزائريين (الأهالي)، حيث عمد الاستعمار الفرنسي بعد سلب الأراضي على إبقاء سكان منطقة سيدي بلعباس في حالة تدهور وفقر شبه تام، حيث عاشوا أزمات ومصاعب حادة على سبيل المثال في أعوام 1867، 1893، 1897، و1920، أين تفشت بينهم الأمراض والأوبئة المعدية، كالكوليرا والتيفوس وهجم عليهم الجراد وداهمهم القحط والجفاف، مما دفع بالسكان الأهالي إلى أكل الحشيش ولحم القطط والكلاب واضطر الكثير منهم إلى نبش عن الموتى في القبور لأكل لحومهم، حيث في مجاعة 1867-1868 لوحدها أدت إلى وفاة أكثر من خمسة مائة ألف (500000) جزائري، أما المعمرون كانوا في منأى من هذا البلاء حيث أن الأضرار لم تمسهم. بل كان ينعم أكثريتهم بمستوى عيش رفيع. (بوعزيز، يحي، 1985، صفحة 40)

إن وجود هذا التباين الطبقي أحدث تغييرا في البنية الاقتصادية، وساهم إلى حد كبير في تخلف عدد كبير من فئات المجتمع، وفي تشتيت التنظيم القبلي وتكوين الجماعات الاجتماعية القبلية وتحالفها مع الإدارة الفرنسية تماشيا مع المصلحة الاقتصادية والاجتماعية (التميمي، عبد الملك خلف؛، 1983، الصفحات 40-41).

خاتمة:

من خلال دراستنا لموضوع " واقع مجاعة 1867 الاقتصادي والديمغرافي على منطقة سيدي بلعبا س" توصلنا الى مجموعة من الاستنتاجات نعددها في النقاط التالية:

- ✓ من سمات السياسة الاستيطانية الفرنسية بالجزائر أنها ساهمت في تفكيك البنية الاجتماعية للجزائريين، وذلك من خلال نزع الملكيات ومصادرة الملاك والأوقاف، واغتصاب ملكية القبائل وتجريد السكان من ممتلكاتهم.
- ✓ إصدار حزمة من القوانين خدمة للأوروبيين تسهل تحويل الملكية من الأعراش إلى الأوروبيين وهذا ما حصل مع بطون قبائل بني عامر بمنطقة سيدي بلعباس
- ✓ تأثير السياسة الاستيطانية على الوضعية الاقتصادية بالجزائر بأن حولتها من بنية اقتصادية مبنية على الزراعة المعاشية والصناعات حرفية كانت بيد الأهالي الجزائريين، إلى بنية رأسمالية ذات فكر توسعي تملكي مهيمنه على وسائل الإنتاج بيد المستوطنين الأوروبين.
- ✓ إنتاج برجوازية تجارية فرنسية، بموجبها أصبح الفرد الجزائري عامل في أرضه لا مالك لها.
- ✓ في ظل هذه المتغيرات ظهر في أوساط السكان الأهالي البؤس والفقر والأمراض الفتاكة، كانت من أهم ملامحها مجاعة 1867 موضوع الدراسة.

إن هذه الوضعية المتمثلة في عدم الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي الذي عاشته منطقة سيدي بلعباس، وفي ظل تفاوت طبقي اجتماعي ساهمت في خلق توجهات سياسية متباينة في المواقف والأفكار والتصورات نظرا للتفاوت في المستوى المعيشي والاقتصادي وفي المكانة الاجتماعية والدور المركز بالنسبة للشرائح الاجتماعية، هذه التوجهات السياسية المتفاوتة هي بدورها خلقت صراعا سياسيا، سيظهر تدريجيا بين صفوف الفئة الاجتماعية ويتطور فيما بعد

مع تطور هذه التأثيرات الاقتصادية والاجتماعية وانعكاساتها الايجابية على وعي الأهالي الجزائريين، حيث لم يكون سكان منطقة سيدي بلعباس في منأى عن هذه التأثرات، إذا علمنا أن جلهم ينحدرون من الأرياف، وينتمون إلى طبقة الفلاحين الذين اغتصبت أراضيهم وصودرت ممتلكاتهم، وتم تحويلهم من ملاك إلى عمال (خماسين أو عمال موسميين) بالأجرة في أراضيهم السابقة، وكذا تشريدهم وتهجيرهم نحو المناطق الجبلية والوعرة، فاضطروا الهجرة إلى المدن للاستقرار على أطرافها في أحياء قذرة، حيث نجدهم يسكنون الأكواخ بين خمسة وعشرة أشخاص في كل خيمة.

هذه الحالة ترسخت في أذهان أبناء نوفمبر من هذه المنطقة، إذ الظلم البين الذي عاشه آباؤهم سوف يتم نقلهم إليهم، مما سوف يدفعهم التقرب من التوجه الثوري، وسيشكلون هؤلاء الأبناء الجمهور الأكبر لجماعات النزعة الوطنية الشعبية، وبهذا سيكون دخولهم المباشر ساحة النضال الثوري ومن خلال ما يحملونه من أفكار اجتماعية وسياسية من خلفيات عن الاستعمار، وما أفرزه هذا الأخير من تباعد اجتماعي واقتصادي، سيرسم اتجاه وطبيعة تصورهم وكذا مواقفهم واختياراتهم من مسألة الاستعمارية، وهذا ما سيتضح من خلال انتهاجهم الكفاح المسلح كخيار أوحد من أجل التحرر من الاستعمار بالدرجة الأولى، والتخلص من الأعباء الاقتصادية والاجتماعية من ناحية ثانية، وإعطاء متنفس جديد لسكان المنطقة بصفة خاصة والشعب الجزائري بصفة عامة، حتى يتمكن من تحديد مصيره التنموي بيده في ظل الاستقلال والتمتع بالسيادة الوطنية.

قائمة المراجع:

المراجع باللغة العربية:

1) أبو ضيف، مصطفى أحمد عمر. (1983). القبائل العربية في المغرب. الجزائر: الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية.

2) التميمي، عبد الملك خلف؛. (1983). الاستيطان الأجنبي في الوطن العربي. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والأدب.

3) الرزوق، مغنية؛. (1980). نشوء الطبقات في الجزائر. (سمير كرم، المترجمون) بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية.

4) بلقاسم ، محمد؛. (1985). القطاع التقليدي في الزراعة الجزائرية. الجزائر: المكتبة الوطنية.

5) بوعزيز، يحي. (1985). سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830-1954. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

6) بن داهة، عدة، (2005). "الخلفيات الحقيقية للتشريعات العقارية في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي (1830-1873)". الملتقى الوطني حول العقار في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي 1830-1962 (الصفحات 317-327). معسكر: المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954.

7) دودو، أبو العيد؛. (1990). الأمير عبد القادر والعلاقات الفرنسية العربية في الجزائر. بيروت: دار الغرب الاسلامي.

8) سعد الله، أبو القاسم. (1992). الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1900 (المجلد الجزء الأول). بيروت: دار الغرب الإسلامي.

9) غزال، ستيفان. (2007). تاريخ شمال افريقيا القديم (المجلد الجزء الأول). (محمد النازي سعود، المترجمون) الرباط: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية سلسلة تاريخ المغرب.

10) قداش، محفوظ؛. (1983). الجزائر جزائريون تاريخ الجزائر (1830-1954). بيروت: دار الثقافة.

11) قنان، جمال. (1994). قضايا ودراسات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر. الجزائر: منشورات النتحف الوطني للمجاهد.

12) مجاود، محمد. (2001). منطقة سدي بلعباس قرن من الاستيطان الاستعماري 1830-1930. تأليف الملتقى الوطني حول تاريخ منطقة سيدي بلعباس خلال الفترة الاستعمارية 1830-1954 (الصفحات 90-102). سيدي بلعباس: مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع.

المراجع باللغة الأجنبية

13) Adouné, Léon. (1927). la ville de sidi bel abbes, histoiren legends anecdotes. René Roidot.

14) Ageron, Charles Robert. (1979). Histoire de l'Algérie contemporaine, tome 1 : la conquête et les débuts de la colonisation 1827-1871 (Vol. 1). paris: PUF.

15) Bastide, Léon .(1880) .sidi bel abbés et son arrondissement ، Histoire administrative.- Oran . Oran: Imp. Perrier.

16) Gauthier, Yves; Kermarec, Joel .(1978) .:Naissance et croissance de la république Algérienne démocratique et populaire .Pris: Marketing (Ellipses).

17) MM le capitaine, A; BER-BRUGGER. (1857). Sidi Ali Ben Youb. Revue Afrixaune , N°2.

الإيكولوجيا والأمراض بالمجتمعات الحدودية الإفريقية : دراسة في الأنثروبولوجيا الطبية

Ecologie and diseuses in Africain border sociétés: A stade in médicale anthropologie

د. محمد مسعد إمام
Dr.Mohammed Mesaiid Imam
جامعة القاهرة/ جمهورية مصر العربية
University of Cair /Arab Republic of Egypt

الملخص:

تتمتع القارة الإفريقية بخصوصية مختلفة عن باقي قارات العالم الأخرى، ناتجة عن تعدد العوامل المكونة للهوية الإفريقية سواء على المستوى الإيكولوجي أو على المستوى الثقافي والاجتماعي، وهذا ما جعل للأنثروبولوجين دوراً كبيراً في حل الكثير من المشكلات التي تعاني منها إفريقيا.

الأنثروبولوجيا هي علم الإنسان من كافة جوانبه الثقافية والاجتماعية والبيولوجية، ونتيجة للتداخل الكبير بين البيولوجى والثقافة ظهر ميدان كبير في الأنثروبولوجيا بمسمى الأنثروبولوجيا الطبية والتي تهتم بالعوامل والأسباب الثقافية والاجتماعية التي تؤدى إلى ظهور الأمراض داخل المجتمعات البشرية.

ولذلك تتجه أنظار العالم للأنثروبولوجين عندما تظهر الأوبئة والأمراض المجهولة الأسباب، حيث يحاول الأنثروبولوجى التعمق في الثقافات المتجذرة في هذه المجتمعات.

وتحاول الدراسة الحالية إلقاء الضوء على التعرف دور البيئة في انتشار الأمراض المتنوعة في المجتمعات الإفريقية، مع التعرف على الأمراض والوضع الراهن للأمراض في إفريقيا.

الكلمات المفتاحية: الإيكولوجيا، الأمراض، المجتمع ، الحدود، إفريقيا.

Abstract:

The Africain continent has a spécificité That Is diffèrent frome the reste of the Othe continents of the world, résultant frome the multiplicité of factors That maki up the Africain identité, Werther at. the écologisa level or at. the cultural and social level, and This Is what made anthropologistes a bige rôle in solving Manny of the problèmes That africain souffres frome.

Anthropologie Is anthropologies in all cultural, social and biologico aspects. As a résulté of the gréât overlay Be tween biologie and culture, a large Field has emerged in anthropologie calle médical anthropologie, which Is concerned with the cultural and social factors and causes That lead to the émergence of diésasses within humain sociétés.

There fore, the world's attention turnes to anthropologistes when épidémies and diseuses of un know causes appeau, as the anthropologiste tries to delve intro the cultures rooter in thèse sociétés.

The curèrent stade tries to shed light on identifiant the rôle of the environnent in the speed of varions diseuses in Africain sociétés, while identifiant the diseuses and the curèrent statuts of diseuses in africain

Keywords: écologie , diseuses ,society, bordes , africain.

مقدمة:

اهتم الباحثين في الدراسات الإنثروبولوجية بالعلاقة القائمة بين الإنسان والمحيط الطبيعي الذى يعيش فيه، وما ينتج عنها من ممارسات وسلوكيات تكيفية من جانب الإنسان تجاه البيئة، مستغلاً كل موارد البيئة الطبيعية في معالجة الأمراض المرتبطة أيضاً بها، حيث بدأ في التداوي من خلال قالب الثقافة الموجه لذلك، وهذا ما يهتم به علماء الأنثروبولوجيا الطبية، حيث دراسة المسببات الثقافية للأمراض، وهذا ما تحاول الدراسة الحالية إلقاء الضوء على دور البيئة في الإصابة بالأمراض وأبضاً دورها في معالجة تلك الأمراض من خلال مواردها ونباتاتها الطبية في المجتمعات الصحراوية الحدودية الإفريقية، مستخدما في ذلك مجموعة من الإجراءات المنهجية والنظرية والميدانية من أجل الوصول إلى النتائج والتي تمثلت في " أن البيئة في منطقة وادى العلاق والنوبة والجغبوب والبوشمن لعبت دوراً كبيراً في رسم السياسات الصحية في تلك المجتمعات من خلال الخبرة الثقافية لسكان المجتمع المحلى لها".

المبحث الأول: الإطار النظري:

أولاً: إشكالية الدراسة:

يلعب المحيط الجغرافي للإنسان دوراً كبيراً في تكوين استراتيجيات حياته، وربما تحديد المسار والطرق لسير الإنسان عليها، وإيكولوجية المجتمعات الإفريقية هي التي فرضت على الإنسان الإفريقي سلوكيات معينة ومحددة أدت إلى إصابته بأمراض عبر العصور التاريخية، وبالتالي فالكثير من الأمراض المنتشرة في القارة الإفريقية هي أمراض إيكولوجية، وهذا ما نجدة واضحاً بصورة كبيرة في المجتمعات الحدودية بين مصر وليبيا والسودان.

ثانياً: أهداف الدراسة:

- ✓ التعرف على أنواع الأمراض والأوبئة داخل القارة الإفريقية عبر المراحل التاريخية المختلفة.
- ✓ التعرف على عوامل انتشار الأمراض والأوبية في إفريقيا.
- ✓ إلقاء الضوء على الأمراض المرتبطة بالبيئة في المجتمعات الحدودية وخاصاً بين مصر والسودان وليبيا.
- ✓ التعرف على أليات مكافحة الأمراض في المجتمعات الحدودية.

ثالثاً: أهمية الدراسة:

تأتى أهمية الدراسة الحالية لسببين رئيسين:

الأول: يتمثل في أهمية الموضوع لما يمر به العالم من أزمة كبيرة ناتجة عن جائحة كورونا.

الثاني: أهمية القارة الإفريقية بصفة عامة والمجتمعات الحدودية بها بصفة خاصة.

رابعاً: مفاهيم الدراسة:

1.مفهوم الإيكولوجيا:

منهج الجغرافيا والأنثروبولوجيا لدراسة الناس، وفهم العلاقة المتبادلة بين الإنسان والبيئة بما تمثله البيئة من موارد وما يصدر عن الإنسان من تصرفات وسلوكيات تجاه هذه البيئة " (Warf ,2006, P.70)

1.مفهوم الأمراض:

هو مفهوم نسبي يختلف من مجتمع لآخر وفقاً لطبيعة ثقافة كل مجتمع، ولكن يمكن تعريف المرض بأنه " هو حالة من الاختلال عن الطبيعي في كافة جوانب الإنسان، سواء على المستوى الجسدي أو على المستوى النفسي". (Mark ,2010,P.12)

2.مفهوم المجتمعات الحدودية:

هو عبارة عن مجتمع بشرى تربطه مجموعة من العلاقات " سواء كانت عرقية أو قرابية أو اجتماعية أو ثقافية أو اقتصادية" ويتحدد موقعة بالقرب من خط الحدود السياسية بين دولتين متجاورتين. (كامل، 2002، ص.132)

المبحث الثاني: الإطار المنهجي للدراسة:

أولاً: مناهج الدراسة:

المدخل البيوثقافي:

ينظر المدخل البيوثقافي إلى الإنسان باعتباره كائن بيولوجي واجتماعي وثقافي في تفاعله مع البيئة المحيطة به، وينظر أيضًا إلى التنوع البيولوجي للإنسان باعتباره استجابة وتكيف مع البيئة، كما أن هذا المدخل يركز إهتمامه على الدور الذي تلعبه البيئة الاجتماعية والثقافية للفرد في عملية التكيف، ويدرس المدخل البيوثقافي التفاعل بين العوامل الثقافية والبيولوجية في فهم الحالة الإنسانية وفهم عملية التطور البشرى في عمومها، كمنظور مميز للأنثروبولوجيا عن بقية أفرع العلوم الاجتماعية الأخرى، ويرجع أصل البحث في هذا الفرع إلى سنة 1958 في الأنثروبولوجيا الأمريكية في دراسة " فرانك ليفنجستن " للأنيميا المنجلية، كما تبنى الباحثون في فروع العلم الأخرى مثل أنثروبولوجيا التغذية والأنثروبولوجيا الطبية والبيولوجية والأركيولوجى والباليوباثولوجى المنظور البيوثقافي في بحوثهم كمحاولة لفهم المشكلات المعقدة للجماعات السكانية في أنظمة العالم الفعلي الحقيقي،(Baer, H. A., Singer, M., & Susser, I,2003,P.15)

وعموما تكمن قيمة المنهج البيوثقافي في طريقة التفكير الشاملة التكاملية. كما تمدنا الدراسات البيوثقافية بمنظور تطوري يوضح تأثير البيولوجيا على التغيرات الاجتماعية وكيف أن السلوكيات والمعتقدات المختلفة تؤثر على الصحة والمرض؟

ثانياً: نظرية الدراسة "الإيكولوجيا الثقافية "

يحاول الإنسان إنما وجد أن يعيش في سلام مع الطبيعة فهو يصلح التربة لزراعتها ويحفر الترع والقنوات ليروي زراعته، ويراعى دور فصول السنة في زرعه وحصاده ويبحث عن المعادن في باطن الأرض ويقيم السدود على الأنهار لينظم فيضانها كل ذلك تغير يحدثه الإنسان في بيئته الطبيعية، غير أن الطبيعة قد تثور على الإنسان من وقت لآخر فتهب الأعاصير والعواصف وتفيض الأنهار وتحدث الزلازل والبراكين، ويؤثر كل هذه الأحداث على حياة الإنسان واستقراره مما يدفعه إلى العمل على التكيف مع تلك الأحداث. (إحسان،2005، ص.313)

ونجد علاقة بين الإنسان والبيئة بل أنه إذا كان الإنسان يؤثر في البيئة المحيطة، فأنها تؤثر فيه وتضفي علية طابعاً مميزاً، وتحدث البيئة أثراً كبيراً على تطور الحياة الاجتماعية والثقافية، فالناس في كل مكان عليهم أن ينظموا أنماط حياتهم وفقاً لظروف الطقس وتقلباته، كما أن البيئة الفيزيقية هي التي تحدد أشكال النشاط الاقتصادي

التي يمارسه الإنسان في حياة اليومية من خلال ما توفره له من موارد ومصادر طبيعية، ولقد اتضح ذلك بوضوح في الحضارات القديمة فقد ظهرت ثقافات الجمع والالتقاط في المناطق الخصبة، كما ظهر الرعي في المناطق الصحراوية القاحلة. (Via di san,2009,p17)

ولقد ارتبط مدخل الايكولوجيا الثقافية باسم " جوليان ستيوارد " حيث لقيت صياغته لمبادئ الايكولوجيا الثقافية قبولا واسعاً باعتبارها تقدما مهماً في اتجاه ربط الإنسان – باعتباره حاملا للثقافة – ببيئته، وبدأ «ستيوارد" في الثلاثينيات من هذا القرن يقدم الأدلة على أن علاقة البشر بالبيئة كانت علاقة بالغة الأهمية، وكان تركيزه على أنواع التكيف المختلفة التي تمارسها شعوب الصيد وفقاً للقدر المتاح لمصادر الطعام. (مصطفي، 1996، ص.40)

ويميل الإيكولوجي الثقافي إلى دراسة أكثر البيئات والثقافات تنوعاً وتغايراً، ولا يستطيع أن يصنع صيغة تحليليه أو نموذج نظري مثالي للتغير الثقافي، ومن ثم لا تتكون لدية نتائج أو تعميمات عن التطور أو حتى التنوع الثقافي، وتكمن قيمة هذه المدخل عند " ستوارد" في أنه يحاول أن يضع إطاراً تصورياً للظواهر غير الثقافية المرتبطة بعمليات التغير الثقافي، وفي هذا الصدد يشير الى ثلاثة إجراءات أساسية للمدخل الإيكولوجي وهما:

- ✓ تحليل علاقة التكنولوجيا الإنتاجية بالبيئة
- ✓ تحليل أنماط السلوك التي تتضمنها عملية استغلال مكان معين بواسطة تكنولوجيا معينة
- ✓ التحقق من مدى تأثير أنماط السلوك المتضمنة في عملية استغلال البيئة على المظاهر الأخرى للثقافة.
- ✓ فمعظم الدراسات الأنثروبولوجية للأمراض اتخذت من المدخل الإيكولوجي أساساً لها، حيث ركزت في دراساتها على التفاعل القائم بين مسبب المرض وبين عائل المرض في نظام بيئي معين، وقد أكد " May "على الدور التي تلعبه البيئة بمكوناتها الفيزيقية والاجتماعية والثقافية في دراسة الأمراض، وذلك من خلال دراسته التي جاءت بعنوان " إيكولوجية الأمراض الإنسانية" (شعبان، 2007، ص.65).

المبحث الثالث: الوضع التاريخي للأمراض والأوبئة في إفريقيا:

تعاني القارة الإفريقية من انتشار العديد من الأمراض المتوطنة مثل الملاريا وداء الفيل، والحمى الصفراء، ومرض النوم بسبب ذبابة تسى تسى، والأمراض المعدية مثل الإسهال الذي يقضى على العديد من الأطفال والكبار سنوياً، والأمراض المرتبطة بحشرات المستنقعات، ومرض الفقر الشديد وسوء التغذية والدرن، والأمراض التناسلية مثل الزهري والسيلان والإيذر والتي يعتبر أخطر تلك الأمراض، حيث أظهرت الإحصائيات أن كثير من الدول الإفريقية بها نسبة عالية من الإصابة بتلك المرض يتراوح 8 مليون نسمة. (عمارة، 2002، ص.21).

أولاً: مرض الكوليرا Cholera

يظهر مرض الكوليرا نتيجة لحدوث الفيضانات أو الأمطار أو الجفاف، حيث يؤدى المطر إلى تلوث المياه، أما الجفاف فيساعد على السلوك الغير صحي إضافة إلى تلوث المياه القليلة المتاحة:

الدولة	عدد الإصابات	عدد الوفيات
مصر	3مليون	150ألف
كينيا	17200	555
الصومال	6184	3000
تنزانيا	11464	3500

ويستجيب مرض الكوليرا للتغيرات المناخية في عدة صور كما يلى :- هناك ارتباط بين انتشار الكوليرا وآحداث النينو، وهذا ثابت بالنسبة للقارة الإفريقية ودليل ذلك تدهور وضع المرض في القرن الإفريقي عام " 1997م" بعد هطول الأمطار الغزيرة في منطقة هي أساساً جافة وأدى ذلك لإبلاغ كل دول الإقليم لحالات الكوليرا ووفيات ناجمة عنها، حيث بلغت الحالات في تنزانيا "11464" حالة و "350 " حالة وفاة، بينما في كينيا نجد" 17200" حالة، و" 555 "حالة وفاة، وفي الصومال "6184 "حالة و "3000"حالة وفاة، بل أدى أحداث النينو إلى توسيع مدى المرض خارج منطقة القرن الإفريقي إلى الكنغو الديمقراطية وموزمبيق، وثبت مؤخراً أن الكوليرا يستجيب للتغر المناخي والبيئي بشدة، حيث اكتشف العلماء عن علاقة وطيدة بين درجة حرارة سطح الماء في المحيطات وانتقال ميكروب الكوليرا لمسافات بعيدة وخصوصاً مع التغيرات التي تواكب ظاهرة النينيو. (جابر، 1997، ص.557)

تم رصد عشرات الأوبئة من الكوليرا ضربت مصر بين عامى " 1831- 1902" حيث كان أشدها فتكاً عام "1831م "، حيث حصدت أرواح " 150" ألف من المصريين من إجمالي ثلاثة ملايين نسمة بينما يعادل " 5 %" من سكان مصر، وعندما انتشر وباء الكوليرا عام" 1848"م تبنت الدولة المصرية إجراءات صحية، كان أبرزها إنشاء مؤسسة متكاملة للحجر الصحي، ومع ذلك بلغت الوفيات نحو " 30 " ألف حالة وعندما ضربت الكوليرا مصر عام 1865 م حصدت أرواح " 65 ألف " من السكان وقد هرب هرب الخديو إسماعيل وحاشيته إلى إسطنبول آنذاك، ومن اللافت للنظر أن الوالي محمد على كان يعزل نفسه في الجيزة فور ظهور المرض، ثم في قصرة في شبرا فيما بعد، وكان يرسل أبناء أسرته إلى الصعيد جنوب مصر. (عزب، 2020، ص.57)

ثانياً: مرض النوم الإفريقي:

يصاحب التغيرات المناخية تغيرات بيئية وخصوصاً في رقعة وكثافة الغطاء النباتي مما يغير من حدود المناطق المناخية والنباتية الاعتيادية، ويؤدى مثل هذا الوضع إلى تغير في بؤر وبائية حيث يصيب مرض النوم الإفريقي الإنسان والحيوان في المناطق المدارية الإفريقية، وتقدر المنطقة الجغرافية التي تضم بؤر المرض في إفريقيا بحوالي عشرة ملايين كم في القارة جنوب الصحراء، ويهدد التغير المناخي بقلب الأوضاع وإمكانية عودة المرض لمناطق سبق تطهيرها منه، وأدى المرض في إفريقيا إلى إعادة توزيع السكان وترحليهم من مكان لآخر بقصد التحكم في المرض الذى يهدد الإنسان والحيوان في القارة الإفريقية، وعادة ما ينعكس آثر هذا المرض وأمراض أخرى مميته وخطيرة مثل عمى النهر في توزيع السكان. (Stock,1997,P .150).

ثالثاً: عمى النهر:

تعتبر المجاري المائية سريعة الجريان من أهم الظروف البيئية الملائمة لتكاثر الذبابة السوداء " Black Fly" وتنتمي هذه الذبابة إلى جنس السيموليوم " Simulium " وتتوالد في مياه الأنهار سريعة الجريان وتكون هذه المياه غنية

بالأوكسجين وبالمواد الغذائية، وحيث لا تقل درجة الحرارة عن "18 "درجة مئوية، وحيث يعمل المزارعين دون ارتداء ملابس كاملة وبأقدام حافية فيتعرضون لهجوم الذبابة السوداء. (UNESCO,1992,P.38)

ويصاب بهذا المرض على مستوى العالم نحو" 17 "مليون نسمة ويقع تحت خطره نحو حوالي "85 "مليون، كما ينتج عن هذا المرض العديد من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية، وتشير الإحصائيات أن دولة نيجيريا بها إصابات بهذا المراض حوالي" 8 "مليون نسمة في عام 1997م.

رابعاً: دودة غينيا

هي من الأمراض المدارية التي تنقل إلى الإنسان عن طريق مياه غير النقية، حيث يقع تحت خطر هذا المرض حوالى" 65 "مليون نسمة، ويصيب ما بين «15-18" مليون سنوياً، وهو مرض مؤلم يسببه الطفيلى الذى يسمى "الدودة المدينة " والتي تعيش في الأنسجة تحت الجلد وتحدث الإصابة عندما يتناول الشخص مياه ملوثة بالسيكلوس " Cyclops» وهو برغوث مائى صغير يحمل الطفيلى في دور متوسط من دورة حياته، وقد أثبتت الدراسات العلمية أن تحسين نوعية المياة تؤثر بالإيجاب في انخفاض معدل انتشار دودة غينيا. (حلمى، 2000، ص125).

خامساً: الإيدز

يشكل وباء الإيدز تحد خطير للعالم، حيث بلغ عدد المصابين به في إفريقيا جنوب الصحراء حوالى " 13 "مليون نسمة أي حوالى (65%) من المصابين في العالم وارتفع ذلك في عام 1997 إلى أكثر من 20 مليون نسمة وتوفي في نفس العام ثلاثة ملايين شخص بالإيدز. وتشير الإحائيات أن كثر الدول إصابة بالإيدز كالتالي: -كينيا ثم تنزانيا ثم أوغندا ثم رواندا. (سعودى، 1997، ص. 297).

سادساً: كورونا

ظهر وباء كورونا في ديسمبر 2019 في منطقة ووهان بالصين، حيث تشير المصادر أن مصدر هذا الوباء هو السوق العمومى للأسماك بالمدينة، حيث تناولت سيدة في التاسعة والأربعين من عمرها حساء الوطواط فأصيبت بأعراض مرض فتاك لم تعرف حقيقته في بأدى الأمر، إلا أن أحد الأطباء " ونليانق لى 33 سنة" إستطاع في الثالث والعشرين من ديسمبر 2019 أن يتعرف على الفيروس القاتل فقام على الفور بنشر تحذير صارم لزملائه الأطباء على صفحتة الخاصة، ولكن تم إستدعائه من جانب الأمن الصينى والذى طلب منه حذف هذا المنشور، وبعد أيام قليلة أصيب الطبيب نفسه بالفيروس ونشر صورته وهو نائم على أجهزة التنفس الصناعى وهذا كانت الشرارة الأولى التي هزت العالم وأدخلته في كابوس حتى يومنا هذا.وإنتشر المرض في كافة أنحاء القارة الإفريقية. (فلاك، 2020، ص.48)

المبحث الرابع : عومل انتشار الأمراض في إفريقيا:

أولاً: المناخ

يعتبر المناخ من أهم عناصر البيئة الطبيعية وأكثر عناصره تأثيراً على ظهور الحشرات والأمراض هي الحرارة والرطوبة حيث تنشط عوامل نقل الأمراض خلال الحرارة المرتفعة مع وجود المياه المناسبة، وحدد " Gourou" عام 1961م المناخ الرطب كسب أساسي في ضعف صحة السكان، حيث أكد أن الحرارة المرتفعة والرطوبة العالية ومسطحات المياه المتعددة كلها عناصر ضرورية لمسببات الأمراض. (Adejuwon,1983,P.130)

ثانياً: الأمية والجهل:

سجلت بوروندى أعلى معدلات الأمية في شرقي إفريقيا خلال الفترة من (1980-2000م) حيث اتضح أن أكثر من نصف سكانها في سن 15 سنة فأكثر لا يستطيعون القراءة والكتابة، بينما نجد أن السكان الأميين يشكلون الثلث تقريباً في كل من رواندا وبورندى ونحو الربع في تنزانيا أما في كينيا فنجد أقل من خمس لا يستطيعون القراءة والكتابة في عام 2000م. (عامر، 2000، ص،453)

ثالثاً: الحروب الأهلية في إفريقيا:

يعتبر العنف السائد في كثير من أركان القارة الإفريقية من أهم الأسباب والعوامل المؤدية لانتشار الأمراض فيها، حيث ما يترتب عليها من قتل ونقص في الموارد الغذائية والجوع، فنجد على سبيل المثال السودان، على الرغم من أن مستوى مشاركة الشباب يختلف من صراع إلى صراع فإن الشباب شاركوا في جميع النزاعات المسلحة، وكانوا مسؤولين عن بعض الجرائم التي تم ارتكابها في القارة الأفريقية. أسباب انضمام الشباب في الصراعات المسلحة التي عرفتها القارة الإفريقية ثمة أسباب عديدة كانت وراء التحاق بعض الشباب إلى الحركات المسلحة، والمشاركة في حمل السلاح، وأهم هذه العوامل هي تفشي الجهل والأمية المنتشرة في أغلب المجتمعات الإفريقية، العصبيات القبلية والإثنية. (أحمد، 2001، ص،55)

رابعاً: اللغة

من أهم العقوبات التي تواجه المراكز الصحية في إفريقيا اللغة، حيث أن معظم الأطباء تكون من الأجانب يتحدثون اللغات الأوربية مثل الألمانية والفرنسية والإنجليزية، وهذا ما يؤدى إلى صعوبة التواصل بين الأطباء والعاملين في المجال الصحي وبين المرضى من السكان المحلى للمجتمعات الإفريقية. (بدر، 2007، ص.107)

خامساً: الآثار الاجتماعية والثقافية للأمراض في إفريقيا:

- ✓ يؤدى ارتفاع الإمراض داخل القارة الإفريقية إلى ضعف المرافق الصحية وإضعافها، مما يجعلها غير قادرة على مجابهة تلك الأمراض والأوبئة.
- ✓ هناك العديد من الأثار الاقتصادية للأمراض في إفريقيا، فعلى سبيل المثال مرض السل في ناميبيا ينتشر في الفئة العمرية ما بين (15-45) سنة وبالتالي يؤدى إلى فقدان الأيدي العاملة المنتجة.
- ✓ العلاج التقليدي في مواجهة الأوبئة، حيث أجريت دراسات حالة عن الاستعانة بالمعالجين التقليدين وتوصلت أن (80%) من سكان ناميبيا إستعانوا بمعالجين تقليدين من جنوب إفريقيا لمعالجة مرض الإيدز والسل. (درويش، 2006، ص،56).

المبحث الخامس: الدراسة الميدانية:

أولاً: الممارسات العلاجية التقليدية في منطقة وادي العلاقى:

من أهم المخاطر التي تعرض لها العربان في العلاقي والمرتبطة بالبيئة (لدغة العقرب – لدغة الطريشة – والثعبان- والدفان) وهي أنواع تقيم داخل البيئة الصحراوية في وادى العلاقي وتحيط بالإنسان من كل جانب، فبالتالي من أهم ثقافات التكيف مع البيئة في مجتمع الدراسة ومن ضمن المكونات الثقافية للعربان هو كيفيه مقاومة هذه الأخطار من خلال الطب الشعبي السريع، حيث يعتبر الطب الشعبي عنصراً هاماً من عناصر المعتقدات الطبية والمتجزرة

في ثقافة عربان العبابدة والبشارية وله مكانه كبيره في مجتمع العلاقي فالأعشاب الطبية متوفرة بكميات كبيرة في الجبال والوديان بالوادي وتشكل جانباً هاماً في المحاصيل الضرورية للمجتمع وتمنح مساحة كبيرة للطب الشعبي في مجتمع الدراسة نظراً للبعد عن الحضر والمدن والرعاية الطبية .

وتحرك العربان في الوديان للرعي بصفة مستمرة يومياً مما يعرض الإنسان لمخاطر الزواحف والعقارب بشكل يومي.

لذا تجسدت ثقافتهم في شيئين هامين هما:

(الطب الشعبي للعلاج + الوقاية من الخطر) عن طريق معرفة " الاتر والجرة " لمعرفة وتحديد خط سير الزواحف لتحديد مكانها وتمركزها وكذلك تخفيف الحركة في فترات المساء لعدم وجود كهرباء كافية أو تكاد تكون منعدمة وكذلك كثرة تحرك الزواحف والعقارب خلال فترة المساء لذا تقل حركة الإنسان في فترات المساء وتزداد الحركة في النهار تجنباً للمخاطر. ولعلاج لدغة العقرب والزواحف طرق بدائية شعبية للعلاج السريع والناجز والواقي من الوفاه فالمشايخ وأغلب الأهالي في مجتمع الدراسة لديهم المهارات الخاصة والخبرات الموروثة في تقديم الوصفات العلاجية الشعبية لجميع الأمراض الآخري مثل : الصداع – أمراض الاسنان – أمراض العيون – أمراض البطن – أمراض الاسهال – أمراض الكسور- أمراض الحلق – أمراض الصدر – والكحة والسعال والقيء وغيرهم من الأمراض فظروف البيئة في مجتمع الدراسة يسمح بنمو الكثير من الأعشاب الطبية والنباتات التي يستخدمها الانسان في الشفاء لكثير من الأمراض .

النبات	الأمراض
شجرة الاراك والمسواك	لعلاج العيون واللثه والالآم الاسنان
توماى	لعلاج ديدان البطن .
السنمكى	لعلاج الامساك وتليين البطن
الحلف بر	لعلاج طرد البرد والمسالك البوليه والريح
الحرجل	لعلاج المغص في البطن
الحنضل	لعلاج الروماتيزم والامساك .
السنط	لعلاج الفشل الكلوى .
شجرة الغزال	لعلاج الحصوات

وهناك خلطات تجمع بين العديد من النباتات للعلاج لبعض الامراض وتعد هذه النباتات مصدر دخل اقتصادي للعديد من القبائل في الوادي حيث يتم جمع وتعبئة هذه النباتات لبيعها في مدن أسوان والمحافظات بجانب استعمالها في الطب الشعبي للقبائل داخل مجتمع الدراسة.

ثانياً: الممارسات العلاجية بمنطقة النوبة السودانية:

تتميز بلاد النوبة بالإستغلال الأمثل للموارد الطبيعة التي تذخر بها البيئة المحيطة بهم، ولذلك هذا نوع مهم من التكيف القائم بين الإنسان وبيئته، حيث إستغل النوبيين النباتات والأعشاب البرية لتداوى أمراضهم، وذلك من خلال إبداع وفن في استغلال هذه الموارد، ويمكن هنا عرض مجموعة من الأمراض والنباتات التي يستخدمها النوبين لعلاج تلك الأمراض:

1. **آلام العين:**

كانوا يضعون الكحل لوقاية العين من الإصابات، وفي حالة مرض العين يستخدمون علاج يتمثل في " كانوا يستخرجون خيوطاً رفعية بنية اللون من بين أوراق أشجار الدوم ويضعون هذه الخيوط في كوب صغير مع قليل من لبن إمرأة، ثم يقومون بوضع هذا اللبن في العين على شكل نقط قليلة كل ليلة، هذا يساعد على إزالة المياة البيضه من العين "

وهناك طريقة أخرى تتمثل في " وضع عجين من دقيق الذرة المخلوط بالقمح حول العين الملتهبة"، وفي حالة الألم المفاجيء للعين أو الناتج من ضربها يوضع حول العين عدد من ورق السجائر بعد أن يضعون فيها صفار البيض.

2. الأسنان:

في حالة تورم الخدين يأتون بورق نبات " القرقدان*" الأخضر، ثم يتم غليه بالماء ثم يستخدم كمضمضه.

3. آلأم الرأس:

علاج ألام الرأس يقوم بدهن الرأس بطين بارد يستخروجونه من الرواسب الموجود داخل الزير، وهناك طريقة أخرى لعلاج الرأس حيث يضعون نقط من ماء دافئ مخلوط بالملح في الأذن.

4. الروماتيزم:

أول طرق علاج الروماتيزم هو الإستحمام في حمام عكاشة، وهناط طرق أخرى مثل الدفن في الرمل الساخن حيث يزول الألم نتيجة لدرجة حرارة الشمس المرتفعة، أو إدخال الأرجل المصابة بالروماتيزم في إناء كبير به سمنة بلدى.

5. **الربو:**

لعلاج الربو يستخدم النوبيين كبد التمساح الناشف كغذاء، أو هناك طريقة أخرى تتمثل في تناول دهن التمساح كغذاء، حيث يكون متوفر عند صائدى التماسيح في بلاد النوبة.

6. المعدة:

لقد عرف النوبيون شرابياً محلياً لعلاج المعدة من الرواسب ومن أنواعها الأتى :

" التريبة " وهو تراب مالح يؤخذ من أماكن مخصصة ومعروفة عند النوبيين، ثم يذاب في الماء ثم يشربه المصاب.

" شربة شريف" وهي حبوب سوداء شبيه بحبوب اللوبيا ونباته شبية بنبات الباميه، حيث تسحق هذه الحبوب وتوضع في اللبن ويشرب عند الصباح، ولقد سمى بهذا الاسم نسبة للرجل الذي كان يزرع هذا النبات والتي كان يدعى " شريف".

7. **الأذن:**

لعلاج آلام الأذن يتم غلى العطرون مع الشاي الأحمر ويوضع في الأذن على شكل نقط، أما في حالة دخول الحشرات الصغيرة للأذن يضعون الزيت الدافئ كنقط في الأذن، ولنظافة أذن الأطفال الصغيرة من الديدان يضعون كمية من حبوب البصل فوق قطعة من الحديد الساخن ويغطون الحديد بطيق فيه فتحة صغيرة ثم يضعون قماشة

* نبات يشبة نبات الباميا وله زهور ذات ألوان جذابه

حول الفتحة ليحجب الحرارة ثم يضعون أذن الطفل فوق الفتحة ليدخل فيها الدخان المتصاعد من حب البصل المحروق وبالتالي تموت الديدان.

8.اللدغة

عند لدغة الثعبان يعرفون نباتات يسحقون أوراقها الناشفة ويضعونها فوق مكان الإصابة، ويعرف بعض الناس طريقة لإخراج سم الثعبان من مكان اللدغة وذلك " بحك" المكان بقطعة من القماش الصوف لوقت طويل فيظهر السم متجمد وبلون أبيض فيخرجونه بسهولة.

ونجد في لدغة العقرب يفصدون المكان ثم يمصون الدم من مكان اللدغة ثم يدعون فوقه عجين القمح مخلوط بالملح، ثم يسقى الشخص المصاب شاي سادة بالليمون، إذا ساءت حالة المصاب يتم وضعه في حفرة في الأرض بطول المصاب ولعمق 75سم تقريباً، وقبل إدخال المصاب يشعلون النار في الحفرة حتى تسخن تماماً ثم يفرشون بعد ذلك فيها نبات أخضر وفوقه يتم وضع الشخص المصاب ويغطونه حتى يعرق بغزارة ويفيق لنفسه.

والجدير بالذكر أن الشخص المصاب بلدغة الثعبان يفضل أن يتناول البصل والملوحة، كما نجد أن العقارب تكثر في بلاد النوبة في شهور الصيف وتقل في الشتاء.

9.شلل الأطفال:

هناك طريقة للنوبيين في علاج شلل الأطفال حيث يتم ربط أرجل الطفل المصاب بالشلل بخيط رفيع ويتركونه أمام الجامع والمصلون قائمون بصلاة الجمعة بالداخل، وعندما يخرج أول شخص من المسجد ويجد طفلاً بهذه الحالة يعرف المطلوب حيث يفك الرباط مع الدعوات له، ثم تأخذه أمه على أمل الشفاء.

10.**التسمم:**

لعلاج التسمم عند النوبيين نجدة في شرب المصاب لنبات العطرون مخلوط بالماء، أو شرب القرنفل المغلي في الماء.

11.السعال الديكى:

نجد أن من أهم طرق علاج السعال الديكى لدى النوبيين هو شرب لبن الحمارة، وهنا يؤكد الإخبارى " بس يا أستاذ محمد أحنا كنوبيين عرفين كويس أوى أهمية لبن الحمير بس الجيل بتاع الأيام ديه مش عارف حاجة، ياراجل تصدق أن إيطاليا بتعمل جنبة من لبن الحمير وتباع " 146» دولار عشان السعال الديكى "، وهناك طريقة أخرى يلجأ إليها النوبيين في علاج الشخص المصاب بالسعال الديكى تمثلت في أكل لحم الفأر مشوى.

11.علاج السرطان:

عرفت في بلاد النوبة وخاصة في محلية السكوت في الولاية الشمالية بعائلة تسمى " آل برهام " بعلاج السرطان، حيث يؤكد هنا الباحث النوبى سمير بوكاب وهو من أبناء السكوت أن هذه العائلة اشتهرت بعلاج سرطان الثدى لدى النساء عن طريق مجموعة من الأعشاب لا يعرفها غيرهم، والغريب في الأمر أن هؤلاء كانوا " عماء " لا يبصرون، وأخر شخص توفي منذ فترة في هذه العائلة يدعى " يعقوب برهام ".

12.الحصبة:

علاج الحصبة لدى النوبيين تمثل في وضع نقط من ماء البصل المجفف بالماء في عين المصاب، ثم يبعدونه عن الروائح الطيبة، ويجعلونه يشم دخان نتيجة حرق قطع من بروش قديمة.

وبالتالي يمكن القول بأن هناك مجموعة من النباتات يستخدمها النوبيين في علاج الأمراض منها:

البصل " يحمى من الإصابة من الأمراض والأوبئة عندما ينتقل الشخص لمكان جديد، ولضمان عدم الإصابة لابد من أكله عند دخوله أول مرة هذه البلد.

- ✓ الحرجل " يستعمل كشراب لعلاج الروماتيزم والبطن.
- ✓ الماء بالملح " يستخدمه النوبيين في علاج معظم الأمراض.
- ✓ العطرون " لعلاج التسمم
- ✓ كبد التسماح " لعلاج الربو

ثالثاً: الممارسات العلاجية التقليدية بالمجتمعات الحدودية بين مصر وليبيا " واحة سيوة بمصر وواحة الجغبوب بليبيا"

هو أحد الطرق المستخدمة في العلاج قبل ظهور الطب الحديث عن طريق قراءة القرآن الكريم والعلاج بالأعشاب الموجودة في الواحة وأيضا الوصفات البديلة، وهناك العديد من الأمراض التي تعالج عن طريق الطب الشعبي مثل أمراض العيون حيث يتم علاجها عن طريق ما يسمى " بالخرت " وهو عبارة عن إبرة بداخلها سلك يتم إدخالها بجوار العين، وأيضا من الأمراض التي تتم معالجتها هي أمراض البطن حيث في حالة الشعور بألم في المعدة يقوم المختص بإشعال قطعة من القماش ويقوم بتقريبها من أنف المريض ليشمها أو الكى بها في المنطقة التي يحس بالآلام فيها، وغالبآ ما يقوم بهذه المهمة هو رجل كبير في السن، ويتم أيضا معالجة لدغ الحشرات والأفاعى حيث يتم إحضار زيت ويضع فيه العقرب ثم يتم أخذ هذا الزيت ويتم دهن المنطقة التي تم لدغها، أو من خلال ما يسمى " بالترياق " وهو نوع من أنواع النباتات ويتم خلطة مع اللبن ثم يتم تقديمة للمصاب، وقد يستخدم كنوع من أنواع الوقاية حيث يتم تقديمة للشخص قبل سن البلوغ ومن ثم إذ حدث أن لدغة عقرب بعد ذلك فلا يؤثر فيه إطلاقا ولا يضره في شيء، وهناك العديد من الأمراض التي تعالج بالحمامات الرملية لما تتمتع به المنطقة من مقومات جغرافية وبيئية هائلة ومن أمثلة هذه الأمراض أمراض الروماتيزم والعظام.

رابعاً: الممارسات العلاجية بمجتمع البوشمن بصحراء كلهارى

ينظر البوشمن للمرض على أنه دليل على الممارسات الشريرة من قبل بعض الاشخاص ضد الشخص الحامل للمرض أو بسبب ارواح المرض التي تدخل في جسم المريض، أو يعزى لأي قوة خارقة أخرى. ويتولى العلاج الاقارب والاصدقاء غير أنه في حالة المرض الطويل يظهر دور الطبيب الساحر الذي يقوم باستخراج سموم المرض أو الأرواح المسببة له. ويقوم الطبيب بعمليات علاجية معينة كأن يلجأ إلى الأعشاب والجذور بمختلف ألوانها يحرقها احيانا ويدهن بها جسم المريض أو تغلى وتشرب. اما الممارسات الجراحية فمحدودة عندهم لكن تشلخ أجزاء من الجلد أحيانا ثم يربط فوقها قرن أحد الحيوانات ليسمح بنزول الدم، حتى الامصال التي تقى من سم الثعبان نادرة، وكل ما يفعله الـ NARON لعلاج عضة الثعبان ان يربط مكان العضة بجلد ذلك الثعبان في حين يقوم الطبيب بين AUEN بصنع مصل من ثعبان MAMBA يستخدمه ضد لدغة الثعابين الأخرى غير MAMBA.([1])

[1]) **Marshal, L. (1965)** The Kung Bushmen of the Kalahari Desert .In people of Africa,p36

خاتمة:

من خلال من سابق عرضه في هذه الدراسة يمكن القول بأن الإيكولوجيا لعبت دوراً كبيراً في تكيف الإنسان الإفريقي في محيطها، من خلال مواردها المتنوعة والتي تمثلت في النباتات والأعشاب المتوفرة في القارة الإفريقية بصفة خاصة والمجتمعات الصحراوية الحدودية منها، ويتضح ذلك من خلال استعانة سكان تلك المجتمعات بالنباتات الطبية في التداوي من الأمراض التي سببتها البيئة المحيطة بهم. وهذا ما ظهر بوضوح في مجتمعات الدراسة " وادى العلاق – الجغبوب – البوشمن – النوبة "، باعتبارها مجتمعات صحراوية حدودية.

النتائج

قامت هذه الدراسة على مجموعة من الأهداف وتمثلت في التالي:

أولاً: التعرف على أنواع الأمراض والأوبئة داخل القارة الإفريقية عبر المراحل التاريخية المختلفة.

حيث قامت الدراسة بإلقاء الضوء على أهم الأمراض والأوبئة التي انتشرت في القارة الإفريقية ومنها مرض الإيدز ومرض دودو غينيا ومرض عمى النهر ومرض السل ومرض النوم الإفريقي.

ثانياً: التعرف على عوامل انتشار الأمراض والأوبية في إفريقيا.

وفقاً لما جاءت به الدراسة فيمكن القول بأن العوامل البيئية هي من أهم مسببات انتشار المرض داخل القارة الإفريقية، حيث نجد ارتباط قوى بين تغيرات المناخ وانتشار وظهور أمراض، بالإضافة إلى الأنشطة الاقتصادية المرتبطة بالبيئة الجغرافية التي ساعدت في انتشار مرض عمى النهر في إفريقيا.

ثالثا: إلقاء الضوء على الأمراض المرتبطة بالبيئة في المجتمعات الحدودية وخاصاً بين مصر والسودان وليبيا.

ألقت الدراسة على الأمراض المرتبطة بالبيئة في مجتمعات " وادى العلاق في جنوب مصر – منطقة مروى والسكوت والمحس في شمال السودان – منطقة الصحراء الغربية في ليبيا متمثلة في واحة الجغبوب الليبية – منطقة صحراء كلهارى في نيجيريا"

رابعاً: التعرف على الأليات مكافحة الأمراض في المجتمعات الحدودية:

وفقاً لما تناولته نجد أن الممارسات العلاجية الشعبية المستخدمة في تداوى الأمراض الناتجة عن مسببات بيئية متنوعة منتشرة بشكل كبير في تلك المجتمعات الصحراوية الحدودية، وهذا يرجع لمدى قوة وعمق الثقافة التقليدية الخاصة بسكان المجتمع المحلى.

قائمة المراجع:

المراجع باللغة العربية:

1) أحمد، إبراهيم محمود، (2001)، الحروب الأهلية ومشكلة اللاجئين في إفريقيا: مجلة السياسة الدولية، العدد 143، القاهرة

2) الحسن، إحسان محمد، (2005) ، مبادئ علم الاجتماع الحديث: دار وائل للنشر والتوزيع، القاهرة

3) عزب، أحمد، (2020)، السياسات الصحية الوقائية ومواجهة أزمة فيروس كورونا المستجد: مجلة الديمقراطية، موسسة الأهرام، العدد 78

4) حلمى، أمال، (2000)، الأمراض البيئية والتنمية في نيجيريا: ندوة قضايا التنمية والبيئة في إفريقيا، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة

5) شعبان، سعاد، (2007)، الأنثروبولوجيا الثقافية لإفريقيا: معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة

6) عمارة، عبد المجيد، (2000)، الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية للتنمية في إفريقيا: ندوة قضايا التنمية والبيئة في إفريقيا، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة

7) بدر، عزيزة، (2007)، الأزمة الصحية في إفريقيا: مؤتمر الصحة والمرض في إفريقيا، 22-23 مايو 2007، قسم الأنثروبولوجيا، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة

8) فلاك، فريدة، (2020)، أرقام وإحصائيات حول أزمة كورونا: - مجلة التمكين الاجتماعي، المجلد الثانى، العدد الثانى

9) عبد الملك، كامل، (2002)، المجتمعات الحدودية في مصر: أطروحة دكتوراة، قسم اجتماع كلية الأداب، جامعة المنصورة

10) عامر، ماجدة، (2000)، التنمية البشرية في شرقي إفريقيا: ندوة قضايا التنمية والبيئة في إفريقيا، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة

11) سعودي، محمد عبد الغنى، (1997)، الإيدز في إفريقيا: دراسة في الجغرافيا الطبية، بحوث مؤتمر إفريقيا وتحديات القرن الحادى والعشرين 27-29 مايو 1997، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة

12) جابر، محمد مدحت، (1997)، الجغرافيا الطبية للقارة الإفريقية: الموسوعة الإفريقية، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة

13) السخاوى، مصطفي، (1996)، الأيكولوجيا الثقافية: الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية

14) درويش، منى، (2006)، ناميبيا: دراسة في الجغرافيا السياسية، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة

المراجع باللغة الأجنبية

15) Adejuwon, J, O,(1983),Pests and diseases. In a geograpaphy of Nigerian development. Qguntoyinbo , J.S, Second edition, Heinemann Education Books, Ibadan

16) Baer, H. A., Singer, M., & Susser, I. ,(2003). Medical anthropology and the world system. P Greenwood Publishing Group

17) Mark, Q. S. ,(2010), Introduction to Cultural Ecology, 2 nd ed, USA: Altamira Press .

18) Marshal, L. ,(1965) ,The Kung Bushmen of the Kalahari Desert .In people of Africa

19) Stock, R,,(1997), Africe south of the sahara, a geographical interpretation, the Guilford press,

20) UNESCO ,(1992), Water and health, Switzerland

21) Via di san ,2009), Traditional conservation practices in Africa, Roma ,Italy ,

22) Warf. B ,(2006), Encyclopedia of Human Geography: London, sage publication

الأوبئة والإلهام الأدبي

رواية الطاعون لألبير كامو أنموذجا

Epidemics and literary inspiration

Albert Camus' novel of the plague as a model

أ.د.بن مصطفى دريس
Prof.benmostefa driss
جامعة سعيدة/ الجزائر
University of Saiida / Algeria

الملخص:

يتناول البحث بالدراسة جانبا من مخرجات الاوبئة والجوائح في المجتمع البشري، انه الانتاج الادبي بشقيه الشعري والنثري اذ كثيرا ما دفعت هذه الجوائح عبر الزمن بالمؤرخين الى تقييد وتسجيل بداياتها ومظاهرها ونتائجها وانعكاساتها حتى تتداولها الاجيال اللاحقة، كما الهمت الادباء والشعراء لكتابة روايات وقصص استمدت من الواقع، او كانت رمزية تستند على حقائق وبائية لكنها تشير الى امور اخرى كالاستعمار والامبريالية وليس ادل على ذلك من قصة الطاعون لالبير كامو التي اتخذتها نموذجا.

الكلمات المفتاحية: الأوبئة، الالهام.الأدبي، الطاعون، ألبير كامي.

Abstrat:

The research focuses on one of the concepts of epidemics and pandemics in the human society, it is the literary production in its two parts, because these pandemics have often prompted historians over time to record its beginnings, onresults and its repercussions for the future generations, it also inspired writers and poets to write novels and stories based real facts, or on epidemiological facts, but it refers to other things, like colonialism and the imperialism, and we took the plague novel of Albert Camus as model

Keywords: Epidemics, literary novel of the plague, Inspiration, Albert Camus

مقدمة:

عرفت البشرية عبر تاريخها الطويل الكثير من الأوبئة والأمراض التي أبانت عن ضعف الانسان في مواجهة الطبيعة وتحدياتها، ومثلت تهديدا حقيقيا لاستمرار النسل البشري على كوكب الأرض، ولقد تطورت هذه الاوبئة بتطور الانسان ووسائله، ومما لا شك فيه أن الامراض والأوبئة ظهرت بظهور الانسان و تناسله وازدياد اعداده ومن معه من الخلائق الاخرى على سطح الأرض، فمنها ما دُوّن ومنها ما غاب عنا لعدم وجود وسائل أو طرق لتدوينه، ومن ثمة لم تصل أخبارها إلينا، ونقصد بذلك فترة ما قبل التاريخ أو فجر التاريخ، حيث لم يكن الانسان قد توصل الى الكتابة أو الرسم على الصخور أو داخل الكهوف للتعبير عن ما يجول بخاطره أو ما يحيط به .

لطبيعية المتاحة والعنصر البشري، أو بين مكوني هذا العنصر: أي الذكور والإناث، وأنه لا يجب أن ينظر اليها من جانبها السلبي فقط، اذ حركت تلك المجاعات والأوبئة أقلام المؤرخين والأدباء إما لنقلها للأجيال اللاحقة أو التعبير عنها ووصفها أدبيا، نثرا وشعرا كما دفعت بالبشرية خطوات كبيرة نحو التقدم العلمي في مجال مكافحتها، وأبانت عن قيم التضامن وحتمية التكافل الاجتماعي بين شعوب العالم.

فما هي تجليات الالهام الادبي لهذه الاوبئة؟ وما هي أبرز الاعمال والمؤلفات في هذا المجال؟ وما هو الهدف من وراء هذا الانتاج الادبي؟

أولا: مفهوم الأوبئة وعلومها:

حسب منظمة الصحة العالمية، فالوباء هو حالة انتشار لمرض معين، حيث يكون عدد حالات الإصابة أكبر مما هو متوقع في مجتمع محدد أو مساحة جغرافية معينة أو موسم أو فترة زمنية، وقد يحدث الوباء في منطقة جغرافية محصورة، أو قد يمتد إلى عدة مناطق ودول، وقد يستمر لعدة أيام أو أسابيع، وربما يستمر لسنوات كما هو الحال بالنسبة لفيروس كورونا أو الفيروس التاجي.

أما علم الأوبئة حسب ميكويل بورتا فهو دراسة وقوع وتوزيع الحالات أو الأحداث المرتبطة بالصحة في مجتمعات سكانية بعينها، ويشمل ذلك دراسة المحدِّدات المؤثرة على تلك الحالات، وتطبيق تلك المعرفة في السيطرة على المشكلات الصحية.

ظهرت المقدِّمات الواضحة لعلم الأوبئة المعاصر منذ أكثر من ألفي عام مضت، إذ لم تقدم لنا كتابات الطبيب الإغريقي العظيم (أبقراط) الذي عاش تقريبًا في الفترة من 480 إلى 400 قبل الميلاد أولى الأوصاف المعروفة والدقيقة والمتكاملة لأمراض مثل التيتانوس، والتيفوس، والسل) الذي صار الآن يعرف باسم الدرن الرئوي فحسب، وإنما تكشف كذلك عن منهج يقوم على الإدراك والملاحظة في فهم أسباب الأمراض .

لم يكن أبقراط مثله مثل علماء الأوبئة المعاصرين—يحصر رؤيته في الطب والمرض في مرضاه، وإنما كان يعتبر الصحة والمرض متوقفين على سياق واسع من العوامل البيئية والمتعلقة بأسلوب الحياة من مناخ وما يحتويه من عناصر كالرياح والحرارة والأمطار، ودرجة الحرارة وموقع المنطقة شمالا أو جنوبا، ودرجة ارتفاعها وانخفاضها، وطبيعة الهواء والماء وغيرها من العوامل، أضف الى ذلك طبيعة شراب الشعوب ومدى شراهتهم للطعام، وهل يركنون إلى الكسل، أم أنهم مغرمون بالتريض والعمل الشاق. (رودولفو ساراتشي: 2015، ص.16)

ثانيا: الأوبئة في الكتب المقدسة:

تحدثت الكتب السماوية عن بعض هذه الاوبئة، فمثلا نجد سورة البقرة تحدثت عن قصة قوم خرجوا من ديارهم مخافة الموت فرارًا من الطاعون حسب قول بعض المفسرين، ويرى بعض أئمة التفسير أيضا أن القوم المذكورين في الاية هم بنو إسرائيل، إذ يقول تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (البقرة: آية 243).

ففي تفسير الطبري عن ابن عباس في قوله تعالى: ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت" ، كانوا أربعة آلاف، خرجوا فرارا من الطاعون، قالوا " :نأتي أرضا ليس فيها موت " حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا، قال لهم الله " :موتوا ." فمر عليهم نبي من الأنبياء، فدعا ربه أن يحييهم، فأحياهم، فتلا هذه الآية: إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ (البقرة: آية 243).

كما قال تعالى: " (وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ) (المدثر: آية 31)، حيث يفسرها بعض المفسرين بأن الله هنا يقصد بالجنود الفيروسات القاتلة، فإنه جندي من جنود الله تعالى سلّطه على البشر، جزاء لما يقترفوه من المعاصي فهي بمثابة تذكرة وإنذار لهم.

وفي الكتاب المقدس حذر الله الناس من عواقب العصيان وعدم الطاعة، والتي منها الأوبئة، فقد قضى الله في عدة مواقع ومناسبات على الالاف من الاشخاص بسبب العصيان بأشكال مختلفة من رياح عاتية مع قوم عاد والمياه والغرق مع قوم نوح، و الصيحة مع ثمود، كما أن الله وبعد أن أعطى الشريعة لموسى، أمر الناس بطاعتها حتى لا يعانوا ولا تسلط عليهم الشرور الكثيرة قائلا : "يَضْرِبُكَ الرَّبُّ بِالسِّلِّ وَالحُمَّى وَالبُرَدَاءِ وَالالتِهَابِ وَالجَفَافِ وَاللفْحِ وَالذُّبُولِ فَتَتَّبِعُكَ حَتَّى تُفْنِيَكَ" (سفر التثنية: 28: 22).

ثالثا: الأوبئة والإلهام الأدبي:

وكما كانت الأوبئة مادة للمؤرخين فإنها وفرت كذلك مادة خصبة للأدباء عربياً وعالمياً، ودفعتهم للكتابة والإبداع الادبي، فنجد عميد الأدب العربي طه حسين في كتابه "الأيام" يتحدث عن وباء الكوليرا في قريته مطلع القرن العشرين، هذا الوباء الذي أطلقت عليه مجموعة من التسميات، وكانت كلمة «الهيضة» هي الأكثر ترددا على ألسنة البسطاء في القرى وعشوائيات المدن وبين كبار السن، و«الهيضة» هو الوصف الذى أطلقه العرب على وباء «الكوليرا»، أما المصريون فكانوا يطلقون عليه «الشوطة» التي تكتسح البشر، وقد توسع البسطاء فيما بعد فمدوا الظلال الدلالية لـ«الشوطة» لتشمل أي عملية موت جماعي تصيب أياً من مخلوقات الله(محمود خليل: 2020).

يصف لنا طه حسين لوعة أهل بيته بموت أخيه الأوسط طالب الطب الشاب بالوباء، هذا الاخير الذي وكما نقرأ في كتاب "الأيام" ((كان هذا اليوم يوم 21 أغسطس من سنة 1902 وكان الصيف منكرا في هذه السنة وكان وباء الكوليرا قد هبط .... وكان سيدنا قد أكثر من الحجب وكتابة المخلفات وكانت المدارس والكتاتيب قد اقفلت.....وكان الهلع قد ملأ النفوس واستأثر بالقلوب وكانت الحياة قد هانت على الناس)) (حسين طه: 1992، ص.104).

ثم يصور لنا توالي الفواجع فيقول: .... منذ ذلك اليوم اتصلت الأواصر بين الحزن وبين الاسرة، فما هي إلا أشهر حتى فقد الشيخ أباه الهرم، وما هي إلا أشهر أخرى حتى فقدت أم الصبي أمها الفانية، وإنما هو حداد متصل وألم يقفو بعضه بعضا، منه اللاذع ومنه الهادئ، حتى كان هذا اليوم المنكر الذي لم تعرف الاسرة يوما مثله والذي طبع حياتها

بطابع من الحزن لم يفارقها والذي أبيض له شعر الوالدين جميعا، والذي قضى على هذه الأم أن تلبس السواد الى آخر أيامها، وألا تذوق للفرح طعما (حسين طه: 1992، ص.103).

كما أن الوباء الذي طال المنطقة العربية عبر موجات عديدة منذ بداية القرن التاسع عشر، عرف طريقه إلى الأدب العربي وتحديدا الى الشعر، الذي صور حالة الهلع والرعب التي اجتاحت بلدانا بأكملها، حصد فيها الوباء اللعين (الكوليرا) أرواح الكثير من الناس، ونجد هذا مثلاً في قصيدة لنازك الملائكة تحت عنوان "الكوليرا" التي تتناول فيها انتشار الوباء في مصر في العام 1947م ومطلعها.

سكَن الليلُ
أصغِ إلى وَقْع صَدَى الأنَّاتْ
في عُمْق الظلمةِ، تحتَ الصمتِ، على الأمواتْ
صَرخَاتٌ تعلو، تضطربُ
حزنٌ يتدفقُ، يلتهبُ
يتعثَّر فيه صَدى الآهاتْ
في كل فؤادٍ غليانُ
في الكوخِ الساكنِ أحزانُ
في كل مكانٍ روحٌ تصرخُ في الظُلُماتْ

أما رواية "القلعة البيضاء" للأديب التركي أورهان باموق، التي وضعته في مصاف الكتاب العالميين وشكلت منعطفا في مسيرته الادبية باستخدامه اسلوب الفانتازيا (هي الأثر الأدبي الذي يتحرر من قيود المنطق والشكل والإخبار، ويعتمد اعتماداً كلياً على إطلاق سراح الخيال. ويطلق هذا المصطلح على جنس أدبي قصصي تقع أحداثه في عالم متخيل، يخضع لقوانين فيزيائية تختلف عن العالم الذي نعيش فيه، ويتناول شخوصاً غير واقعية وخيالية محضة وغرائبية غالباً)، والتي ترجمت الى تسع لغات فتتناول انتشار الكوليرا في إسطنبول أيام الامبراطورية العثمانية، و يحاول أن يبين للقارئ حالة الشك التي انتابته تجاه الوباء بين وجوده من عدمه، وهذا ما يحدث مع كل الأوبئة التي حدثت وتحدث في العالم، اذ يساور الانسان شك في وجود وباء أو مرض ما، مادام لم يصب به هو أو قريب له يراه عن كثب فيقول : ((يا لبساطة افتقادي لضوابطي، خبر نقله لي صباح أحد الايام غيرّ كل شيئ، ظهر وباء في المدينة، ولأنه لم يخبرني بالأمر بطريقة تدل على أنه ظهر هنا في اسطنبول، بل كأنه في مدينة بعيدة لم أصدقه في البداية، سألته كيف تلقى الخبر، وأردت معرفة التفاصيل، وجدوا فجأة تزايد عدد الذين يموتون ففهموا أن ثمة مرضا، فكرت انه من الممكن ألا يكون وباء)) (أورهان: 2000، ص.66).

يقول صاحب الرواية أيضا: وسالت عن ظواهر المرض ضحك الاستاذ وقال: يجب على أن لا أهتم، إذا أصابني الوباء سأفهم فورا، ولكي يفهم الانسان أنه أصيب، سيشهد ثلاثة أيام من حرارة المرض سيصير هناك انتفاخات تحت الاذنين وتحت الابطين وفي البطن، ويظهر ما يشبه الخيار الصغير (أورهان: 2000، ص.66)

ثم يحاول الكاتب وصف حالته والفرق بين ما يجول بدواخله وما يرى عليه الناس من عفوية وعدم اكتراث:

لكنني لا أريد تصديق هذا أيضا، كل شيء في الخارج طبيعي جدا، والناس الذين يمرون من أمام النافذة ساكنون إلى حد أنني شعرت بضرورة إيجاد من يقاسمني هلعي لكي أؤمن بوجود الوباء (أورهان: 2000، ص.66)

وفي موقع آخر من روايته يحاول أن يبين لنا جانبا من النظرة الدينية للوباء في شخص الإيطالي عثمان أفندي: وقد فهم هذا من وجهي وسبب خوفي إصراري على مسيحيتي، أنبني وقال: أن الانسان إذا أراد ان يكون سعيدا هنا فعليه ان يكون مسلما، ولكنه قبل أن يغلق على نفسه باب داره المظلمة الرطبة لم يصافحني ولم يلمسني، كان يسيطر على الشعور بالخبل والدهشة ذاك الذي يعشعش في الإنسان ساعة الكارثة. (أورهان: 2000، ص.67)، وكذا في الأستاذ الذي كان يستهين بالكاتب وحالة الخوف والرهبة التي تنتابه من خلال نظراته حين قال له: انه لا يخاف من الوباء لأن المرض مشيئة الله، وإذا انتهي عمر الإنسان فسيموت، ولهذا فإنه من غير المفيد حبس النفس في الدار وقطع العلاقات مع الخارج، كما أطلق أنا من هراء أو الهرب من اسطنبول، إذا كان الموت قد كتب علينا فسيأتينا هناك أيضا فلم سأخاف؟ (أورهان: 2000، ص.67)

ثم ينتقل إلى الحديث عن تراجع أعداد من هلكوا بالوباء وذلك بعد تطبيق إجراءات الحجر الصحي أو الكرنتينا في البلاد.

وحينما نتحدث عن الأوبئة في الأدب الديستوبي (وتعني أدب المدينة الفاسدة أو عالم الواقع المرير وهو مجتمع خيالي، فاسد أو مخيف أو غير مرغوب فيه بطريقة ما. وقد تعني الديستوبيا مجتمع غير فاضل تسوده الفوضى، فهو عالم وهمي ليس للخير فيه مكان، يحكمه الشر المطلق، ومن أبرز ملامحه الخراب، والقتل والقمع والفقر والمرض، وعكسها اليوتوبيا أي المكان الفاضل) على المستوى العربي يمكن استحضار رواية "عطارد" للأديب المصري محمد ربيع، وإن كان انتشار الكوليرا وأنفلونزا الحمير الذي تتحدث عنه الرواية ما هو إلا جزء بسيط من الموت الذي يحصد سكان القاهرة في عالم الرواية المرعب ويختم روايته بقوله: ضربتنا ريح باردة قادمة من ناحية فريدة، وعلمت أن هذه رحمة الموت تأتينا أخيرا أخيرا، وبكيت لأني كنت قد يئست من قدوم الموت (محمد ربيع: 2010،ص. 300) .

ربما يشير محمد ربيع الى القدر والقضاء، وبأن شئيا لن ينال من الشخص ما لم يحن أجله، وهذا ما ندركه من خلال هذه العبارات: ثم سقط من يحمل فريدة أخيرا وسقطت معه وسرى الموت بين الناس موجة تأخذهم ترفع الارواح وتسقط الاجساد كانوا يموتون وهم يسقطون واقتربت الموجة مني وتجاوزتني، أخطأني الموت وعبر إلى من خلفي، وخلال ثانية واحدة لا أكثر انقلبت الضوضاء الى صمت تام، حتى من تبقى واقفا كان صامتا ينظر الى الساقطين حوله بجمود (محمد ربيع: 2010، ص. 301).

ثم يختم بقوله: ورأيت أن الجحيم دائم لا ينقطع، أزلي أبدي، وأن كل شيء سيفنى في النهاية ولن يتبقى سواه، وعلمت أني خالد في الجحيم وإنني ابن الجحيم (محمد ربيع: 2010، ص. 303).

ومن بين من الصور والأحداث التي صاحبت انتشارها التصوير الرائع للكاتبة والصحفية الأمريكية -كاثرين آن بورتر- في رواية "حصان شاحب فارس شاحب"، أما على المستوى العربي فنجد رواية اللبناني ربيع جابر بعنوان "أميركا" التي تحمل صوراً قاسيةً لهذا الوباء الذي عايشه المهاجرون العرب إلى أمريكا، حيث تمرّ يومياً سيارات تنادي في الناس لإلقاء جثث موتاهم من الشبابيك بعد تفشي الموت بهذا الوباء فيقول :((كانت الشاحنة الفورد تمر والرجل يصيح من النافذة وهو يبعد كمامته : bring out your dead)) (ربيع جابر : 2010، ص. 304) .

ويصور لنا قتامة وصعوبة الوضع من خلال اخباره لإحدى الممرضات: ((أخبرتها أنهم أخرجوا المساجين من الحبس لحفر القبور، في يوم واحد مات 1760 مريضا في فيلادلفيا، والمقابر لم تعد تتسع للجثث المشرحة التابعة للمستشفي العام pgh في الشارع إلى34، تتسع لأربعين جثة فأين نضع ألف جثة (ربيع جابر: 2010، ص. 309).

ثم يعبر عن سوداوية شهر أكتوبر الذي حلت فيه الكارثة وكأنه شهر لا يريد أحد تذكره او احتسابه فيقول :((بعد ذلك انقسمت حياتهم الى فترتين، ما قبل 30 ايلول(سبتمبر) 1918، وما بعد 1 تشرين (نوفمبر) 1918 الشهر الناقص، تشرين الاول (اكتوبر) 1918 دفنوه تحت التراب مع آلاف الجثث التي لن يطالب بها أحد، كانت هناك جثث دفنت مكومة بلا أكفان، وتوابيت في حفر ضخمة حفرها عمال الاوتوستراد highway بالجرافات، ووعدت البلدية city hall أن تستخرج وترد للأهالي من أجل جنازة ودفن لائق بعد ذهاب الوباء (ربيع جابر:2010،ص. 314)

وقبلها كان قد اشار الى مرحلة ما بعد الكارثة وعودة الحياة او الروح الى مدينة فيلادلفيا ومحاولة من بقوا على قيد الحياة تناسي وليس نسيان ما حدث بقوله: ((انجلت سحابة الانفلونزا السوداء مثل كابوس انتهي، وخلال يومين دبت في أوصال المدينة من جديد التراموای كرّج على الخط، والقطارات خرجت ودخلت الى المحطة، والبواخر رجعت الى الميناء. تكاثرت السيارات والعربات، امتلأت المتاجر والمطاعم، فتحت المدارس والكنائس والمسارح، ذهب الناس الى دور السينما، كانت عيونهم زائغة، وإذا تبادلوا أخبار المرض فعلوا ذلك على عجل ثم ختموا الحديث بإيماءات غامضة وابعدوا ما مضى عن أذهانهم)) (ربيع جابر: 2010، ص. 313)

إن آثار الصدمة ووقع الوباء لن يتبدد سريعا فالذعر لا زال ملازما للسكان ومعه ضرورة توخي الحذر مع إجراءات الوقاية ومنها التباعد وفي هذا يقول الكاتب: (ماذا حدث بالضبط في تلك الايام القليلة التي أعقبت رحيل الانفلونزا عن فيلادلفيا، الحذر ظل حاضرا: المطاعم تركت مسافة بين طاولاتها المقاهي أيضا باعدت بين كراسيها، صالات السينما لم تعرف حشودا إلا بعد أسابيع، البعض ظل يلبس كمامة ويتحمل نظرات الاستنكار، تدرجيا عادوا الى الحياة التي قطعها المرض ....)) (ربيع جابر: 2010، ص. 313).

وفي رمزية جميلة عن انجلاء المحنة وانتصار السكان على الوباء واستجماع القوى لنسيان الماضي ومواجهة المستقبل والدعوة إلى التعاون والتكافل كأنهم جسد واحد يقول: ((كانوا يضحكون ضحكا عنيفا مهزوزا، إذا ضحكوا كأنهم يستجمعون قوة متبددة ويركزونها في نقطة واحدة بدوا مثل وحش حزين واحد بعدد لا يحصى من الرؤوس المحطمة، كأنهم يتصرفون عفويا، ولكن بناء على اتفاق مسبق أيضا، كأن في أجسامهم جينة مشتركة ثابتة وراثيا في تكوينهم البشري منذ أجيال وقرون تعدهم لهذه اللحظة الصعبة المترددة التي تعقب الكارثة)) (ربيع جابر:2010، ص. 314-313).

رابعا: ألبير كامي ورواية الطاعون:

بداية وقبل أن نخوض في الموضوع علينا أن نعرّف بالرواية وصاحبها، فبالنسبة لصاحب القصة ألبير كامو فهو من مواليد السابع من نوفمبر سنة ثلاثة عشر تسعمائة وألف (1913) بقرية الذرعان التي تعرف أيضاً ببلدة مندوفي بمدينة الطارف شرق الجزائر، ولد وترعرع في بيئة شديدة الفقر، من أب فرنسي يدعى لوسيان اوغست كامو (Lucien Auguste Camus) الذي قتل بعد مولده بعام واحد فقط في

إحدى معارك الحرب العالمية الأولى، ومن أم أسبانية كاثرين هيلان سينتس (Hélène Catherine Sintès) المصابة بالصمم.

عاش مع أمه وعدد من أقاربه في حي بلكور بالجزائر العاصمة حياة أقل ما يقال عنها أنها حياة غبن وعوز، وقد لعبت هويته والحرمان الذي عاشه في طفولته دورا كبيرا على المنحى الذي أخذته حياته فطبع بصمته على شخصيته.

اهتم في صغره برياضة السباحة وكرة القدم، فكان حارسا في فريق الشباب لراسنغ الجزائر العاصمة وبسبب اصابته بمرض السل في السابعة عشرة من عمره اضطر للتوقف عن الرياضة وممارسته كرة القدم التي جعلته يقول جملته المشهورة "كل ما اعرفه عن الأخلاق أدين به لكرة القدم.

تمكن ألبير من إنهاء دراسته الثانوية، ثم التحق بجامعة الجزائر بفضل المنح الدراسية التي تحصل عليها بفضل تفوقه ونبوغه، حتى تخرج من قسم الفلسفة بكلية الآداب، لينضم بعدها للمقاومة الفرنسية خلال الغزو او الاحتلال الألماني لفرنسا، وأصدر مع رفاقه في خلية الكفاح نشرة باسمها، وبعد تحرير باريس تحولت إلى صحيفة" Combat الكفاح" اليومية التي تتحدث باسم المقاومة الشعبية

بالإضافة إلى أنه كان روائيا وكاتبا مسرحيا في المقام الأول، إلا أنه كان فيلسوفا، وكانت مسرحياته ورواياته عرضا أمينا لفلسفته في الوجود والحب والموت والثورة والمقاومة والحرية، وكانت فلسفته تعايش عصرها، وأهلته لجائزة نوبل فكان ثاني أصغر من نالها من الأدباء.

يصنف البعض كامو ضمن الفلاسفة العبثيين (العبثية مدرسة أدبية فكرية، تدَّعي أن الإنسان ضائع، لم يعُد لسلوكه معنى في الحياة المُعاصِرة ولم يعُد لأفكارُهُ مضمون، فهو يجتر أفكاره لأنه فقد القدرة على رؤية الأشياء بحجمها الطبيعي نتيجة للرغبة في سيطرة الآلة على الحياة لتكون في خدمة الإنسان، حيث انقلب الأمر فأصبح الإنسان في خدمة الآلة، وتحول الناس إلى تروس في هذه الآلة الاجتماعية الكبيرة. وفي تعريف آخر: العبثية هي عبارة عن حالة الصراع بين ميول الإنسان للبحث عن هدفه من الحياة وعدم مقدرته على فعل ذلك)

توفي يوم 4 يناير 1960 نتيجة تحطم سيارته التي كانت تقله، وكان ذلك نتيجة لانحرافها عن طريق جليدي وارتطامها بشجرة قرب سانس الفرنسية، ويرجح أن الحادث كان مدبرا له من طرف جواسيس سوفييت، لا يتسع المقام هنا للحديث عنه.

أما قصته الطاعون (La peste) فهي رواية يصنفها الكثيرون بأنها كلاسيكية وجودية، نُشرت سنة 1947 أي سنتين بعد خروج العالم من الحرب الكونية الثانية وما أحدثته من خراب ودمار وقتل وتشريد للملايين ورسمت خريطة سياسية وجيوبوليتيكا جديدة.

تروي القصة أو الرواية طاعونا يكتسح مدينة وهران بشمال غرب الجزائر، تلك المدينة الصغيرة الساحلية التي وصفها بأنها مجرد مقاطعة من فرنسا على الشاطئ المقابل لأوروبا، وهذا بالطبع وفقا للأسطورة الفرنسية القائلة ((إن الجزائر قطعة من فرنسا يفصل بينهما البحر المتوسط كما يفصل نهر السين بين ضفتي باريس))، ويصفها أيضا بأنها قبيحة هادئة خالية من كل مظاهر الحياة، لا حمامات ولا أشجار ولا حدائق بها، يعيش سكانها خلف جدران

ملتهبة، أهلها مهتمون بالمال والتجارة (البير كامو : 1981، ص.5)، وهذا تقريبا ما نجده متجسدا في عالم اليوم الذي أصبح المال والتجارة أهم اساسين يتحكمان في العلاقات بين دوله إن اقتصاديا أو سياسيا، ثم يصور لنا حياتهم اليومية خارج أوقات العمل.

رغم أن وهران عرفت الكثير من الأوبئة عبر تاريخها الطويل كطاعون عامي 1556 و1678 وطاعوني 1931 و1944 الذين لم يبلغا درجة الجائحة، إضافة الى الكوليرا التي اجتاحت المدينة في عام 1849 عقب الاستعمار الفرنسي، الا أنها لم تشهد طاعونا في السنة التي يشير اليها المؤلف 1947، ففي بداية القصة نجده يقول: وقعت الاحداث الغريبة، التي هي موضوع هذه القصة، عام (...) 194 في وهران، ولما كانت خارجة بعض الشيء عن المألوف، فإنها في رأي الناس عامة كانت في غير محلها)) (البير كامو: 1981،ص5)، يعتقد البعض أن الرواية مبنية على وباء الكوليرا الذي راح ضحيته عدد من سكان وهران في عام 1849، لكن الرواية تجري في أربعينيات القرن العشرين ومن هنا يرى البعض بأن وهران مسرح الأحداث لم تكن سوى رمزا وسجلاً لأجواء مدينة باريس وهي ترزح تحت الاحتلال وقت خضوعها لألمانيا النازية وحملت رسائل أعمق تدين الفاشية وتطرح موضوعات إنسانية عابرة للأزمنة والأماكن.

ويرى آخرون أن وعي كامو الثقافي المتجذر من الإرث الإغريقي، جعله يقتبس فكرة روايته «الطاعون» من الأدب اليوناني القديم، خاصة قصة الملك أوديب، علما ان مدينة وهران، لم تعرف الطاعون في أواخر أربعينيات القرن الماضي كما أسلفنا الذكر، ولم يستوعب الوعي الثقافي لمدينة وهران العربي الإسلامي، كمستوطن عابر بالزمن الضائع فكانت مقاربته دائما متعالية على ثقافة شمال إفريقيا كاليونانيين، الذين نعتوا الشعوب الأخرى ووصفوها بالبربرية.

تبدأ أولى اشارات الطاعون التي لم ينتبه لها إلا الدكتور -برنار ريو-الذي يمثل محور قصة كامو، حين خرج من عيادته صباحا فعثر على جرذ ميت في وسط سطحية الدرج بالطابق الأول، فيزيحه من غير اكتراث، ثم يهبط السلم ويتدارك الأمر بأن الجرذ لم يكن في محله، فعاد أدراجه لينبّه البواب العجوز- ميشال - بالأمر، ففي حين يرى الدكتور في اكتشافه الجرذ الميت - غرابة_ رأى البواب بأن ذلك يمثل فضيحة رغم تيقنه من خلو العمارة من الجرذان، وأن الأمر لا يكاد يخلو من دعابة أو مزاح وأنه نقل من الخارج، ليزداد عدد الجرذان الميتة يوما بعد يوم على جوانب الطرقات و مداخل ومخارج البالوعات وتنتقل العدوى الى السكان وتبدأ المأساة .

ينتقل بعدها كامو ليصور لنا حالة مدينة وهران خلال الوباء على أنها مدينة معزولة عن العالم، وهي تعيش حالة حجر قسري، وعبارات التضامن تأتيها من كل أنحاء العالم، وهذا ما نلاحظه من خلال العبارة ((كان هذا على الاقل رأي الدكتور - ريو - حين كان يقرأ في الصحف أو يسمع في الراديو النداءات والتشجيعات التي كان يبلّغها العالم الخارجي الى المدينة المصابة بالطاعون، وفي كل مساء كان يرافق الامدادات المرسلة جوا وبرا تعليقات تنقلها الاذاعة والصحف الى المدينة المعزولة وفيها حينا لهجة اشفاق وحينا آخر لهجة اعجاب، وكانت اللهجة الملحمية أو لهجة الخطبة الجوائزية تستنفذ كل مرة صبر الطبيب)) (ألبير كامو:1981،ص.140).

وينقلنا كامو في احدى جوانب روايته الى حوار جريء بين ما هو ديني أو لاهوتي وما هو مادي، أو ما يمكننا أن نسميهم مهزوزي الايمان متمثلا في سؤال الطبيب ريو للقس -بانولو- بعد معاناة شديدة لطفل مع مرض الطاعون فارق

الحياة، فاقترب بانولو من سريره وقام بحركات البركة ثم لملم أذياله وخرج ليدركه الطبيب ريو بعد أن أمر بتجهيز الميت، فاستوقفه وقال له : وإذن، يا دكتور ؟

فاستدار إليه الطبيب بسرعة وقذفه بعنف قائلا: آه لقد كان هذا على الأقل بريئا.... وأنك لتعرف ذلك جيدا (البير كامو:1981، ص. 214-215)

وفي هذا تفنيد للاتجاه الديني الذي يمثله بانولو بأن الطاعون ما هو إلا عقاب من الله اي انه يصيب الصالح والطالح، ثم يخرج ريو من القاعة ليجلس على مقعد في حديقة المدرسة بين الشجيرات لاسترجاع أنفاسه ومسح العرق الذي يتصبب من جبينه، ليبلغ عينيه ويسمع صوتا يأتي من خلفه وهو بانولو متسائلا عن سبب طرحه السؤال بحدة وغضب، وأن المنظر قد آلمه أيضا، وأن ذلك شيء لا يحتمل، فبرر ريو ذلك بالتعب الذي يدعو الى الجنون،

لكن بانولو تمتم بأنه يفهم الوضع وأن الأمر يتجاوز حدودنا، لكنه في نفس الوقت يضفي على اجابته الصبغة اللاهوتية أو الغيبية بقوله: ولكن لعل من الخير لنا أن نحب ما لا نستطيع ادراكه.

هنا يرد ريو ممثلا النظرة الإلحادية بقوله: كلا يا ابت، إن لي في الحب نظرية أخرى، وسأرفض حتى الموت أن أحب هذا الخلق الذي يعذب فيه الأولاد.

ورد عليه بانولو بوجه قاتم وحزين: آه دكتور فهمت الان ما يدعى بنعمة الايمان (البير كامو:1981، ص.215)

فيقول ريو أن خلاص الانسان كلمة كبيرة جدا علي، وأنا لا أذهب مذهبا بعيدا كهذا وإنما تعنيني صحة الانسان وصحته قبل كل شيء.

ربما كان يريد كامو من خلال هذا الجزء من الحوار بين بانولو وريو هدم ثقة كل طرف فيما يعتقد، أي الديني والعلمي المادي تجسيدا لفلسفته العبثية، وأن فيما بينهما تكاملا، حيث قال ريو: سامحني مرة أخرى، لن أعود الى مثل ذلك الغضب، فيمد إليه بانولو يده ويقول بحزن: ومع ذلك فأنني لم أقنعك، فيرد ريو، ان ما أكرهه انما هو الموت والشر كما تعلم، سواء أردت أم لم ترد، فنحن معا لتحملهما ومحاربتهما.

وظل ريو محتفظا بيد بانولو ثم قال له وهو يتفادى النظر اليه ومؤكدا فكرته في نفس الوقت: -أترى اذن ان الله نفسه لا يستطيع الان أن يفرق بيننا (البير كامو:1981، ص. 216).

وتبدو خلاصة رواية كامو وكأن "النضال المشترك هو ما يجعل المجتمع ممكنا"، ويبقى درس "الطاعون" هو أننا يجب أن ننظر إلى أنفسنا كأعضاء في المجتمع لا كأشخاص يعيشون حياة فردية منفصلة عن الآخرين، إذ يجبرنا الوباء على التفكير -لا في أنفسنا فحسب- وإنما في كيفية تأثير أفعالنا على الآخرين وفي نفس السياق يقول الكاتب الأميركي سيان لينغ: و تجبرنا الرواية والتأمل في أحداث "الطاعون" على التفكير في مسؤولياتنا تجاه الناس من حولنا، وتطرح الصراع بين السعادة الفردية والالتزام الأخلاقي تجاه المجموع عبر هذه الأحداث الحية التي تتضمن تكريس الطبيب ريو نفسه لمقاومة الطاعون والتضامن مع ضحاياه واستعداده التضحية في سبيل ذلك،

ونختم مقالتنا هنا بما خلص اليه الناقد والمترجم المغربي- عبدالله الحيمر - في مقاله البير كامو ... مستوطن اللامعنى في رواية الطاعون، الصادر بتاريخ 13 - يناير - 2021 بالقدس العربي بأن الأفق الفلسفي التحرري عند البير كامو لم يتعدى الانتصار لبعض قيم العدالة ألاجتماعية في إطار الدولة الاستعمارية الفرنسية، وأن فكرة استقلال الجزائر عن فرنسا بالنسبة له كانت انتحارا، فقدم بروايته تلك إنجيلا لأزمنة الشقاء التي عاشها مستوطنو الجزائر،

ونبوءة الزمن المقبل لهم في روايته قائلا: «وإذ نحن هكذا نافذو الصبر من حاضرنا، أعداء لماضينا، محرومون من المستقبل، فإننا كنا نشبه أولئك الذين كانت العدالة أو البغضاء البشريان يجعلانهم يعيشون خلف القضبان الحديدية. وقد كانت الوسيلة الوحيدة للإفلات من هذه العطل، التي لا تحتمل هي أخيراً في تسيير القطارات بالخيال من جديد، وملء الساعات بقرع مردّد لجرس يصر على الصمت (https://www.alquds.co.uk 13- يناير -2021).

أما كامو فيختم الرواية بما يراه البعض رمزية للاستعمار والامبريالية التي تشبه الطاعون الذي يتجدد دوما فلا ينتهي بشكل كلي فيقول: ((قصيمة الطاعون ولا تختفي قط، وأنها تستطيع ان تظل عشرات السنوات نائمة في الأثاث والملابس، وأنها تترقب بصبر في الغرف والأقبية والمحافظ والمناديل والأوراق التي لا حاجة لها وأن يوما قد يأتي يوقظ فيه الطاعون جرذانه مصيبة للناس وتعليما لهم ويرسلها تموت في مدينة سعيدة)).

خاتمة:

بتوالي الأزمات والأمراض والأوبئة أدرك الانسان عجزه أمامها واستحالة القضاء عليها بشكل نهائي، فمهما بلغ العلم والتطور البشري من درجات إلا وطورت تلك المخلوقات المهجرية (فيروسات وجراثيم) نفسها وتركيبتها، وكأني بها دخلت في سباق مع الانسان في حرب طويلة الأمد، وكما أفجعت وأهلكت تلك الاوبئة الملايين من البشر والعائلات أو المجتمع الدولي بشكل عام إلا أنها من جهة أخرى حثت وحفزت افكار وأقلام الادباء والشعراء لينضموا قصائد من الشعر وروايات وقصص من النثر مفسحين المجال لأقلامهم ومخيلاتهم ليكتبوا في مواضيع لها علاقات بها منها ما كان واقعيا ومنها ما كان رمزيا انطلق من أرض ومنطقة لا علاقة لها بالوباء ليرسل اشارات عميقة عن واقع معيش في ظل الامبريالية العالمية مشبها اياها بالطاعون ونقصد هنا البير كامو عبر قصة الطاعون .

قائمة المراجع:

1) باموق، أورهان (2000): القلعة البيضاء، ورد للطباعة والنشر والتوزيع سوريا ، دمشق
2) جابر، ربيع (2010): أميركيا، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، دار الآداب، بيروت.
3) حسين، طه(1992): الايام، مركز الاهرام للترجمة والنشر، القاهرة
4) ربيع، محمد(2015): عطارد"، دار التنوير للطباعة والنشر، تونس، بيروت، القاهرة.
5) رودولفو، ساراتشي (2015): علم الأوبئة مقدمة قصيرة جدا، ترجمة أسامة فاروق حسن، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة
6) كامو، البير (1981): الطاعون، دار الآداب، بيروت.
7) محمود، خليل، (2020): هيضة العميد، مقال من مجلة 2020/10 › https://www.youm7.com

السلوك الإنساني في زمن المجاعات والأوبئة: معركة البقاء

Human Behavior in The Time of Famines and Epidemics: Survival Battle

د.ة بوزياني زبيدة/ جامعة تلمسان/ الجزائر
Dr.Bouziani Zoubida/University of Tlemcen /Algeria
د.ة بوزياني فاطمة الزهراء/ جامعة تلمسان/ الجزائر
Dr.Bouziani Fatima Zohra/University of Tlemcen /Algeria
د. غفور عبد الباقي/ جامعة تلمسان/ الجزائر
Dr.Ghafour Abdelbakki University of Tlemcen /Algeria

الملخص:

إن المجاعات والأوبئة كانت ولازالت تمثل تهديدا للبشرية، وهي تعتبر ظاهرة اجتماعية خطيرة تتسم بانهيار الأمن الغذائي ولها تأثيرات قوية على المستوى الأمني والنفسي والاجتماعي، وقد حاول الانسان مواجهة مشكلة القلق والخوف من الهلاك جوعا، ففكر في طرق جديدة لمواجهة أزمة نقص الغذاء وارتفاع الأسعار، هذه الطرق التي كان لها الأثر البالغ على ظهور سلوكيات إنسانية جديدة في نظامه الغذائي والصحي وهي تستجيب للظروف القاهرة التي كان يمر بها.

ومن هنا تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن السلوكيات الجديدة للإنسان في ظل الواقع الاقتصادي والاجتماعي للبلدان التي حلت بها المجاعات والاوبئة، ونشير إلى أننا لا نَعنى بدراسة الظاهرة في زمن ومكان معين وإنما نهتم بدراسة طبيعة السلوك الإنساني للمجتمعات الإسلامية التي مستها الظاهرة مع رصد أهم تصرفات أفراد المجتمع في تلك الحقبة من الزمن.

الكلمات المفتاحية: السلوك الإنساني، ارتفاع الأسعار، التخزين، الهجرة، النظام الغذائي.

Abstract:

Famines along to different epidemics were and are till now supposed to be a threat on humanity, and it is as well considered a dangerous social phenomenon characterized by the collapse of food security or even has a strong imapct on both, the social and the psychological levels of security itself. Man has tried to confront the problem of anxiety and fear of starvation, so he thought of new ways to confront the crisis of food shortage and its high prices. These methods, which had a profound impact on the emergence of new human behaviors in his diet or his health in general, respond to the hard conditions he was going through.

Hence, our aim through this study is to reveal the new behaviors of man in the light of the economic and the social reality of the countries that were affected in the first place by these famines and epidemics. Furthermore, it should be mentioned that we are not concerned with studying the phenomenon in a specific time or place, but rather we are interested in studying the nature of human behavior in Islamic societies that have been affected by this latter with monitoring the most important behaviors of community members at that period.

Keywords: Human behavior, high prices, storage, migration, diet.

مقدمة:

عرف التاريخ البشري مجاعات لعدة أسباب تقع في مقدمتها العوامل الطبيعية كالجفاف والامطار الغزيرة والكوارث الطبيعية ضف إلى ذلك حلول أسراب الجراد الكثيفة بمنطقة من المناطق فكانت تأكل الأخضر واليابس وتحول الحقول الخضراء إلى صحراء قاحلة، أو لأسباب سياسية كالحروب والحصار.

وكانت ظاهرتي المجاعة والأوبئة متلازمتين فظهور احداها ينتج عنه ظهور الأخرى، وعندما يحل القحط لسبب من الاسباب السابقة الذكر يقل الغذاء وترتفع الأسعار ويأتي في أعقابه الجوع الشديد الذي يؤثر على صحة الناس وحياتهم، وهو الامر الذي دعا الكثيرين إلى النزوح والهجرة بحثا عن أسباب العيش، مما مهّد لانتشار الأوبئة الفتاكة. والملاحظ أن مشكلة نقص الغذاء رافقت الإنسان منذ زمن طويل، ولازالت ترافقه في مجتمعنا المعاصر ويجب التأكيد أن تأثيراتها النفسية على الفرد في الماضي والحاضر هي نفسها وتتفاوت درجتها على حسب درجة شدة الظاهرة، ومن بين المشكلات النفسية التي تحدثها على سبيل الذكر لا الحصر أنها تثير القلق والخوف لدى الفقراء والاغنياء على حد سواء.

وتعتبر المجاعة ظاهرة اجتماعية خطيرة تتسم بانهيار الأمن الغذائي وكانت لها تأثيرات قوية على المستوى الأمني والنفسي والاجتماعي، وقد حاول الانسان مواجهة مشكلة القلق والخوف من الهلاك جوعا، ففكر في طرق جديدة لمواجهة أزمة نقص الغذاء وارتفاع الأسعار كما سنتطرق إليه لاحقا، هذه الطرق التي كان لها الأثر البالغ على ظهور سلوكيات إنسانية جديدة في نظامه الغذائي والصحي وهي تستجيب للظروف القاهرة التي يمر بها.

إن الخوض في هذا الموضوع جعلنا نفكر في ضرورة إعطاء المزيد من الأهمية لدراسة هذا النوع من الدراسات. فالمجاعات والأوبئة كانت ولازالت تمثل تهديدا للبشرية ويصبح الناس في حاجة إلى الحماية والمساعدة وما انتشار فيروس كوفيد 19في دول العالم لخير دليل على ذلك.

وتفترض بعض التحاليل إلى أنه وباء مفتعل (وإن كنا لسنا هنا بصدد مناقشة صحة هذه الفرضية من عدمها) هذا يؤدي بنا إلى طرح مسألة معاودة هكذا ظواهر في زمن العولمة الوبائية إن صح استخدام هذا المفهوم. والجذير بالذكر أن بعض المظاهر السلوكية الأولية التي اتسمت بها المجاعات عند أول ظهورها كارتفاع الأسعار والتسابق إلى الأسواق لاقتناء المواد الأساسية والأدوية وتخزينها ظهرت أيضا في جائحة كورونا وهو الأمر الذي دفعنا للبحث في مسألة سلوكيات الانسان في التعامل مع أزمة المجاعات والأوبئة.

وهكذا تتمحور إشكالية دراستنا في التعرف على السلوك المجتمعي في أوقات الازمات التي كانت تسببها المجاعات والأوبئة، وتحاول هذه الدراسة الإجابة على التساؤلات التالي:

- ✓ كيف كان يفكر الناس في زمن المجاعات؟ وكيف تصرفوا؟
- ✓ وما هو أثر تصرفاتهم على علاقاتهم بالأخرين؟
- ✓ ما هو دور القيم الدينية في توجيه السلو ك الانساني؟

ومن هنا تهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن السلوكيات الجديدة للإنسان في ظل الواقع الاقتصادي والاجتماعي للبلدان التي حلت بها المجاعات والأوبئة ونشير إلى أننا لا نعنى بدراسة بلدان معينة أو دراسة تطور الظاهرة في زمن معين وإنما نهتم بدراسة طبيعة السلوك الإنساني ورصد أهم تصرفات الانسان في زمن المجاعات.

وعليه سنتناول موضوع السلوك الإنساني في زمن المجاعات والأوبئة من خلال المحاور التالية:

- ✓ أثر ارتفاع الأسعار على انخفاض المستوى المعيشي لأفراد المجتمع
- ✓ السلوك الغذائي في أوقات المجاعات
- ✓ السلوك المجتمعي في أوقات الأزمات وندرة الغذاء

أولا: أثر ارتفاع الأسعار على انخفاض المستوى المعيشي للأفراد:

تؤثر المجاعات على المستوى المعيشي لأفراد المجتمع، وتشير مختلف الكتابات والمصادر التي أرّخت لمختلف الحقب الزمنية للمجاعات والأوبئة إلى ارتفاع أثمان المواد الغذائية لندرتها، ويكون هذا الارتفاع في الأثمان فاحشا بالنسبة لبعض المواد الأساسية في النظام الغذائي للسكان (الذي يعتمد بشكل أساس على الحبوب والشعير) .والمعروف في الاقتصاد أنه إذا ارتفع الطلب عن العرض ترتفع الأسعار وبارتفاع الأسعار تقل النشاطات والتعاملات التجارية وتسوء الظروف المعيشية لأفراد المجتمع وتدريجيا يتضرر اقتصاد البلاد على حسب المدة التي تستمر فيها الأزمة.، ونتعرض فيما يلي إلى مستويات ارتفاع الأسعار الذي بلغته بعض المواد الأساسية في بعض المجاعات على سبيل الذكر لا الحصر:

مجاعة سنة 444 هـ/1052 م الشديدة والتي وُصفت ب"سنة باقية بدرهم". وهذا نظرا للاعتماد على الحنطة في الغذاء. وفي مجاعة ووباء 512 هـ/1117 م، بلغ ثمن ربع الدقيق عشرون درهما بمدينة تلمسان، وإبان مجاعة ووباء 526 هـ/ 1133 م بلغ مد القمح خمسة عشر دينارا. ويخبرنا البيدق أن ثمن سطل من الشعير خلال مجاعة 536 هـ/1142 م بلغ ثلاثة دنانير. ومما لاشك فيه أن الارتفاع الفاحش للأثمنة كان يطال المواد والبضائع الضرورية للمعيشة في الحياة اليومية، حيث بلغ رطل من الحطب للإيقاد النار خلال مجاعة 536هـ/1142 م دينارا كاملا (جسوس، 2018، صفحة 62).

كما امتازت السنوات الممتدة من م1866-1868 م بنكبات طبيعية كانت أقسى ما يكون على سكان الجزائر وتمثلت هذه النكبات في الزلزال الذي اجتاح مدينة البليدة وضواحيها والذي تسبب في ضحايا كثيرين وهجوم الجراد في أفريل 1966، حيث عمّ السهل المتيجي وكل المناطق المجاورة وقد امتد الى المدية حيث أصبحت حقول القمح والشعير خالية تماما من الغلة .ولم تكد تنتهي كارثة الجراد حتى عمّ الجزائر جفاف عام وكان الاوربيون أقل تضررا من هذا القحط لأنهم كانوا يملكون أحسن الأراضي وأكثرها ماء بخلاف الفلاحين الجزائريين .وتبع هذا الجفاف أمطارا غزيرة وثلوجا قوية اتلفت المحاصيل الزراعية الضعيفة وقتلت المواشي والأغنام .ومن أهم النتائج لهذا الجفاف الارتفاع الهائل في أسعار الحبوب، فقد ارتفع سعر الشعير الذي كان يباع بثمن 12،13 إلى 17،16 ف للقنطار الواحد في سبتمبر 1868 فكانت نسبة الزيادة 32 %،أما سعر القمح الذي كان 25،80 ف فقد ارتفع إلى 64،46 ف في أكتوبر أي بنسبة 50% في شهر سبتمبر 1867، ثم وصل السعر إلى 30،86 ف في أكتوبر من نفس السنة، أي بنسبة 17% .ثم حدث وباء الكوليرا الذي زاد الطين بلّة وانتشر الجياع في البلاد فأصبحوا يقتاتون على الجذور و الأعشاب وبلغ بهم الأمر أن أصبحوا يتنازعون على المزابل والفضلات بالمدن، ويذكر الأب(برزي) الذي كان قسيسا على مدينة الشلي بمتيجة :"إن الجياع كانوا يفدون الى المراكز الأوروبية بالمدن منهوكي القوة عراة .وقد غابت عنهم الصورة البشرية إذ اصبحوا هياكل عظمية "،وقد امتلأت الشوارع بالمتسولين وتضاعفت الاعتداءات لا من أجل الحصول على القوت

وإنما من أجل أن يقبض على المعتدي ويزج به في السجن ليضمن قوته بصفة مستمرة ومنظمة (بقطاش، دت، الصفحات 105-107) .

ثانيا: السلوك الغذائي في أوقات المجاعات:

أمام مشكلة بل أزمة ندرة المواد الغذائية الأساسية، الملاحظ أن الإنسان قد فكر وابتدع أفكارا وحلولا لتدبير قوته اليومي، هذا القوت الذي يضمن له البقاء والحياة له ولعائلته. وأولى درجات التفكير تمثلت في استغلال البيئة في البر والبحر وهو أمر فكر فيه الكثيرون على اختلاف الأزمنة التي ضربت فيها المجاعات وبهذا يكون الانسان أمام نظام وسلوك غذائي جديد.

ومن الطرق التي اهتدى إليها الانسان وقت المجاعات لتوفير ما يسد جوعه نجد:

- ✓ التخزين لوقت الشدة وحسن التدبير
- ✓ استهلاك الأطعمة قبل أوانها
- ✓ البحث عن بدائل للمواد التي يصنع منها الخبز
- ✓ تناول الأطعمة المقززة

1.التخزين لوقت الشدة وحسن التدبير:

في الأندلس قامت بعض المدن فيها بابتكار بعض الطرق لحفظ وتأمين مصادر الغذاء في سنوات المجاعة وأكبر دليل على ذلك أهالي مدينة لورقة(مرسية) LORCA الذين كانوا يخزنون الحبوب تحت الأرض في سنوات الرخاء حيث امتازت تربة المدينة بخاصية حفظ الحبوب لبضع سنوات دون أن يتلف فكان خير معين لهم في السنوات العجاف ولم يكتفي أهل حصن بدروش PEDROCHE على ابتداع طرق حفظ الطعام فقط بل ابتدعوا طرقا من أجل حفظ الأعشاب من أجل الدواء وكذلك البلوط لعلمهم أنه يدخل في علاجات كثيرة كما خزنوا كميات كبيرة من الأدوية (البنا، دت، الصفحات 4667-4668).

وفي المغرب، اعتادت الرعية وخاصة سكان المدن على التخزين كسكان مدينة فاس الذين اضطروا في منتصف القرن 5هـ لاتخاذ المطامير لخزن الحبوب ببيوتهم وأكد ابن خلدون في القرن 8 ه أن "الغالب على أهلها الخزن وكيف أنهم أفرطوا في نظر العواقب حتى أن الرجل منهم يدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة ويباكر الأسواق لشراء قوته مخافة أن يرزأ شيء من مدخره " (أسكان، 2020، صفحة 138) .

وكانت للنساء المغربيات –خاصة في المدن-تقاليد عريقة في العمل على مواجهة المجاعات بالادخار والتخزين وحسن التدبير، فمنذ القرن السابع عشر تحدثت كتب التراجم عن دورهن ومساهمتهن في التغلب على مشكل الجوع .وقد استمرت عادة التخزين فيما اصطلح عليه " العولة " التي كانت تشمل صنع الكسكس والخليع والمخللات والاحتفاظ بالحبوب وبعض الخضر التي يمكنها الاستمرار مدة طويلة، لكن الملاحظ أن المجاعة كانت تمس فئات عريضة من سكان المغرب الذين كانوا يعيشون في فقر مدقع لا يسمح لهم بالادخار والتوفر على العولة التي كانت اهتماما رئيسيا لدى الميسورين فقط الذين كان تأثرهم بالمجاعة قليلا (العيساوي، 2018، صفحة 138).

2.استهلاك الأطعمة قبل أوانها:

إن ظاهرة استهلاك المحاصيل قبل نضجها (خاصة تلك التي تتأثر بأدنى تغير في حالة الطقس الذي ينذر بالجفاف) من قبل السكان تفاديا لأزمة الجوع من جهة، ومن جهة أخرى لضمان عدم ضياع المنتوج. وهذا بعد أن استفادت هذه المحاصيل من فترة انتعاش وغيث سمح لها بالوصول لدرجة النماء وإعطاء الثمار. إن هذه الظاهرة تعبر على سلوك غذائي جديد فرضته الظروف المناخية الصعبة.

فمن خلال كتب النوازل يشير أبو العباس الونشريسي إلى "دافع الحاجة التي تدفع بمن يملك الزرع الأخضر فيأكل منه شيئا قبل يبسه "، فالنازلة تشير بوضوح إلى دافع الحاجة المتمثلة في الجوع الذي اضطر صاحبه لأكل الزرع قبل أوانه المعلوم والزمن المألوف (عباس و بالأعرج، 2018، الصفحات 81-82).

إن استهلاك الأطعمة قبل أوانها هو سلو ك اهتدى إليه السكان لمواجهة فترات القحط والمجاعة، وفي المغرب الإسلامي"ثمة إشارة مصدرية تهم سكان مدينة سجلماسة الصحراوية حيث يفهم من بعض النصوص التي تفيد أنهم كانوا يأكلون الزرع إذا أخرج شطاء وتبدو العلاقة واضحة في هذا النص بين الإسراع في استهلاك الزرع بسبب الاكراهات التي يفرضها الجفاف مما يؤكد ان الخطة الاستباقية التي نهجها سكان سجلماسة في أكل الزرع قبل النضج يعد سلوكا ناتجا عن التخوف من شبح المجاعات " (القادري بوتشيش و البياض، 2013، صفحة 33) .

3. البحث عن بدائل للمواد التي يصنع منها الخبز:

أمام مشكلة المجاعة التي تهدد الناس في أحد أهم غذاء يشكل نظامها الغذائي والمتمثل في الخبز كمادة أساسية، سارع البعض للبحث عن بدائل للحنطة التي تصنع منها الخبز وذلك من خلال استبدال القمح والشعير (باعتبار أن هذه المواد أصبح سعرها مرتفعا لندرتها) واستبدلت بمواد نباتية تنمو في البراري وهي تمثل بحق ابتكارات في مجال الأطعمة بررتها الحاجة إلى اشباع الجوع.

فكانت الحنطة البديلة تستخلص من النباتات والحشائش والبذور التي تزخر بها منطقة المغرب الإسلامي وتكييفها وفق نمط غذاء الأهالي المعتاد دون مراعات لسوء مذاق بعض النباتات والبذور. ومن المعلوم أن النباتات التي سوف يأتي ذكرها تعد من أهم النباتات المشكلة للغطاء النباتي في بلاد المغرب الإسلامي ككل .... وهذا الأمر ليس وليد الصدفة وإنما هو نتيجة موروث ثقافي ضارب في عمق تاريخ بلاد المغرب الإسلامي. وقد اعتبرت من المواد التي استعملت لاستخلاص الحنطة المطلوبة ومن بين البذور والنباتات التي استخدمت كمواد بديلة لصنع الخبز نذكر:

~ ثمرة شجرة البلوط البرية التي تسحق ويتم الحصول على حنطة بيضاء اللون وبعد ذلك تعالج إضافة نباتات أخرى قصد تماسك العجين وإعطاءه بعض النكهات فتخلط وتعجن وتصنع أقراص خبز ويطهي في التنور.

~ كما استخدم الخروب ~ وثمار النبق ~ وأيضا بذور نبات القبساطة؛

~ وصنع من نبات الشيلم الخبز وأثبت هذا الغذاء نجاحه في مساعدة الجوعى زمن المجاعات؛

~ كما تم استغلال بذور نبات الطهف ~ واستعملت بذور نبات بقلة دعاع

~ وكان الخبز والعصيدة المصنوعة من نبات استب طعام الكثيرين في سنين المجاعة

~ ونبات الدخن الذي كان يمزج مع بذور العنب إن وجدت، وكان يعطي حنطة سوداء اللون تخبز فينتج عنها خبزا أسودا ذو رائحة كريهة.

~ واستخرجت الحنطة من نبات التابودا التي صنعت منها أغرفة سيئة المذاق (عباس و بالأعرج، 2018، الصفحات 83-85).

4 . التحول إلى استهلاك الأطعمة البحرية:

في مجاعة سنة535هـ جمع أحد الأولياء "خلقا كثيرا من المساكين فكان يقوم بمؤونتهم وينفق عليهم ما يصطاد من الحوت إلى أن أخصب الناس "كما عوض الجوعى نقص المواد الغذائية باللجوء إلى البحر لاصطياد السلاحف البحرية وحيوان اللمط والكركي للإقتيات من لحومها، كما أقبل بعضهم على استهلاك الخردون .والراجح أن التحول نحو الأطعمة البحرية أو مخلفات الحشرات يعزى إلى أن البحر يظل بمنآي عن التأثيرات السلبية للتقلبات المناخية السلبية من جهة وإلى اعتباره مصدرا للأطعمة التي تدخل في خانة الحلال وتتوافق مع قيم المجتمع (القادري بوتشيش و البياض، 2013، صفحة 36).

5. تناول الأطعمة المقززة:

نتيجة لضراوة المجاعات فإن السكان اضطروا إلى أكل بعض الأطعمة الشاذة كالحشرات والحيوانات الضارة وكان أكل الكلاب والذئاب والجراد أمرا شائعا في زمن المجاعات.

"فعندما حاصر السلطان المريني يوسف بن يعقوب 706هـ/1306 م مدينة تلمسان اضطر المحاصرون بعد سبعة أعوام من المقاومة إلى أكل جميع الحيوانات من الفئران والعقارب والحيَّات وغير ذلك" ."والغريب أنه بالرغم من أخطار هذه الحيوانات الضارة فإن أسعارها كانت تلتهب في مرحلة المجاعات حتى أن الفأر على سبيل المثال بيع أثناء الحصار المذكور بعشرة دراهم" (القادري بوتشيش و البياض، 2013، صفحة 38).

ثالثا: السلوك المجتمعي في أوقات الأز مات وندرة الغذاء:

1.التضامن في أوقات الأزمات:

في مجاعة الجزائر 1866 -1868 لعب الباشا المقراني دورا عمليا في إغاثة المنكوبين، فبدعوة من الجنرال ماكماهون استلف المقراني من السيد مسرين –وكان يملك سهما في بنك الجزائر–مبلغ ثلاثمائة وخمسون ألف فرنك في شكل وصولات الى حساب البنك الجزائري، ولم يلبث المبلغ أن ارتفع مع الأرباح الى نصف مليون فرنك. واقترض من السيد عبادي اليهودي مائتي ألف فرنك وثلاثمائة ألف فرنك من اليهودي أبو قاية بسطيف، فارتفعت ديونه بذلك إلى مليون فرنك، خصصها لإنقاذ الجياع المسلمين من الموت وإعانة الفلاحين لحرث أراضيهم (بقطاش، دت، صفحة 109)

2.سلوكيات غير إنسانية:

1.2. رهن الممتلكات مقابل الغذاء واستيلاء الدائن عليها: إن الحاجة التي تدفع بالناس للحصول على الغذاء زمن المجاعات والأوبئة دفعت بهم إلى حد بيع ممتلكاتهم ورهنها كضمان مقابل الحصول على ما يسدون به جوعهم وجوع عيالهم .وهذا ما أوردته بعض نوازل أبو العباس الونشريسي .لقد دفع الجوع والعوز فئات كبيرة من الناس من خلال هذه النوازل إلى التخلي عن ممتلكاتهم إما بعدم القدرة على سداد ما عليهم، وإما لاستيلاء الدائن على تلك **الرهانات** مقابل ما يستحقه من الدين، وكلها حالات تخلق مشاكل اجتماعية خطيرة على الاستقرار (عباس و بالأعرج، 2018، صفحة 83).

2.2. انتشار السرقة والفساد: في مجاعة عام 253هـ/867م انتشرت بمدينة قرطبة السرقة بسبب الغلاء الفاحش في الأسعار وقلة الأقوات وانتشار الوباء وعانى الأهالي في المدينة فرفعوا شكواهم إلى الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط الذي قام بتولية إبراهيم بن الحسين بن عاصم أحكام السوق والشرطة للتصدي لأهل الفساد كما قام الأمير ببناء حصن إستيرش لحفظ الغلال القادمة من بعض مناطق الأندلس كمدينة سالم (البنا، دت، الصفحات 4682-4683).

3.2. التحول نحو سلوكيات عدوانية: ساهم الجوع بشكل كبير في تحطم قيم الانسان الإنسانية وتجلت بعض المشاهد الرهيبة التي يتحول فيها الإنسان إلى حيوان فيفتك بلحم أخيه الإنسان وهو أمر لم تغفل سرده أقلام بعض المؤرخين ففي المجاعة التي ضربت سبتة سنة 635 هـ -1237م "اشتد الغلاء والوباء فأكل الناس يعضهم بعضا «وتعد هذه الحالة أعلى سقف وصل إليه الانسان في رد فعله تجاه المجاعات وتعبر في ذات الوقت عن سلوك عدواني لم يكن ليصل إليه إلا بعد انهيار توازنه النفسي وبلوغه درجة عالية من الهياج العصبي غير العادي(القادري بوتشيش و البياض، 2013، صفحة 39).

وفي عام 285هـ/898حل بالأندلس وباء تبعته مجاعة شديدة اضطرت الناس إلى أكل بعضهم بعضا بعد أن فقدت أقواتهم فانتشر المرض والوباء ومات الكثيرون حتى كانوا يدفنون من غير غسل أو صلاة لقلة القادرين على القيام بذلك (البنا، دت، صفحة 4685).

3. الهجرة:

في عام 133هـ/751م وقعت المجاعة الكبرى بالأندلس فذكر ابن عذاري أن "في سنة ثلاث وثلاثين مئة استحكم الجوع والقحط في سنة أربع وثلاثين، وسنة خمس، وبعض سنة ست وثلاثين ومئة، فخرج أكثر الناس إلى طنجة..." (البنا، دت، صفحة 4685) .

ويوفر لنا ابن عذاري نقلا عن ابن حمادة نصا وقد كتب فيه عن جفاف سنة 535هـ/1141 م في المغرب وهي سنة قحط أصابت أخصب المناطق الفلاحية يقول فيه"وفي هذه السنة انجلى أهل المغرب انجلاء عظيما إلى الاندلس". وقد كانت سنة 535العام الأخير لجفاف دام حوالي ثمان سنين ويبدو أن هذه السنوات العجاف المتتالية جعلت أهل المغرب يهاجرون نحو الأندلس لأنها من الراجح، كانت أحسن حالا من المغرب رغم تعرضها هي الأخرى للقحط ويتضح من النص أن الهجرات كانت بأعداد كبيرة (جسوس، 2018، صفحة 72) .

خاتمة:

لقد طرأت تغيرات وتحولات في السلوك الإنساني زمن المجاعات الذي يعبر على الحاجة القصوى لإشباع ألم الجوع.

وأولى هذه التغيرات التي يستحق ذكرها أن البحث عن بدائل للمواد التي يصنع منها الخبز مثلت بحق ابتكارات في مجال الأطعمة بررتها الحاجة إلى اشباع الجوع كما تم ابتداع طرق للتخزين وحفظ الحبوب والاعشاب الطبية ولم يكن هذا كافيا فبالنسبة للمناطق الساحلية فقد قاموا باستغلال البحر وحدث تغير في نمط الاستهلاك من استهلاك الأطعمة البرية إلى استهلاك الأطعمة البحرية.

والجذير بالذكر تدوين كتابات تشير إلى ظهور سلوكيات تتناقض مع العادات الاستهلاكية المتعارف عليها في ضوء شُح الطعام فاستبيح أكل الجيفة والحشرات ولحوم الحيوانات المحرمة كالذئاب والخنازير والفئران وغيرها. وأقصى درجات التغير التي وصلت بالإنسان زمن المجاعات هو أكلهم لبعضهم

وبسبب الجوع ونقص الغذاء وغلاء المواد الأساسية هلك خلق كثير وانتشر الخوف والقلق واضطر الناس إلى السرقة وظهر الفساد وراي الناس في الهجرة حلا للحفاظ على حياتهم مما ترتب عنها خلو المكان من أهله وطمع الغزاة فيه.

التوصيات

- ✓ تخصيص فرع من فروع علم الاجتماع يختص بتناول سوسيولوجيا المجاعات والأوبئة عبر التاريخ يُساهم في بناءه باحثين من تخصصات مختلفة: علم الاجتماع وعلم النفس والأنثروبولوجيا والأكيد علم التاريخ.
- ✓ من الخطأ الاعتقاد أن زمن المجاعات والأوبئة قد انتهي وما جائحة كورونا التي غزت العالم وأوقعته في ضائقة اقتصادية لولا لطف الله لعاشت المجتمعات المعاصرة مرارة ما عانى منه أسلافنا في القرون السابقة وهذا يجعلنا نعيد النظر في ضرورة الاستفادة من الدراسات السابقة لتجنب تداعياتها على المجتمع والدولة تفاديا للأضرار والتأثيرات التي يمكن أن تُلحقها بالمجتمعات.
- ✓ التأكيد على أهمية التخطيط والتدريب على إدارة ومعالجة الأزمات المرتبطة بالمجاعات والأوبئة التي من أهم سماتها الفجائية وإلحاق خسائر بشرية واقتصادية واجتماعية.

قائمة المراجع:

1) إبراهيم القادري بوتشيش، و عبد الهادي البياض. (2013). ثقافة الطعام وتنوع خطاباتها في زمن المجاعات النغرب والندلس من القرن 6حتى القرن 8هـ /12-14 م. مجلة عصور جديدة(ع 07-08). تاريخ الاسترداد 30 ماي، 2021

2) الحسين أسكان. (2020). المجاعات والأوبئة بين الأفات السماوية والجائحة الإنسانية خلال العصر الوسيط شمال المغرب. بحث مقدم في إطار الأيام الوطنيةالعاشرة :المجاعات والوبئة في تاريخ المغرب. الجديدة: دار المنظومة.

3) خديجة بقطاش. (دت). الحركة التبشيريةالفرنسيةفي الجزائر1830-1871. دحلب.

4) رشيد عباس، و عبد الرحمن بالأعرج. (ديسمبر، 2018). النظام الغذائي زمن المجاعات والوبئة. المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية، 04(08). تاريخ الاسترداد 30 "ماي، 2021

5) شيماء عبد الحميد البنا. (دت). المجاعات والأوبئة بالأندلس وآثارها في ضوء المصادر العربية بالفترة من 138هـ /756م -422هـ /1031م. حوليةكلية اللغة العربيةبايتاي(33). تاريخ الاسترداد فـ29 ماي، 2021

6) عز الدين جسوس. (2018). الكوارث الطبيعية والأوبئة ومدى تأثيرها على العلاقة بين الرعية والسلطة السياسية خلال حكم المرابطين. تأليف الجمعية المغربيةللبحث التاريخي (المحرر)، مداخلة في إطار الأيام الوطنية العاشرة حول المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب (الصفحات 53-73). الجديدة: دار المنظومة. تاريخ الاسترداد 30 5، 2021

7) فاطمة العيساوي. (2018). المراءة المغربية والمجاعة خلال القرن التاع عشر. بحث مقدم في إطار اليام الوطنية العاشرة :المجاعات والأوبئة في تاريخ المغرب. الجديدة: دار المنظومة. تاريخ الاسترداد 28 ماي، 2021.

الطاعون الجارف وأثره على الحياة الفكرية في بلاد المغرب الإسلامي

The sweeping plague and its impact on the intellectual life in the Islamic Maghreb

محروق إسماعيل

Dr.Mahroug Ismail

جامعة المدية/ الجزائر

University of Médéa / Alegria

الملخص:

كيف هو حال النشاط العلمي والثقافي في أعرق حواضر بلاد المغرب الإسلامي من حيث التدريس والتأليف أيام الطاعون الجارف؟. فيتناول هذا البحث انتشار مرض الطاعون في بلاد المغرب والأندلس، والعوامل التي ساهمت في ذلك، وتأثير هذا الوباء على الحياة الثقافية للمغاربة. سواء أكان ذلك سلبيا من خلال محاولة الوقوف على حجم الكارثة، حيث انعدمت مجالس العلم، واقتصر التدريس على تحفيظ القرآن الكريم، وبعض متون اللغة العربية، وتم فقدان قامات علمية ذاع صيتها لعقود في مختلف أنواع العلوم والفنون. أو كان التأثير إيجابيا في وطريقة توجه التأليف إلى موضوع مرض الطاعون، وبيان القيمة العلمية لهذه المؤلفات، في التحسيس بطرق الوقاية من الطاعون كالعزل والحجر الصحي وحرق الملابس والأغراض الموبوءة، التي ورثها الطب الحديث من أطباء الأندلس.

الكلمات المفتاحية: الوباء، مرض، الطاعون، الجرف، التأليف، الحياة العلمية، الحياة الثقافية

Abstract:

What was the state of the scientific and cultural activity in some of the most ancient civilizations of the Islamic Maghreb in terms of teaching and authorship during the sweeping plague era? This research explores the spread of the plague in the Maghreb and Andalusia, the contributing factors, and its impact on the cultural life of Moroccans. We try to determine the different aspects, from the negative extent of the disaster, to the absence of scientific councils and teaching was limited to memorizing the Holy Qur'an and some arabic language texts, to the loss of famous decade-long scientific figures in various fields of sciences and arts. Or the positive aspects such as the way writings and statements with scientific value were dedicated to the subject of the plague, sensitizing methods of preventing plagues such as isolation, quarantine, burning of clothes and infested objects, all of which was inherited in modern medicine from the doctors of Andalusia.

Keywords: epidemic, disease, plague, sweeping, authorship, scientific life, cultural life.

مقدمة:

لقد عرف الإنسان الصراع مع الأمراض والأوبئة منذ وجد على سطح الأرض، فاكتشف الأمراض وأعراضها، وسبب انتشارها في الأقطار والأمصار، وحاول وصف العلاج الشافي لها، وطرق الوقاية منها للحد من تنقل العدوى بين المصابين، فكانت فكرة صحته، وسلامة جسده من أعراض المرض هي الشغل الشاغل لعقله منذ أقدم العصور. ويعد الطاعون من أخطر هذه الأوبئة، وأشد فتكا بالبشر، حيث أقبر الملايين من مختلف فئات المجتمع شيوخا وصغارا، ذكورا وإناثا، وأحدث طفرة وركوضا في شتى جوانب الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية، رغم محاولته التأقلم والتكيف مع هذا الوباء، وذلك بتعديل سلوكه بطريقة إيجابية، للحد من انتشار الطاعون، ومواصلة مظاهر حياته اليومية بطريقة عادية

وبما أن المغرب الإسلامي تربطه علاقات التواصل الاجتماعي بالمشرق الإسلامي والعالم المسيحي بصفة خاصة، عن الطريق التجارة البحرية والبرية، والبعثات الدبلوماسية، ورحلات العلماء والأدباء ورجال الدين، والحروب الدينية مع العالم المسيحي، وتوثر العلاقات السياسية بين مختلف سلاطين بلاد المغرب والأندلس، فقد انتشر الطاعون الجارف في هذه المنطقة، واستفحل في مختلف حواضرها، وقضى على صدور علمائها ومشيختها في شتى أنواع العلوم والفنون.

وسنحاول من خلال موضوع البحث الموسوم: بـ"الطاعون الجارف وتأثيره على الحياة العلمية والثقافية في بلاد المغرب الإسلامي"، استقراء الحياة الفكرية في بلاد المغرب سنوات الطاعون الجارف، من خلال توجيه العلماء للتأليف في موضوع الطاعون، ومدى قيمة هذه المؤلفات العلمية، وإسهامها في تطور العلوم الطبية الحديثة، ومدى اعتمادها على مناهج البحث المعروفة كالاستقراء والملاحظة العلمية الدقيقة، والتشخيص والتجربة، ومحاولة تقدير حجم فقدان الساحة العلمية لقامات علمية شامخة نشطت الساحة الثقافية لبلاد المغرب على مدى عقود في مختلف الاختصاصات العلمية.

وعليه يمكن طرح الإشكالية التالية: لا شك أن الطاعون الجارف وباء عظيم حل بالمغرب الإسلامي، وانتشر فيه لتضافر عدة أسباب، وأثر على مختلف جوانب الحياة اليومية، ولاسيما الثقافية والعلمية منها، بطريقة إيجابية أو سلبية. فكيف يمكن رسم صورة الحياة الفكرية في مختلف حواضر بلاد المغرب والأندلس رغم شح المصادر والمراجع بالمادة العلمية التي تنبؤنا بحجم هذا الوباء؟

ومحاولة مني للإحاطة بالإشكالية من كل جوانبها، قمت بتقسيم موضوع البحث إلى ثلاث نقاط: فحددت الإطار المفاهيمي والمكاني والزماني للمصطلح، أي عرفت الطاعون لغة واصطلاحا، وحاولت تتبع منشأه الأول عند المؤرخين المسلمين، مع ذكر التباين في تاريخ ظهوره. ثم عرجت على أسباب انتشاره في بلاد المغرب الإسلامي، وحاولت توضيح ملمح الحياة اليومية فيها. وفي النقطة الأخيرة أشرت إلى التأثير الايجابي والسلبي لمرض الطاعون على الحركة العلمية والثقافية في المنطقة.

أولا: مفهوم الطاعون:

لغة: الطاعون مشتق من الفعل طَعَنَ (علي ابن إسماعيل بن سيده المرسي، (2000م)، ص.549.) يَطْعُنُ، ويَطْعَنُه طَعْنا، فَهُوَ مَطعونٌ وطَعِين، من قوم طُعْن: وخزه بِحَرْبَة وَنَحْوهَا. والطَّعْنة: أثر الطَّعْن. وَقَول الْهُذلِيّ:

فَإِن ابنَ عَبْسٍ قد عَلِمْتُمْ مَكانَهُ أذاعَ بِهِ ضَرْبٌ وطَعْن جَوَائِفُ.

الطَّعنُ هَاهُنَا: جمع طعنة،

لطَّاءُ وَالْعَيْنُ وَالنُّونُ أَصْلٌ صَحِيحٌ مُطَّرِدٌ، وَهُوَ النَّخْسُ فِي الشَّيْءِ بِمَا يُنْفِذُهُ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ وَيُسْتَعَارُ. مِنْ ذَلِكَ الطَّعْنُ بِالرُّمْحِ. وَيُقَالُ: تَطَاعَنَ الْقَوْمُ وَاطَّعَنُوا، وَهُمْ مَطَاعِينُ فِي الْحَرْبِ. وَرَجُلٌ طَعَّانٌ فِي أَعْرَاضِ النَّاسِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ طَعَّانًا»، وَحَكَى بَعْضُهُمْ: طَعَنْتُ فِي الرَّجُلِ طَعَنَانًا لَا غَيْرَ، كَأَنَّهُ فَرَقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الطَّعَنِ بِالرُّمْحِ. وَقَالَ:

وَأَبَى ظَاهِرُ الشَّنَاءَةِ إِلَّا طَعَنَانًا وَقَوْلَ مَا لَا يُقَالُ (أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، (1979م)، ص 412.).

قَالَ الْأَصْمَعِي: الطَّعْن بالرُّمح، والطَّعَنان بِاللِّسَانِ هَكَذَا كَلَام الْعَرَب. وتطاعنَ الْقَوْم طِعاناً واطّعنوا اطِّعاناً. والطاعون: الدَّاء الْمَعْرُوف. وَرجل طَعّان فِي أَعْرَاض النَّاس. وَقوم مَطاعين (محمد بن الحسن الأزدي، (1987م)، ص. 917.).

وَفِي الْحَدِيثِ: "فَنَاءُ أُمتي بالطَّعْنِ والطاعُون"(محمد ابن منظور، (1414ه)، ص.265)؛ الطَّعْنُ: الْقَتْلُ بِالرِّمَاحِ، والطَّاعُون: الْمَرَضُ الْعَامُّ والوَباء الَّذِي يَفْسُد لَهُ الْهَوَاءُ فَتَفْسُدُ بِهِ الأَمْزِجة والأَبدان؛ أَراد أَن الْغَالِبَ عَلَى فَناء الأُمة بِالْفِتَنِ الَّتِي تُسْفَك فِيهَا الدِّماءُ وبالوباء.

اصطلاحا: أورد شرف الدين النويري صاحب كتاب "المنهاج في شرح مسلم ابن الحجاج" نقلا عن ابن حاتم في مؤلفه الجرح والتعديل، تعريفا هاما للطاعون استنادا إلى شرح متون الأحاديث النوبية الشريفة التي تناولت الطاعون، بقوله: "أَمَّا الطَّاعُونُ الْجَارِفِ فَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِكَثْرَةِ مَنْ مَاتَ فِيهِ مِنَ النَّاسِ وَسُمِّيَ الْمَوْتُ جَارِفًا لِاجْتِرَافِهِ النَّاسَ وَسُمِّيَ السَّيْلُ جَارِفًا لِاجْتِرَافِهِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ وَالْجَرْفُ الْغَرْفُ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ وَكَشْحُ مَا عَلَيْهَا وَأَمَّا الطَّاعُونُ فَوَبَاءٌ مَعْرُوفٌ وَهُوَ بَثْرٌ وَوَرَمٌ مُؤْلِمٌ جِدًّا يَخْرُجُ مَعَ لَهَبٍ وَيُسَوِّدُ مَا حَوْلَهُ أَوْ يَخْضَرُّ أَوْ يَحْمَرُّ حُمْرَةً بَنَفْسَجِيَّةً كَدِرَةً وَيَحْصُلُ مَعَهُ خَفَقَانُ الْقَلْبِ وَالْقَيْءُ"()محي الدين ابن شرف النويري، (1312ه)، ص 165.). ويذكر ابن حجر العسقلاني في صفة الطاعون: " أنه قُرُوح تخرج فِي المغابن قَلما يلبث صَاحبهَا، وقَوْله المطعون شَهِيد هُوَ من مَاتَ بالطاعون، قَوْله فَجعل يطعن بِيَدِهِ أَي يضْرب برأسها وَمِنْه يطعنها بِعُود."(أحمد ابن حجر العسقلاني، (1379ه)، ص.143).

وَقَالَ عِيَاضٌ أَصْلُ الطَّاعُونِ الْقُرُوحُ الْخَارِجَةُ فِي الْجَسَدِ وَالْوَبَاءُ عُمُومُ الْأَمْرَاضِ فَسُمِّيَتْ طَاعُونًا لِشَبَهِهَا بِهَا فِي الْهَلَاكِ وَإِلَّا فَكُلُّ طَاعُونٍ وَبَاءٌ وَلَيْسَ كُلُّ وَبَاءٍ طَاعُونًا..وذهب النَّوَوِيُّ إلى أنه بَثْرٌ وَوَرَمٌ مُؤْلِمٌ جِدًّا يَخْرُجُ مَعَ لَهَبٍ وَيَسْوَدُّ مَا حَوَالَيْهِ أَوْ يَخْضَرُّ أَوْ يَحْمَرُّ حُمْرَةً شَدِيدَةً بَنَفْسَجِيَّةً كَدِرَةً وَيَحْصُلُ مَعَهُ خَفَقَانٌ وَقَيْءٌ وَيَخْرُجُ غَالِبًا فِي الْمَرَاقِ وَالْآبَاطِ وَقَدْ يَخْرُجُ فِي الْأَيْدِي وَالْأَصَابِعِ وَسَائِرِ الْجَسَدِ. واعتقد جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَطِبَّاءِ مِنْهُمْ أَبُو عَلِيِّ بْنُ سِينَا أن الطَّاعُونَ مَادَّةٌ سُمَيَّةٌ تُحْدِثُ وَرَمًا قَتَّالًا يَحْدُثُ فِي الْمَوَاضِعِ الرَّخْوَةِ وَالْمَغَابِنِ مِنَ الْبَدَنِ وَأَغْلَبُ مَا تَكُونُ تَحْتَ الْإِبْطِ أَوْ خَلْفَ الْأُذُنِ أَوْ عِنْدَ الْأَرْنَبَةِ (محمد أشرف العظيم أبادي، (1415ه) ،. ص. 255.).

وقد بين صفة الطاعون محمد ابن الخطيب السلماني الغرناطي المتوفي سنة: 776ه/1374م، بقوله: هو مرض حاد، حار السبب، سمي المادة، يتصل بالروح بدءا بواسطة الهواء، ويسري في العروق، فيفسد الدم، ويحيل رطوبات إلى السمية، وتتبعه الحمى، ونفث الدم، أو يظهر عنه خراج من جنس الطواعين. وله سبب أقصى، وهو: الأمور الفلكية من القرانات التي تأثر في العالم، وسبب أدنى فساد الهواء الخاص يحمل ظهوره ابتداء أو انتقالا (محمد بن الخطيب السلماني الغرناطي، (2018م)، ص ص. 65-66).

وهذا ما أيده عبد الرحمن بن خلدون، حيت اعتبر سبب وقوع الوباء في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة، وإذا فسد الهواء العنصر الحيوي للروح، يسري الفساد إلى مزاجه، وقع المرض في الرئة، وهذه هي الطواعين وأمراضها مخصوصة بالرئة، وإذا كان الفساد دون القوي والكثير يكثر العفن ويتضاعف، فتكثر الحميات في الأمزجة، وتمرض الأبدان وتهلك.

وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة في هذا كله كثرة العمران ووفوره آخر الدولة، ولهذا نتبين أنه من الحكمة أن تتخلل الخلاء والقفر بين العمران أمر ضروري، ليكون تموج الهواء يذهب بما يحصل فيه من الفساد والعفن الذي ينتج بمخالطة الحيوان، ويأتي بالهواء الصحيح. ولهذا فإن الموتان يكون في المدن الموفورة العمران، أكثر من غيرها بكثير، كمصر بالمشرق، وفاس بالمغرب (عبد الرحمن ابن خلدون، (2004م)، ص ص.499-500).

2.الطاعون الجارف في بلاد المغرب الإسلامي:

أ.نقطة انطلاق الطاعون الجارف: يواجه العلماء شحا في المصادر التي تسمح بإعادة رسم نقطة الانطلاق للطاعون الجارف الذي ظهر في سنة 749هـ، والذي انتقل وانتشر على طرق شبكة المواصلات نفسها التي سهلت انتشار الإسلام، ووفرت لدولته قدرا كبيرا من الوحدة الثقافية. فقد أفادت المصادر التاريخية التي ألفها المؤرخون والأطباء والأدباء المسلمون أن الطاعون الجارف ظهر في الصين أو جنوب آسيا الوسطى، وتقدم غربا، ولكن آثاره في الصين والمناطق الخاضعة لسيطرة المغول في آسيا تبقى مجهولة (جوزيف بيرن، (2014م)، ص ص. 390-391)، فيؤكد لسان الدين ابن الخطيب في تأريخه لأصل هذا الوباء، ومتى ظهر في الأرض، فقال: هذا الواقع ابتدأ بأرض الخطا والصين في حدود أربعة وثلاثين وسبع مائة، حدث بذلك غير واحد من يوثق به من أولي الرحلة، كالشيخ القاضي الحاج أبي عبد الله ابن بطوطة، حيث ذكروا جيفا كثيرة أجلت عنها حرب في تلك الجهة. فتعفنت بعد أن تقدمها بذلك الإقليم حريق نار أتى عن النجم والشجر، فيما يناهز عشر مراحل، ففسد الهواء، وتعاضدت الأسباب القريبة بالأسباب القصوى، وفشا في الخلق الموتان، والوباء الغريب الذي من خواصه السعي والانتقال، والدبيب فيما يجاوره من الأرض البعيدة (محمد بن الخطيب السلماني الغرناطي، (2018م)، ص ص. 75-76).

ويذكر ابن بطوطة أنه شاهد أيام الطاعون الأعظم بدمشق في أواخر شهر ربيع الثاني سنة تسع وأربعين، ومن تعظيم أهل دمشق لمسجد الأقدام ما يعجب منه وهو أن ملك الأمراء نائب السلطان أرغون شاه أمر مناديا ينادي بدمشق أن يصوم الناس ثلاثة أيام ولا يطبخ أحد بالسوق ما يؤكل نهارا، وأكثر الناس بها إنما يأكلون الطعام الذي يصنع بالسوق، فصام الناس ثلاثة أيام متوالية كان آخرها يوم الخميس، ثم اجتمع الأمراء والشرفاء والقضاة وساير الطبقات على اختلافها في الجامع حتى غص بهم وباتوا ليلة الجمعة ما بين مصل وذاكر وداع، ثم صلوا الصبح وخرجوا جميعا على أقدامهم وبأيديهم المصاحف، والأمراء حفاة وخرج جميع أهل البلد ذكورا وإناثا صغارا وكبارا، وخرج اليهود بتوراتهم، والنصارى بإنجيلهم، ومعهم النساء والولدان وجميعهم باكون متضرعون متوسلون إلى الله بكتبه وأنبيائه، وقصدوا مسجد الأقدام وأقاموا به في تضرعهم إلى قرب الزوال وعادوا إلى البلد فصلوا الجمعة وخفف الله تعالى عنهم فانتهي عدد الموتى إلى ألفين في اليوم الواحد، وقد انتهي عددهم بالقاهرة ومصر إلى أربعة وعشرين ألفا في يوم واحد (محمد ابن بطوطة، (1417هـ)، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ص ص. 325-326).

وتطرق ابن الوردي إلى خبر الطاعون في حلب سنة 749هـ، وأشار إلى أن بؤرته الأولى هي أرض الظلمات، وهي أرض مجهولة، وأنه ظهر فبل خمس عشرة سنة خلت من تاريخ انتشاره في حلب، وذلك من خلال قوله في تأريخ أحداث سنة 479هـ: " في شهر رجب وصل الوباء إلى حلب كفانا الله شره، هذا الوباء لنا أنه ابتدأ من أرض الظلمات من خمس عشرة سنة متقدمة على تاريخه، وعملت فيه رسالة سميتها "النبأ عن الوباء" ... مما ورد فيها أنه ابتدأ خبره من الظلمات، فواها له من زائر، من خمس عشرة سنة دائر، ما صين عنه الصين، ولا منع منه حصن حصين، سل هنديا في الهند، واشتد عن السند، وقبض بكفيه وشبك على بلاد أزبك، وكم قصم من ظهر، فيما وراء النهر، ثم ارتفع ونجم، وهجم على العجم، وأوسع الخطأ إلى أرض الخطأ، وقرم القرم، ورمى الروم بجمر مضطرم، وجزا الجزائر، إلى فبرص والجزائر، ثم قهر خلقا بالقاهرة....." (إسماعيل ابن علي أبو الفداء، (1999م)، ص. 174)

ووصف المقريزي الطاعون الجارف في شتى الأقطار والأمصار بقوله: وَعم الوباء بِلَاد قرمان وقيصرية وَجَمِيع جبالها وأعمالها ففني أَهلهَا ودوابهم ومواشيهم. فرحلت الأكراد خوفًا من الْمَوْت فَلم يَجدوا أَرضًا إِلَّا وفيهَا الْمَوْتَى فعادوا إِلَى أَرضهم وماتوا جَمِيعًا. وَعظم الموتان بِبِلَاد سيس، وَمَات من أهل تكفور فِي يَوْم وَاحِد. بِموضع وَاحِد مائَة وَثَمَانُونَ نفسا وخلت سيس وبلادها. وَوَقع فِي بِلَاد الخطأ مطر لم يعْهَد مثله فِي غير أَوَانه، فَمَاتَتْ دوابهم ومواشيهم عقب ذَلِك الْمَطَر حَتَّى فنيت، ثمَّ مَاتَ النَّاس والطيور والوحوش حَتَّى خلت بِلَاد الخطأ، وَهلك سِتَّة عشر ملكا فِي مُدَّة ثَلَاثَة أشهر. وأباد أهل الصين وَلم يبْق مِنْهُم إِلَّا الْقَلِيل، وَكَانَ الفناء بِبِلَاد الْهِنْد أقل مِنْهُ بِبِلَاد الصين. وَوَقع الوباء بِبَغْدَاد أَيْضا، وَكَانَ الْإِنْسَان يصبح وَقد وجد بِوَجْهِهِ طلوعاً فَمَا هُوَ إِلَّا أَن يمر بِيَدِهِ عَلَيْهِ مَاتَ فَجْأَة...(أحمد تقي الدين المقريزي، (1997م)، ص ص. 79-80).

وتذكر بعض مصادر المؤرخين الأوربيين أن الطاعون الجارف ظهر في أكتوبر من عام 1348م في جزيرة صقلية من العدم، وكان حجم الكارثة غير مسبوق، إذ لم يكن يوجد أي علاج، وكان كل شخص يصاب بالعدوى يموت ميتة شنيعة بحق، وكان هذا الوباء من شأنه أن يدمر أوروبا على مدار الثلاثمائة عام المقبلة، ويحصد أرواح ملايين لا حصر لها من البشر.

فتشير رواية الراهب مايكل من بلدة بياتسا أن أول ظهور للطاعون الجارف كان على متن 12 سفينة قادمة من جنوة الإيطالية، قيل إنها خرجت من القرم، ودخلت ميناء مسينة بصقلية، وأطقمها حملوا مثل هذا المرض المعدي، ونص الرواية: "... حتى أن كل شخص تحدث إليهم فحسب، كان يصاب بمرض مهلك، يستحيل معه الفرار من الموت، فانتقلت العدوى إلى أي شخص تعامل مع المريض بأي شكل، وقد شعر المصابون بألم يحرق أجسادهم...". والجدير بالذكر أن أطقم السفن كانوا في حالة صحية جيدة، لم تظهر عليهم أية أعراض. ولما تفطن سكان صقلية لهذا الوباء قاموا بطرد السفن من الميناء، التي أجبرت للإبحار إلى جذوة حيث انتشر هنالك المرض سريعا، ليعم باقي أنحاء أوروبا والعالم الإسلامي (سوزان سكوت وكريستوفر دمكان، (2014م)، ص ص. 21-22)

وهي تقريبا نفس الرواية التي أشار إليها شلدون واتس في مؤلفه: "الأوبئة والتاريخ المرض والقوة الامبريالية"، ويضيف أنه بانقضاء عام 1348م بدأ الطاعون بمهاجمة السكان على شواطئ المحيطين الأطلنطي والبلطيق، وبعد ذلك صعد إلى الأنهار، وعلى طول الممرات والحقول، حتى وصل إلى الأوروبيين الذين يعيشون في عمق الداخل، وتشير الإحصائيات أن نسبة الوفاة بين ثمن إلى ثلثي عدد سكان المنطقة، أي ما يقارب 24 مليون نسمة، وظل هذا الوباء

أسوء كارثة لمرض يأتي في أوروبا منذ انهيار الإمبراطورية الرومانية. وكانت الإصابة في العالم الإسلامي مرعبة أيضا، حيث مات مابين ربع وثلث سكانه تقريبا (شلدون واتس، (2010م)، ص ص. 65-66)

وأتى ابن خاتمة بخبرين مختلفين عن الإقليم منشأ الطاعون الجارف عن تاجرين نصرانيين، يتضمن الأول: "فذكر لي بعض الثقات من بعض تجار النصارى القادمين عليا من ألميرية أن ابتداءه من كان بلاد الخطا، وبلاد الخطا بلسان العجم هي بلاد الصين على ما تلقيته من بعض الواردين من أرض سمرقند، وكان ثقة صدوقا". أما مضمون الخبر الثاني أنه ذكر لي بعض النصارى القادمين عليه: "أن ابتداءه كان بأرض الحبشة، وأنه انتشر من هنالك فيما يليهم من الأقطار والأمصار، حتى انتهي إلى دار مصر والشام" (أحمد بن علي ابن خاتمة، (1013م)، ص ص. 143-144).

ب.انتشار الطاعون في بلاد المغرب الإسلامي: تفشى الطاعون في ثلاثينيات القرن الربع عشر ميلادي في موطنه المعزول في أراضي آسيا الوسطى، وانتشر شرقا في الصين، وجنوبا في شبه القارة الهندية، وظهر في المناطق الشرقية من العالم الإسلامية في أربعينيات القرن الرابع عشر، وامتد إلى الجنوب الغربي طول البحر الأسود، وامتد إلى الأطراف الغربية للبحر الأبيض المتوسط.

ولعل من أهم أسباب انتشاره في المغرب الإسلامي أن الوباء انتقل مع التجار والقوافل والجيوش والحجاج، والبعثات الدبلوماسية، وعلى متن السفن المحملة بالبضائع والمسافرين من المناطق التي ضرب فيها الطاعون وتفشى كصقلية ومرسيليا وجينوة والإسكندرية إلى المدن الساحلية بالمغرب الإسلامي، وعبر على متن العربات، وفي الطرقات ودروب الجياد، وعلى حيوانات الحمل إلى المدن الداخلية بالمغرب والأندلس (جوزيف بيرن، (2014م)، ص ص. 18-19)، ويؤكد هذا الطرح نظرية الحسن الوزان حيث يرى: «أن الوباء في بلاد البربر يظهر على رأس كل عشر سنوات، أو خمس عشرة، أو خمس وعشرين، وعندما يأتي يذهب بالعدد العديد من الناس، لأنه لا يهتم به أحد، ولا يستعمل أي دواء باستثناء التمسح بالتراب الأرميني حول دمل الطاعون، ولم يظهر الوباء بنوميديا منذ مائة سنة، ولم يظهر قط بأرض السودان" (الحسن ابن الوزان، (1983م)، ص. 85).

وهو ما يثبته لسان الدين ابن الخطيب بقوله: "وفي حال مدن الساحل المستصحبة حال السلامة، إلى أن يحل بها من البحر من عدوة أخرى قد شاع عنها خبر الوباء رجل متوف، فتكون تاريخ ظهور الوباء بها..... وتواترت الأخبار بسلامة أماكن لا تطأها الطرق ومنقطعة عن الناس...." (محمد بن الخطيب السلماني الغرناطي، (2018م)، ص. 73).

وتعد الرحلة وميل سكان المغرب الإسلامي للترحال بصفة عامة، والعلماء منهم بصفة خاصة وسيلة فعالة لنقل عدوى وباء الطاعون من قطر لآخر، فالاختلاط والتواصل مع الشعوب المختلفة، بالإضافة إلى الاجتهاد في دراسة أخلاقهم وطباعهم وعاداتهم وتقاليدهم وأعرافهم وديانتهم، ونظم حكمهم التي غالبا ما تخلق مجالا للمقارنة. وعموما فإن رحلة المغاربة والأندلسيين إلى المشرق الإسلامي وباقي أنحاء العالم، أكثر من رحلة المشارقة. فمركز الحج بالمشرق، كما أن رغبة رحالة المغرب الإسلامي في لقاء الأساتذة والشيوخ كانت ملحة. وطلب العلم والسعي إلى تحصيله، كان مطلب الجميع (حسن مؤنس، (1986م)، ص. 11). والدليل على ذلك أن كتب التاريخ والتراجم والسير تعرف بهم، وبإنتاجهم الفكري، وتتبع مسار رحلاتهم.

وضرب العلماء المغاربة والأندلسيون أروع الأمثلة في طول الغياب، وتحمل الغربة عن بلادهم من أجل العلم، ولجأوا لتخفيف عبء الرحلة الفردية ومشقتها إلى الرحلة الجماعية وكانت رحلاتهم تستغرق مدة طويلة، يقضونها في

البحث والدرس، وبعضهم تعددت رحلاته إلى المشرق، وهذا يدل على رغبتهم الشديدة بإثراء معرفتهم العلمية، وكانوا يحرصون على نيل نصيبهم من المجاورة في مكة أو المدينة (وفاء بنت عبد الله سليمان المزروع، (دت)، ص.72). ومنهم من طالت مجاورته على تواصل غير مقطوع، أو دفعات فعظمت استفادته وإفادته، فكانت له مساهمة علمية كبيرة في مختلف الأقطار، ويمكن الاستدلال على أن رحالة المغرب الإسلامية ساهموا في نقل الطاعون من قطر لآخر، عدا الذين رحلوا واستقروا في صحراء إفريقية بقول لسان الدين ابن الخطيب: "وصح النقل بسلامة أهل العمود والرحالين من العرب بإفريقية، وغيرها لعدم انحصار الهواء بها، وقلة تمكنه من الفساد" (محمد بن الخطيب السلماني الغرناطي، (2018م)، ص. 74).

وكان لظهور تجمعات سكنية كبيرة، ومدن مكتظة بالسكان كمدينة فاس وتلمسان وبجاية والقيروان وتونس وغرناطة وقرطبة، وعدم احترام مبادئ تخطيط المدينة، وتوزيع العمران بها حسب ابن خلدون، ولا سيما عدم ترك مساحات للخلاء القفر والمساحات الخضراء بين العمران، بحيث تسمح بتجديد وتموج الهواء، تذهب العفن الناتج عن مخالطة الحيوان، أمر ساهم لا محالة في سرعة انتشار الطاعون داخل مدن المغرب الإسلامي، وشدة فتكه بسكانها، ويصف العلامة عبد الرحمن ابن خلدون هذا الخراب بقوله: " وما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثّامنة من الطّاعون الجارف الّذي تحيّف الأمم وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدّول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلّص من ظلالها وفلّ من حدّها، وأوهن من سلطانها، وتداعت إلى التّلاشي والاضمحلال أموالها، وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر فخربت الأمصار والمصانع ودرست السّبل والمعالم وخلت الدّيار والمنازل وضعفت الدّول والقبائل وتبدّل السّاكن وكأنّي بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه، وكأنّما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض فبادر بالإجابة والله وارث الأرض ومن عليها، وإذا تبدّلت الأحوال جملة فكأنّما تبدّل الخلق من أصله، وتحوّل العالم بأسره وكأنّه خلق جديد، ونشأة مستأنفة، وعالم محدث فاحتاج لهذا العهد من يدوّن أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنّحل الّتي تبدّلت لأهله....".

ما وقع من أحداث سياسية في بلاد المغرب سنة 749هـ، فالمتتبع لحركة الجيوش المرينية يلاحظ حركتها بين تونس وبلاد المغرب الأوسط لينتهي بها المطاف في المغرب الأقصى. فحسب رواية عبد الرحمن ابن خلدون أن أبا الحسن المريني نزل بالجزائر من تونس في أواسط المائة الثامنة، بعد أن أجفل عليها ابن تافركين وأصحابه، بعد خروج أهل القصبة من أولياء السلطان فملكوها، وخربوا منازل الحاشية فيها، ونزل السلطان بها من أسطوله في ربيع الآخر، فاستقلت قدماه من العثار (عبد الرحمن ابن خلدون، (1988م)، ص. 526).

ويتتبع ابن خلدون حركة الجيوش المرينة في رواية تشير أنه كان لكبير بني نفال علي بن محمد من الخلاف والامتناع ذكر مع السلطان أبي سعيد وابنه أبي الحسن، واستنزل له أبو الحسن من محله لأول ولايته، بعد حصاره بمكانه، وأصاره في جملته تحت عنايته وإمرته، إلى أن هلك بتونس بعد واقعة القيروان في الطاعون الجارف، وولي بنوه من بعده أمر قومهم إلى أن انقرضوا (المصدر نفسه، ص.272). وفي نفس الفترة تقريبا أعقب السلطان أبو الحسن على مماليك بني عبد إلى المغرب، وصارت الولاية لهم لأبي الحملات بن عائد بن ثابث، في عهد الطاعون الجارف، فولى على الثعالبة إبراهيم ابن نصر (المصدر نفسه، ص ص. 65-66)

فلا شك أن هذه الحركة السريعة للسلطان أبي الحسن المريني مع جيوشه المتنقلة بين فاس وتلمسان والقيروان ساهمت في سرعة انتشار عدوى مرض الطاعون بين التجمعات السكنية في بلاد المغرب، مما جلب خراب العمران لهذه المنطقة الذي أشار إليه عبد الرحمن ابن خلدون أثناء وصفه لمظاهر العمران في المشرق والمغرب خلال هذه الجائحة.

3. تأثر الطاعون الجارف على الحياة العلمية والثقافية بالمغرب الإسلامي:

لما كان أمر هذا الطاعون عظيم، وقد عم البلاد مشرقها ومغربها، فقد كثرت ضحاياه من العلماء والأدباء والأمراء الذين نشطوا الساحة العلمية والثقافية ببلاد المغرب الإسلامي، وامتد إشعاعهم الديني والثقافي والأدبي والعلمي بين أعرق حواضر ها كالقيروان وتلمسان وبجاية وفاس ومراكش وغرناطة وقرطبة، وتخصصوا في مختلف العلوم الدينية والأدبية والتاريخية والجغرافية. مما أدى إلى تراجع كبير في مجالس العلم المقامة في حضرة السلاطين، والمخصوصة بعنايتهم ودعمهم المادي والمعنوي، أو المقامة في أكبير مساجد المغرب الإسلامي، وهذا كله أثر سلبا على حياة المغاربة في مختلف نواحي الحياة: الاجتماعية منها والثقافية والعلمية والاقتصادية. وهذا ما أقر به عبد الرحمن ابن خلدون في قوله: "ولم أزل منذ نشأت وناهزت مكبّا على تحصيل العلم، حريصا على اقتناء الفضائل، متنقّلا بين دروس العلم وحلقاته، إلى أن كان الطاعون الجارف، وذهب الأعيان والصدور وجميع المشيخة، وهلك أبواي رحمهما الله. ولزمت مجلس شيخنا أبي عبد الله الآبلّي، وعكفت على القراءة عليه ثلاث سنين إلى أن شدوت بعض الشيء" (المصدر نفسه، ص 535.).

وذكر أحمد المقري التلمساني عن ابن خلدون وغيره من أئمة التاريخ في وصف الحياة العلمية بحاضرة فاس أيام الطاعون الجارف: "لم نشاهد في المائة الثامنة من سلك طريق النظار بفاس، بل في جميع هذه الأقطار، لأجل انقطاع ملكة التعليم عنهم، ولم يكن منهم من له عناية بالرحلة، بل قصرت هممهم على طريق تحصيل القرآن، ودرس التهذيب فقط. نعم أخذوا شيئاً من مبادئ العربية من أهل الأندلس، القادمين عليهم من يبتة وغيرها، باستدعاء ملوك بني مرين.. ولم يتصدر من الفاسيين من يقرئ " الكتاب " كما هو متناول بين أهل الأندلس، مثل ابن أبي الربيع والشلوبين وغيرهما، لوجود ملكة النحو في قطر الأندلس (أحمد المقري التلمساني، (1939م)، ص ص. 26-27)، ومن جملة أعيان علماء المغرب الإسلامي الذين أقبروا في الطاعون الجارف، نختص بالذكر:

أ.أبو موسى عيسى ابن الإمام: أخوه الأكبر هو زيد بن عبد الرحمن، وكان أبوهما إماما بعض مساجد برشك بتلمسان، فبعد مقتل أبيهما ارتحل الأخوان إلى تونس في آخر المائة السابعة، وأخذا العلم بها عن تلميذ ابن زيتون، وتفقها على يد أصحاب أبي عبد الله بن صعب الدكالي، وانقلبا إلى المغرب بحض وافر من العلم. وأقاما بتلمسان يبثان العلم بها، وكان لأبي موسى أثر في العلوم النظرية بتلمسان، فأثنى عليهما السلطان أبو حمو موسى الأول بحلة مقامهما في العلم، واغتبط بها، وبنى المدرسة المعروفة باسم ابني الإمام.

ولما زحف السلطان أبو الحسن المريني إلى تلمسان وملكها عنوة سنة 737هـ، كانت لهما شهرة في أقطار العرب، أدنى مجلسهما إليه، ورفع جاههما على أهل طبقاتهما، وصار بهما يجمل مجلسه متى حل بتلمسان، وحضرا معه واقعة طريف، وبعد عودتهما إلى بلدهما مات الأخ الأكبر أبو زيد، وهلك أبو موسى ابن الإمام في الطاعون الجارف سنة 749هـ، بعد أن سرحه السلطان أبو الحسن المريني إلى بلده بعد أن استولى على تونس (عبد الرحمن ابن خلدون، (1988م)، ص ص. 517-518).

ب.عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن بن محمد بن محمد بن عبد الله الحضرمي: (أحمد القاضي المكناسي، (1973م)، ص ص. 352-353): ويكنى أبا محمد، كان خاتمة الصدور، وصاحب القلم الأعلى بفاس، وعظيم الرؤساء داتا وسلفا ونزاهة وجلالة، اشتهر في علم الحديث والأدب والتاريخ واللغة والعروض، متصل الاجتهاد لا يفتقر له علم، ولد بسبته عام 676هـ ولي كتابة الإنشاء لأبي الحسن المريني، حتى توفي في عام الطاعون الجارف 749هـ، وهو في موكب مخدومه بتونس التي دفن بها، وقد لازم ابن خلدون مجلسه، وأخذ عنه سماعا وإجازة الأمهات الست، وكتاب الموطأ، والسير لابن إسحاق، ومقدمة ابن الصلاح في الحديث.

جـ. الوادي آشي:(أحمد ابن حجر العسقلاني، (دت)، ص ص. 413-414): هو محمد بن جابر بن محمد بن قاسم بن محمد بن أحمد بن إبراهيم بن حسان القيسي الوادي آشي الأندلسي، شمس الدين، ثم التونسي، ثم المالكي، ولد بتونس عام 673هـ، تفقه على مذهب المالكية، كان حسن المشاركة، عارفا بالنحو واللغة والحديث والقراءة، توفي بتونس في شهر ربيع الأول عام الطاعون 749هـ وقد وصفه ابن خلدون بصاحب الرحلتين لأنه رحل إلى المشرق مرتين، وسمع عليه كتاب مسلم بن الحجاج، إلا فوتا يسيرا من كتاب الصيد، وكتاب الموطأ من أوله إلى آخره، وبعضا من كتاب الأمهات الخمس. وأجازله الرواية عنه في كتب كثيرة في العربية والفقه، وأجازله إجازة عامة (عبد الرحمن ابن خلدون، (2009م)، ص. 39.).

د. أبو عبد الله محمد بن النجّار: هو محمد بن يحي بن على النجار من أهل تلمسان، أخذ العلم ببلده عن مشيختها، وعن شيخها الأيلّي وبرّز عليه. ثم ارتحل إلى المغرب فلقي بسبتة إمام التعاليم أبا عبد الله محمد بن هلال شارح المجسطيّ في الهيئة، وأخذ بمراكش عن الإمام أبي العبّاس بن البنّاء، وكان إماما في علم النجامة وأحكامها، وما يتعلّق بها، ورجع إلى تلمسان بعلم كثير، واستخلصته الدولة. فلمّا هلك أبو تاشفين وملك السلطان أبو الحسن نظمه في جملته وأجرى له رزقه، فحضر معه بإفريقية وهلك في الطاعون الجارف سنة 749هـ (أحمد بابا التنبكتي، (2011م)، ص. 409.).

هـ. الحسن بن علي الخطيب: هو والد ابن القنفذ القسنطيني من شيوخه أبو علي ناصر الدين البجائي، وابن غريون، وأبو حيان النحوي، وشمس الدين الأصبهاني، وأبو علي بن حسن البجائي، وسبب وفاته فتنة وباء الطاعون الجارف، واختلاف طلبته في الفرار ممن مرض به. ألف كتابا سماه: "المسنون في أحكام الطاعون"، وله كتاب "المسائل المسطرة في النوازل الفقهية"، نوفي عام 750م بالطاعون الجارف (أحمد بن الحسن ابن الخطيب المشهور بابن القنفذ القسنطيني، (1983م)، ص ص. 355-356).

و. القاضي أبو عبد الله محمد بن عبد النور: من أعمال ندرومة، نسبه كان مبرزا في الفقه على مذهب الإمام مالك بن أنس، تفقه فيه على يد ابني الإمام. ولما استولى السلطان أبو الحسن المريني على تلمسان طلب منه ابن الإمام أن يختار له من أصحابه ينظمه في فقهاء المجلس، فأشاروا عليه بابن عبد النور هذا. فأدناه وقرب مجلسه، وولاه قضاء عسكره، ولم يزل في جملته إلى أن هلك في الطاعون الجارف بتونس سنة 749هـ (عبد الرحمن ابن خلدون، (2009م)، ص. 58).

ي.محمد بن عبد السلام الهواري: هو أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن يونس ابن كثير الهواري المنستيري، فقيه مالكي من قضاة تونس، وصدر علمائها في زمانه، ولي قضاء تونس سنة 734هـ، وتستمر فيه إلى أن توفي أوائل الطاعون النازل

ببلده عام 749هـ، له كتاب شرح الأمهات لابن الحاجب، وديوان الفتاوى (أحمد بن الحسن ابن الخطيب المشهور بابن القنفذ القسنطيني، (1983م)، ص. 354)

ز/والد عبد الرحمن بن خلدون: هو محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن خلدون ابتعد عن طريقة السيف والخدمة إلى طريقة العلم والرباط، لما نشأ عليه في حجر أبي عبد الله الرندي الشهير بالفقيه، كان كبير تونس لعهده في العلم والفتوى، وانتحال طرق الولاية التي ورثها عن أبي حسين وعمّه حسن، الوليّين الشهيرين. وكان أباه رحمه الله قد لازمه من يوم نزوعه عن طريقه، وألزمه ابنه فقرأ وتفقّه، وكان مقدّما في صناعة العربية، وله بصر بالشعر وفنونه، كان أهل البلد يتحاكمون إليه فيه، ويعرضون قضاياهم عليه، وهلك في الطاعون الجارف سنة تسع وأربعين وسبعمائة (عبد الرحمن ابن خلدون، (1988م)، ص.510).

كما اتجه التأليف في بلاد المغرب الإسلامي سنة 749هـ إلى التحسيس بأخطار هذا الوباء الوافد، فاهتم العلماء والفقهاء والمؤرخون والأطباء والأدباء بالتأليف حول مرض الطاعون، ولعل من المؤلفات التي تخصصت في ذلك نجد ثلاث رسائل من علماء أندلسيين أعطت تعريفا علميا دقيقا للطاعون، وتتبعت منشأه وانتشاره في العالم المسيحي والإسلامي، وميزت بين مختلف أنواعه، وحددت أعراض كل نوع بشكل متناه في الدقة، وبينت طريقة انتقال العدوى، والأسباب التي سرعت في انتشارها بين المصابين، وحاولت وصف علاج هذا الوباء، وطرق الوقاية منه كالحجر والعزل الصحي، والتخلص من الثياب والمخلفات الموبوءة، مستعلمة مختلف مراحل منهج البحث العلمي، كالتشخيص والملاحظة العلمية الدقيقة والاستقراء والتجربة قصد الوصول إلى نتائج علمية دقيقة. أما هذه الرسائل فهي:

- ✓ رسالة لسان الدين ابن الخطيب (محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السّلماني، يكنى أبا عبد الله، ويلقّب بلسان الدين، وهو من الألقاب المشرقية. وزير، طبيب، أديب، مؤرخ، وفقيه مالكي أندلسي.
- ✓ ولد بمدينة لوشة سنة 713 هـ . نشأ لسان الدين بغرناطة، وتأدّب على شيوخها، وهم كثر، فأخذ عنهم القرآن، والفقه، والتفسير، واللغة، والرواية، والطب، وصناعة التعديل. التزم خدمة عدد من السلاطين كأبي الحجاج والسروي محمد الخامس المعروف بالغني بالله وتعرف على علماء المغرب وأصحاب مناصبها كابن خلدون وغيره.ولمّا توفي سلطان المغرب 774 هـ فقد ابن الخطيب حاكماً مخلصاً يحميه من أعدائه. وأخيراً أودع في السجن، وقتل وحرق، وذلك عام 776 هـ. وله تأليفات كثيرة نذكر منها: آداب الوزارة، الإحاطة في أخبار غرناطة، أوصاف الناس في التاريخ والصلاة، جيش التوشيح، رقم الحلل في نظم الدول، روضة التعريف بالحب الشريف، ريحانة الكتاب ومقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل. أنظر: محمد بن الخطيب السلماني الغرناطي، (1424هـ)، ص ص. 05-12) في الطاعون الجارف سنة 749هـ الموسومة بـ"مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل".
- ✓ رسالة تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد تأليف ابن خاتمة الأنصاري (أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن خاتمة أبو جعفر الأنصاري الأندلسي. طبيب مؤرخ من الأدباء البلغاء، من أهل المرية بالأندلس. تصدر للإقراء فيها بالجامع الأعظم وزار غرناطة مرات. قال لسان الدين بن الخطيب: وهو الآن بقيد الحياة وذلك ثاني عشر شعبان سنة 770هـ، وقال ابن الجزري توفي وله نيف وسبعون سنة وقد ظهر في سنة 479هـ، وباء في المرية انتشر في كثير من البلدان سماه الإفرنج الطاعون الأسود. ومن كتبه "مزية المرية على غيرها من البلاد الأندلسية" في تاريخها،

و"رائق التحلية في فائق التورية" أدب. و "ألحاق العقل بالحس في الفرق بن اسم الجنس وعلم الجنس"، و "ريحانة من أدواح ونسمة من أرواح" وهو ديوان شعره. في خزانة الرباط المجموع 269 كتاني، و"تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد ". أنظر: خير الدين بن محمود الزركلي، (2002م)، ص ص. 176-177) سنة 749هـ إثر ظهور الطاعون الجارف بمدينة ألميرية.

✓ رسالة "تقييد النصيحة" لأبي عبد الله عبد الله بن محمد الشقوري (يكنى أبا عبد الله، ويعرف بالشّقوري، منسوبا إلى مدينة شقورة، ومنها أهله، صاحبنا طبيب دار الإمارة، قرأ على جدّه للأب، وعلى الحكيم الوزير خالد بن خالد من شيوخ غرناطة، وعلى شيخنا الحكيم الفاضل أبي زكريا بن هذيل، ولازمه، وانتفع به، وسلك بالشيخ الصّوفي أبي مهذّب عيسى الزيات ثم بأخيه الصالح الفاضل أبي جعفر الزيات، والتزم طريقته، وظهرت عليه بركته. وألّف كتبا نبيلة، منها «تحفة المتوصل في صنعة الطب» وكتابا أسماه «الجهاد الأكبر»، وآخر سمّاه «قمع اليهودي عن تعدّي الحدود». كان مولده: ولد في عام 727هـ. أنظر: محمد بن الخطيب السلماني الغرناطي، (1424هـ)، ص ص. 136-137). ، وهي المسماة تحقيق النبأ عن أمر الوباء.

وفي بلاد المغرب الأوسط لم يكن التأليف في أدب الطاعون حاضرا بقوة لدى الفئة المثقفة، لكن هذا لم يمنع وجود قلة من المؤلفات لم تعطي صورة واضحة عن واقع مجتمع المغرب الأوسط في ظل وقوع هذه الجائحة، وأخص بالذكر:

-حسن بن علي الخطيب القسنطيني والد ابن القنفذ المذكور الترجمة سابقا، صاحب كتاب "المسنون في أحكام الطاعون".

-ابن أبي حجلة التلمساني (أحمد بن يحي بن أبي بكر بن عبد الواحد، الشيخ شهاب الدين الشهير بابن أبي حجلة، كان إماماً بارعاً، عالماً فقيهاً، أديباً شاعراً، مولده بالمغرب بتلمسان بزاوية، جده الشيخ أبي حجلة في سنة 726هتقريباً، ونشأ بالمغرب ثم قدم القاهرة وتولى بها مشيخة مدرسة الأمير منجك اليوسفي، ودرس وأفاد، ومهر في عدة علوم، وغلب عليه الأدب، وقال الشعر الجيد، وصنف ودون، ومصنفاته كثيرة تبلغ ستين مصنفاً: من ذَلِكَ كتابة ديوان الصبابة، والسكردان، وله خمس دواوين في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وسبع أراجيزا سبعة آلاف بيت، وكانت وفاته في يوم الخميس مستهل ذي الحجة سنة ست وسبعين وسبعمائة، عن إحدى وخمسين سنة بالقاهرة. أنظر: يوسف بن تغزي بردي، (دت)، ص ص.259-260) مؤلف كتاب الطب المسنون في دفع الطاعون.

وتجدر الإشارة إلى نقطة مهمة تخص الحالة الثقافية في المغرب الإسلامي أنه في الطاعون الجارف الذي أودى بحياة والد العلامة عبد الرحمن ابن خلدون، ومعظم مشيخته، وكان محمد الآبلي من القلائل الذين نجوا منه، فاستمر عبد الرحمن ابن خلدون في ملازمة مجلسه والاعتكاف على القراءة عليه مدة ثلاث سينين. ويعد هذا الاعتكاف بسبب الطاعون أهم الأسباب التي دعته إلى تأليف «ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"

فتعتبر المقدمة مؤلفا موسوعيا الطابع، وهي كتاب تفكير وجهد، وهي جزء من سبعة أجزاء، يتكون منها كتاب العبر، وهي عمل تركيبي قائم على تجميع عناصر التراث الإسلامي المختلفة في فترة فقد فيها كثيرا بريقه، واستيعاب تلك العناصر في أطرها التاريخية، ثم تمثلها على شكل نظريات عامة يمكن أن تفسر كيفية مسار المجتمع في حياته اليومية المعتادة عبر

الزمن، وبذلك يصبح التاريخ أبا للعلوم. فبعدما قام دسلان، الذي شهر منصب المترجم الرسمي للجيش الفرنسي بترجمة الأقسام الخاصة بتاريخ البربر من كتاب العبر إلى اللغة الفرنسية، كما ترجم الجزء الأول كذلك إلى نفس اللغة تحت عنوان: "مقدمات ابن خلدون"، وافق هذا التطور علم التاريخ وعلم الاجتماع، حيث أصبح التفكير التاريخي عقليا ماديا، بشكل لا يتوافق مع التفكير الديني (سعد زغلول، (1983م)، ص ص. 39-40).

في هذا الصدد يقول ابن خلدون : إلى ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثّامنة من الطّاعون الجارف، الّذي تحيّف الأمم وذهب بأهل الجيل، وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدّول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها، فقلّص من ظلالها وفلّ من حدّها، وأوهن من سلطانها وتداعت إلى التّلاشي والاضمحلال أموالها، وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر، فخربت الأمصار والمصانع، ودرست السّبل والمعالم، وخلت الدّيار والمنازل، وضعفت الدّول والقبائل، وتبدّل السّاكن وكأنّي بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبته ومقدار عمرانه، وكأنّما نادى لسان الكون في العالم بالخمول والانقباض، فبادر بالإجابة والله وارث الأرض ومن عليها، وإذا تبدّلت الأحوال جملة فكأنّما تبدّل الخلق من أصله وتحوّل العالم بأسره وكأنّه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث فاحتاج لهذا العهد من يدوّن أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها والعوائد والنّحل الّتي تبدّلت لأهلها، ويقفو مسلك المسعوديّ لعصره ليكون أصلا يقتدي به من يأتي من المؤرّخين من بعده، وأنا ذاكر في كتابي هذا ما أمكنني منه في هذا القطر المغربيّ إمّا صريحا أو مندرجا في أخباره وتلويحا لاختصاص قصدي في التّأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأممه وذكر ممالكه ودوله دون ما سواه من الأقطار لعدم اطّلاعي على أحوال المشرق (عبد الرحمن ابن خلدون، (2004م)، ص ص (42-43).).

خاتمة:

بعد التعرض لموضوع البحث الموسوم بـ "الطاعون الجارف وأثره على الحياة الفكرية في بلاد المغرب الإسلامي"، والإلمام بجميع جوانبه، ومحاولة حصر الأسباب التي سرعت في انتشاره بين مختلف حواضر المغرب والأندلس، وبيان تأثيره إيجابا أو سلبا على الساحة الثقافية بها، ووصف حالة الفتور التي أصابتها إثر استفحال هذا الوباء، وتأثيره غلى الطبقة المثقفة بها من أدباء وفقهاء وأطباء ومؤرخين، من حيث توجيه حركة التأليف إلى موضوع قضية العصر. وقد توصلنا إلى مجموعة من النتائج هي كالآتي:

- ✓ أن الطاعون الجارف وباء عام وفتاك أصاب جميع بلدان العالم، بما في ذلك مشرق العالم الإسلامي ومغربه، وأثر على مختلف جوانب الحياة فيه الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والمعيشية، وخلف أضرارا بشرية تقدر بين ربع وثلث سكان العالم الإسلامي، على حسب ما تداولته بعض المصادر التاريخية، رغم شح المعلومات التي تعطينا صورة دقيقة واضحة عن انتشار هذا الوباء بالمغرب الإسلامي.
- ✓ إن الاضطرابات السياسية التي شهدتها مختلف حواضر المغرب الإسلامي في منتصف المائة الثامنة الهجرية، وخاصة الحركة السريعة للجيوش المرينية بين فاس وتلمسان والقيروان لكبح جماح الذين شقوا عصى الطاعة على السلطان أبي الحسن المريني، فكتب التراجم والسير تعج بأسماء صدور علماء المغرب ومشيخته الذين أقبروا بالطاعون الجارف في واقعة القيروان سنة 749هـ .

✓ إن الحياة الثقافية والعلمية في بلاد المغرب الإسلامي شهدت ركوضا وجمادا كبيرا إثر ظهور هذا الوباء، فقلت مجالس العلم التي كان يرعاها السلاطين بدعمهم المادي والمعنوي، والتي كانت تقام في أكبر مساجد مدن المغرب والأندلس، بل انعدمت، واقتصر دور المساجد والكتاتيب والمدارس على تحفيظ القرآن الكريم، وتدريس بعض متون اللغة العربية، والفقه المالكي.

✓ إن توجه علماء بلاد المغرب الإسلامي للتأليف في مرض الطاعون، كان له أثره الإيجابي في توجيه سلوك الفرد للتصدي لهذا المرض، وقد اعتمدت عليها الدراسات اللاحقة في مجال الطب، وخاصة في مجال طرق انتقال العدوى، وسبل الوقاية من الطاعون كالعزل والحجر الصحي، وحرق الثياب والأغراض الموبوءة.

وفي الأخير يمكن القول بأن انعزال المؤرخ الكبير عبد الرحمن ابن خلدون، وملازمته دروس العالم محمد الأبلي، كان له أثره الإيجابي في تنظيم المادة العلمية الخاصة بالمؤلف الموسوعي "ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، الذي ساهم الجزء الأول منه (المقدمة) في تطور علمي التاريخ والاجتماع.

قائمة المراجع:

1) أحمد بابا التنبكتي، (2011م)، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ط01.، دار الأبحاث للترجمة والنشر، الجزائر.
2) أحمد تقي الدين المقريزي، (1997م)، السلوك لمعرفة دولة الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ج04، ط04، دار الكتب العلمية، بيروت.
3) أحمد ابن حجر العسقلاني، (دت)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ج03، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
4) أحمد ابن حجر العسقلاني، (1379ه)، الفتح الباري في شرح صحيح البخاري، تصحيح: محب الدين الخطيب، ج01، دار المعرفة بيروت.
5) أحمد بن الحسن ابن الخطيب المشهور بابن القنفذ القسنطيني،(1983م)، الوفيات، تحقيق: عادل نويهض، ط04.، دار الأفاق الجديدة، بيروت.
6) أحمد بن علي ابن خاتمة، (1013ه)، تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد، تحقيق: محمد حسن، بيت الحكمة، قرطاج.
7) أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، (1979م)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، ج03. دار الفكر، بيروت.
8) أحمد القاضي المكناسي، (1973م)، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس، ج01، دار التراث، القاهرة.
9) أحمد المقري التلمساني، (1939م)، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق: مصطفي السقا وإبراهيم الأبياري وعبد العظيم شلبي، ج03، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة.
10) إسماعيل ابن علي أبو الفداء، (1999م)، المختصر في تاريخ البشر، ج04، دار المعارف، القاهرة.
11) جوزيف بيرن، سنة (2014م)، الموت الأسود، ترجمة: عمر سعيد الأيوبي، ط01، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي.
12) حسن مؤنس، سنة(1986م)، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ط02، مكتبة مديولي، القاهرة.

13) الحسن ابن الوزان، (1983م)، وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حاجي ومحمد الأخضر، ط02، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

14) خير الدين بن محمود الزركلي، (2002م)، الأعلام، ج07، ط05، دار الملايين، بيروت.

15) سعد زغلول، (م1983)، "ابن خلدون مؤرخا في تاريخ العرب والبربر في كتاب العبر"، مجلة قراءات جديدة في كتابات قديمة، ج 14، العدد02

16) سوزان سكوت وكريستوفر دمكان، (2014م)، عودة الموت الأسود أخطر قاتل على مر العصور، ترجمة: فايقة جرجس حنا، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة.

17) شلدون واتس، (2010م)، الأوبئة والتاريخ المرض والقوة الامبريالية، ترجمة وتقديم: محمد محمود عبد الجواد، المركز القومي للترجمة، القاهرة.

18) عبد الرحمن ابن خلدون، (1988م)، تاريخ ابن خلدون، تحقيق خليل شحادة، ط02، دار الفكر، بيروت،

19) عبد الرحمن ابن خلدون، (2009م)، رحلة ابن خلدون، تحقيق: محمد بن تاوريت الطنجي، ط02، دار الكتب العلمية، بيروت.

20) عبد الرحمن ابن خلدون، (2004م)، مقدمة ابن خلدون، تحقيق وتعليق: عبد الله محمد الدرويش، ج01، ط01، دار يعرب، دمشق.

21) علي ابن إسماعيل بن سيده المرسي، (2000م)، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ج01، دار الكتب العلمية بيروت.

22) محمد أشرف العظيم أبادي، (1415ه)، عون المعبود في شرح سنن أبي داوود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داوود وإيضاح علله ومستذلاته، ج08، ط02، دار الكتب العلمية، بيروت.

23) محمد ابن بطوطة، (1417ه) .، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج01، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط.

24) محمد بن الحسن الأزدي، (1987م)، جمهرة اللغة، تحقيق: روزي منير بعلبكي، ج02، دار الملايين، بيروت.

25) محمد بن الخطيب السلماني الغرناطي، (1424ه)، الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية، بيروت.

26) محمد بن الخطيب السلماني الغرناطي، (2018م)، مقالة مقنعة السائل عن المرض الهائل، تحقيق وتقديم حياة قارة، ط01، دار الكرامة، الرباط.

27) محمد ابن منظور، (1414ه)، لسان العرب، ج13، ط03، دار صادر، بيروت.

28) محي الدين ابن شرف النووي، (1312ه)، المنهاج في شرح صحيح مسلم ابن الحجاج، ج01، ط02، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

29) وفاء بنت عبد الله سليمان المزروع، (دت)، إسهام الرحالة المجاورين الأندلسيين على الحياة العلمية بمكة، دط، دن

المجاعة وانتشار الأمراض: معالم المأساة الإنسانية بالجزائر 1866-1868م من خلال الكتابات الأجنبية

Famine and the spread of diseases: the human tragedy in Algeria 1866-1868 AD through foreign writings

د. كبداني فؤاد/جامعة سعيدة/ الجزائر
Dr.Kabdani Fouad / University of Saiida /Algeria
د.قدوري عبد الرحمن/جامعة سعيدة/ الجزائر
Dr.Kaddouri Abd-Erahmen /University of Saiida /Algeria

الملخص:

نحاول في هذه الدراسة إبراز حقائق ومعطيات تاريخية مختلفة عن المأساة الانسانية الجزائرية ما بين 1866 و1868م، بهدف الوقوف على حجم الكارثة التي ضربت الجزائر بقوة، والتي أبانت عن ترابط عدة عوامل خلفت عدداً كبيراً من الضحايا مقارنة مع عدد الساكنة آنذاك، وهذا ما يبدو جليا من خلال العديد من الكتابات الأجنبية في حينها والّتي امتدّت إلى يومنا هذا.

من خلال هذه الكتابات بدا جليا حجم مآسي هذا الشعب المضطهد، من خلال السياسة الإستدمارية الفرنسية التي اعتمدت على القتل والسلب والنهب واستغلال الفقر والضعف من جهة، ومن جهة أخرى المجاعة والأمراض التي أتت على الآلاف من الجزائريين تلك السنوات والتي رسمت لوحة مرعبة عن الوضع في الجزائر.

الكلمات المفتاحية: المأساة الإنسانية، المجاعة، الأمراض، الكتابات الغربية، السياسة الاستعمارية.

Abstract:

The theme highlights facts and historical data about the Algerian human tragedy in the years 1866-1867-1868 AD, whose objective is to place itself on the scale of the disaster that hit hard and that showed the interdependence of several factors that left victims in great numbers, and this is evidenced by the many foreign writings of the time that have extended to the present day. Through these writings, the scale of the tragedies of this oppressed people became clear, through French colonial policy that was based on slaughter, looting, exploitation of poverty, weakness on the one hand, On the other hand, the hunger and diseases that afflicted thousands of Algerians in those years, which painted a terrifying picture of the situation in Algeria.

Keywords: Human tragedy, famine, disease, western writings, colonial politics.

مقدمة:

شكلت الدراسات الأجنبية رافداً مهماً للباحثين والدارسين لتاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، حيث نجد من ضمنها الكثير من المذكرات والتقارير والمراسلات التي تحوي وصفاً دقيقاً للوضع الداخلي، وكثيراً ما كانت تتضمن إحصائيات وأرقام تصف الكوارث والمجاعات التي ألمت بالبلاد.

وقد كتبت العديد من التقارير والمراسلات عن المأساة الشديدة التي ضربت الجزائر ما بين 1866 و1868م نتيجة لعوامل كثيرة ومترابطة، ومنها الكتابات الإسبانية، والفرنسية والإنجليزية، حيث اهتمت بنقل صورة عن وضعية العمالة الأجنبية بالجزائر، ووضع المعمرين بها، وتأثير الجائحة على سكان الجزائر، ومن هنا نطرح التساؤلات التالية: بم اتّسمت الكتابات الغربية والتقارير الصحفية حول هذه الوضعية الانسانية؟ وهل كانت موضوعية في تناولها للأحداث؟، وهل عالجت النتائج بمهنية بحيث جعلت من محور الاستعمار الفرنسي للجزائر ومعاناة شعب بأكمله محورها الأساسيّ؟ أم افتقدت لهذا العنصر وركزت على عناصر أخرى؟، وكيف ساعدت هذه الكتابات في فتح آفاق جديدة لفهم الواقع آنذاك؟

1.أسباب الكارثة الإنسانية خلال القرن 19م:

تعددت أسباب هذه الكارثة، ما بين العوامل الطبيعية المتمثلة أساساً في الجفاف، والجراد، والزلازل، والعوامل البشرية المرتبطة بتزايد الهجرة إلى الجزائر على حساب السكان المسلمين بها، والعوامل السياسية حيث مارست فرنسا أبشع أنواع التنكيل والظلم على الشعب الجزائري.

تميز الاحتلال الفرنسي بطبيعته الاستيطانية، حيث عمد إلى مصادرة الأراضي وطرد أصحابها، بهدف تفقيرهم وإضعاف قدراتهم المادية والاقتصادية، ومن جهة أخرى تشجيع الهجرة الأوروبية إلى الجزائر، حيث بلغ عدد الأوروبيين عام 1841م الوافدين إلى الجزائر 37 ألفاً، ثم ارتفع إلى أكثر من 100 ألف عام 1845م، ولم يكن هؤلاء من فرنسا فقط وإنما من بلدان عدة مثل اسبانيا، إيطاليا، مالطا، وكذلك من كورسيكا ومقاطعة بروفانس، حيث لم يتجاوز الوافدون من أصل فرنسي 20 % حتى عام 1912 (عيسوي، 1985، صفحة 158)

استوطن حوالي 80 % من المهاجرين الأوربيين في المدن، بالرغم من المحاولات المتعددة من الاحتلال لتشجيعهم على الاستقرار في الأرياف، ومع ذلك فقد وجدت 25 ألف مزرعة أوروبية، أغلبها واسعة المساحة تمثل 40 % من الأراضي الزراعية الخاصة، ونتيجة لذلك انخفض انتاج الحبوب الأساسية عن الجزائريين، كما انخفضت أعداد الماشية، وتدهورت الصناعات الحرفية، وزاد الوضع سوءاً مع توجه الإدارة الفرنسية للمحاصيل التجارية على حساب معيشة السكان، حيث بلغت مساحة المناطق المزروعة بالكروم لإنتاج النبيذ سنة 1868م أكثر من 18 ألف هكتار، وبلغ إنتاج الخمور حوالي 338 ألف هكتولتر، حيث كانت الأرباح تبلغ 06 أضعاف قيمتها في حالة القمح، وكذلك بالنسبة للقطن والتبغ. (عيسوي، 1985، صفحة 236).

إضافة لما سبق، فقد تعرضت الجزائر خلال عقد الستينات (1860-1870)، لموجه جفاف واسعة، وقع الجفاف الأول منها بداية السنة الفلاحية 1860-1861 وامتدت آثاره في بعض النواحي مثل سطيف وتنس ومعسكر، ووقع الجفاف الثاني منها في السنتين الفلاحيتين ما بين 1865 و1867م، حيث شمل مساحات أكبر ومناطق أوسع، مما جعل تأثيره أشد. (صاري، 2008، صفحة 204).

كما تعرضت الجزائر لموجات مستمرة من الجراد، طيلة النصف الثاني من القرن 19م، وازداد خطره طيلة العقد 1860-1870، حيث كان يأتي كل سنة، وكان يأكل المراعي ويفسد محاصيل القمح والشعير، ويتلف الحدائق والبساتين.

يعتبر هجوم الجراد لعام 1868م سيئاً جداً، حيث أدى في مقاطعة وهران إلى اتلاف 34061 هكتار من الحبوب والبقوليات، والزراعات العلفية والنبتات الصناعية، وبلغت قيمة الخسائر 3.3 مليون فرنك للمعمرين والجزائريين، وبلغت في المقاطعة الشرقية 2.4 مليون فرنك، بينما بلغت 13.9 مليون فرنك في مقاطعة الجزائر. (صاري، 2008، صفحة 227).

كما ظهرت في الجزائر أوبئة مدمرة، خاصة في ظروف المجاعة، وبعد موجات الجراد السنوية، حيث ظهر وباء الكوليرا والتيفوس نتيجة لسوء التغذية، وأدى كلا الوباءين إلى هلاك 200 ألف شخص سنة 1868م، حيث تمثل نسبة الوفيات بسبب الكوليرا 12 % من مجموع وفيات الكوارث كلها، وكان مصدر هذه الأوبئة هي المناطق الساحلية حيث ينقل الوافدون من الموانئ الفرنسية العدوى، وكانت المستشفيات والثكنات والسجون مراكز انتشار الوباء. (صاري، 2008، صفحة 191).

وعموماً فقد اجتمعت كل العوامل السالفة الذكر، من جفاف وجراد وأوبئة، وسياسات جائرة للمحتل الفرنسي إلى وقوع كارثة ديمغرافية بلغ مجموع الضحايا فيها عبر التراب الجزائري إلى 820 ألف ضحية، وهو ما يعادل 32.3 % وهو الحد الأدنى حيث إن الأرقام تصل إلى مليون ضحية.

2.الرؤية الأجنبية لمأساة الجزائر ما بين 1866-1868:

تعرضت الأمة الجزائرية لأبشع أنواع الاحتلال عبر التاريخ، ألا وهو الاستعمار الفرنسي، حيث طبق أسوأ قوانينه اللاإنسانية على الشعب الجزائري، وتركزت سياسته التدميرية في القتل والنهب والسلب واستغلال الفقر من جهة، والأمراض والمجاعة من جهة أخرى، وبشكل خاص خلال المأساة الإنسانية ما بين 1866 و1868م.

نقلت لنا المصادر المحلية والأجنبية، صورة مرعبة عن تداعيات هذه الأزمة على المجتمع الجزائري، نتيجة الفقر المدقع، والوباء المعدي، والجوع الشديد، ومما زاد من سوء الأوضاع هو غضب الطبيعة حيث ظهر الجفاف وشح المياه، وهجمات الجراد حيث أتى على المحاصيل على قلتها (Künckel, 1893)، لتزيد الهزات الأرضية الوضع سوءا، فكان المشهد الختامي مخيفا ومرعبا، كما حصدت الكوليرا الأرواح، وقضى التيفوس و التيفويد على الآلاف بلا رحمة (Medecins, 1874)، هذا كله أمام استغلال لا إنساني للوضع من طرف إدارة المستعمر الفاشلة أصلا في تسيير شؤونها الداخلية.

كانت الكارثة عظيمة، لدرجة أنها دفعت بالكتاب قديما وحديثاً، لوصف تلك الأوقات العصيبة بأشكال مخيفة ومرعبة، تعكس درجة الهول الذي أصاب الأمة المعرضة أصلاً لتداعيات الاحتلال الفرنسي، حيث سميت بالسنوات العجاف، السنوات السوداء، سنوات البلاء، المأساة، مسلسل المجاعة، التراجيديا.... الخ، مما يعكس حجم الخسائر، وعدد الضحايا، والنتائج الاجتماعية والاقتصادية والنفسية الكارثية.

فعلا لقد عرفت الجزائر خلال هذه الفترة أزمات اقتصادية واجتماعيّة عويصة ومتتالية تسبّبت في وضع متميّز تمخض عنه تغيرات شملت القطاعات الاجتماعيّة والاقتصاديّة، فقد كانت الجزائر بالفعل تعيش مخاضا اجتماعيا

واقتصاديا، أثر على كل مناحي الحياة، فرضت على المواطن الجزائري البسيط ظروف جديدة(Effros, 2018) ، فعن الوضع الاقتصادي الكولونيالي المتدهور، نجد أنه كان في حاجة إلى مزيد من التّموين، حيث كانت الآثار وخيمة، خاصة على النظام الضّريبي المتدهور، فقد تم تعويضه بنظام ضريبي قاس تحملته جيوب الفقراء الجزائريين، أمّا من الجانب الاجتماعي، فقد عانت الجزائر من الجوع، الأمراض، الأميّة، الفقر، الكوارث الطبيعية، الجفاف و غزو الجراد، مما أدى إلى ظاهرة الهجرة أو النزوح الديمغرافي التي عرفها الشّعب الجزائري تجاه المدن و محيط الساكنة الأوربية و بلدان أخرى (Daughton.., 2012).

لقد كتب الغرب عن المأساة بدوافع مختلفة، فنجد منهم الأطباء، ورجال الدين، وهناك من كانت دوافعه اقتصادية بحتة، وآخر من باب التأريخ، وآخر من باب إبراز الضعف الفرنسي، وآخر من باب الدفاع عن المشروع الكولونيالي الفرنسي.....الخ، ومن هذه الأعمال و الكتابات نذكر على سبيل المثال لا الحصر ما كتبه الطبيب بيار دارمون (Pierre Darmon, 2009) والطبيب برتران Bertrand، كما نجد العديد من المؤرخين المعاصرين الذين ركزوا على المأساة بالجزائر، و منهم المؤرخ الفرنسي تيث برتران Bertrand tithe، آلان سانت ماري Alan St. Mary's، كسافيي دي مونتكلو Xavier de monteclos، ليورا آوسلاندر Leora Oslaide ، دون إغفال ما كتبه المؤرخ الإسباني خوان باوتيستا فيلار Juan Bautista Villar...الخ.

لقد تطرقت أغلب الكتابات لمحاور ثابتة حول الكارثة الإنسانية، ولم يغفل الكتاب إلقاء تلك النظرة العامة حول الأوضاع الجزائرية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كذلك الوقوف على ظروف الحياة المزرية للجزائريين، وكان من أبرز مؤشراتها وملامحها، ارتفاع قياسي للبطالة، تفش للأمراض، انتشار الفقر، استفحال المجاعة، والزحف نحو المدن بحثا عن الرغيف.

وبالمقابل بدا جليا فشل السلطة الاستدمارية في التعامل مع الوضع، وكان جل اهتمامها منصب حول التحكم في المحاصيل الزراعية على قلتها، ومنع انتشار الصدى الدولي للكارثة، وعموما يمكن حصر أهم الأفكار التي وردت في الكتابات الأجنبية في النقاط التالية:

- ✓ تطرقت هذه الكتابات الى السلسلة المتواصلة للكوارث الطبيعية، التي تسببت في العدد الهائل من الوفيات، وهنا يمكن أن نذكر على سبيل المثال ما كتبه آبي بورزات، عضو الجمعية العلمية الفرنسية، وقسيس بلدة الشبلي بالعاصمة - Bellarmin-Vincent Burzet – في كتابه تاريخ كوارث الجزائر 1866م، 1867م، 1869م، والذي اختص بالذكر المجاعة، الأوبئة وخاصة الكوليرا، غزو الجراد والزلازل(Abbé, 1869) حيث أدت هذه الكوارث إلى سقوط أعداد هائلة من الضحايا (Sainte-Marie, 1971).
- ✓ تحدثت الكتابات الأجنبية عما عكسته المأساة، أو ما اصطلح عليها كثيرا بالمجاعة، عن التناقض الصارخ بين ادعاءات القوة الاستعمارية بتنفيذها للمشاريع الكبرى بالجزائر، وتحكمها في الوضع من جهة، من جهة أخرى كان الفشل الذريع في احتواء معاناة الجزائريين والعمالة الأجنبية(Taithe, 2010) ، وقد تزامن ذلك مع البدايات القوية لظهور الصحافة المكتوبة من الجرائد والمجلات، مما سمح بتقديم صورة واضحة عن المأساة من خلال التقارير الصحفية الواردة من الجزائر(Charon, 2004) .

- ✓ محاولة إبراز الدور الإيجابي للقساوسة، ورجال الدين، من خلال التعريف بالمأساة الجزائرية، ومحاولة جلب الاهتمام الدولي لمساعدة سكان الجزائر في محنتهم، وهنا جاء كثيرا الدور على ذكر القسيس لافيجريLavigerie، الذي يقر بصعوبة ومشقة المهمة في إفريقيا عامة والجزائر خاصة، وبالتالي يجب تقديم المزيد من التضحيات من طرف فرنسا لرفع البلاء و المعاناة (Ceillier, 2008).
- ✓ تم التركيز على التغيرات الديموغرافية التي أفرزتها المأساة، كما تم التطرق لمشاكل العمالة الأوروبية، وكان الوصف دقيقاً لهذا الوضع المأساوي، بحيث يعكس طبيعة التغيرات الاجتماعية كنتيجة للوفيات والنزوح هربا، فقد وصف بوسو Poussou وزملاؤه ما وقع على لسان وشهادة أبي بورزيت، حيث يقر بأن الأهالي هم من دفعوا الثمن باهضاً، ويكفي أن تمر بالطرقات والحفر لتدرك حجم الكارثة. (Jean-Pierre Poussou, 2007).
- ✓ حاولت الكتابات المعاصرة، تعليل المأساة أساسا بغضب الطبيعة، وصرفها عن اليد الاستدمارية (Michael, 2014)، و بالتالي يمكن أن تكون أزمة ديموغرافية، ومأساة ناجمة عن كوارث طبيعية، لكن ليست بالضرورة جريمة استعمارية، فالقضية تتمثل في أحداث طبيعية أحيانا كانت محصورة في مناطق محدودة لتتوسع إلى أماكن أوسع، و لا يمكن أن نطلق اسم أزمة إلا سنة 1867 بوصول وباء الكوليرا الفتاك، ضف إلى ذلك غزو الجراد و المواسم الصيفية العجاف، وشح السماء في الشتاء، هذا كله تسبب في ظاهرة النزوح، و هو ما غير من الخريطة الديمغرافية.
- ✓ ورغم عدم توفر الأرشيف الميتورولوجي الذي بدأ سنة 1880م، إلا أن وصف الجفاف كان دالا على هول الكارثة الطبيعية (Vilar، La coyuntura argelina de 1866, a través de un informe confidencial español، 1982). (Locher, 2006)

3.الاهتمام الاسباني بالوضع الداخلي للجزائر:

للوقوف على حجم المعاناة، ارتأينا أن نقف على ما جاءت به بعض المصادر الإسبانية خصيصا، وهنا نذكر ما ورد في الوثائق التي تطرق لها لأول مرة المؤرخ الإسباني خوان باوتيستا فيلار، والتي تمثلت في مذكرة مهمة أرسلها معمر إسباني مقيم بعمالة وهران، اسمه خواكين بيريس Pérez Joaquín عام 1866م، حيث كان مهتما بالشأن العام بالجزائر، وكل ما يتعلق بإسبانيا، وبشكل خاص العمالة الإسبانية.

راسل خواكين السلطات الإسبانية بتقرير مكون من أربعة عشرة صفحة، سلط فيه الضوء على المنطقة؛ وظهر في كتاب بعنوان: La coyuntura argelina de 1866, a través de un informe confidencial español، الوضع الجزائري لعام 1866، من خلال تقرير إسباني سري (Vilar, La coyuntura argelina de 1866, a través de un informe confidencial español, 1982)، للمؤرخ الإسباني خوان باوتيستا فيلار حيث يشرح فيه أوضاع الجزائر خلال هذه الفترة، من خلال أهم المعطيات التي جاءت من أرض الواقع، فكانت وافية لتفسر درجة مأساوية الوضع في الجزائر (Peréz, 1866).

من جهة أخرى، نجد مصدراً إسبانياً مهماً لمعرفة حقيقة الوضع، وهو جريدة لاغازيتا دي مدريدLa gazeta de Madrid التي كانت تصدر في نفس الفترة، حيث اهتمت بالشأن الجزائري، وواكبت الأحداث واهتمت كثيرا بالمصالح

الاقتصادية والسياسية لإسبانيا داخليا وخارجيا، وتطرقها لقضية الجزائر كان أمراً طبيعيا، باعتبار أن الجزائر كانت تعتبر من المواقع الاستراتيجية الهامة، للتخفيف من حدة الأزمات الداخلية لإسبانيا.(Madrid, 1868) .

كما لا يمكننا تجاوز المعلومات التي يمكن استقاؤها من جريدة صوت وهران La Voz de Orán، وغيرها من الصحف والجرائد التي كانت تصدر خلال هذه الفترة، حيث سيجعلنا ذلك نقف على الوضع الكارثي بالجزائر.

يمكن تفسير هذا الاهتمام الإسباني بالشأن الجزائري، إلى حجم الارتباط المنفعي بين إسبانيا والجزائر المحتلة، من خلال تواجد العمالة الإسبانية، فمعلوم أن الأزمة الاقتصادية آنذاك كانت ذات بعد دولي، فالعديد من الدول الأوربية عانت وضعا اقتصادياً حرجاً خاصة إسبانيا، فلقد عانت المدن الجنوبية للبلاد بشكل بارز من تبعات هذه الأزمات، ولعلّ من أبرز مظاهر ذلك، تلك النسب العالية للبطالة التي مسّت الشّريحة العريضة للفئات العاملة (José Luis García Delgado, 1996).

جعلت معاناة الإسبان، من الهجرة الحلّ الوحيد والبديل العاجل للعمّال الإسبان، وكانت الجزائر الوجهة القريبة وغير المكلفة، ومن مزاياها أنّها كانت تستقبل أسرا وعائلات بأكملها.(Peña, 2011) ، وعليه عملت الحكومات الإسبانية المتتالية على تشجيع ودعم هجرة العمالة الإسبانية، خاصة الجنوبية منها إلى الجزائر المستعمرة (López, 2003) .

توالت موجات المهاجرين الاسبان بشكل كبير (Villar, Los españoles de la Argelia francesa, 1830-1914, 1989)، وكانت أكبر النّسب من اسبانيا الجنوبية باتجاه وهران، وتمكنت هذه العمالة رغم الظروف الصعبة في البداية من التوسع خاصة في مجال جمع الحلفاء، ولم يكن الأمر سهلا، فعند وصول العمال الاسبان كان عليهم مواجهة ظروف صعبة وغير ملائمة في البداية، خاصة مع ملازمة عائلاتهم من أطفال و نساء لهم، ففرنسا المستعمرة لم توفّر لهم أدنى شروط الحياة الكريمة ولم توفر لهم أي حماية تذكر، مما اعتبرته المصادر الإسبانية مأساة إنسانية (López, 2003, P.p. 107-108).

4.تحليل الرؤية الاسبانية لمأساة الجزائر:

تعتبر الفترة الممتدة من 1860م إلى 1870م، مرحلة تحرير النظام الاقتصادي الفرنسي، تماشيا مع المشروع النهضوي الفرنسي بامتداداته العالمية (Villar, Los españoles de la Argelia francesa, 1830-1914, 1989, pp. 102-103)، و هنا يبرز تفضيل واضح لمشاريع السكك الحديدية والمناجم وزراعة التصدير، وهي التي تعتبر قطاعات ربحية فورية، و هذا ما كان على حساب النمو الاقتصادي الداخلي المباشر، والذي يعود بالفائدة على ساكنة الجزائر، وخاصة السكان المحليين (Vilar, La coyuntura argelina de 1866, a través de un informe confidencial español, 1982)

هذا الوضع الذي تميز بعدم توازن الاستثمارات الاستعمارية في الجزائر، ومحدودية الموارد المالية للمستعمرة؛ وظاهرة التمييز ضد غالبية السكان المسلمين فيما يتعلق بتوزيع الفوائد المتأتية من النشاط الاقتصادي، مما كان له الانعكاس السلبي الواضح على السكان، وزاد من حدة المأساة التي أتت على المنطقة (Villar, Los españoles de la Argelia francesa, 1830-1914, 1989).

وفي مقابل هذا، لم توجد أي محاولة جادة من طرف الفرنسيين، لدمج المستعمرة الجزائرية في العملية الاقتصادية العالمية، التي كان المرجو منها النهوض الصناعي والاقتصادي، والتي كان من المفروض أنها تشمل الجميع،

ولكن يبدو أنها كانت مخصصة حصريًا لفرنسا بشكل أناني، والدمج اقتصر على استخدام القوة العسكرية في اخضاع السكان (Michael، 2014، الصفحات 119-159)، ولهذا دلالة واضحة على الريب والشك وعدم وضوح الرؤية لدى الساسة الفرنسيين، وعدم تمكنهم آنذاك من الفصل النهائي في قضية الجزائر.

ومن خلال هذه المصادر، يتأكد أن هذه الفترة عرفت بروز الغاية الاستعمارية لفرنسا، وتجلت في اكتساب البلاد لطبيعتها الاستعمارية المحضة، أي أن الجزائر تشكل مستعمرة للاستغلال في كل شيء خدمة للمشاريع و الأهداف الفرنسية، إذ أنها بالكاد ستجذب مهاجرين مما يصطلح عليهم بالحضريين الأوربيين، وهذا لتعويض نقص السكان الفرنسيين، ولقد اتسمت الهجرة نحو الجزائر بالعفوية، وأغلب القادمين إليها كانوا من أصل متوسطي، وهنا نذكر بشكل خاص الإسبان والإيطاليين والمالطيين (Villar, Emigración española a Argelia: 1830-1900 ; colonización hispánica de la Argelia francesa, 1975)، وهكذا ستختفي أخيرًا أسطورة الجزائر كقوة متوسطية، لتتحول إلى مستعمرة استيطانية، يمكن من خلال مزاياها أن تعوض مكانة كندا بحد ذاتها، وتكون أكثر إفادةً اقتصادياً، نظراً لحجم الخيرات و الموقع الاستراتيجي.

كذلك بدا جليا، الاستيعاب غير الناجح للسكان الأصليين، أي الجزائريين، والذين سيتحولون لفئة مقهورة، دورها أن تكون أداة استغلال بامتياز، وهذا يعود بالدرجة الأولى للرؤية الضيقة السائدة آنذاك، والتي تحكمت فيها كما يبدو الخلفية التاريخية للجزائر كقوة إسلامية، اجتمعت عليها الظروف وكتب لها أن تنكسر، وتتحول من قوة سياسية وعسكرية، ترهب القوى الغربية لمستعمرة أوروبية معرضة لأسوء السياسات رغبة في الانتقام. (Vilar, La coyuntura argelina de 1866, a través de un informe confidencial español, 1982).

كانت هناك العديد من المظاهر، التي تعكس وجود سياسة استعمارية، شعارها محاربة كل ما يرمز للشعب الجزائري وكرامته، ولعل تحكم القلة الأوروبية في الأغلبية الجزائرية يعكس ذلك بوضوح، حيث ورد في المصدر الإسباني (argelina) إحصائيات تعود لسنة 1857م، تضمنت تمكن 106000 أوروبي من تشغيل أكثر من 2.300000 جزائري، في ظروف قاسية وغير إنسانية، تعكس درجة الحقد الفرنسي للشعب الجزائري.

وكشفت السياسة الاقتصادية الفرنسية بالجزائر عن مشروع فرنسي ضخم، يتمثل في محاولة فرنسا جعل الجزائر المخزون الخلفي للحبوب لصالح أوروبا، بهدف ضمان أمنها الغذائي، دون أدنى مراعاة لحقوق الساكنة المحلية، مما سيؤثر على الجزائريين بشكل كبير، خاصة مع التغيرات المناخية وما سببه الجفاف من انحصار في المحاصيل الزراعية وخاصة الحبوب، حيث ستقع الكارثة على الجزائريين الذين ضحت بهم فرنسا من أجل تلبية الطلب في الضفة الشمالية، وهذا ما تفسره السياسة التجارية الفرنسية (Tara, 2018).

ورغم الانخفاض الرهيب في مستوى مخزونات الحبوب، حيث وصلت إلى أدنى مستوياتها، إلا أن فرنسا قررت أن تفي بالتزاماتها مع الدول الأوروبية الأخرى، وفضلت تموينهم على حساب الساكنة المحلية، حيث ذكرت جريدة لاغازيتا دي مدريد إحصائيات عن الحركة التجارية للسفن البحرية، تدخل الموانئ الجزائرية لتعود محملة مما سرق ونهب من طرف الفرنسيين، رغم الجوع الذي أتى على الأرواح من سكان الجزائر. (Madrid, 1868).

تعود المصادر إلى جذور الأزمة الزراعية في الجزائر، حيث بلغت ذروتها في عام 1866م، وقد بدأت قبل ذلك بخمس سنوات، في صيف عام 1861م، عندماً ضرب الجفاف القاتل بقوة، مسبباً شللاً شبه تام، وكانت المحاصيل

كارثية(Madrid, 1868) ، فانهيار النشاط الزراعي رفع مستويات البطالة إلى مستويات قياسية، ووقع انسداد في أفق بلد ريفي يعتمد على الفلاحة بشكل رئيسي، وتتحدث المصادر عن هذا الوضع واصفة إياه بالكارثي، لدرجة أنه كان لابد للفرنسيين من منع دخول العمال الأجانب وعائلاتهم للجزائر.

وهنا مثلا ومن خلال المصدرين الإسبانيين، نجد أن ممثل إسبانيا في وهران لفت انتباه حكومته بمدريد لهذه الوضعية الكارثية، وبالتالي عدم إرسال عمالة إسبانية جديدة، لأنها في آخر المطاف لن تفيد بلدها، ولن تعيل أسرها بقدر ما سينالها نصيبها من الفقر والجوع والأمراض.

ولقد لخص هذه الحالة حاكم وهران، وهو يصرح لجريدة صوت وهران واصفا المأساة بالعظيمة، والتي أرهقت الحكومة الفرنسية والساكنة على السواء، ونعتها بأكبر مأساة عرفتها المنطقة خلال تلك الفترة، كما وصف العمال آنذاك بالبائسين. (Vilar, La coyuntura argelina de 1866, a través de un informe confidencial español, 1982).

يصف باوتيستا الحالة الكارثية للجزائريين، حيث كانت أرواحهم ثمناً للمأساة وبصورة دراماتيكية، بعد أن عانوا طيلة عقود من الحملات العسكرية الفرنسية، مما اضطرهم إلى الهجرة والهرب إلى المغرب وتونس والصحراء، خوفاً من القمع والتنكيل، ثم زاد من معاناتهم الجوع والأوبئة المحلية(Morache, 1873) ، فقد جعلت هذه الأمراض المعدية، من الموت ظلاً للسكان لا يفارقهم، ويصف ذلك بالموت التراكمي، ويأتي على ذكر عودة وباء الكوليرا الذي لا يرحم، حيث تسبب في دمار رهيب للسكان الذين قوضهم بالفعل سوء التغذية والمرض (Vilar, La coyuntura argelina de 1866, a través de un informe confidencial español, 1982).

لقد تكالبت الطبيعة والأمراض على الجزائر، فبين عامي 1858م و1867م، كانت شبه المحاصيل كارثية، فنجد تسعة من كل عشرة محاصيل سيئة ورديئة، وهذا له دلالة على كارثة إنسانية بمعنى الكلمة، إنها المجاعة والأوبئة (Ranse، 1877)، وهذا ما يعكس هول تلك الأرقام، فمن المعلوم أن عدد السكان المسلمين في الجزائر انخفض بين عامي 1861م و1866م من 2732851 نسمة إلى 2652.072 نسمة، بخسارة تقدر ب: 80779، بينما زاد الأوروبيون - بمن فيهم اليهود - بـ 35000 مقابل تعداد أقل من 300000 فرد، وهنا الأرقام تتحدث عن ذاتها ودلالاتها كارثية تعكس حجم المأساة، خصوصا أنه في السنوات اللاحقة 1867م و1868م ستشتد الأزمة (Vilar, La coyuntura argelina de 1866, a través de un informe confidencial español, 1982).

كما كان للأزمة بعد دولي، فمعلوم أن العديد من الدول الأوربية عاشت أزمات اقتصادية حادة، تسببت في اضطراب الوضع الداخلي للعديد من الكيانات، ومنها ما انتهي بثورات ضد الأنظمة الفاشلة في حفظ مصالح رعيتها، مثل ما حصل في إسبانيا وفرنسا مثلا، كما أن الأزمة ضربت دولا أخرى كإيرلندا، إلا أن الفرنسيين حاولوا التعتيم على حجم الكارثة في الجزائر، خوفا من استغلال بعض القوى الاستعمارية الأخرى الظرف، وبالتالي يمكن أن تتشتت مستعمرة الجزائر بين مصالح الدول الأخرى.

تقر المصادر باختلالات كبيرة وعميقة في الجزائر، فالخلل الفرنسي في تسيير المأساة وفشله في مواجهة الوضع، تسبب في أزمة اقتصادية حادة، كان وقودها انهيار المنظومة الزراعية، العمود الفقري للحياة الاقتصادية بالجزائر، والتي تسببت في تشكيل خارطة ديموغرافية جديدة، من خلال ظاهرة نزوح السكان بكثافة نحو المدن والدول المجاورة،

وهذا ما سيعطيها ارتباطا وثيقا بالأزمة الدولية الذي هزت العديد من الدول كما تمت الإشارة إليه، خاصة ما بين سنتي 1866م و1867م(argelina). (Taithe, 2010) .

خاتمة:

حاولت هذه الدراسة، البحث في حجم الكارثة الإنسانية التي ألمت بالشعب الجزائري ما بين 1866 و1868م، من خلال الكتابات الأجنبية وبشكل خاص المصادر الاسبانية، حيث نجد منها العديد من الصحف والمجلات التي بدأت تصدر خلال هذه الفترة، مثل جريدة لاغازيتا دي مدريدLa gazeta de Madrid ، وبعض المراسلات لمعمرين إسبان ومنهم خواكين بيريس Joaquín Pérez Pérez،حيث تطرق أغلبها لمحاور ثابتة حول هذه الكارثة، فأعطت لمحة عامة عن الأوضاع بالجزائر خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ووقفت على ظروف الحياة المزرية للجزائريين، وكان من أبرز مؤشراتها، ارتفاع قياسي للبطالة، تفش للأمراض، انتشار الفقر، استفحال المجاعة، والزحف نحو المدن بحثا عن الطعام.

لقد كتب الاسبان عن الكارثة، بحكم النسب العالية من المهاجرين الاسبان إلى الجزائر حيث كانت وجهة قريبة وغير مكلفة، وكانت كتاباتهم بدافع البحث عن أسباب تراجع الإمدادات من الحبوب لإسبانيا وأوروبا خلال سنوات الكارثة، والبحث في الظروف الاجتماعية والمادية للإسبان المقيمين بالجزائر، حيث كانوا يعملون في مزارع الكروم ومعامل السكك الحديدية، وقد انتقل الكثير منهم بعائلاتهم إلى الجزائر بشكل كامل.

لقد نقلت المصادر الاسبانية صورة مروعة ومرعبة، عن الحالة الكارثية التي آلت إليها أوضاع الجزائريين خلال سنوات الأزمة، حيث وقع الآلاف ضحية للسياسات المدمرة للاحتلال الفرنسي، ونتيجة للأمراض والأوبئة، والجفاف والجراد والزلازل، مما أدى إلى هلاك قرابة ثلث سكان الجزائر، حتى أن بعض الرسائل نصحت السلطات الاسبانية بعدم إرسال أي عمالة من إسبانيا للجزائر نظرا لسوء الأوضاع.

قائمة المصادر والمراجع:

1) (Abbé), B.-V. B. (1869). Histoire des désastres de l'Algérie, 1866-1867-1868, sauterelles, tremblement de terre, choléra, famine. Alger: Imp Centrale Algérienne. Usine A Eug Garaudel.

2) argelina, L. c. (s.d.).

3) Ceillier, J.-C. (2008). Histoire des missionnaires d'Afrique (Pères blancs): de la fondation par Mgr Lavigerie à la mort du fondateur 1868-1892. Paris: Karthala.

4) Charon, J.-M. (2004). La Presse quotidienne. Paris: La Découverte.

5) Daughton.., J. (2012). In God's Empire: French Missionaries in the Modern World. USA: Press Oxford University.

6) Effros, B. (2018). Incidental Archaeologists: French Officers and the Rediscovery of Roman North Africa. London, Ithaca and London: Cornell University Press.

7) Jean-Pierre Poussou, e. a. (2007). Histoire des familles, de la démographie et des comportements: En hommage à Jean-Pierre Bardet. Paris: PU Paris-Sorbonne.

8) José Luis García Delgado, . S. (1996). Los comienzos del siglo XX: la población, la economía, la sociedad : (1898-1931). Espana: ed. Espasa Calpe.

9) Künckel, d. J. (1893). Invasions des acridiens vulgo sauterelles en Algérie. Alger: Impr. Gouverneur Général.

10) Locher, F. (2006). Science, médias et politique au XIXe siècle. Les controverses sur la prédiction du temps sous le Second Empire. Revue d'histoire du dix-neuvième siècle 2006/1, 63-78.

11) López, F. M. (2003). La barbería de la Almedina: los orígenes del socialismo almeriense, 1880-1903. Almeria: Universidad de Almeria.

12) Madrid, L. G. (1868, Abril 12-18). Noticias. Madrid, Madrid, Espana: ed. Prensa.

13) Medecins, D. (1874). Recueil de mémoires de médecine, de chirurgie et de pharmacie militaires: Epidémie d algérie 1868. Paris: Librairie de la medecine Paris.

14) Michael, G. (2014). The Military and Colonial Destruction of the Roman Landscape of North Africa; 1830-1900. Boston: Brill.

15) Morache, G. (1873, juillet 11). Gazette hebdomadaire de médecine et de chirurgie. (28), p. 443.

16) Peña, A. V. (2011). Alicantinos en Argelia, Un viaje de ida y vuelta. Revista de Estudios Internacionales(10), 82-101.

17) Peréz, J. P. (1866). Argelia y a la proyección española en el N. de Africa. Archivo del Ministerio de Asuntos Exteriores, Sección Correspondencia Consular, leg. 1.997: Archivo del Ministerio de Asuntos Exteriores, Sección Correspondencia Consular, leg. 1.997.

18) Pierre Darmon, F. 2. (2009). Un siècle de passions algériennes. Une histoire de l'Algérie coloniale, 1830-1940. Fayard.

19) Ranse, D. F. (1877). Compte rendu. Gazette médicale de Paris V 48, 118.

20) Sainte-Marie, A. (1971). La Province d'Alger vers 1870, l'établissement du Douar Commun et la fixation de la nature de la propriété dans le cadre du Senatus Consulte du 22 avril 1863. Revue de l'occident musulman et de la méditerranée 9, 37-61.

21) Taithe, B. (2010). La famine de 1866-1868 : anatomie d'une catastrophe et construction médiatique d'un événement. Revue d'Histoire du XIXe Siècle: Actualité du XIXe : le carnet de recherche de la Société de la révolution de 1848 et des révolutions du XIXe(41), 113-127.

22) Tara, L. A. (2018). Objects of War: The Material Culture of Conflict and Displacement. London: Cornell University Press.

23) Vilar, J. B. (1982). La coyuntura argelina de 1866, a través de un informe confidencial español. Localización: Anales de Historia Contemporánea, ISSN 0212-6559, Nº. 1, 119-150.

24) Villar, J. B. (1975). Emigración española a Argelia: 1830-1900 ; colonización hispánica de la Argelia francesa. Spain: Instituto de Estudios Africanos.

25) Villar, J. B. (1989). Los españoles de la Argelia francesa, 1830-1914. U Murcia: CSIC.

26) صاري، الجيلالي (2008) .الكارثة الديمغرافية 1867-1868 .الجزائر: منشورات ANEP.

27) عيسوي، شارل .(1985) .التاريخ الاقتصادي للشرق الأوسط وشمال إفريقيا.(س. رحمي)، بيروت: دار الحداثة للطباعة والنشر.

انتشار الطاعون والكوليرا في ولاية طرابلس الغرب خلال العهد العثماني الثاني 1835-1911

The spread of plague and cholera in the western state of Tripoli during the second Ottoman era 1835-1911

د. الزرقاء سالم محمد/ جامعة سرت/ ليبيا
Dr. Zarqa Salem Mohammed/ University of Sirte/ Libya

الملخص:

إن دراسة انتشار الأوبئة والأمراض في ولاية طرابلس مرتبط بالظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في البلاد التي شهدت انتشار العديد من الأوبئة التي أثرت أثار سلبية سيئة على السكان خاصة في ظل انتشار الفقر والمجاعة داخل الولاية.

وتبرز الأهمية والهدف من دراسة انتشار وباء الطاعون والكوليرا في ولاية طرابلس في التعرف على هذه الأوبئة وطرق انتقالها إلى الولاية وأثارها على مجتمع الولاية الذي كان يعاني من المجاعة والفقر، بالإضافة الى توضيح دور السلطات العثمانية في القضاء عليه والحد من انتشاره، ومساهمة البعثات الصحية الأجنبية في مكافحة هذه الأوبئة التي أصبحت يهدد مصالحهم التجارية والسياسية في الولاية.

أما إشكالية الدراسة الرئيسية فهي تتركز في كيفية انتشر الطاعون والكوليرا في ولاية طرابلس الغرب؟ وللإجابة على هذه الإشكالية سوف تستخدم الدراسة منهج التحليل التاريخي الذي يوفر ألية علمية لطرح الموضوع بشكل موضوعي علمي، للوصول إلى نتائج هذه الدراسة وأبرزها أن طرابلس شهدت العديد من الاوبئة التي كان لها تأثير السلبي على السكان اقتصاديا واجتماعيا وأدت الى موت الكثير من سكان الولاية.

الكلمات المفتاحية: الأوبئة، الطاعون، الكوليرا، الحجر الصحي، البعثات الطبية، السكان.

Abstract:

The study of the spread of epidemics and diseases in the state of Tripoli is linked to the economic, political and social conditions in the country, which witnessed the spread of many epidemics that had negative negative effects on the population, especially in light of the spread of poverty and famine within the state.

The importance and objective of studying the spread of the plague and cholera epidemic in the state of Tripoli in identifying these epidemics and the ways of their transmission to the state and their effects on the state community that was suffering from famine and poverty, in addition to clarifying the role of the Ottoman authorities in eliminating it and limiting its spread, and the contribution of foreign health missions in Combating these epidemics that threaten their commercial and political interests in the state.

As for the main problem of the study, it focuses on how the plague and cholera spread in the western state of Tripoli? In order to answer this problem, the study will use the historical analysis method, which provides a scientific mechanism to present the topic in an objective and scientific manner, to reach the results of this study, most notably that Tripoli witnessed many epidemics that had a negative impact on the population economically and socially and led to the death of many residents of the state.

keywords : Epidemics, plague, cholera, quarantine, medical missions, population.

مقدمة:

إن دراسة انتشار الأوبئة والأمراض في ولاية طرابلس الغرب مرتبط بالظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في البلاد، فقد شهدت الولاية انتشار العديد من الأوبئة التي فتكت بالعديد من السكان، خاصة في ظل انتشار الفقر والمجاعة.

وتبرز الأهمية والهدف من دراسة الأوبئة في التعرف على أهم الأنواع التي انتشرت في البلاد خلال العهد العثماني الثاني خاصة وباء الطاعون وباء الكوليرا، وما خلفته من أضرار ووفيات بين السكان، ومعرفة طرق العلاج التي أستخدمها السكان في علاجها، وجهود السلطات العثمانية في مكافحتها.

أما إشكالية الدراسة فهي تتركز في الإجابة على العديد من الإشكاليات وهي:

- ✓ كيف انتقل الطاعون والكوليرا إلى الولاية وفي داخل الولاية؟
- ✓ ماهي الوسائل التي اتخذت لمكافحة هذه الأوبئة للحد من انتشارها؟
- ✓ ما هي الآثار التي خلفها الطاعون والكوليرا على ولاية طرابلس الغرب سكانها؟

وللإجابة على هذه الإشكاليات سوف تستخدم الدراسة منهج التحليل التاريخي الذي يوفر ألية علمية لطرح الموضوع بشكل موضوعي علمي وفق شروط البحث العلمي، ولتوضيح الموضوع فقد تم تقسيم الدراسة إلى المباحث التالية:

المبحث الأول: الطاعون

شهدت ولاية طرابلس الغرب خلال العهد العثماني الثاني أنتشار العديد من الأوبئة الأمراض الفتاكة التي كان لها تأثير سلبي على السكان من جميع النواحي الاقتصادية والاجتماعية خاصة في ظل سنوات القحط والجفاف وانتشار المجاعة (كاكيا، 1975، ص.104)، ومن أهم الأوبئة التي انتشرت في الولاية الطاعون والكوليرا وهما في الغالب ينتشران في الولاية عن طريق مسافرين قادمون من مناطق موبوءة في الحجاز أو موانى البحر المتوسط، فقد ذكر الحشائشي أنه وجد مرض الكوليرا في مدينة زله الواقعة في الجنوب وقال" حالات مرضى الحمى كثيرة جدا في الصحراء الشرقية والوسطى وفزان. (الحشائشي، 1988، ص.76)

ظلت ولاية طرابلس الغرب عرضة للأوبئة والأمراض الفتاكة التي أدت إلى تأخرها اقتصاديا وديمغرافيا واجتماعيا، وترجع أسباب تفشي هذه الأوبئة إلى:

- ✓ اهمال حكومة الولاية للجوانب الصحية وعدم السعي إلى تطويرها
- ✓ كثرة البرك المستنقعات كانت السبب الرئيسي في كثرة الحشرات والبعوض المسببة في نقل الأمراض.
- ✓ عدم الاهتمام بالنظافة العامة وسط المدينة وخارجها، خاصة الأحياء اليهودية، مما تسبب في انتشار الأوساخ التي كانت عامل مساعد على انتشار مرض الكوليرا.
- ✓ عدم الاهتمام بالمسافرين القادمين من مناطق موبوءة في حوض البحر المتوسط والقادمين صحبة القوافل الصحراوية القادمة من جنوب الصحراء كان سبب من أسباب انتشار الأمراض كالكوليرا والطاعون.
- ✓ لم تهتم الجهات المسؤولة بالولاية بالجانب الوقائي إلا في فترات متأخرة من الحكم العثماني الثاني، كتلقيح الأهالي ضد الأمراض، أو عمل محاجر صحية لعزل المشتبه فيهم.

✓ غياب الوعي الصحي، والجهل والفقر السائد بين السكان واعتمادهم على الطب الشعبي في علاج بعض هذه الأوبئة، مما زاد من سرعة انتشارها وكثرة عدد الوفيات بينهم. (مروان، 2009، ص.101)

يعد وباء الطاعون من أخطر الأوبئة التي اجتاحت الولايات العربية كونه وباء سريع الانتقال ويأتي غالباً بعد انتشار المجاعة وولاية طرابلس الغرب إحدى هذه الولايات، ففي العهد القرمانلي (1711 – 1835) حدثت مجاعة كبيرة عام 1767 ما لبثت أن تجددت مرة أخرى عام 1784، وذهب ضحية هذه المجاعة أعداد كبيرة من سكان الولاية الذين كانوا يلقون حتفهم يومياً، وقد وصفت الرحالة (ليدي ورتلي) في يومياتها أوضاع الولاية المأساوية قائلة:

"إن المدينة في ظروفها الراهنة، تمر بمرحلة مرعبة من المجاعة حتى أن المرور بشوارعها على الأقدام أو فوق ظهور الخيل، أصبح شيئاً مخيفاً مفزعاً بسبب الجوعى الذين يموتون كل يوم على الطرقات". (روسي،1974، ص. 305)

هذه المجاعة وكنتيجة طبيعية خلفت وراءها مرض الطاعون الذي ظهرت إصاباته الأولى ربيع عام 1785، وكان الأهالي يعتقدون أنه قدر من الله أو غضب إلهي؛ لذلك لعب الجهل وعدم الحذر والاحتياط وقلة الأطباء دوره الواضح في حصد أعداد كبيرة من السكان. (روسي، 1974، ص.305)

عصف الطاعون بولاية طرابلس الغرب خلال فترات متعاقبة ما بين 1657-1676 وفتك بأرواح ما يزيد عن ستين ألف شخص وأنتقل هذا الوباء إلى الولاية عن طريق قوافل الحجيج القادمين من مكة الكرمة على ظهر السفن المصرية،(فيرو، 1983، ص.239) في سنة 1837 انتشر الطاعون في الولاية وانتقل إليها من موانئ البحر المتوسط عن طريق السفن وبواسطة الفئران الموبوءة بتلك الموانئ، ولم يلبث أن أنتشر المرض محدثا وفيات بين السكان ووصفت المس توللي التي أقامت عشر سنوات في بلاط طرابلس مرض الطاعون بقولها " لقد هاجم الوباء المدينة منذ شهرين، ثلاثة آلاف مخلوق نعم ثلاثة آلاف وارتهم جبانات طرابلس وخسرتهم البلاد إلى الأبد، أنهم يبلغون حوالي ربع سكان المدينة".(توللي،1967، ص.197)

وقضى هذا الوباء على المئات من سكان المدينة بسبب النقص الحاد في الوسائل الوقائية والطبية، وتفيد مصادر أخرى أنه كان يموت يوميا من الأهالي ما يتراوح بين 35-40 شخصا، وهاجر الكثير من سكان المدينة إلى تونس ومصر وذهب القناصل وبعض أفراد الجالية الاوروبية إلى مالطا وإيطاليا وتونس، وتشير أحد تقارير القنصلية الفرنسية إلى أن حوالي 876 قد توفوا بسبب وباء الطاعون، ونتيجة لذلك اتخذ والي طرابلس طاهر باشا إجراءات وقائية لحماية جيشه من الوباء، فأمر بنقل الحامية إلى غريان التي تقع على بعد ثمانين كيلومتر جنوب مدينة طرابلس حتى زوال الخطر عن المدينة، كما قررت الحكومة التونسية منع أي سفينة قادمة من طرابلس الرسو في موانئها لا خوفا من أنتشار الوباء فيها.(الديك، 2009، ص.228)

وفي أغسطس 1874 ظهر مرض الطاعون مجددا في مدن المرج وتوكره وبرسس شرق مدينة طرابلس، ووصلت لجنة الطبية من اسطنبول مكونة من الدكتور راضي اليوناني وليونارد آرنود طبيب سابق في سلاح البحرية الفرنسية والطبيب لافال الفرنسي، وبدأوا في تطويق مدينة برسس وقرروا أنشاء كردون" حجر صحي" في مدينة بنغازي كأجراء وقائي، غير أن سكان المدينة اخترقوا الحجر وخرجوا من المدينة غير أن السلطات اتخذت اجراءات صارمة ضدهم وتم أنقاد المدينة من هذا الوباء. (أرشيف دار المحفوظات التاريخية، وثيقة غير مؤرخة).

وبالفعل قام المتصرف بدعوة المجلس البلدي للمشورة ولكنهم لم يكثرتوا بذلك واعتبروا الأمر لا يستحق الكثير من الاهتمام ولم يهتم لنصائح اللجنة الطبية حول خطورة الموقف، ومن الواضح أن المتصرف التركي كان يتصرف وفق لمصالحه الخاصة وما يجنيه من ربح مقابل تجاهله لتطبيق الحجر الصحي، ويبدوا أن القنصل الفرنسي في طرابلس كان يتابع الأحداث الصحية بناء على تقارير نائبه في بنغازي لأنه كان على خلاف مع متصرف بنغازي الذي كان يعرقل نشاط فرع القنصلية في هذه المنطقة، فأنتهز القنصل الفرصة وقام بمخاطبة الباشا سامح باشا ونبهه بما يفعله المتصرف من افعال تضر بسكان المنطقة، وقام الباشا بأرسال لجنة صحية وأمرها بتطبيق التعليمات وانقاذ المدينة من الطاعون. (الديك، 2009، ص ص.236-237).

وقد أشار الرحالة الإيطالي مانفريدو كامبيرو عضو جمعية ميلانو للاكتشافات التجارية بأفريقيا، في تقرير عن الأوضاع الصحية بولاية طرابلس عند زيارته إلى المناطق الشرقية من الولاية " برقة "خلال 6 مارس إلى 5 ابريل من سنة 1881 منطلقا من بنغازي إلى درنة سالكا طرق مختلفة في ذهابه وإيابه حتى تمكن من زيارة أغلب مناطق برقة الساحلية والجبلية ركز خلالها على الأوضاع الصحية في بنغازي والمرج ولاحظ كثرة انتشار الأمراض بهما بسبب عدم النظافة وكثرة الحشرات المسببة للأمراض، فقد ذكر أن مرض الزهري أو السيلان الذي جلبه البحارة والأوربيون وتجار القوافل ومعهم كان منتشر بشكل كبير في مدينة المرج لدرجة أنه لم تخلى خيمة واحدة من الإصابة به، ومرض الدرن الرئوي الذي ينتشر بين الفقراء في الأحياء الفقيرة نتيجة لسوء التغذية وعدم توفر السكن الصحي. (بازامة، 1994، ص ص. 302-303).

المبحث الثاني: الكوليرا

وهو من أحد الأمراض الخطيرة الوافدة الي الولاية عن طريق الحجاج القادمين من الأراضي المقدسة أو صحبة المسافرين القادمين من أحد الموانئ العثمانية، ففي شهر سبتمبر سنة 1850 ظهر وباء الكوليرا في طرابلس، وانتشر هذا المرض أيضا عبر الموانئ والبواخر وينتشر سريعا خاصة في المدن المكتظة بالسكان، وفتك بالأهالي لمدة ثلاثة شهور، ويقال أن حدة هذا الوباء في طرابلس ضعفان ما حدث في تونس وثمانية اضعاف ما حدث في مرسيليا، فقد كانت حصيلة الوفيات 800 شخص في طرابلس فقط منهم قنصل سردينيا بروكي Brocchi وبعض موظفي القنصليتين الانجليزية والاسبانية. (روسي، 1974، ص. 268)

صورتان توضحان ضحايا الكوليرا في طرابلس سنة 1911

وتطلعنا صحيفة طرابلس الغرب في عددها رقم 1344 الصادر سنة 1910 عن عدد الاصابات بوباء الكوليرا خلال الأسبوع الأول من شهر أكتوبر سنة 1908 بلغت 31 إصابة، وعدد الوفيات بلغ 35 حالة (صحيفة طرابلس الغرب، 1910)، وفي عددها رقم 1345 الصادر في نفس السنة ذكرت الصحيفة أن الاصابات بهذا الوباء خلال الاسبوع الثاني من شهر نوفمبر سنة 1908 حالتين وعدد الوفيات ثلاثة أشخاص، (صحيفة طرابلس الغرب، 1910) يتضح من ذلك أن عدد الإصابات خلال هذه الشهر قد خفت بشكل كبير.

وفي أواخر سنة 1910 أنتشر وباء الكوليرا في الولاية خاصة بين اليهود وانتقل هذا المرض من نابولي إلى طرابلس عن طريق أسرة يهودية جاءت من نابولي، ونتيجة لذلك أرسل الوالي إبراهيم باشا إلى وزارة الداخلية في اسطنبول في رسالة مؤرخة في 4 نوفمبر 1910 أن عدد المصابين بوباء الكوليرا منذ ظهوره في 20 سبتمبر 1910 بلغ 186 شخصا توفي منهم 110 كلهم من اليهود عدا اثنان من المسلمين يعملان في أفران بمحلة اليهود، والرسم البياني التالي يوضح ذلك.

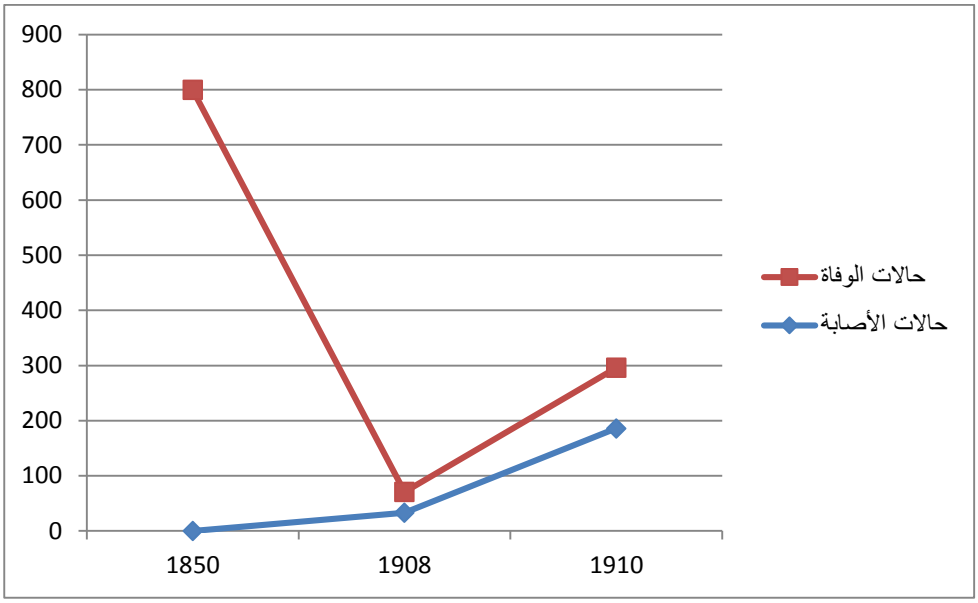

رسم بياني يوضح حالات الإصابة والوفاة بمرض الكوليرا بولاية طرابلس خلال سنوات 1850-1908-1910

ويبدوا أن وباء الكوليرا قد أزداد انتشارا في طرابلس في سنتي 1910-1911 فمن خلال تقرير مفتش الصحة بطرابلس مؤرخ في 14 يونيو 1911 تعترف بانتشار وباء الكوليرا في ايطاليا، وحاول اتخاذ الإجراءات الوقائية فاتصل بطبيب الحجر الصحي بالميناء لاتخاذ الإجراءات الوقائية بالنسبة للركاب القادمين من ايطاليا بسبب انتشار الكوليرا فيها وضرورة تطبيق الحجر الصحي " الكرنتية" ضد المسافرين القادمين من مدينة نابولي في إيطاليا. (دار المحفوظات التاريخية، وثيقة رقم832)

وما تجدر الإشارة إليه أن اليهود استغلوا وباء الكوليرا سياسيا للمطالبة بسيطرة ايطاليا على ولاية طرابلس الغرب ونلاحظ ذلك من خلال رفضهم تطبيق الإجراءات الوقائية التي قامت بها السلطات الصحية بالبلدية، وقاما بمظاهرات قادها " مسيو صامان" المترجم بالقنصلية الايطالية بطرابلس وغوستاف أربيب شقيقه أميلو، واعتدى المتظاهرون على الشرطة وعلى طبيب البلدية واتجهوا إلى القنصلية الإيطالية وهم يهتفون " الحكومة تظلم اليهود لا نريد الحكومة العثمانية نريد الحكم الإيطالي تحيا إيطاليا".(دار المحفوظات التاريخية، وثيقة رقم870)

المبحث الثالث: طرق مكافحة الطاعون والكوليرا في ولاية طرابلس

بدأ الاهتمام بالوضع الصحي في ولاية طرابلس من قبل الولاة العثمانيين في نهاية العهد العثماني الثاني، فبعد تفشي هذه الأوبئة داخل ولاية طرابلس بدأت بعض الصحف مثل صحيفة طرابلس الغرب وصحيفة العصر الجديد بشن حملات صحفية ضد الحكومة ومطالبتها بضرورة الاهتمام بالجانب الصحي ومواجه هذه الأوبئة والأمراض ومن أهم الإجراءات التي اتخذتها السلطات العثمانية في طرابلس هي:

الحجر الصحي:

اهتم حكام طرابلس بعملية الحجر الصحي بعد تفشي الأوبئة والأمراض بها عن طريق المسافرين القادمين من موانئ البحر المتوسط عامة، وأخذ الاحتياطات الوقائية حيالهم، وأطلعتنا اليوميات الليبية لحسن الفقيه حسن على أجراء محاجر صحية " كرنتينة" لعدة سفن قادمة من مناطق موبوءة بأمراض سارية. (حسن، 1984، ص. 1400)

وعندما ظهر وباء الكوليرا في مالطا في يونيو 1839 وبعد تعافي ولاية طرابلس من وباء الطاعون، فقد أمر باشا طرابلس بإرجاع كل السفن القادمة من مالطا، وبالفعل أجبرت السفن على العودة ولم يسمح للمسافرين بالنزول ومنع التجار من إنزال بضاعتهم، رغم أمتعاض التجار لهذا الإجراء لأنهم كانوا ينتظرون وصول السلع القادمة من مرسيليا وبقية الدول الأوروبية عبر ميناء مالطا، ونظرا لما عانته الولاية من نقص في السلع نتيجة وباء الطاعون فأن الأهالي والتجار بدأوا في الضغط على باشا طرابلس بضرورة إيجاد حل لهذه الأزمة، لذلك سمح باشا طرابلس بدخول البضائع القادمة من مالطا إلى ميناء طرابلس بشرط أن تخضع للحجر الصحي لمدة خمسة عشر يوما.(الديك، 2009، ص. 229)

وزاد الاهتمام العثمانيون بالحجر الصحي في كل ولايات الدولة فعقدت اجتماعات مع الدول الأوروبية لوضع خطة وشكلت لجان من هذه الدول لتحديد وتخصيص أماكن الحجر الصحي في كافة موانئ البحر المتوسط، فقد بعث والي طرابلس الغرب محمود نديم باشا (1860-1866) برسالة إلى قنصل إيطاليا بطرابلس بتاريخ 27 أكتوبر 1866 يخبره فيها بتحديد وتجديد الحجر الصحي بباب البحر ببرج إبي ليلى. (دار المحفوظات التاريخية، وثيقة غير مؤرخة)

كما طلبت نظارة الحجر الصحي من طبيب الحجر الصحي في نواحي طرابلس" تاجوراء وجنزور" بعدم السماح للسفن القادمة من نواحي مصر وبيروت والشام وقبرص والبحر الأحمر بالرسو في تلك المناطق، وتحويلها إلى ميناء طرابلس لعمل إجراءات الحجر الصحي لها. (دار المحفوظات التاريخية، 12 يوليو،1883)

لم تقتصر المحاجر الصحية على الركاب والسفن القادمة من خارج الولاية بل شملت الولاية نفسها ووضعت قيود مشددة على الانتقال من منطقة إلى أخرى داخل الولاية خاصة في المناطق التي تنتشر فيها الأوبئة وذلك للحيلولة دون تفشي الوباء فيها، واحتجاز من يشتبه في إصابتهم بتلك الأمراض في المحاجر الصحية، فعلى سبيل المثال عندما أشتبه في اليهودي جون وزجته القادمين من إيطاليا بإصابتهما بوباء الكوليرا بعد ظهور بعض الأعراض عليهم فتم حجرهما في بيتهما وشكلت لجنة لمداواتهما ومتابعة حالتهم الصحية.(جريدة طرابلس الغرب، 1910)

وعندما ظهر الطاعون في المناطق الشرقية للولاية بمنطقتي المرج وبرسس سنة 1874 خوفا من انتقاله إلى بقية المناطق قرر مجلس الولاية عمل نقاط حراسة في مناطق مختلفة منها منطقة سرت التي تتكون نقاط الحراسة فيها من خمسين فارس تم توزيعهم على موارد المياه التي تتردد عليها القوافل لمنعها من الاقتراب منها أو الاختلاط بالناس والحيوانات، وإجبارها بقوة السلاح على الرجوع، كما حذر المجلس كل من يتهاون في تنفيذ ذلك بالمعاقبة الشديدة. (دار المحفوظات التاريخية، وثيقة غير مؤرخة)

ومن ضمن الإجراءات المتبعة كذلك هي عندما يتم الاشتباه في أي خيمه من خيم نجوع البادية تطلب منهم اللجنة الطبية التخلي عن كل ملابسهم القديمة وحرقها والاهتمام بالنظافة واستخدام الماء والصابون وكذلك الخل، كما يطلب منهم تهويته المنازل وغسل الجدران من الداخل الخارج وتبخيرها وإغلاقها مدة من الزمن، أما المرضى فتم تعريضهم للغطس لمدة يومين في مياه البحر.(Léonard, 1888, P.65)

رغم هذه الإجراءات الصحية التي قامت بها الدولة العثمانية لمكافحة الأمراض والحد من أنتشارها في ولاية طرابلس، غير أنها كانت محدودة وضعيفة، الأمر الذي دفع بالسكان المحليين إلى اللجوء إلى الطب الشعبي الذي توارثه الأبناء من الآباء وحفظوا أسراره وفقهوا فيه وهو قائم على التجربة والممارسة معتمدين في ذلك على بعض الأعشاب كالزعتر والروبية والثوم والكافور والحلبة والشيح والشب والبصل وزيت الزيتون والعسل، واللجوء إلى الحجامة والكي

بالنار والخرت وهو يشبه إلى حد ما فكرة الإبرة الصينية والحمية وهي امتناع المريض عن تناول الطعام لكي يتعافي ويتم شفاؤه وعرفها السكان من خلال العرب الأوائل الذين يقولون " المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء"، وهو يعرف بالصوم الطبي الذي ظهر حديثا وتوجد له مدارس طبية في بعض الدول العربية والأوروبية.(حكمت 1989،ص.719)

هكذا عاشت ولاية طرابلس في وضع الصحي صعب حالها حال بقية ولايات الدولة العثمانية فقد انتشرت فيها أوبئة وجوائح خطير كوباء الطاعون والكوليرا وما خلفته من أثار سلبية على الولاية وسكانها من كافة النواحي الصحية والاقتصادية والاجتماعية.

خاتمة:

من خلال هذه الدراسة نستنتج ما يلي:

- ✓ شهدت طرابلس العديد من الاوبئة التي كان لها تأثير سلبي على السكان اقتصاديا واجتماعيا وأدت الى موت الكثير من سكان الولاية.
- ✓ أوضحت الدراسة أن أغلب الأوبئة التي انتشرت في الولاية قادمة من خارجها ودخلت إليها أما عن طريق السفن التجارية البحرية أو القوافل التجارية البرية.
- ✓ أن ضعف وقلة إمكانيات الولاية صحيا وعدم اهتمام الدولة العثمانية بها وبالسكان المحليين، لذلك كانت أكثر الوفيات منهم مقارنة بالجنود العثمانيون والقناصل الأوروبيون في الولاية.
- ✓ بعد تفشي الأوبئة في الولاية وحصدها للكثير من الأرواح اتخذت السلطات الحكامة فيها العديد الإجراءات لمكافحتها والحد من انتشارها في الولاية، فمن الناحية الاقتصادية نظرا لارتباط موانئ الولاية تجاريا بالعديد من الموانئ الدولية فقد اتخذت السلطان الحاكمة قرار بعدم السماح للسفن بالرسو في موانئ الولاية وشددت الإجراءات عليها حتى أنها قامت بإرجاع العديد منها، اتبعت أيضا سياسية المحاجر الصحية في موانئ ولاية طرابلس الغرب. بالإضافة إلى أنشاء مراكز صحية أو مستشفيات خاصة لعزل المصابين بهده الأوبئة وعلاجهم، وفرضت عقوبات مالية على كل شخص يعارض الأوامر الصادرة من الحكومة بخصوص دخول المناطق التي ظهر بها الوباء.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر

1.الوثائق

1) دار المحفوظات التاريخية، ملف الكراغلة، وثيقة بخصوص إنشاء كردونات (نقاط حراسة أو مراقبة) بسرت لمنع القادمين من المناطق الشرقية الموبوءة بالتوجه إلى الغرب.

2) دار المحفوظات التاريخية، ملف الصحة، وثيقة رقم 832، (بخصوص إبلاغ والي طرابلس وزارة الداخلية في اسطنبول بعدد المصابين بوباء الكوليرا)

3) دار المحفوظات التاريخية، وثيقة رقم870، (بخصوص انتشار وباء الطاعون بين اليهود).

4) دار المحفوظات التاريخية طرابلس، وثيقة مؤرخة في 12 يوليو 1883، (حول إشعار إلى ناحيتي تاجوراء وجنزور بعدم السماح إلى السفن القادمة من مناطق مشبوهة بالإصابة بالرسو بها)

5) دار المحفوظات التاريخية، (وثيقة بخصوص إنشاء كردونات " نقاط حراسة" بسرت لمنع القادمين من المناطق الشرقية الموبوءة بالتوجه إلى المناطق الغربية)

6) دار المحفوظات التاريخية طرابلس، (وثيقة حول إبلاغ الوالي محمود نديم قنصل ايطاليا بتخصيص محجر صحي ببرج أبي ليلى)

2.التقارير الأجنبية

1) Arnaud, Léonard (Dr). Essai sur la peste de Benghazi d'Afrique, par le Dr Léonard Arnaud 1888. Source gallica.bnf.fr / Bibliothèque nationale de France

3.الصحف

1) صحيفة طرابلس الغرب، (العدد 1338-الصادرة بتاريخ 14 شوال 1328هـ/ 1910م)

2) صحيفة طرابلس الغرب، (العدد 1344، سنة1910)

3) صحيفة طرابلس الغرب، (العدد 1345، سنة 1910)

ثانيا: المراجع

1) روسي، اتوري، 1974، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، ترجمة: خليفة محمد التبسي، دار الثقافة، بيروت.

2) توللي، الأنسة، 1967، عشر سنوات في بلاط طرابلس، ترجمة عبد الجليل الطاهر، الجامعة الليبية، بنغازي، ليبيا.

3) حسن، حسن الفقيه، 1984، اليوميات الليبية 1551-1832، الجزء الأول، تحقيق محمد الأسطى وعمار جحيدر، مركز دراسة جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس.

4) فيرو، شارل، 1983، الحوليات اليبية منذ الفتح العربي حتى الغز الايطالي، ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، المنشأة العامة للنشر التوزيع، طرابلس، ليبيا.

5) حكمت، عبد الحكيم، 1989، الطب اشعبي في ليبيا، ترجمة عبد الكريم أبوشويرب، مركز جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، طرابلس.

6) بازامة، محمد مصطفي، 1994، تاريخ برقة في العهد العثماني الثاني، دار الحوار، بيروت، لبنان،

7) الديك، محمود أحمد، 2009، الأوضاع الصحية في طرابلس منذ العهد العثماني وحتى فترة الاستعمار الايطالي، ندوة الاوضاع الصحية في ليبيا 1835-1911، المركز الليبي للمحفوظات والدراسات التاريخية، طرابلس، ليبيا.

دور المستشفيات العربية الاسلامية في علاج الأمراض والأوبئة في الوطن العربي خلال العصور الوسطى

The role of Arab islamic hospitals in treating diseases and epidemics in The Arab world during The Middle Ages.

د. زواوي مراد/جامعة الجزائر2 /الجزائر
Dr.Zwawl Mourad/University of Algerirs2/Algeria

ملخص:

تسعى هذه الورقة البحثية إلى إبراز دور المستشفيات العربية الاسلامية في علاج الأمراض والأوبئة في الوطن العربي خلال العصور الوسطى، حيث كان العرب يسمون المشافي ب مارستانات، وهي في الأصل كلمة فارسية معناها (مكان المرضى)، وأول ما شيد منها كان في دمشق بزمن الأمويين، ثم شاع استعمالها في زمن العباسيين، وكانت هذه المستشفيات مدارس للتعليم وأماكن للاستشفاء، وتمرين للطلاب، فجمعت بذلك بين ممارسة تعليم الطب وتطبيب المرضى. وكانت المستشفيات العربية الاسلامية على أنواع، فمنها الثابتة ومنها المتنقلة، وعالج المسلمون الأمراض الفتاكة كالجذام المعدي، حيث نجد أن أول مؤسسة عرفت في بلاد العرب عالجت الجذام، هي مجذمة الوليد بن عبد الملك في دمشق سنة (88هـ – 707م)، ثم تعددت المجاذم بعد ذلك، وعالجوا كذلك الطاعون، وعالجوا بالإيحاء، وحتى الأمراض العقلية المستعصية. وظهر كذلك علم التشريح، ويعتبر ابن النفيس أول من أفرد التشريح بكتاب خاص مستقل، وجمع فيه ما كتبه ابن سينا في كتاب القانون. ونجد أيضا علم الجراحة، ويعتبر أبو بكر الرازي أول من ابتكر خيوط الجراحة، ولكن أعظم الانجازات في جراحة القرون الوسطى، تعزى للزهراوي (940 – 1013م).

يهدف البحث إلى تناول مختلف العلوم كالطب والتشريح والصيدلة والجراحة، حيث كان العرب والمسلمون السباقين إلى اكتشاف هذه العلوم وتطويرها، كما يهدف إلى التعريف بمختلف العلماء باختلاف مشاربهم، حيث نجد أن أغلبهم ترك ملخص علومه واكتشافه في مؤلفات أو كتب ما زالت إلى يومنا هذا.

الكلمات المفتاحية: المستشفيات العربية، الأمراض والأوبئة، الوطن العربي، العصور الوسطى، الطاعون، الجذام.

Abstract :

This research paper seeks to highlight The role of Arab islamic hospitals in treating diseases and epidemics in The Arab world during The Middle Ages , where The Arabs used to call hospitals Marstanat , which is originally a Persian word meaning The place of The sick , The first of i twas built in Damascus during The Umayyad period , the nit was widely used during The Abbasid period , these hospitals were schools of education , places of recovery and training for students , thus combining The practice of teaching medicine and treating patients , Arab and Islamic hospitals were of various types , some of them fixed and some of them mobile , and Muslims treated deadly diseases such as infectious leprosy, where we find that The first institution Known in The Arab countries to treat leprosy was The leprosy of al- Walid ibn Abd al –Malik in Damascus in The year 707 AD , then there were many lepers after that , and they also treated The plague and they were treated with inspiration, and even incurable mental illnesses , and The science of anatomy also appeared . ibn al – Nafis is The first to single out anatomy in a special independent book and collect what Ibn Sina wrote in The Book of The Law . We also find The science of surgery

.Abu Bakr al – Razi is The first to invent surgical threads , but The greatest achievements in medieval surgery are due Al – Zahrawi 940-1013 AD.

The research aims to address various sciences such as medicine , anatomy , pharmacology and surgery , as Arabs and Muslims were The first to discover and develop these sciences.it also aims to introduce The various scholars of different backgrounds , as we find that most of them left a summary of their sciences and discover them in books or books that are still to this day .

Keywords :Arab hospitals, Diseases and epidemics , Arab world , Middle age , The Plague , The Leprosy.

مقدمـــة:

فتح العرب تحت راية الاسلام نصف العالم في مدة قرن واحد، ثم كان أعظم همهم أن يظموا إلى عظمة الفتح العلم، فلم يكتمل القرن التاسع الميلادي حتى كان المسلمون قد ملكوا جميع علم اليونانيين، فصارت بغداد مركز الحركة العقلية في الدنيا، وبعد ذلك بثلاثة قرون صارت طليطلة في اسبانيا مركزا لترجمة الكتب العربية إلى اللاتينية.

إشكالية الدراسة: لمعالجة هذا الموضوع، تطرقنا إلى إشكالية عامة للموضوع وهي: ما هو الدور الذي لعبته المستشفيات العربية الاسلامية في علاج مختلف الأمراض والأوبئة في الوطن العربي خلال فترة العصور الوسطى؟ أو بعبارة أخرى: هل استطاعت المستشفيات العربية تحقيق ما انجزت من أجله في القضاء على الأمراض والأوبئة بأنواعها في فترة العصور المظلمة أو الوسطى؟

وقد انبثقت عن الاشكالية العامة عدة تساؤلات فرعية نوجزها فيما يلي:

ما هي أنواع الأمراض والأوبئة التي انتشرت في منطقة الوطن العربي؟ وهل استطاعت المستشفيات القضاء عليها في ظل الوسائل البدائية؟ من هم أبرز العلماء الذين ظهروا خلال هذه الفترة؟ وما هي أبرز العلوم التي ظهرت خلال هذه المرحلة وكيف تطورت؟ كل هذه التساؤلات سنحاول الاجابة عنها في بحثنا هذا.

أهمية الدراسة: وقد اكتسى البحث أهمية بالغة باعتباره يدرس مواضيع علمية تتمثل في تطور العلم وأهمية العلوم كالطب والتشريح والصيدلة والجراحة، حيث كان العرب المسلمون السباقين إلى اكتشاف هذه العلوم وتطويرها، حيث في مرحلة العصور الوسطى كانت أوربا تعيش في عصر الانحطاط والركود، وأطلق عليها بالعصور المظلمة.

أهداف البحث: وللبحث عدة أهداف من بينها: أن البحث تناول مختلف أنواع العلوم التي لم تكن معروفة من قبل، والحاجة إليها هي من أدى إلى اكتشافها، كما يهدف أيضا إلى التعريف بمختلف العلماء باختلاف مشاربهم، حيث نجد أن أغلبهم ترك ملخص علومه واكتشافه في مؤلفات أو كتب وأغلبها ترجمت إلى اللغات اللاتينية وذلك بحاجة أوربا إليها.

خطة الدراسة : وقد تناولت في كتابة هذا البحث على عدة عناصر رئيسية تفرعت عنها عناصر ثانوية وهي: دور العرب في تطور العلوم، والمستشفيات الاسلامية بأنواعها العامة والمتنقلة، مع ذكر أشهر المستشفيات الاسلامية في تلك الفترة، دون أن ننسى دور هذه المستشفيات في علاج مختلف الأمراض الفتاكة ونجد منها : علاج الطاعون، الجذام، علاج المصابين بالأمراض العقلية، والعلاج بالإيحاء، كما تطرقنا إلى ذكر أهم العلوم والعلماء العرب في فترة العصـــور الوسطى، كالطب الباطني، وأبرز من مثله أبو بكر الرازي، وعلم التشريح وأبرز من برع في هذا العلم ابن رشد والزهراوي وابن سينا، ونجد أيضا علم الجراحة، دون أن ننسى علم التخدير، باعتبار المسلمون هم الأوائل الذين توصلوا إلى هذا

العلم، وعلم الصيدلة، وفي الأخير اختتمنا بحثنا باستنتاجات توصلنا إليها من خلال هذه الورقة البحثية، ثم أدرجنا المصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها في هذه الورقة البحثية. ومن بين المراجع التي اعتمدنا عليها كثيرا هي: أحمد شوكت الشطي. (1970). العرب والطب. دمشق: منشورات وزارة الثقافة.

أحمد علي الملا. (1977). أثر العلماء المسلمين في الحضارة الإسلامية في صقلية وأثرها في أوربا. القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر. والمستشرقة الألمانية زيغريد هونكة. (1933). شمس العرب تسطع على الغرب. (سعيد بيضون، وكامل دسوقي، المترجمون) بيروت: منشورات دار الجبل. ونجد أيضا: علي عبد الله الرفاع. (1983). أعلام العرب والمسلمين في الطب. بيروت: مؤسسة الرسالة.

أولا: دور العرب في تطور العلوم:

احتل العرب والمسلمون المكانة الأولى في الطب، وظلوا على رأس العلم الطبي في العالم أكثر من خمسمائة عام. (ريسلر، 1993، صفحة 195)

ويشهد بذلك الدكتور غريسيب مدير جامعة برلين ورئيس قسم الطب فيها، حيث قال في حفل أقامه الطلاب المسلمون في ألمانيا :<< أيها الطلاب المسلمون، والآن قد انعكس الأمر، فنحن الأوروبيون يجب أن نؤدي ما علينا تجاهكم، فما هذه العلوم إلا امتداد لعلوم آبائكم وشرح لمعارفهم ونظرياتهم ... فارجعوا إلى الماضي لتؤسسوا للمستقبل، ففي قرآنكم علم وثقافة ونور ومعرفة، وسلام عليكم يا طلابنا أن كنا في الماضي طلابكم >>. (الملا، 1977، صفحة 143)

وللأستاذ المستشرق ليبري مقولة شهيرة يقول فيها: << لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا عدة قرون >>. ويؤكد المستشرقون أن المسلمين لم يعطوا العالم الطب فحسب، بل وسعوا المفاهيم الانسانية في العالم، ويؤكد ذلك قول **فالدستون** في مقال له بعنوان: << مكتشف الطب في بلاد العرب >>، أنه مما لا يقبل الجدل أن المعلومات التي وصلت إلينا من أطباء العرب، هي في الحقيقة الحجر الأساسي للطب الحديث، ولولا هذه الاسهامات العظيمة لما وصل الطب الحديث إلى المستوى الذي وصل إليه. (الرفاع، 1983، صفحة 36)

ويقول البروفيسور **مونتغمري وات**، أستاذ الدراسات الاسلامية في كتابه **فضل الاسلام على الحضارة الغربية**: << ينبغي أن نتوقع أن نجد لدى العرب تلك العبقرية الخارقة، وتلك الموهبة المتمثلة في المخيلة العلمية، وذلك الابتكار في الفكر ... فالعرب قد حققوا بالفعل انجازات رائعة في ميدان العلوم، فقد علمونا استخدام الأرقام العربية، وبهذا باتوا من مؤسسي الحساب المستخدم في الحياة اليومية، وجعلوا من الجبر علما دقيقا، وفي مجال الفلك فكان لهم عدد من الملاحظات القيمة >>. (وات، 1983، الصفحات 46-47)

ثانيا: المستشفيات الاسلامية:

كان العرب يسمون المشافي ب **(بيمارستانات)**، ويخففونها فيقولون **ماريستانات**، وهي في الأصل كلمة فارسية معناها **(مكان المرضى)**، وأل ما شيد منها كان في دمشق بزمن الأمويين، ثم شاع استعمالها في زمن العباسيين، وكانت المارستانات مدارس للتعليم وأماكن للاستشفاء وتمارين للطلاب، فجمعت بذلك بين ممارسة تعليم الطب وتطبيب المرضى . وكانت المستشفيات العربية الاسلامية على أنواع، فمنها الثابتة ومنها المتنقلة.

1.2. المشافي الثابتة:

وتنقسم بدورها إلى نوعين: المشافي العامة ومشافي الاختصاص.

أ: المشافي العامة: كان لكل مدينة كبرى في الامبراطورية العربية الاسلامية مستشفي عام واحد على الأقل، وكان للمستشفيات أوقاف تعولها، وكانوا يعتبرون مقام إدارة المستشفي من أعظم مقامات الدولة.

ب: مشافي الاختصاص: واشتهر منها مشافي الجذام، ومشافي الأمراض العقلية.

2.2. المشافي المتنقلة:

وتنقسم بدورها إلى أنواع: مشافي للإسعاف الأولي، ومشافي حربية ومشافي محمولة.

أ: مشافي الاسعاف الأولي: كان النبي صلى الله عليه وسلم، أول من أمر بالمشفي الحربي المتنقل في الاسلام، فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة يقال لها رفيدة كانت تداوي الجرحى فيها. (شميسي باشا، 1999، الصفحات 25-26).

ب: المشافي الحربية: كان للجيش مشاف حربية يشرف عليها جراح خاص ملحق بالخليفة، وكلما ذهب الخليفة إلى الحرب أخذ معه أطباءه للعناية بت وبجيشه، وكانوا يحولون الجرحى إلى النساء لإسعافهم.

ج: البيمارستان المحمول: كان العرب أول من أنشأ المستشفي الذي ينقل من مكان إلى مكان بحسب الأوبئة والحروب.

ومما يجدر الاشارة إليه، أن الخلفاء والسلاطين كانوا يتنافسون في بناء المستشفيات، ومن هذه المستشفيات نجد: **مستشفي عضد الدولة في بغداد**، ونجد أيضا **مستشفي النوري في دمشق**، الذي بناه السلطان **نور الدين زنكي (1146-1174م)** . (نفسه، صفحة 28)

إذن، كانت المستشفيات الاسلامية بمثابة مدارس عالية للطب، تقول الدكتورة **زيغريد هونكة**:<< وبينما طلاب العلم في بلاد الغرب يسهرون الليالي درسا وخفضا على ضوء الشموع في الأديرة، كانت التجربة العملية في المستشفيات الاسلامية تسير مع العلم جنبا إلى جنب، على أسرة المرضى ... واتبع العرب في تدريس الطب طريقة علمية تقضي على طلاب الطب أن يدخلوا مع المرضى في احتكاك دائم مثمر، فيقابلوا ما قد تلقوه نظريا بما يشاهدونه. وهكذا تخرجت طبقة من الأطباء الذين لم يشهد العالم لهم آنذاك مثيلا إلا في عصرنا الحديث >>. (هونكة، 1933، صفحة 235)

ثالثا: أشهر المستشفيات الاسلامية:

- ✓ **البيمارستان العضدي:** أنشأه عضد الدولة **بن بوي**، وفرغ من تعميره سنة **386هـ**.
- ✓ **البيمارستان العتيق بمصر:** أنشأه **أحمد بن طولون** في سنة **259هـ – 872م**
- ✓ **البيمارستان المنصوري بمصر:** أنشأه **قلاوون** سنة **680هـ – 1281م**
- ✓ **البيمارستان النوري بدمشق:** أنشأه الملك العادل **نور الدين زنكي في دمشق 1160م**، هذا المستشفي يعالج فيه المرضى، وتصرف لهم الأدوية بالمجان، واستمرت على هذه الحال مدة ثلاث قرون. (ديورانت، 1995، صفحة 330)

وفي هذا الصدد، يقول **جومار فرانسوا**، أحد العلماء الذين استقدمتهم حملة نابليون إلى مصر في كتابه **وصف مدينة القاهرة** :<< أنشئ في القاهرة منذ خمسة قرون أو ستة، عدة مارستانات لم يبق منها سوى مارستان واحد هو مارستان قلاوون، صرف عليه سلاطين مصر مالا وافرا، وأفرد فيه لكل مريض قاعة خاصة مع طبيب خاص >>. (جومار، 1988، صفحة 121).

ويصف لنا الرحالة **ابن جبير** أثناء زيارته القاهرة سنة **1182 م**، المستشفي الذي بناه صلاح الدين بأنه قصر رحب جمـيل، وقد تفنن أطباء العرب في أساليب معالجة المرضى في المشافي. كما دعا العباسيون إلى عقد المؤتمرات الطبية التي يجمع فيها الأطباء من كافة البلاد في موسم الحج، حيث كانوا يعرضون أبحاثهم وتعاون الأطباء فيما بينهم على استنباط الاجتهاد في خدمة الصحة العامة. (الشطي، 1970، صفحة 97). أنظر أيضا: (الخطيب، 1988، الصفحات 45-44)

رابعا: دور المستشفيات في علاج مختلف الأمراض الفتاكة:

1.4: علاج الطاعون: (La Peste):

الطاعون هو مرض معدي، تسببه جرثومة اليارسين(**Barcille de Yersin**)، وقد أعاد بعض الأطباء سبب تكون هذه الجرثومة إلى تلوث وتسمم الجو، بفعل الرائحة الكريهة لجثث الجراد الميت المتعفنة المنبعثة بعد كل اجتياح للبلاد . وهو مرض معدي ساهم في وفاة الآلاف عند انتشاره، وتنقل عدوى هذا المرض إلى الانسان عن طريق التنفس أو المكوث في أماكن إقامة المصابين، وأكثر ما يصيب هذا الوباء القوارض خاصة الفئران، كما أن وباء الطاعون الذي أصاب منطقة شمال إفريقيا عبر العصور، كان أغلبه مصحوبا بجائحة حيوانية ومنه ينتقل إلى البشر. (Marchika, 1927, p. 183). Voir Aussi - (Nouveau Larousse Médical, 1990)

والجدير بالذكر، أن أول وصف علمي دقيق للطاعون، هو ما جـــاء في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم :<<الطعن عرفناه فما الطاعون؟ قال: << غدة كغدة البعير يخرج من المراق والإبط >>. أخرجه البخاري في صحيحه. وفي رواية أحمد: <<غدة كغدة الإبل، المقيم فيه كالشهيد، والفار منه كالفار من الزحف >>.

وفي الوقت الذي كان فيه العرب ينظرون إلى مثل هذه العوارض والأمور نظرة علمية بحتة تدعمها التجربة ويغذيها البحث والتدقيق، كان النصارى في أوربا يقفون أمامها مكتوفي الأيدي، وهذا دليل على ثقافة العرب آنذاك، وتأخر النصارى الفكري في أوربا. (شاخت و بوزورث، 1985، الصفحات 340-341)

ظهرت النظرية العربية القائلة بانتشار الداء بسبب العدوى، والحل الوحيد للقضاء عليه أو التقليل منه، هو العزل ومنع الاجتماعات، وظلت نصائح العرب للقيام بمكافحة الأوبئة بشكل نظامي نافذة المفعول، وبقيت دون تغيير حتى ظهور قوانين مكافحة الأوبئة. (هونكة، نفسه، صفحة 311). أنظر أيضا: - (كامو، 1981، صفحة 40)

2.4: علاج الجذام: Hansons' disease:

الجذام هو مرض جلدي معدي يظهر على شكل تقرحات جلدية شديدة، تتفاقم لتسبب تلف في الأعصاب، الذراعين والساقين ومناطق الجلد حول الجسم، بالإضافة إلى ضعف العضلات، ويعد من الأمراض الجلدية القديمة جدا، ويحدث المرض نتيجة الاصابة بالبكتيريا المتفطرة الجذامية.

وفي هذا السياق، كتب **ابن مسكويه** في النصف الأول من القرن التاسع الميلادي وصفا شاملا لمرض الجذام، كمرض معد دون أن يربطه بغضب السماء عكس الأوروبيون، وعامل المسلمون المجذومين معاملة لائقة. وقد خصصت المجاذم لعلاج المجذومين، وأول مؤسسة عرفت في بلاد العرب هي مجذمة الوليد بن عبد الملك في دمشق سنة 88هـ – 707م، ثم تعددت المجاذم بعد ذلك. وتعد المجاذم العربية أول دور عولج فيها المصابون بالجذام معالجة فنية، وكان

الدخول إليها غير تابع لقيد أو شرط. (شميسي باشا، نفسه، صفحة 39) . أنظر أيضا: - (Nouveau Larousse Médical, 1990)

تقول زيغريد هونكة :<< الحق يقال، إن العاطفة الانسانية التي كانت رائدة عند العرب في معالجتهم للمرضى، أيا كان نوع المرض وأيا كان خطره، لهي مشرفة كل التشريف، ولم يعرف لها الأوروبيون مثيلا، بل لجأوا إلى معاملة المرضى الذين لا رجاء في شفاءهم معاملة الحيوانات الضارية، فكانوا يقصونهم عن المجتمع ويرمون بهم في أعماق السجون المظلمة ... في الوقت الذي كان الأوربيون يتصرفون هذا التصرف؛ كان العرب يخصصون المستشفيات أو أجنحة المستشفيات لمرض الجذام وغير ذلك. (هونكة، نفسه، الصفحات 273-274).

3.4: علاج المصابين بالأمراض العقلية:

تأسست مارستانات الأمراض العقلية في زمن الأمويين للعناية بالذين أصابهم مس أو اعتراهم ضعف عقلي، فقد كان المسلمون يعتبرون المعتوهين معدمين وعالة على احسان الدولة، لأن إصابتهم بقضاء من الله وقدره، ولقبوا بالمجذوبين وكلمة مجذوب يقصدون بتا أن الله قد جذبه إليه، وبالتالي يجب معاملته بالحسنى. (الشطي، نفسه، صفحة 95)

والجدير بالذكر، أنه امتدت الرعاية الطبية إلى جميع أنحاء الدولة الاسلامية، إذ كان الأطباء المسلمون يزورون السجون من حين لآخر لعلاج المسجونين، كما قاموا بزيارات للقرى النائية، واهتم الأطباء المسلمون أيضا بعلاج الأمراض النفسية، فلم يتجنب الأطباء المرض، وينظرون إليهم نظرة احتقار، كما يفعل الأوربيون معهم آنذاك. (شامة، 1980، صفحة 137)

أنشأ المسلمون أول مصح للأمراض العقلية في بغداد منذ القرن الثاني الهجري، أي قبل إنشاء مصح فالنسا في أوربا بسبعمائة سنة، وبينما كان المرضى العقليون يعتبرون مجرمين أو مسكونين بالشيطان في أوربا، كان المسلمون يعالجون المرضى برحمة ورعاية يتولاها أطباء متخصصون في الأمراض العصبية، وصار هناك في وقت مبكر مصحات للمرضى العقليين والنفسيين في كل المدن الاسلامية الكبرى. (ريسلر، نفسه، صفحة 119).

4.4: العلاج بالإيحاء:

برع أطباء العرب المعالجة بالإيحاء، ومن ذلك ما روي عن أبي البركان هبة الله بن ملكان، وذلك أنه مريضا ببغداد أصيب بالسوداء (**المانخوليا**)، وكان يعتقد أن على رأسه برميلا، وأنه لا يفارقه أبدا فعالجه جماعة من الأطباء دون جدوى، وانتهي الأمر به إلى ابن ملكان، ففكر الطبيب ابن ملكان واهتدى إلى فكرة وهي التداوي بالأمور الوهمية، وأشار ابن ملكان إلى غلامه بإحضار برميل دون أن يشعر المريض بذلك، فلما أقبل المريض على ابن ملكان قال له: لا بد أن أكسر هذا البرميل وأريحك منه، ثم أدار خشبة وضرب فوق رأسه بنحو ذراع، وعند ذلك رمى الغلام البرميل من أعلى السطح، وتكسر قطعا كثيرة، وأثر فيه الوهم حيث برئ من علته تلك، وهذا باب عظيم في المداواة . (الشطي، نفسه، صفحة 108)

والجدير بالذكر، أنه كان لا يسمح للطبيب بالممارسة الطبية إلا بعد أن يمتحنه كبار الأطباء ويصدرون له إجازة بالممارسة، واستحدث منصب المحتسب، الذي يراقب أعمال الأطباء والصيادلة والعشابين، حتى لا يحدث خلل أو خطأ، وله سلطات واسعة في معاقبة المعتدي عند ثبوت عدوانه. (البار، 1995، صفحة 36)

خامسا: أهم العلوم والعلماء العرب في فترة العصور الوسطى:

1.5. الطب الباطني (الداخلي):

إن كل فروع فنون الشفاء تقريبا في الاسلام، كانت مدينة للجهود التي بذلها **حنين بن اسحاق العبادي(809-873م)**، من خلال ترجمته لأهم الكتابات الطبية اليونانية، وجعلها متوفرة باللغة العربية، كما أرسى أساسا متينا لتطور الطب العربي، وذلك بابتكاره علم المنهج المتميز الذي تم السير عليه وتعديله في القرون اللاحقة.

وفي نهاية القرن التاسع، بدأ يتألق نجم جديد في الأوساط الصيدلانية الطبية العربية، ألا وهو الطبيب **أبو بكر الرازي (865 – 925م)**، الذي أصبح أعظم طبيب سريري، ومعلم طب وفيلسوف في عصره، وأما كتابه (**الكتاب المنصوري**)، حول الطب السريري والداخلي، فأصبح مرجعا أساسيا، ونجد أيضا خليفة الرازي المشهور **علي بن عباس المجوسي (المتوفي عام 994م)**، فقد عرض في كتابه **(الملكي)**، مفاهيم جديدة بخصوص تأثير البيئة على الصحة، وأما **ابن بطلان (المتوفي عام 1068م)**، فقد كتب كتاب **تقويم الصحة**، الذي يدور حول المحافظة على الصحة واستعادتها، وقد أكسبه شرفا رفيعا في الأوساط الطبية خلال القرون الوسطى، وكانت مسقط رأس فيلسوف وطبيب آخر هو **موسى بن ميمون (1134م – 1204م)**، الذي كتب بشكل مكثف عن الطب الداخلي . (شميسي باشا، نفسه، الصفحات 53-54)

وفي القرن الثاني عشر الميلادي، أنجبت قرطبة **ابن رشد** الأندلسي العربي الفيلسوف والطبيب، وبما أنه استنتج أن الشخص لا يصاب بالحصبة مرتين؛ فمن الممكن أن نقول أن ابن رشد كان أول من كون فكرة أساسية عن علم المناعة، كما أنجبت الأندلس **(ابن الهيثم)**، الذي ألف كتاب (**البصريات**)، وظهر الصيدلاني العربي المسلم **ابن البيطار (1190 – 1248م)**، الذي زار المشرق واليونان بحثا عن نباتات طبية، وأورد في كتابه **(الجامع)** ألف وأربعمائة عقار، منها أربعمائة عقار لم يسبق أن وصفه أحد من قبله . (البار، 1996، صفحة 47).

2.5: علم التشريح عند المسلمين:

يقول الطبيب الفيلسوف **ابن رشد**: << **من اشتغل بالتشريح ازداد يقينا بالله**>>. هذه المقولة تدحض مزاعم بعض الغربيين التي تقول، أن الأطباء المسلمين ليس لهم فضل في علم التشريح، وأنهم لم يقوموا بتشريح الحيوانات والإنسان. ويقول الدكتور أمين أسعد خير الله في كتابه **الطب العربي**، أن علماء الغرب أنكروا اسهام أطباء العرب والمسلمين في التشريح قائلين إن الشريعة الاسلامية تحرم تشريح الموتى، ولكن من يبحث في المخطوطات الطبية العربية نجد أنهم أسهموا مساهمة عظيمة في تقديم المعرف في التشريح بطرق مختلفة. ويؤكد **الزهراوي** على أهمية التشريح، وخاصة بالنسبة للجراح فيقول أنه من لم يدرس التشريح فلا يحق له أن يمارس الجراحة. (أمين أسعد، 1946، الصفحات 28-29).

ونجد أن **ابن سينا** في كتابه الموسوعي **القانون**، قد تحدث عن تشريح العظام بتفصيل عجيب، يدل على أنه درس الهيكل العظمي دراسة وافية، ويعتبر **ابن النفيس** أول من أفرد التشريح بكتاب خاص مستقل، بالإضافة إلى أنه يعتبر بحق مكتشف الدورة الدموية الصغرى قبل أن يكتشفها وليم هارفي، وقام ابن النفيس بتشريح القلب تشريحا دقيقا، ورد على ابن سينا ومن سبقه: إن في القلب ثلاثة بطون، والتشريح يكذب ما قالوه . (البار، 1989، الصفحات 18-19)

وقد شرح ابن النفيس بكل تفصيل، تشريح العظام والرئة والشرايين والقلب وغيرها من أجزاء جسم الانسان بدرجة دقيقة لا يستطيع طبيب أن يعملها، إلا إذا كانت لديه خبرة جيدة في التشريح، وأجريت أول عملية تشريح في أوربا خلال عام 1487م، بباريس، أي نحو مائتي سنة بعد وفاة ابن النفيس. (غليونجي، د.ت، الصفحات 113-114)

3.5: علم الجراحة:

لقد برع العرب في فن الجراحة، واستخدمت مؤلفاتهم في هذا الميدان متونا أساسية للتعليم في كليات أوربا الطبية حتى عهد قريب، حيث عرفوا في القرن الحادي عشر علاج غشاء العين، وعلاج النزيف بصب الماء البارد والكي بالنار، كما أن استعمال المخدر ذلك الكشف الأساسي الذي ضن أنه من كشوف العصر المعاصر، لم يكن خافيا عليهم؛ فكانوا يوصون قبل العمليات المؤلمة باستعمال الزوان لتنويم المريض حتى يفقد الوعي والحواس. (لوبون، 1964، صفحة 733).

ومما يجدر الاشارة إليه، أن العرب اهتموا بالجراحة فقاموا بعمليات جراحية كثيرة في البطن والمجاري البولية، ونجحوا في شق القصبة الهوائية وإيقاف نزيف الدم بربط الشرايين الكبيرة، وهو انجاز علمي ادعى تحقيقه لأول مرة الجراح الفرنسي أمبرواز باري **Ambroise Pare** عام 1552م، في حين أن الطبيب العربي **أبا القاسم الزهراوي** قد حققه قبله بستمائة عام، وقد ذكر ذلك في مؤلفه المعروف **التصريف لمن عجز عن التأليف**، ويعتبر أبو بكر الرازي أول من ابتكر خيوط الجراحة، ولكن أعظم الانجازات في جراحة القرون الوسطى تعزى **للزهراوي (940- 1013م)** المراكشي الاسباني، الذي يعالج قسم هام من موسوعته الطبية طب الأطفال والتوليد، بالإضافة إلى تشريح جسم الانسان بشكل عام، وشرح فن الكي ومعالجة الحروق واستخراج السهام، وصحة الفم وتجبير العظام واستعمل المطهرات في معالجة الجروح والخدوش، وابتكر الخيوط الطبية، وكان يستعمل في عملياته الجراحية حوالي مائتي أداة جراحية صممها بنفسه، وأورد رسومها في كتاباته. (مؤلفين، 1982، صفحة 301).

4.5: علم التخدير:

كان المسلمون أول من توصل إلى علم التخدير، واستعملوا المخدر في الجراحة، ولم ينس المسلمون أن خلق الله تعالى كان آدم عليه السلام، وعندما أراد الله تعالى أن يخلق منه حواء، أخلده سبحانه إلى النوم، فاستيقظ فإذا بجانبه حواء خلقت من ضلعه الأيسر، فكان أول تفكير المسلمين في النوم كأداة للتخدير، ومن ثم بدأ المسلمون يتفننون في استحداث أساليب مختلفة كي ينام المريض لعمل جراحة معينة، فتعلموا أولا من الصينيين استعمال الإبر الذهبية أو الفضية على العقد العصبية، ثم استعملوا نبات حبق الراعي بعد حرقه للتخدير، وجربوا حبس الدم عن المناطق المختلفة من الجسم، باستعمال الضغط الشرياني أو الوريدي لتخدير المكان . (خليل، 1995، صفحة 13).

والجدير بالذكر، أن التخدير أصله عربي، وإلا فكيف يمكن لعالم وجراح مسلم كالزهراوي مثلا أن يقوم بعمليات استخراج الحصى من الكلى مستخدما المشرط والخياطة دونما تخدير للمريض؟

استخدم العرب قطعة القماش بوضعها على أنف المريض قبل بدء الجراحة، فكانوا بذلك أول من استخدم الاستنشاق لتخدير المريض، فاستخدام الاسفنجة المخدرة فن عربي أصيل. بالإضافة إلى ذلك، استخدم المسلمون العرب في عملية التخدير الحشيش والأفيون بنسب مختلفة. (خليل، نفسه، صفحة 14).

إن أشد المواد المخدرة عند العرب كان الأفيون، ودونه تأثيرا البيروح والخشخاش والشوكران والبنج، وست الحسن والثلج والملء البارد.(Elgood, 1951, p. 281) .

5.5: علم الصيدلة:

إن علم الصيدلة اختراع عربي أصيل، ولقد بدأ العرب تطبيق الكيمياء على الطب نظريا وعلميا، ومكنتهم المعرفة التي اكتسبوها من عالم النبات، أن يضيفوا شروحا كثيرة إلى الألفي نبات الموجودة في كتاب النبات لديسقوريدوس، وأن يضمنوا كتبهم في العقاقير كثيرا من النباتات الطبيعية التي كان يجهلها اليونان تماما.

والملفت للنظر، أن المسلمون أنشأوا الصيدليات، ويقال إنهم أول من أسس مدرسة للصيدلة، كما كان لهم السبق في عدة تراكيب كيماوية كالكحول وماء الفضة، واخترعوا التقطير وغير ذلك، وقد جعل العرب مهنة الصيدلة منفصلة عن الطب في بغداد ومصر والأندلس. (لوبون، نفسه، صفحة 513) . أنظر أيضا: - (سيديو، 1969، صفحة 382).

وللمسلمين فضل كبير على فن الصيدلة، ولعلهم أول من اعترف بالصيدلة كمهنة وعلم مستقل بذاته، وكان الصيادلة لا يمارسون عملا في المستشفيات إلا إذا كان معروفا عنهم الأمانة والكفاءة، وقد ترك لنا عدد من الأطباء المسلمين وصيادلتهم كتب رسموا فيها صورا لصيدلياتهم العربية الخاصة في عواصم حضارتهم، وقد ارتدى الصيدلاني ثيابا بيضـاء، ووقف بباب صيدليته يصرف الدواء، ومن وراءه الرفوف المتلئة بالأدوية والقوارير. وقد خلف لنا المسلمون الكثير من كتب الصيدلة مثل **تذكرة ابن داود، ومنهاج الدكان، ودستور الأعيان** وغيرها.

وقد حددت الدولة أثمان العقاقير، ووضعت رقابة شديدة فإذا خالف الصيدلي أو الرقيب الذي يقوم بالتفتيش عليه تلك القوانين، وارتكب أي غش في أنواع العقاقير عوقب عقوبة قاسية. (شميسي باشا، نفسه، الصفحات 67-68).

خاتمة:

من خلال هذه الورقة البحثية نخلص إلى عدة استنتاجات:

- ✓ إن العرب المسلمين أول من أنشأوا المستشفيات بأنواعها، وكان نبينا صلى الله عليه وسلم أول من أمر بالمستشفي الحربي المتنقل.
- ✓ لم يكن تأسيس المستشفيات حكرا على الخلفاء والسلاطين، بل دأب على تأسيسها الأطباء وغيرهم، كما كانت تفتح أبوابها للفقراء وكل أبناء الشعب بدون تميز.
- ✓ إن العاطفة الانسانية التي كانت رائدة عند العرب في معالجتهم للمرضى، لم يعرف لها الأوربيون مثيلا، وذلك لمعاملتهم السيئة لمرضاهم.
- ✓ إن الأوبئة التي كانت تعيث فسادا في أوربا خلال القرن الرابع عشر كالطاعون مثلا، فإنها لم تخف العرب وهذا دليل على ثقافة العرب آنذاك وتأخر الفكر الأوربي.
- ✓ إن أهم ما يمكن أن يعزى للعرب تنظيمهم لصناعة الطب، بما أرسوا من قواعد للتمييز بين فروع الاختصاصات مثلا بين الطب والصيدلة.
- ✓ برع العرب وتقدموا أشواطا في مختلف العلوم وكانوا السباقين في اكتشافها وتطويرها قبل الأوربيين بقرون.

- ✓ لم يوسع المسلمون في دراستهم وبحوثهم الطبية آفاق الطب فحسب، بل وسعوا المفاهيم الانسانية على وجه العموم.
- ✓ لم يقتصر دور الاسلام على تعريف أوربا بالكثير من منتجاته المادية واكتشافاته التكنولوجية والعلوم الفلسفية، بل دفع أوربا إلى تكوين صورة جديدة لذاتها.

قائمة المصادر والمراجع:

المراجع باللغة العربية

1) أحمد شوكت الشطي. (1970). العرب والطب. دمشق: منشورات وزارة الثقافة.
2) أحمد علي الملا. (1977). أثر العلماء المسلمين في الحضارة الإسلامية في صقلية وأثرها في أوربا. القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر.
3) آدم فرونسوا جومار. (1988). وصف مدينة القاهرة. (أيمن فؤاد سيد، المترجمون) القاهرة: مكتبة الخانجي.
4) ألبير كامو. (1981). الطاعون (الإصدار ط1). بيروت: دار الآداب.
5) بول غليونجي. (د.ت). إبن النفيس. القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة.
6) جاك ريسلر. (1993). الحضارة العربية. (خليل خليل أحمد، المترجمون) بيروت: منشورات عويدات.
7) جوزيف شاخت، و كليفورد بوزورث. (1985). تراث الإسلام (المجلد ج1). (حسين مؤنس، و إحسان صدقي، المترجمون) الكويت: عالم المعرفة.
8) جوستاف لوبون. (1964). حضارة العرب. (عادل زعيتر، المترجمون) القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي.
9) حسان شميسي باشا. (1999). هكذا كانوا يوم كنا . الطب في أوربا وعند المسلمين (الإصدار ط1). الرياض: دار المنارة للنشر والتوزيع.
10) حنيفة الخطيب. (1988). الطب عند العرب. بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع.
11) خير الله أمين أسعد. (1946). الطب العربي. (مصطفي أبو عز الدين، المترجمون) د.م: الجامعة الأمريكية.
12) زيغريد هونكة. (1933). شمس العرب تسطع على الغرب. (سعيد بيضون، و كامل دسوقي، المترجمون) بيروت: منشورات دار الجبل.
13) علي عبد الله الرفاع. (1983). أعلام العرب والمسلمين في الطب. بيروت: مؤسسة الرسالة.
14) لويس سيديو. (1969). تاريخ العرب العام. (عبد الرزاق محمد أحمد، المترجمون) القاهرة: عالم الأدب للنشر والتوزيع.
15) مجموعة مؤلفين. (1982). عبقرية الحضارة العربية. منهج النهضة الأوروبية. (عبد الكريم محفوظ، المترجمون) دمشق: منشورات وزارة الثقافة.
16) محمد شامة. (1980). الإسلام في الفكر الأوربي. القاهرة: مكتبة وهبة.
17) محمد علي البار. (1995). المسؤولية الطبية وأخلاقيات الطبيب. جدة: دار المنارة.
18) محمد علي البار. (1996). دور المسلمين في تطوير العلاج بالأعشاب والصيدلة. جدة: دار المنارة.
19) محمد علي البار. (1989). علم التشريح عند المسلمين. جدة: الدار السعودية.
20) مونتغمري وات. (1983). فضل الإسلام على الحضارة الغربية. (أمين حسين أحمد، المترجمون) القاهرة: مكتبة مديولي.
21) ويل ديورانت. (1995). قصة الحضارة (المجلد ج4). (محمود زكي نجيب، المترجمون) بيروت: منشورات دار الجبل.

المراجع باللغة الأجنبية

22) Elgood, C. (1951). a Medical history of Persia and The Eastern caliphate from The Earliest times Until The Year A.D .(1932). Cambridge: Cambridge University Press.

23) Marchika, J. (1927). La Peste en Afrique septentrionale.histoire de La Peste en Algerie de 1363a' 1830 . Alger: Carbonal.

24) Nouveau Larousse Médical. (1990). Paris : Librairie Larousse

المجلات

25) ماهر خليل. (جوان، 1995). علم التخدير في الإسلام. مجلة الوعي الإسلامي .

المجاعات والأوبئة في إفريقيا أثناء العهد الحفصي في الفترة من (625-980هـ/ 1228-1572م)

Article Famines and epidemics in Africa during the Hafsid period (625-980 AH / 1228-1572 AD)

د.مريم الصغير عبد السلام المقطوف
جامعة الزاوية /الزاوية/ ليبيا،
Dr.Maryam Aseghair Abed Aslame Almaqtowf
University Al-Zawiya University/ Al-Zawiya / libya.

الملخص:

لا شك أن ما تتعرض له البلاد من أوبئة وأمراض ناتج عن الاختلاط وتراكم الأقذار وانعدام وسائل حفظ الصحة في المدن القروسطية، على عكس الأرياف كما أوضح ذلك ابن خلدون، وقد كانت بعض المناطق مثل قابس وضواحيها معروفة بوخامتها، وكانت الملاريا (حمى المستنقعات) تعيث فيها فساداً، كما تعرضت المنطقة لأوبئة وأمراض أشد خطورة والتي انتشرت وتسربت من الشرق الأدنى وهو وباء الطاعون الذي كان يتسبب دورياً، اعتباراً من القرن التاسع الهجري منتصف القرن الرابع عشر الميلادي بالفتك بإفريقية وتفقيرها.

وكان أخطر هذه الأوبئة الوباء الذي ظهر في سنة (873هـ/ 1468-69م) حتى تعود الناس وأصبح يظهر كل عشر سنوات أو خمسة عشر أو خمس وعشرون سنة على حسب ما كتب ليون الأفريقي، وظهر مرض أخر في أواخر العصر الوسيط وبالتحديد في القرن الخامس عشر الميلادي وهو مرض الزهري الذي تسرب بسرعة فائقة عبر التجارة من أوروبا.

اهتم بعض الخلفاء الحفصيين بمقاومة الأمراض والأوبئة وبنو المارستانات مثل أبو فارس في مدينة تونس ولجأ السكان إلى بعض الحلول البسيطة لمقاومة الجوائح مثل التبرك عند الأولياء الصالحين واتخاذ بعض الوسائل التقليدية لتداوي وغيرها من السبل.

الكلمات المفتاحية: المجاعات، الأوبئة، إفريقية، الدولة الحفصية، الطاعون.

Abstract:

Abstract of the research: There is no doubt that the epidemics and diseases that the country is exposed to as a result of mixing and the accumulation of filth and the lack of means of maintaining health in medieval cities, unlike the countryside, as explained by Ibn Khaldun, and some areas such as Gabes and its suburbs were known for their severity, and malaria (swamp fever)) wreaking havoc, and the region was exposed to more serious epidemics and diseases that spread and leaked from the Near East, a plague epidemic that periodically, starting from the ninth century AH to the middle of the fourteenth century AD, killed Africa and impoverished it.

The most dangerous of these epidemics was the epidemic that appeared in the year (873 AH / 1468-69 AD) until people became accustomed and began to appear every ten, fifteen or twenty-five years, according to what Leon the African wrote, and another disease appeared in the late Middle Ages, specifically in the fifteenth century A.D., a syphilis, which was transmitted very quickly through trade from Europe.

Some of the Hafsid caliphs were interested in resisting diseases and epidemics, and the sons of the Maristans, such as Abu Faris in the city of Tunis, and the residents resorted to some simple solutions to resist the pandemics, such as seeking blessings from the righteous parents and taking some traditional means of treatment and other ways.

Keywords: Famine, pestilence, African, Hafsid state, plague.

مقدمة:

لا تخلوا هذه المنطقة عن غيرها من بقاع العالم للتعرض لبعض الظروف الطبيعية الصعبة والمصاحبة لتعرضها لبعض مصاعب الطبيعة مثل انتشار المجاعات التي ربما كان سببها الأول هو نقص مياه الأمطار والتي بدورها تأثر في الزرع والضرع، وما ينتج عنه من سوء في التغذية التي بدورها تؤدي سرعة التعرض للأمراض والأوبئة بسبب قلة المناعة، أو إهمال لمقومات النظافة مثل انتشار الأوبئة والكوليرا الملاريا في المياه العفنة، وتربية الكلاب وكثرة الفئران التي تسبب في انتشار وباء الطاعون(*) عن طريق البراغيث الملازمة لها، كل هذه الأسباب قد تؤثر في الطابع العام للمنطقة وفي حال السكان الاجتماعية بنقص في الأنفس مما يؤدي إلى إهمال العمل والإنتاج في المشاغل والمحلات والمزارع وغيرها من مسببات العيش، كان وباء الطاعون من أصعب وأخطر الجائحات إذ تسرب من الشرق الأدنى وكانت أخطر سنواته هي:

1.سنة 765هـ/ 1364م خصوصا في تلمسان.

2.سنة 796هـ/ 1394م بتونس.

3.سنة 805هـ/ 1402م بتونس وضواحيها.

تندرج دراسة تاريخ الأوبئة والمجاعات تحت ما يعرف (التأريخ للأزمة) التي تسبب في تحولات كبرى وانعطافات حاسمة في المسار التاريخي للمنطقة، فكانت أزمة الجوع والوباء من اشد البلايا وقعاً على المجتمعات، خاصة وأنها قد أفرزت واقعاً مريراً على المجتمع الذي حلت به، ولدراسة هذه الظواهر يجب الإلمام بحيثيات كاملة دون إهمال أي جزء منها، ومن هنا جاءت هذه الالتفاتة العلمية البسيطة لإماطة اللثام (مزدور، 2008- 2009) على هذه الفترة التاريخية المهمة من فترات التاريخ الوسيط لإقليم إفريقية (المغرب الأدنى) الذي يشمل إقليمي طرابلس الغرب وتونس في العهد الحفصي.

لقد تم اختيار هذا الموضوع لما له من تأثير على حياة المنطقة من الناحية الاجتماعية سلبياً، التي بدورها أثرت على جميع أشكال الحياة الأخرى مثل السياسية والاقتصادية، خلال الفترة الممتدة طيلة القرون الثلاث الأخيرة من قرون العصر الوسيط على إفريقية، من أجل معرفة حدوث هذه الظاهرة والوصول إلى طرق علاجها، حيث سببت تدهوراً خطيراً بين فئات المجتمع، إذ لم يسلم منها لا غني ولا فقير ولا حاكم ولا وزير ولم يفرق الوباء بجميع أشكاله

(*) وهو ورم رديء قاتل، بخرج معه التهاب شديد ومؤلم، يظهر على الإنسان المصاب كأنه يغلي من الحرارة، في حالة هذيان من التسمم الدموي الرهيب، زائغ النظرات متشنج الأطراف مربد الوجه يزحف إليه الموت سرعة، قد تغطى جلده بآفات نمشية وكدمات حولته إلى لون قاتم مسود ومن هنا جاء وصف الطاعون بالموت الأسود، وكذلك يتحول لونه إلى اللون الأخضر، يحدث في ثلاث مواضع في جسم الإنسان في الإبط وخلف الأذن والأرنبة وفي اللحوم الرخوة. (رايعي و رحموني، 2014-2015) (جبر، 2009).

وأنواعه بين أي أحد من أفراد المجتمع، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن هذا الوباء رجز" (رايعي و رحموني، 2014-2015).

كثيراً ما نتعثر في طيات المصنفات التاريخية على وصف مدقق للأوضاع المأسوية التي كان الناس يعانون زمن الكوارث الطبيعية والمجاعات، ومما لا شك فيه إنه يصعب علينا تقديم إيضاحات مضبوطة في هذا ولكن لا يمكن إنكار الجهود المبذولة في محاولات التخلص من هذه الأوبئة والمجاعات التي ربما كان من أسبابها الدولة وضعف هيبتها من قِبل خلفائها الذين أهملوا الاهتمام بشؤون الدولة ورقي سُدتها أمام الدول الأخرى تطورت بتطور شعبها والاهتمام به؛ وذلك لانشغالهم بالملذات والترف والصيد وبعض التسالي الأخرى، والبعض القليل من الخلفاء الحفصيين اهتموا بمقاومة الأمراض والأوبئة وبناء المارستانات مثل أبو فارس عزوز (796-837هـ/1394-1433م) في مدينة تونس؛ ولكن أغلب الظن أن الدولة الحفصية لم تهتم أو تكثر من المارستانات (برنشفيك، 1988، صفحة 393).

سنحاول في هذه الدراسة أن نصل إلى أهم المعلومات على هذه الجوائح وأهم سنيها بنوع من التفصيل في هذا العمل العلمي بالرجوع إلى بعض المصادر المعاصرة لهذه الفترة وبعض المراجع الحديثة:

مرت البلاد الحفصية خاصة إقليم تونس ببعض الأوبئة الفتاكة –مثل داء الطاعون- (الموت الأسود) أو (كف) (كعت، 1964) والقادمة من المشرق في موجات دورية يقدر نسقها بخمس عشر أو عشرين سنة، وهي من أشد الأوبئة التي حدثت خلال قرن ونصف من الزمان، أي منذ القرن الثامن الهجري إلى نهاية القرن التاسع الهجري، الرابع عشر إلى الخامس عشر الميلادي، ومن أشد هجمات هذا الوباء كانت الفتاك في ذي الحجة سنة (872هـ/ 1468م) ولم تهدأ ثورته المدمرة إلا في شوال سنة (873هـ/ 1469م) أي ما يقرب من العام وسكان البلاد يموتون بالعشرات إلى درجة أن بعض المؤرخين ذكر أن عدد الموتى بلغ ألف شخص في اليوم الواحد (الزركشي) (السباني، 2006)، حتى تعود الناس وأصبح يظهر كل عشر سنوات أو خمسة عشر أو خمس وعشرون سنة (حسن، 1999، صفحة 618)، وقد تعرضت البلاد للفقر بسبب هذه الجائحة المتتالية الحدوث، ومهما تعاظمت الدول فإنها لا تستطع الوقوف أمام سيل الأوبئة القوية مثل داء الطاعون الأكثر فتكاً بالبشر (برنشفيك، 1988، صفحة 393).

عمت المجاعات بين البشرية في الإقليم لعدة أسباب كان منها كثرة الضرائب على الفلاحين من زكاة وخراج وجزية وعشور، فضلاً عن قلة احتكار أو تخزين الناس للزرع، إضافة إلى عامل المناخ ومدى تأثيره على الزرع والضرع، وتدهور الوضع السياسي بسبب الحروب والفتن (مزدور، 2008- 2009، الصفحات 73-74)، ونحن نعلم أن الدولة الحفصية كانت بداية نشأتها بالخوض في الحروب المتعددة في المغربين الأدنى والأوسط؛ بدأ تفشى وباء الطاعون بإفريقية سنة (656هـ/ 1257م) في عهد الدولة الحفصية، كما حل بتونس في السنة الموالية (657هـ/1258م) مرض لم يتم تحديده نُسب إلى نتائج سقوط بغداد في المشرق (برنشفيك، 1988، صفحة 393)، مما جعلها تتعرض لاحقاً إلى مجاعة كبيرة سنة (669هـ/ 1270م) جلبت ورائها بها الوباء العظيم الطاعون مرة أخرى، الذي عاصر نزول الحملة الصليبية الثامنة على تونس التي قادها لويس التاسع، وما تعرضت له من حرب النصارى على سواحل المهدية، وفي سنة (694هـ/ 1294م) حدثت ظاهرة كسوف الشمس، وكانت قد حلت مجاعة شديدة بإفريقية إضافة إلى الوباء

العظيم الذي هلك فيه خلق كثير، وكثرت نسبته بقابس إضافة إلى منطقة أجاص التي أستوبئت، هذا ما أثر على البلاد من الناحية الاقتصادية، إذ سبب في ارتفاع أسعار الحبوب، وبلغ سعر القمح 10 دراهم والدقيق 6 أوقية بدرهم، ثم صلح الوضع الاقتصادي للمنطقة ورخصت الأسعار، وفي سنة (706هـ/ 1306م) جاء عدد من الناس يفوق 700 شخص بين كبير وصغير من إقليم برقة إلى إقليم طرابلس الغرب، لم ينجوا منهم سوا 100 شخص أو نحو ذلك، بسبب عدم وجود ما يقتاتوا في بلادهم إلا لحوم الحيات التي عاد عليهم سمها فأهلكهم، وقد أخبر هؤلاء بأن كل الأراضي التي مروا بها خيامها منصوبة لكن كل أهلها موتى من رجال ونساء وأطفال، حتى أنه شاع بأنهم اضطروا إلى أكل لحوم البشر من أجل سد جوعهم (حسن، 1999، صفحة 615) -هل انتشار الأمراض المعدية لم يؤثر في حركة الإنسان؟

في ربيع الآخر من سنة (749هـ/1348م) تعرضت إفريقية إلى غلاء كبير سبب في وارتفاع واضح في الأسعار حتى بلغ سعر القفيز الواحد من القمح 20 دينار من الذهب، ومن الشعير 10 دنانير، وقد عانى أهل تونس من هذا الغلاء الأمرين الذي صحبه وباء الطاعون والذي أثر بشكل كبير على حياة السكان، وكثرت الوفيات من جرائه حتى وصل إلى ألف حالة في اليوم الواحد، وفيه مات القاضي ابن عبد السلام والفقيه العابد سيدي يحي السليماني (أبي دينار، 1286، صفحة 139).

من أهم العوامل التي تزيد خطر الإصابة بالطاعون هي العيش بأماكن بها فئران مصابة أو حيوانات أخرى من القوارض والتي تشكل عائلا للمرض، التعرض للدغ البراغيث، ومخالطة المرضى بالطاعون (العسقلاني، صفحة 25)، عندما كانت أوروبا موبوءة بسبب كثرة الفئران والبراغيث المصابة بالطاعون الدُملي (اللمفاوي) وفي صيف سنة (748هـ/ 1347م) كان الطاعون منشراً بميناء مسينا بإيطاليا ثم انتقل في السنة الموالية إلى مدن نابولي وجنوا وبيزا ومرسيليا حتى وصل الإسكندرية ومنها إلى تونس، حيث اعتلت الفئران السفن التجارية الجنوبية من ميناء كافا على سواحل البحر الأسود التي تجوب سواحل البحر المتوسط شمالاً وجنوباً شرقاً وغرباً لنقل البضائع التجارية بين مدنه وجزره المهمة تجارياً، وخلال بضعة أشهر بداء هذا الوباء الغير معروف في ذلك الوقت بالانتشار بين الناس ليفتك بالنساء خاصة الحوامل والرجال والأطفال على جانبي البحر، ومنه بداء ينتشر في العديد من المناطق حتى البعيدة على السواحل الموجودة في عمق الداخل، ومع ندرة المعلومات التي يُعتمد عليها قد يبدوا أنه خلال السنوات الخمس (748- 752هـ/ 1347- 1351م) انتشر هذا الموت الأسود (حسن، 1999، صفحة 605) (واتس، 2010، صفحة 56).

عم الطاعون في كامل بلاد إفريقية في تلك الموجة القاتلة بمدنها وأريافها وجبالها وصحاريها، وأثر على الديموغرافية السكانية بموت نسبة كبيرة من سكانها الذي خلف وراءه ضياع لأموال ضحاياه وموت حيواناتهم ومواشيهم، على اعتبار أن الجبال والواحات الصحراوية أقل تضرراً من المدن الساحلية والبلاد الواقعة على طول المسالك التجارية، إذ كان فصل الصيف عامل مساعد في انتشار هذا الوباء بين المناطق الساحلية (حسن، 1999، صفحة 610)، حيث يصيب الوباء تلك المناطق من 10- 15 سنة، على خلاف بلاد الواحات المنعزلة ومجالات القبائل البدوية النائية التي ضلت خزاناً بشرياً هاماً التي لم يظهر فيها منذ مائة عام (الأفريقي، صفحة 68). وعلى أساس ذلك انتقل السلطان الحفصي (حسن، 1999، صفحة 601) أبو إسحاق إبراهيم (751-770هـ/1350-1368م) (المقطوف،

2012- 2013، صفحة 160) سنة (758هـ/ 1453م) إلى توزر حتى يكون في مأمن من الإصابة بالوباء الذي حل في تونس، مما يشير إلى أنها كانت في مأمن من هذا الوباء، وما يزيد من التأكيد على الوهن الديموغرافي الذي طرأ إثر الطاعون ما قامت به بلاد الجريد من التمرد على السلطان الحفصي طيلة النصف الثاني من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، يدل على ازدياد الأهمية الديموغرافية لهذه الجهة فيما كانت تشكو بقية البلاد من الوهن الديموغرافي (حسن، 1999، صفحة 601).

كان القحط أكثر حدوثاً من الطاعون، إلا أنه أقل إبادة، إذ يتسبب في المجاعات التي تعقب سني الجفاف أو هجمات الأعداء، كما أنه يضر بالاقتصاد العام للدولة، وأمام هذا الوضع تناقص التعداد السكاني خاصة في البوادي وقلت الموارد الاقتصادية التي ساهمت بالتعجيل في انحدار هذه الدولة (السباني، 2006، صفحة 456)، ومنذ أوائل عام (862هـ/ 1457م) عرفت إفريقية القحط الذي تسبب في انعدام المؤن خاصة في العاصمة، وارتفعت الأسعار بصورة جعلت السلطان أبو يحيى زكرياء الثاني (893-899هـ/1487-1493م) يتدخل في هذا الأمر ويأمر بفتح المخازن التموينية الخاصة لمواجهة الموقف، ففي أواسط القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي حل بمدينة تونس جوع ناتج عن نقص في الإنتاج الزراعي في الأرياف، مما تسبب في مجاعة كبيرة أدت إلى وفاة العديد من البشر الذين بدئوا يتساقطون أمواتاً في الأسواق والأزقة التي كانت الملجأ الحيوي الوحيد الذي يلجأ إليه كل الجائعين والفقراء بحثاً عن رغيف الخبز (الزركشي، صفحة 134) (السباني، 2006، صفحة 756؛ حسن، 1999).

استشهد على ذلك الوضع المتردي في المدينة ما جاء على لسان أبي الحسن الشاذلي الذي تحدث فيه قائلاً: "لما دخلت مدينة تونس وجدت فيها مجاعة شديدة ووجدت الناس يموتون في الأسواق، فاشتريت الخبز من باب المنارة وناولته الناس فتناهبوه، ثم أخرجت الدراهم فناولتها الخباز فوجدتها زائفة[*] " (حسن، 1999، صفحة 756)

كثرت المجابي زمن الدولة الحفصية والتي بدورها شكلت ثقلاً على مختلف الفئات العاملة، إذ فرضت جملة من المكوس على التجار والحرفيين والباعة بالأسواق في بجاية وأعمالها، إذ كشفت مسألة الفقيه أبي العباس أحمد البجائي (نسبة إلى مدينة بجاية) الشريف والتي طلب فيها الفتوى من ابن الحاج التلمساني (ت 930هـ/ 1523م) حول موضوع كثر فيه الظلم والجور وانتشرت فيه مختلف الآفات كشرب الخمر، وكثرت فيه أعمال المكس على الباعة في الأسواق، الذين اضطر البعض منهم إلى التوقف على هذا العمل إلى حين أخذ العلم من أهله دون قدرته على تغيير المنكر إلا قليلاً، فهل يجوز له شراء المبيعات التي عليها مكس إن تحتم عليه الأمر دون أن يقع في المهالك؟ فكان جواب الفقيه المذكور: هو هجرة المكان المقصود وعدم المكوث فيه إلا إذا انسدت به السبل، وأن العلم لا يأخذ إلا من يلتمس فيهم الورع، ويتجنب الشاري المأخوذ في المكس من غاصبه ويشتري مما بقي على ملك صاحبه (مزدور، 2008- 2009، الصفحات 74- 75).

[*] يقصد بها النقود النحاسية الحندوس التي سنا الحفصيون زمن السلطان المستنصر بالله على غرار التي بالمشرق، فضربت ناقصة ومغشوشة، وتم قطع هذه المقود سنة (661هـ/1263م). (حسن، 1999، الصفحات 676- 677).

من أسباب المجاعات ما يحدث من انهيار في هرم الدولة، وهو ما يتوافق مع نهايتها، لأنه كانت تجبي منهم الكثير من الجبايات التي جعلت من السكان يقللون الإنتاج الزراعي الذي هو ناتج عن الاحتكار للمزارعين مع تنوع الظروف الطبيعية الأخرى مثل ارتفاع درجات الحرارة وقلة سقوط الأمطار في بعض المواسم، وهذا ما يسبب في غلاء الزرع.

ومن الأسباب الأخرى في انتشار هذا الوباء في المنطقة هو فساد الماء والأطعمة والهواء، الذي يؤدي إلى تعكر الدم وتسمم الجسد، مع الاعتقاد بالأسباب الغيبية وهي وخز الجن بناء على حديث الرسول صلى الله عليه وسلم وهو "الطاعون من وخز الشيطان" لما يقع بالشخص المصاب من علامات الصرع (حسن، 1999، صفحة 605).

هذا ما يعني أن الوباء جرف الأماكن الكثيرة السكان والمختلطة بالتجارة الخارجية والتي تتلقى في السفن التجارية الموبوءة القادمة من أماكن شتى من العالم، مع العلم أنه يعتقد أن وباء الطاعون قد ظهر في الصين في بادئ الأمر وتحديداً حول بحيرة بالكاش، شمال منغوليا، بعد أن توقف عن الظهور لمدة حوالي ست قرون من الاندثار، حيث وصل إلى الموانئ المتوسطية عن طريق طرق التجارة التي تمر عبر بحر قزوين ومنها وصل إلى سواحل المتوسط الذي بدوره كان متصلاً اتصالا وثيقاً بطرق التجارة البرية والبحرية بين جميع مرافئه (حسن، 1999، صفحة 605)خاصة شمال أفريقيا المتصلة بعلاقات تجارية قوية مع بلاد السودان أواسط أفريقيا والتي تجلب معها مختلف البضائع الأفريقية المحتاجة إليها أوروبا مثل الرقيق والذهب وفضة والنحاس وريش النعام وغيرها كثير ومتنوع.

كانت نسبة الإصابة في الشرق الأوسط الإسلامي مرعبة للغاية، فقد مات مابين ربع وثلث السكان تقريباً خاصة في عام (750هـ/ 1349م) وفي السنوات التي تلت عام (752هـ/ 1351م) استمر الطاعون الدُملي في الظهور بطريقة متفرقة، مع عدم وجود أي حصانة لأي فئة من الأفراد (واتس، 2010، صفحة 66)،هذا الطاعون الجارف الذي ساهم هو والظروف الطبيعية في القضاء على العدد الهائل من البشر؛ رجّع شبح المجاعة وخيم من جديد على مدينة تونس سنة (755هـ/ 1354م)، وارتفع سعر الطعام في تونس حتى بلغ القفيز الواحد من القمح 11 دينار ذهباً والشعير إلى نصف ذلك (حسن، 1999، صفحة 676)، ومن سنة (854هـ/ 1450م) ظل هذا الوباء كزائر متكرر ينتقص من عدد السكان حتى عام (1840م) (واتس، 2010، صفحة 66).

دخل الدجل والخرافات والتكهنات في أسباب ظهور وباء الطاعون المرعب القاتل الذي افزع البشرية عامة في العديد من التوقعات منهم من نسبه إلى كوارث طبيعية ومنهم من نسبه إلى غضب الله وغير ذلك من الظنون التي جعلا من الناس يتجهون إلى عدة وسائل من أجل التخلص من المرض أو العدوة به، حيث ربط البعض حدوث مرض الطاعون بالزلازل والأمطار الغزيرة التي تساعد في انتشار الوباء، مثل وباء سنة (748هـ/ 1347م) وذهب آخرون إلى ربطه بالمجاعات وارتفاع الأسعار، على سبيل ما جاء في كتاب ابن أبي زرع عن مجاعة ووباء سنة (694هـ/ 1294م) "وفيها كانت المجاعة الشديدة والوباء العظيم"، ولكن لا يخفى علينا أنه يوجد مجاعات بدون أوبئة وأوبئة بدون مجاعات، في وقت اقترن طاعون سنة (847هـ/ 1443م) في تونس بالزلزال (حسن، 1999، صفحة 605) هذا ما جعلهم يربطون الأمر بقوة الطبيعة وغضبها.

حيث أطنبت المصادر والدراسات في الإحاطة بطاعون منتصف القرن (الثامن الهجري/ منتصف القرن الرابع عشر الميلادي)[*] الذي أثر على كافة مناطق حوض البحر المتوسط، التي اختصت بأبرز مظاهر انتشار الوباء وحجم تداعياته بالوقوف على المخلفات والخسائر البشرية (يماني، 2019، صفحة 114)، وكانت مدينة تونس الأكثر تضرراً بين سكان إفريقية نضراً إلى قوة الكثافة السكانية، حيث بلغ عدد الوفيات يومياً في الحضرة ألف شخص، بمعنى أذا استمر هذا العدد طيلة شهر كامل فإنه بذلك يبلغ عدد الوفيات ثلاثين ألف شخص، وهو ما نعتبره رقماً أدنى مقارنة مع ما وقع بالمشرق، حيث كانت نسب الوفيات أكثر مضاعفة، ربما للأعداد الهائلة من البشر في تلك العواصم المشرقية مثل القاهرة كان يموت فيها يومياً ما بين العشرة والعشرين ألف، حتى بلغ مدة شهرين تسع مائة ألف شخص، وفي دمشق بالشام بلغ ألفاً ومائتي إنسان في اليوم، وفي حلب أيضا خمس مائة إنسان، وبغزة بلغ عدد الموتى 22 ألف شخص، أما في مدينة فاس بالمغرب الأقصى فقد بلغ أربعة ألاف، ومن الملاحظ أن رقم ألف ذكر مرة ثانية بخصوص هذا الوباء وإحاطته مدينة تونس سنة (788هـ/ 1368م) طيلة أشهر السنة؛ حيث كان هذا الوباء قد انتشر في البلاد في ذي القعدة من نفس السنة المذكورة إذ ابتدأ من مدينة تونس، وبقي في تزايد مستمر إلى شوال من نفس العام، حتى بلغ ألف ضحية كل يوم، وبالغ بعض المؤرخين لتلك الحقبة بازدياد عدد الموتى الرهيب في اليوم، إذ أورد ابن أبي دينار بأنه بلغ 14 ألف شخص في كل يوم، حتى وقع إحصاء 400 ألف إضافة إلى مائة ألف أخرى لم تدخل الإحصاء (حسن، 1999، صفحة 611).

طالت مدة حكم أبي فارس عزوز على سدة الحكم التي تعرضت من خلالها البلاد لعدة مراحل متنوعة من الظروف، حيث بقي في الحكم واحد وأربعون سنة بعد أن بويع بالخلافة بعد موت والده أمير المؤمنين أبي العباس أحمد ابن الأمير أبي عبد الله محمد ابن السلطان أبي يحي بمدينة قسنطينة شرق البلاد سنة (796-837هـ/ 1393-1433م)، هذا ما جعله يهتم بالوضع الصحي للبلاد قليلاً ويقوم بإنشاء غير كثير للبيمارستانات لمواجهة الأوبئة والأمراض (الزركشي، صفحة 155) والأزمات التي تحدث في البلاد بين الحين والآخر، إذ جل المصادر المعاصرة لفترة العصر الوسيط أكدت أن وباء الطاعون كان أول ظهور له من أواسط أسيا أو ما يعرف ببلاد الخطاء، ما جعل الخليفة يأخذ في عين الاعتبار أن تتعرض البلاد لموجات لأوبئة متعددة ومتنوعة فتاكة.

وفي جمادي الأولى من سنة (856هـ/1452م) حل الوباء بتونس (الزركشي، صفحة 131)مرة أخرى وكانت المجاعات متكررة في الدولة ما جعلها تمنع تصدير الحبوب بكل حرية وكذلك منعت من رفع أسعارها، ومنعت المتاجرة في الأسلحة مع مدينة جنوا الايطالية سنة (856هـ/ 1452م) وذلك تجنباً لحدوث المجاعات؛ تجارة الأسلحة التي تستنزف الكثير من الأموال وتهدد اقتصاد الدولة خصوصاً في وقت تعرضت فيه الدولة إلى العديد من الأمراض والهبات الكبيرة لمرض الطاعون (المقطوف، 2012- 2013، صفحة 128).

[*] ألفت في ذلك عدة مؤلفات منها رسالة الطاعون، وهو عمل من طب لمن حب، وكتاب ضخم يقع في سفر واحد، ويبحث في مختلف الأمراض وكيفية علاجها. (بلهواري و عبو، 2019) .

في عهد الخليفة أبو عمرو عثمان (839-893هـ/1435-1487م) أوائل سنة (860هـ/ 1455م) ارتفعت الأسعار وغلت المؤن حتى بلغ سعر قفيز القمح 4 د. ذهبا والشعير على النحو من ذلك، واستمر الحال إلى ما هو عليه حتى عهد السلطان أبو يحي زكرياء الثاني (893-899هـ/1487-1493م) إذ اشتكى الناس من قلة الطعام، وغلاء أسعارها (المقطوف، 2012- 2013، صفحة 128)، فأمر بأن يخرج من المخزن ما يصنع منه ألف رغيف من الخبيز توزع بتونس بباب ينتجمي، ابتدأ بذلك في 3 ربيع الثاني واستمر على هذا الحال حتى شهر جمادي الأولى (رجب) ، إلى أن كثر الطعام الجديد ورخص ثمنه، وفي رجب من نفس السنة هبت رياح قوية اقتلعت الكثير من أشجار الغابات، ثم سقطت أمطار غزيرة يصحبها البرد الذي قدر حجمه بحجم بيضة الدجاجة وذلك في منتصف شهر شوال (حسن، 1999، صفحة 608).

أثر هذا الوباء على النشـــاط التجاري في المنطقة، حيث توقفت المعاملات التجارية بين مدينة جنوا ومدينة تونس وذلك في ذي القعدة من ســنة (872هـ/ 1469م) بسـبب انتشـار ذلك الوباء في كافة بلاد إفريقية، حيث بدأ في التزايد إلى شــوال من ســنة (873هـ/ 1468م) حتى قيل أنه بلغ عدد الوفيات ألف في اليوم الواحد، ثم ارتفع في ذي الحجة من مكمل العام نفسـه (الزركشي، صـفحة 143)، هذا ما جعل من مدينة جنوا أن تأخذ الخطوات الاحترازية وذلك بحجر نفسها من الإرساء على الشواطئ التونسية، الذي لم يستمر إلا وقتاً بسيطاً حرصاً من أن تكون العدوة قد انتقلت إلى بحارتهم وتجارهم الذين هم مختلطون بســكان المنطقة إثر ممارســة التجارة فيها (المقطوف، 2012-2013، صفحة 114).

انتشر داء الزهري على سواحل المتوسط الأفريقية في القرن التاسع الهجري تسعينيات القرن الخامس عشر، أي في عقب سـقوط الدولة الحفصـية بقليل والذي جاء من فرنسـا عن طريق التجارة وأصـبح يهدد كل العالم وذلك بتوجه البحارة والتجار والمبشـرين والوكلاء الآخرين في عصـر الكشـوف الأوروبية، حيث أسـس هذا المرض قواعد على البحر المتوسط في شمال أفريقيا، وبعد ذلك تحرك إلى بلاد جنوب شرق أسيا (واتس، 2010، صفحة 321).

إن سـوء التغذية الناتج عن تناول أغذية غير مفيدة ومتعرضة للفسـاد والتلوث من البيئة المحيطة بها مثل استنشاق الهواء الملوث وتكاثر والحشــرات الضــارة والناقلة للأمراض التي تســبب في تعفن الأكل ونمو البكتريا وغيرها من نمو الفطريات على الأطعمة أو غيرها، لعواقب أكل مثل هذا النوع من الأطعمة المهم.

الأوبئة الناتجة عن البيئة المحلية: سـد الجوع والتخلص منه، وربما أيضـاً بسـبب الفقر الذي يتعرض له سـكان تلك المناطق بســبب تقصــير الدولة في الاهتمام بموارد الاقتصــادية، ولهو خلفائها بالملذات والهوايات التافهة التي لا تسمن ولا تغني من جوع، الأمر جعل من رب الأسرة أن يوفر أي نوع من الطعام المهم أنه يكفي الحاجة للأكل.

إذ تعتبر الأوســاخ من أهم مســببات بعض الأمراض والأوبئة، خصــوصــا في المناطق التي فيها مياه راكدة ومســتنقعات، لأنه عند تعرضــها للأوســاخ والتكدســات المختلفة من الفضــلات ومخلفات الأطعمة والمنازل وجثث الحيوانات والمخلفات اليومية المتعددة التي يتخلص منها أصحابها بوضعها في الوديان والمستنقعات والعيون الجارية تسبب في نمو بعض الفطريات وتجمع للحشرات الضارة وتطايرها بين الأحياء السكنية وعلى المارة من جوارها أو عبث

الأطفال ولهوهم باللعب بها أو بالقرب منها، تسبب في نقل هذه الأمراض التي نشأت عن ذلك بين السكان والذي تناقل بدوره بينهم من تلقاء أنفسهم أثناء تعاملهم مع بعض، ومن هذه الأمراض الملاريا (حمى المستنقعات) التي عاثت فساداً بين السكان خصوصاً في قابس التي تميزت بوخامتها[*] (برنشفيك، 1988، صفحة 393)، ومن أعراض هذا المرض إصابة صاحبه بفقد تحكمه في البول لإصابة ذكره من أسفل (الدالي، 2008، صفحة 83)، هذا النوع من الأمراض وما تتعرض له البلاد من أوبئة وأمراض يكثر في المدن القروسطية، على عكس الأرياف (برنشفيك، 1988، صفحة 939).

دخل الطب الشعبي في محاولته للتخلص من هذه الأمراض والأوبئة، ودخل معه الإيمان بأن الأمراض لها علاقات روحانية، حيث أباح الفقيه الأبي استعمال الطريقة المتمثلة في التداوي بشرب ماء من إناء توجد في قعره قطع فضية، ولحظ أن نساء قسنطينة كن ينسبن بعض الحُميات إلى خبث الأرواح التي تتقمصها بعض السلاحف الموجودة بالقرب من فوار ماء ساخن مجاورة وهي الحامة، ولتهدئة خاطرها والحصول على شفاء المرضى، كن يتقربن إلى تلك الحيوانات بذبح بعض الدجاجات البيضاء ووضعها مع جميع ريشها في قدر محاطة بشموع صغيرة، وبعد ذلك يستحوذ عليها بعض الأشخاص الفاقدي الذمة، ويحتفون بها، باعتبارها نعمة غير مترقبة (برنشفيك، 1988، صفحة 393).

نتيجة لهذه ا أزمات المتتالية والأوبئة الدورية كثر التذمر من الزمان، وسيطر الشعور باقتراب نهاية الكون، وساد الخوف والرعب، مما ساعد على انتشار ثقافة الطرق والزوايا في المجتمع، ولم تكن مقتصرة على بعض الفئات كما كان الأمر في القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي، إنما شملت عديد الشرائح الاجتماعية، بما فيهم السلطان والفقيه، والتاجر وغيرهم.

معدل المجاعات وهجمات الآفات والكوارث الطبيعية: بلغ معدل هجمات هذه الأوبئة والآفات على إفريقية عامة 14,5 كل سنة، ويتراوح أقصاها بين 19 سنة وسبع سنين، وكانت أهم السنوات التي هجم فيها هذا الوباء هي: (749هـ/ 1348م) وتراجع سنة (753هـ/ 1352م)، وفي سنة (765هـ/ 1363م- 766هـ/- 1364م) وقع الوباء أيضاً بتونس، ثم سنة (776هـ/ 1374م) حيث صحب الوباء مجاعة كبيرة، ثم تراجع إلى سنة (796هـ/1393م-796هـ/ 1394 م) ثم اندثر إلى سنة (803هـ/ 1400- 805هـ/ 1402م) ومنها استقر الوضع إلى حلول سنة (816هـ/ 1413م) ثم تراجع وبقي في التراجع وعاد في أوائل سنة (847هـ/ 1443م)، في نهاية يوم الخميس 12 من صفر سنة (850هـ/ 1446م) حدث زلزال في البلاد، وعاد في الظهور مرة أخرى في جمادي الأولى سنة (858هـ/ 1453م) بدأ الوباء يظهر في تونس ما جعل الخليفة أبو يحي زكرياء الثاني أن ينتقل من القصبة إلى سانية باردو والتي منها انتقل إلى سانية توزر (حسن، 1999، الصفحات 613- 615).

---

[*] الوَخْمُ والوَخِمُ، والوخِيمُ: الرجلُ الثقيلُ ج وِخامُ، وَأَخْامٌ. وَخُمَ- ككَرُمَ- وَخامةً، وَأَرضٌ وَخْمَةٌ وَوَخِيمَةٌ: لا يَنْجَعُ كَلَأُها. وَطعامٌ وَخِيمٌ: غَيْرُ مُوافِقٍ. وَتَوَخَّمضهُ، وَاسْتَوْخَمَهُ: لم يَسْتَمْرِئْهُ. (الزاوي، 1983- 1984).

وظل هذا الوباء يتراجع ثم حلت سنوات (872- 837هـ/ 1467- 1468م) وفي سنة (866هـ/ 1461م) حل الغلاء الكبير في عسكر السلطان الحفصي (حسن، 1999، الصفحات 613- 618) أبو عمرو عثمان (839-893هـ/1435-1487م) (المقطوف، 2012- 2013، صفحة 161) ومن ثم بقي في الجمود إلى سنة (872هـ/ 1467م) وفي ذي القعدة منها ابتدأ الوباء بتونس وظل في تزايد إلى شوال من سنة (873هـ/ 1468م) حتى بلغ عدد الوفيات ألفاً في كل يوم حتى بلغ مكمل ذي الحجة من نفس العام (حسن، 1999، الصفحات 613- 618).

وبحلول سنة (895هـ/ 1489م) حل الوباء بتونس وعظم حاله حتى بلغ عدد الموتى في اليوم الواحد 14 ألف شخص، وتم حصر ضحايا هذه الجائحة في الرّمام بما يقارب 400 ألف ضحية عدا من لم يتم حصرهم خارجها ما بلغ 100 ألف (حسن، 1999، صفحة 618).

وبذلك بلغ معدل الهجمات على إفريقية كل 14,5 سنة وبتراوح أقصاها بين 7 سنوات و19 السنة، وبذلك يكون قد تأخر مجيء الطاعون إلى إفريقية عن غيرها من القارات وأهمها أوروبا القريبة.

جعل الأطباء العدوى في سبع علل هي: الجذام والجرب والجذري والحصبة والبخر والرمد والأمراض الوبائية (حسن، 1999، صفحة 615)، على أن مسألة عدوى المرض لم تكن أمراً محسوما في ذلك العصر، حتى أن الفقيه الأندلسي طرح السؤال على فقيه تونس في ذلك الوقت، ذلك أن النصوص كانت متضاربة إذ كان الحديث النبوي الأول يذكر: "لا عدوى ولا طيرة ولا صفر" على عكس أحاديث أخرى حثت على الفرار وعدم مخالطة الموبوئين وأهمها: "فر من المجذوم فرارك من الأسد"، "لا يورد ممرض على مصح" (حسن، 1999، صفحة 608).

تؤثر هذه الأمراض جملة على الوضع الاقتصادي بحيث تجعل من المريض أن يفقد عمله هو ومن يقم برعاية والاهتمام به، ناهيك عن إبطال عجلة الإنتاج وتعطيلها، فالخوف من العدوى قد يفضي إلى التباعد الاجتماعي أو إغلاق الكيانات التجارية والنقل وغيرها من الخدمات التي تؤدي إلى تعطيل الأنشطة الاقتصادية، وكذلك الأنشطة الاجتماعية القيمة، إن القلق من انتشار مجرد حالة فاشية تحت السيطرة نسبياً قد يؤدي إلى تجارة أقل (بلوم، كاداريت، و سيفيللا، 2018، صفحة 46).

خاتمة:

من خلال بحثنا هذا تتضح لنا جملة من الأمور التي تؤدي إلى وقوع الأمراض، والتي تنقل بدورها إلى أوبئة تفتك بالمجتمع منها:

- ✓ البيئة السليمة لبناء المدن، إذ أكد العلماء والفقهاء والأطباء على تخير الأماكن الصحية التي تصلح كأماكن لتأسيس المدن، فيجب أن يكون الموضع غير موبوء أو عرضة لوقوع الأمراض، فلا يكون بالمرتفع ولا بالمنخفض.
- ✓ يجب أن يتمتع المكان بهواء سليم عليل خالي من الرطوبة والعفن.
- ✓ يجب أن يكون المكان محاط بالأرباض الزراعية كي تخلق مناخاً صحياً، وذا مردود اقتصادي، فيما لو تعرضت المدينة لظرف طارئ فيسهل إيصال الأغذية والمؤن إليها.

- ✓ إن لإدارة البلاد بعامة والمدن خاصة الدور الرئيس في الحفاظ على المستوى المعيشي للبلاد وقت الكوارث أو أي تهديد طبيعي داخلي أو خارجي، وعدم هد كاهل الأهالي بالضرائب التي تؤدي إلى الفقر ومن ثم إلى المجاعة التي تفتك بالسكان.
- ✓ الأمراض والأوبئة تدفع بالتجار إلى ممارسة الاحتكار الذي يؤدي إلى صعوبة حصول الناس على قوتهم مما يؤدي إلى وقوع المجاعة.

لأجل تحقيق السلامة للمجتمع والبيئة يقترح إتباع الأتي:

- ✓ يحافظ على البيئة، وهذا يرجع بالمسؤولية إلى حكومة الدولة والمجتمع عامة.
- ✓ المحافظة على نظافة المنازل والالتزام بتعليمات الأطباء وإتباع وصايا النبي صل الله عليه وسلم في المجال الطبي لا سيما في تطهير المنزل.
- ✓ عدم ترك القمامة متراكمة في الأماكن العامة والساحات والترع والبرك المائية حتى لا تعمل في إفساد وتلوث الهواء الذي بدوره يؤدي إلى الأمراض الوبائية.
- ✓ لتخلص من جثث الحيوانات وذلك بردمها أو حرقها حتى لا تسبب في تلوث الجو وإفساده وبذلك تؤدي إلى الأمراض الوبائية.
- ✓ الإكثار من الزرع وغرس الأشجار التي تعمل على تلطيف المناخ وجعل الهواء صالحاً ونظيفاً.

قائمة المصادر والمراجع

1) أبو عبد الله محمد (من مؤرخي ق 9هـ/ 15م) الزركشي. تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية (المجلد 2). (محمد ماضور، المترجمون) تونس، تونس: المكتبة العتيقة.

2) أبي عبد الله الرعيني أبي دينار. (1286). كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتؤنس. مطبعة الدولية التونسية بمحاضرتها المحمية.

3) أحمد بن حجر 773- 852 العسقلاني. بذل الماعون في فضل الطاعون. (أحمد عصام الكاتب، المحرر) الرياض: دار العاصمة.

4) أحمد عبد الرزاق جبر. (2009). الطاعون الخطر القادم. صفحة 3.

5) الطاهر أحمد الزاوي. (1983- 1984). مختار القاموس مرتب على طريقة الصحاح والمصباح المنير. طرابلس، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية.

6) الهادي المبروك الدالي. (2008). التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما وراء الصحراء من القرن الخامس عشر وحتى بداية القرن الثامن عشر. 2، صفحة 83.

7) حميدة رايعي، و رتيبة رحموني. (2014-2015). الأوبئة في العصر الوسيط من خلال كتاب الطبري والذهبي من القرن (01- 08ه) إلى (07- 14م).

8) ديفد بلوم، دانيال كاداريت، و وجي بي سيفيللا. (يونيو، 2018). الأوبئة والاقتصاد الأمراض المعدية الجديدة ومتجددة الظهور يمكن أن تختلف داعيات اقتصادية بعيدة المدى. التمويل والتنمية ، صفحة 46.

9) رشيد يماني. (مارس، 2019). مواقف أطباء مملكة غرناطة من وباء منتصف القرن الثامن الهجري. كان التاريخية علمية. عالمية. محكمة ، صفحة 114.

10) روبار برنشفيك. (1988). تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م ج2. (حمادي الساحلي، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الغريب الإسلامي.

11) سمية مزدور. (2008- 2009). المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588- 927ه/ 1192- 1520م) (المجلد غير مطبوعة). الجزائر/ قسنطينة: جامعة منتوري.

12) شلدون واتس. (2010). الأوبئة والتاريخ المرض والقوةوالامبريالية. (صبحي عماد، المحرر، و أحمد محمود عبد الجواد، المترجمون)

13) صالح الصادق السباني. (2006). ليبيا أثناء العهد الموحدي والدولة الحفصية (ق 6- 10ه/ 12- 16م) القرن السادس- العاشر الهجري/ الثاني عشر- السادس عشر الميلادي. طرابلس: مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية.

14) فاطمة بلهواري، و دليلة عبو. (2019). أطباء الدار السلطانية في عصر بني الأحمر (635- 897ه/ 1238- 1498م) وجهودهم الطبية مج 5. المجلة الجزائرية للبحوث والدراسات التاريخية ، 9، صفحة 17.

15) ليون الأفريقي. وصف أفريقيا (المجلد 2). (محمد حجي، و محمد الأخضر، المترجمون) دار الغرب الإسلامي.

16) محمد حسن. (1999). المدينة والبادية بإفريقية في العهد الحفصي الجزء الأول المجلد xxxII. تونس، تونس: كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية.

17) محمود كعت. (1964). تاريخ الفتاش من أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس. هوداس ودلاقوس.

18) مريم الصغير المقطوف. (2012- 2013). العلاقات التجارية البحرية بين الدولة الحفصية والمدن الإيطالية (جنوا وبيزا والبندقية) أنموذجاًفي الفترة من (625- 906ه/ 1228- 1500م). جنزور، طرابلس: تحت النشر بمركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية.

الأوضاع الصحية في إيالة طرابلس الغرب في عهد الاسرة القرمانلية 1711. 1835م

Health conditions in the western province of Tripoli during the era of the karamanli family (1835 .1711)

د . علي سعد مسعود محمد

جامعة غريان/ ليبيا

Dr . Ali Saad Masoud Muhammad

Gharyan University/ Libya

الملخص:

إن دراسة الوضع الصحي في إيالة طرابلس الغرب خلال العهد القرمانلي مرتبطاً بالظروف الصحية والأحوال الاقتصادية والاجتماعية التي عاشها الشعب الليبي في التغيرات والتقلبات السياسية خلال القرون الماضية .فالوضع الصحي عموماً في أغلب أجزاء الايالة كان متردياً، على الرغم أن إيالة طرابلس لا يوجد بها أمراض مستوطنة ، لكنها لم تنج من حين لأخر من بعض الامراض الوافدة، حيث كن هناك عدة طرق لانتشار الأوبية،لم يهتم القلرمانليون بعمل إجراءات وقاية ضد الامراض الفاتكة ، فلم تعمل محاجر صحية أو تبني مستشفيات ، أو تهتم بخلق كوادر متخصصة، وانعدام الوعي الصحي لديهم نتيجة الجهل والفقر الذي جعلهم يلتجئون إلى الاساطير والخرفات والأحجبة، وزيارة الاضرحة في علاج أمرضهم.

الكلمات المفتاحية: إيالة طرابلس، الطاعون، القرمانلي، الصحي، الأمراض، الأوبئة.

Abstruct :

The study of the health situation in the western province of Tripoli during the Karamanli era is linked to the health conditions and the economic and social conditions that the Libyan people lived through in the political changes and fluctuations during the past centuries. But it did not escape from time to time from some incoming diseases, as there were several ways for the spread of the epidemic, the Qarmanli people did not care about taking preventive measures against deadly diseases, they did not work quarries or build hospitals, or care about creating specialized cadres, and their lack of health awareness as a result of ignorance and poverty Which made them resort to legends, myths and mysteries, and visit shrines in the treatment of their illnesses.

Keywords: Tripoli Eyalet, plague, karmanli, health, diseases, epidemics

مقدمة:

يعد تاريخ الأوضاع الصحية في إيالة طرابلس الغرب واحد من الموضوعات المهمة التي تفتقر إليها مكتبة الدراسات التاريخية الحديثة، أذ أنه يمثل نافذة يمكن من خلالها إلقاء الضوء على حالة المجتمع الطرابلسي الصحية، في عهد الأسرة القرمانلية وما يتصل بها من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في مرحلة من أدق مراحل تطوره في العصر الحديث، حيث تكاد المؤلفات التاريخية الحديثة أن تكون خالية من البحوث المفصلة في مثل هذا الموضوع، الذي يتعلق بجانب مهم من تاريخ إيالة طرابلس الغرب، إذ كانت الحالة الصحية في إيالة طرابلس الغرب خلال العهد القرمانلي مرتبطاً بالظروف الصحية والأحوال الاقتصادية والاجتماعية التي عاشها الشعب الليبي في التغيرات والتقلبات السياسية خلال القرون الماضية. فالوضع الصحي عموماً في أغلب أجزاء الايالة كان متردياً، على الرغم أن إيالة طرابلس لا يوجد بها أمراض مستوطنة ، لكنها لم تنج من حين لأخر من بعض الامراض الوافدة، حيث كان هناك عدة طرق لانتشار الأوبية، فمنها المسافرين سواء الذين يأتون إلى الايالة أو الذين يعبرونها بواسطة البرى من خلال تجارة القوافل أو التجارة البحرية، أو عن طريق البضائع، وكانت طرق العدوى متعددة وسريعة الانتقال، كما تعرضت الايالة في تلك الفترة إلى موجات من الجفاف نتيجة قلة الامطار والتي تسببت في حدوث مجاعات رهيبة ومهلكة ، زادة من معانات السكان مما دفعهم للهجرة إلى المناطق المجاورة لم يهتم القلرمانليون بعمل إجراءات وقاية ضد الامراض الفاتكة، فكان حثهم على إنشاء مراكز صحية ضعيفاً وأنشاؤهم للمستشفيات شبه معدوم، ولم تهتم بخلق كوادر متخصصة، وانعدما الوعي الصحي لديهم نتيجة الجهل والفقر الذي جعلهم يلتجئون إلى الاساطير والخرفات والأحجبة، وزيارة الاضرحة في علاج أمرضهم.

يمثل هذا البحث دراسة تحليلية تهدف إلى التركيز علي المظاهر الأساسية للأمراض والاوبئة التي تعرضت لهم إيالة طرابلس الغرب في عهد الاسرة القرمانلية، ما استوجب بحثه ومناقشته ليكون واضحاً للعيان من خلال الإجابة عن العديد من التساؤلات المتعلقة بهذا الموضوع، التي تقود الباحث إلى الإجابة عنها ومن بينها، ما هي أهم الأمراض والأوبئة التي كانت منتشرة في الايالة، وماهي أم الإجراءات الوقاية التي اتخذت لمواجهة هذه الامراض.

المبحث الأول: الأمراض الوبائية الخطيرة المنتشرة في إيالة طرابلس:

إن دراسة الوضع الصحي في إيالة طرابلس الغرب خلال العهد القرمانلي مرتبطاً بالظروف الصحية والأحوال الاقتصادية والاجتماعية التي عاشها الشعب الليبي في التغيرات والتقلبات السياسية خلال القرون الماضية (1 صفحة 221).فالوضع الصحي عموماً في أغلب أجزاء الايالة متردياً، حيث ترك أثره على مجمل الحياة الاجتماعية بما فيها مؤسسي الأسرة، فقد عانى الأهالي من أمراض عديدة وأوبية فتكت بأعداد هائلة من السكان، في وقت افتقرت فيه البلاد لأبسط الشروط الصحية، سواء في نقص الدواء أو

الأطباء أو عدم اهتمام المسؤولين أنفسهم بالمرافق الصحية وهو ما دفع الأهالي لمعالجة أمراضهم بطرق ووسائل بدائية كالكي بالنار والأدعية والأحجبة (2 صفحة 199 . 200) وكانت هناك عدة طرق سهلت انتشار الأوبئة، فمنها المسافرون سواء الذين يأتون إليها أو الذين يعبرونها بواسطة البرى من خلال تجارة القوافل أو التجارة البحرية، أو عن طريق البضائع ، وكانت طرق العدوى متعددة وسريعة الانتقال، فيكفي أن تمر القافلة على مكان موبوء حتى ينتقل المرض عبر المسافرين أو السلع ويستقر في المحطة التالية، فينتشر الوباء مسبباً في كوارث يصعب التكهن بها خصوصاً مع انعدام الوقاية والطرق العلاجية (3 صفحة 17)، ومن بين الامراض الوبائية الخطيرة المنتشرة الولاية :

وباء الطاعون:

هو مرض معد وبائي معروف ومنتشر منذ القدم كثير الانتشار في بلاد الشرق، وكان يسمى في أوروبا في العصور الوسطى (بالموت الأسود)* وعرف عند الصين باسم (تاؤون)، وحرفه العرب إلى اسم (الطاعون)، وهو مرض مصدره الفأر إذ ينتشر الميكروب في دمه ومنه إلى البراغيث، التي تنقل عدواه بدورها إلى الإنسان، كما أن هناك عوامل اخرى تسببت في تفشه تمثلت في فساد الهواء ، وعدم نظافة الماء والغذاء والملابس واماكن النوم (4 صفحة 23) وللمرض ثلاثة صور أولها: الطاعون الدملي، ويظهر على هيئة تضخم في العنق، والتهاب الإبط وتورمها، وثانيهما: الطاعون التسمي أو الدموي ويصيب الأنسان فجأة فيفقده الدراك والاحساس ويقع مصعوقاً، لذا سمي بالطاعون الصاعقي، لأن المصاب به يلقى حتفه خلال أربع وعشرين ساعة ، وهذا النوع من الطاعون هو الذي كان معروفاً منذ القدم فكان يحصد الناس حصداً ، واطلقت عليه العديد من الاسماء ، منها الطاعون الفوري ، وكان يظهر على هيئة دمامل أعلى الفخذ يصحبها ظهور بقع كبيرة مختلفة الألوان في أنحاء متفرقة من الجسم، وثالثها : الطاعون الرئوي الحاد، وهو اخطر أنواع الطاعون على الإطلاق لحدوث الالتهاب الرئوي الحاد ، وليس للفأر علاقة بنقل عدوى هذا النوع إذ أنه ينتقل من المصاب إلى السليم عن طريق الرذاذ، مسبباً التهاباً رئوياً (5 صفحة 24) وتمثلت أعراضه في حمى شديدة تصاحبها الام في الرأس وتكسر في الاطراف وضعف عام في الجسم وحرارة في الجلد وسرعة في النبض وفقدان الشهية وقيء وعطش ، وتستمر تلك الحمة بضع ايام وبعدها تظهر أعراض تتركز في أحد الاجهزة دون الباقي، حيث تتركز هذه الاعراض في كل من الجهاز الهضمي والجهاز الغددي حينما تحتقن الغدد في المفاصل كمفصل الورك والإبط المجاورة لها فينتج عنها خراريج تظهر في العنق والظهر والساق مع حدوث طفح جلدي ، بالإضافة إلى حدوث آلام في البطن والتهاب الكبد، ويصحب كل ذلك أرق واضطراب عام، وتكون تلك الأعراض سبباً في هلاك المريض

* يرجع تاريخ أنتشار الطاعون إلى القرن الثاني الميلادي، وكان أعظم أنتشار له في القرن السادس الميلادي حيث تفشى في أنحاء أوروبا وعرف بطاعون جستيان عام 1542م واستمر نصف قرن حصد خلالها الناس حصداً ، وتفشى بعد ذلك في موانى الصين والهند ومنها انتقلت عدواه إلى مصر في القرن الثامن عشر ، عن طريق العمال المصريين الذين كانوا يشتغلون بتلك الموانئ ، فحملوا معهم عند عودتهم إلى أرض مصر فتفشى في المجتمع الليبي . (26 صفحة 134)

في أسرع وقت (3 صفحة 19) وعصف هذا الوباء بالإيالة خلال فترات متعاقبة، قد تكون متقاربة أو متباعدة، ويرجح بعض الباحثين سبب انتقال هذا الوباء إلى الإيالة عن طريق حجاج قادمين من مكة المكرمة على ظهر سفن نقل مصرية (6 صفحة 239) ومن المرجح أن وصول هذا الوباء إلى طرابلس عن طريق منافذ برقة البحرية ، لأنه كان متفشياً بها وذلك عبر إحدى السفن . هذا كما يرجح أن الجهة التي كانت وراء نقل العدوى هي مدينة الاسكندرية، حيث أنه كان منتشر بها خلال تلك الفترة (7 صفحة 49) ويعتقد وصول الطاعون إلى طرابلس سنة 1741م عن طريق مصر التي أنتشر فيها خلال بدايات تلك السنة ، كما تزامنت الأوضاع الصحية السيئة بموجبة جفاف وقحط مما أدى إلى هجرة العديد من اهالي إلى الاقاليم المجاورة، وبالتالي كانت تلك الهجرات مدعاة إلى لانتشار الوباء إلى الأقاليم الأخرى (8 صفحة 140 .141) وقد ارتبط أنتشار المجاعات وأزمة الغلاء بالأمراض والأوبئة، والمجتمع الليبي كغيره من المجتمعات تعرض لأزمة الجفاف والجدب، وانتشار الأوبئة والطاعون وتفشي المجاعات (9 صفحة 179) إذ ثمة علاقة جدلية بين أزمة الوباء والطاعون وانتشاره، وكما هو معلوم بأن المجاعة كانت تجر خلفها الطاعون، وقد ظهرت أول إصابة في الايالة في يونيو 1733م حيث تفشى هذا المرض وقضى على أعداد هائلة من السكان سواء في المدينة أو خارجها في الضواحي والمزارع والمناطق القريبة منها (6 صفحة 298) وزادت الطين بلة تلك الحروب الضروس التي نشبت بين قبيلتي أولاد سليمان والفرجان الكبيرتين، وفي سنة 1781م، حلت بالايالة عدة مشاكل زادت من الوضع سوء، منها تجديد معاهدة 1699م مع انجلترا في ثلاثينات القرن الثامن عشر سنة 1730م التي كانت بدورها قائمة على اساس حماية المراكب الإنجليزية من هجمات المركب الطرابلسية، إضافة إلى تزايد الثورات الداخلية في فزان والجهات الغربية من الإيالة، وزاد الأمر سوءاً أنتشار الطاعون الذي أثر على الحركة العامة للإيالة ، والذي أدى بدوره إلى تدني الحملات البحرية إلى اقل مستوى (9 صفحة 181) لقد أدت سوء الأوضاع إلى خروج السفن الأوروبية خالية من موانئ طرابلس، وذلك لما وصفها القنصل الفرنسي في طرابلس السيد أندري بقوله إن تجارتنا المباشرة مع مملكة طرابلس ليست مزدهرة كما يجب أن تكون، من افتقار سكانها وانقطاع تجارتهم وتواصلهم مع ممالك فزان وبورنو أدت إلى تثبيط أهم المؤسسات الفرنسية القليلة التي توجد في طرابلس بسبب استحالة مزاولة الاستيراد والتصدير (9 صفحة 181) وفي صيف 1784م انتشرت المجاعة من جديد في المدينة في عهد علي باشا القرمانلي، وفي شهر أغسطس من نفس السنة مرت المدينة بحالة مرعبة من المجاعة ،حتى أن المرور بشوارعها على الاقدام أو فوق ظهور الخيل، أصبح شيئاً مخيفاً مفزعاً بسبب الجوع (10 صفحة 123).

وفي عام 1785 اجتاح وباء الطاعون إيالة طرابلس كلها وقد قضى على عدد كبير من سكانها (11 صفحة 282) وتصف ((مس توللي) الحالة التي أصابت بعض الذين تعرضوا لمرض الطاعون أنهم أصابتهم حالة من الجنون لشدة المرض ثم ظهرت على أجسامهم تورمات مقرونة بالأم شديدة ما تلبث بعد بضع ساعات أن تؤدي إلى الوفاء، فالبلاد تكاد أن تكون خالية من السكان ، وسبب ذلك في انقطاع المعاملات التجارية معها وتدهور الحياة الاقتصادية مما أضطرهم إلى الهجرة خارج البلاد (1 صفحة 225)

أن تعرض البلاد إلى موجات من الجفاف نتيجة ندرة سقوط الامطار تسببت في حدوث مجاعات رهيبة ومهلكة ففي سنة 1767م ضاقت الحياة للكثير من الأهالي مما اضطرهم للهجرة إلى مصر أو تونس ويقدر عدد من هاجر منهم حوالي أربعين ألفاً (6 صفحة 439) وتصف الانسة تولي أيضاً حالة المجاعة والقحط الذي عم البلاد ، وكذلك الطاعون الذي أتى على عدد كبير من السكان ففي سنة 1783 حيث تقول: (لقد هاجم الوباء المدينة منذ شهرين، ثلاثة الاف مخلوق، نعم ثلاثة آلاف وارتهم جبانات طرابلس وخسرتهم البلاد إلى الأبد. أنهم يبلغون حوالي ربع سكان المدينة) (2 صفحة 225)، ووصلت الحالة إلى أن الجثث التي هلكت لم تجد من يدفنها، لقد بدت المدينة تكاد تكوم خالية من السكان وأن الكثير منهم قد هجروا بيوتهم وهربوا إلى تونس (1 صفحة 225 .226) وخلال سنتي 1784م 1786 اجتاح اقليم طرابلس مرض الطاعون مرة أخرى ، ولم يشير المؤرخون إلى حجم الخسائر البشرية، ولم تكن القلعة بمأمن من هذا الوباء الذي أجهز على عدد كبير من الضحايا الذين بلغ عددهم الفاً ومائة، أغلبهم من العرب واليهود ، ولم تنج الإرساليات الفرنسيسكانية من هذا الوباء، حيث أصيب القساوسة الثلاثة الذين كانوا في المدينة بالمرض نتيجة إسعافهم للمصابين (12 صفحة 268) ولشدة الوباء ولكثرة الموتى، فإن من عفى من المرض عجز عن نقل الموتى إلى المقابر، حيث قدرة السيدة تولي ممن ينقل إلى المقابر يومياً عبر بوابة المدينة بـ 200 متوفى (2 صفحة 194)، ولكثرة الوفيات أصبحت الجثث تنقل عبر الحمير لنقلها إلى المقابر، لفقدان المشعين لها، وعلى كثرتها فقد أمر الجنود بالسير في الشوارع لتفريغها من الجثث المملوءة بها (13 صفحة 86) ويشير الرحالة (علي بيك العباسي) أثناء زيارته إلى إيالة طرابلس 1805م، أن مرض الطاعون الذي أحل بالبلاد سبب في نقص كبير في عدد السكان وقدر عددهم بين حوالي الثلاثة عشر ألفاً والخمسة عشر اً ألفاً (10 صفحة 142) وخلال الفترة من 1817 . 1818 انتشر مرض الطاعون في كل طرابلس وتونس، وفرض حجر صحي صارم في طرابلس لوقاية الأهالي من الامراض المعدية حتى أن السفن التي تصل من جربة يؤخذ منها الرسائل ولا يسمح لها بتفريغ البضائع بل تعود من حيث أتت، وقد أنتشر الطاعون في طرابلس إلى حد شل الحركة الاقتصادية، وتسبب في ظهور عدة أمراض أخرى (1 صفحة 226) ولكن فكرة القبول الاعمى دون حذر أو احتياط، والجهل وقلة الأطباء، قد مكنت الوباء من حصد كثير من الأرواح، مع ثمة وجود طبيب واحد من مدينة جنوا الإيطالية كان في خدمة الباشا (14 صفحة 362) وتعلق السكان بالأوهام والتبرك للولاة الصالحين أملاً منهم من تخليصهم من هذا الوباء الذي لا يعرفون كيف يحتاطون منه أو كيفية التخلص من عواقبه، حيث كانت هناك مراسم وتقاليد غريبة كانت قائمة بين الباشا أحمد القرمانلي وقبر الولي الذي يدعون أنه صالح، وكذلك ضريح الولي سيدي الصيد وما كان يتمتع به من مزايا خاصة في اللجوء اليه والاستجارة به (14 صفحة 362).

ومما سبق يتضح أن الطاعون حدد معلماً من معالم التخلف الذي عاشت فيه إيالة طرابلس والذي جسد بدوره مناخ التخلف العام، الذي عج به الفضاء العثماني ، كما أشارت الاوبئة ولأمراض إلى مدى التدني الذي عانت منه البيئة التحتية لمجتمع إيالة طرابلس، الذي لم يجد أبسط مقومات الرعاية الصحية والعناية بالإنسان فرداً ومجتمعاً.

2 . وباء الكوليرا:

تعتبر الكوليرا من أقدم الأوبئة التي ظهرت في كثيراً من البلدان منذ القدم، وعرفت بالعديد من التسميات : كالهواء الاصفر والهيضة وأبوكماش، وكان المرض غريباً عن الاقليم و لم يتوطن به، حيث تعتبر الهند الموطن الأصلي له ، ومنها أنتشر إلى بقية أنحاء العالم (7 صفحة 34 . 35) وهي مرض عام يصيب الجسم فيبتدئ بقيء وإسهال يحدثان فجأة ويتكرران كثيراً ويصاحبهما تعب عام وعدم قدرة على الحركة مع برودة الجلد وزرقة لونه وعدم مرونته وضعف النبض وتقليص عضلات الأطراف مع حدوث تشنجات وألم في المعدة بالإضافة إلى العطش الشديد، وغالباً ما يلقي المريض بالكوليرا حتفه خلال الساعات الاولى من أصابته به، أما أذا استمرت حالة المريض على ذلك عدة ايام فإن أعراض ذلك الوباء تزول تدريجياً فتعود الحرارة إلى الجسم، ويكون النبض طبيعياً، ويزول العطش، ويزداد الأمل في شفاء المريض باتباع طرق العلاج، وقد يصاحب هذا الوباء حدوث بعض المضاعفات العقلية للمريض خاصة في فترة النقاهة، حيث يصاب بالهذيان مع ميل للانتحار ومتى ظهر هذا الداء في المناطق الحارة كان وبائياً (5 صفحة 52)، أن مجاعة 1767م الناتجة عن حالة الجدب والقحط أدت إلى هجرت الكثير من السكان إلى مصر وتونس، كما ذكرنا سابقاً (11 صفحة 282) وقد ادي هذا الوضع في السنة الثانية إلى تفشي وباء الكوليرا، ومنها أنتشر في الدواخل فأفنى الكثير، وحصد أرواح العديد من السكان (14 صفحة 362) وقد توفي جراء ذلك في إبالة طربلس وحدها 500 شخص (15 صفحة 98) وحينما تفشت الكوليرا في مصر بين عام 1828م . 1829م أتشات الحكومة القرمانلية مركز للحجر الصحي فكان ذا فعلية في منطقة جليانة (16 صفحة 63 . 85) كانت منطقة جليانة قريبة من بنغازي، بذلك ساعدت العيادات الطبية للأمراض المعدية باستخدامها كحجر صحي للأشخاص القادمين من مصر بحراً (17 صفحة 249 .250) وفي أواخر عهد يوسف باشا ضغط القناصل الاوروبية على الباشا ليتم تطهير المركب والركاب قبل نزولهم البر، وهو ما يتضح في رسالة وجهها يوسف باشا إلى محمد بيت المال مؤرخة في سنة 1831م يخبره فيها بقدوم مركب يملكه شخصياً محمل بالحجاج الطرابلسيين قادم من ميناء الإسكندرية- يظهر أنها كانت موبوءة - حيث طلب منه القناصل المعتمدون لدية ضرورة تطهير المركب والركاب قبل نزولهم، ويظهر أن هذه العملية كانت مكلفة جداً، مما أضطر يوسف باشا أن يأمر المركب بالعودة إلى ميناء الإسكندرية بحمولته، وعودة الحجاج عن طريق البر من هناك عبر برقة إلى طرابلس (18 صفحة 3 / 24) وأصيبت مدينة درنة في ستة 1835م بوباء الكوليرا الذي أدى انتشاره إلى وفاة قرابة 250 شخصاً، وتزامن أنتشاره بتعرض المدينة إلى زلزال ادى إلى تدمير جزء كبير من مبانيها الواقعة على الهضبة، كذلك عانت مدينة بنغازي من الكوليرا في نفس السنة فأدت إلى وفاة اثنى عشر شخصاً (3 صفحة 16) وفي عام 1784م حلت بالبلاد مجاعات بسبب رداء موسم القمح والشعير لندرة الامطار ففر الفلاحون وتسببت المجاعات في مأس للناس (2 صفحة 179) وتلا الوباء الذي عصف بالايالة عام 1785م سبع سنين عجاف ادت إلى ارتفاع عدد

الوفيات بين الناس وإفقارهم ، فاضطروا إلى بيع ما لديهم من مدخرات ذهبية وفضية بابخس الاثمان لسداد جوعهم (6 صفحة 488 . 489)

ومهما يكن من أمر فقد أدت تلك المجاعات إلى تفكك الحياة الاسرية وتفريق شملها، فضلاً عن تعميم ظاهرة الفقر والانحراف السلوكي لدى العديد من أبنائها.

لم يفعل أهالي طرابلس تجاه هذه الاوبئة والآفات أي شيء، لأن مقاومتهم تجاه هذه الامراض تعتبر هروباً من القضاء والقدر، وخروجاً من الاعراف والتقاليد السائدة، كما أن انعدام الوعي الصحي نتيجة الجهل والفقر جعلهم يلتجئون إلى الأساطير والخرافات والأحجبة، وزيارة الأضرحة لعلاج مرضاهم ، كما يلتجئون في معالجة بعض الامراض إلى الكي بالنار، وحالات الحمى والشلل بالتعاويذ والرقي (13 صفحة 89)، مما تقدم يتضح أن إيالة طرابلس الغرب كانت عرضة من حين إلى آخر للأوبئة والأمراض الفتاكة المستوطنة منها والوافدة، ولكن كيف واجه السكان هذه الأوبئة، وما هو دور الحكومة تجاه هذه الأوبئة.

المبحث الثاني: الإجراءات الصحية في إيالة طرابلس زمن القرمانليين:

كان على الحكومة أخذ إجراءات احترازية لحماية مواطنيها من الأمراض والأوبئة، وتحاول بذلك أن تمنع انتشار الوباء والحماية منه، وذلك بإتباع عدة وسائل أهمها:

أولاً: الحجر الصحي:

(كرنتينة))* أي الأربعين يوماً، إلا أن ذلك لم يكن نظاماً ثابتاً لتحديد مدته، فكانت تلك المدة تحدد تبعاً لمدى تفشي الوباء، وتزيد عن ذلك إذا امتدا أمد تفشيه، وتنقص عن ذلك إذ كانت في بعض الأوقات تحدد بعشرين يوماً، إلى جانب هذا كانت تخفض إلى ثمانية أيام عندما تخف حدة الوباء، ويبدا في الزوال، وفي حالة عدم وجود أوبئة كان يتم إبطال المحاجر الطبيعية (5 صفحة 133) وكان العزل يقوم على حجر الأفراد الذين ثبتت إصابتهم ووجب نقلهم إلى المشافي الخاصة، وعلاجهم بمنعزل عن الأمراض الأخرى وعن الناس (3 صفحة 67) وقد أهتمت حكومة الايالة بطرابلس إلى حداً ما خوفاً من تفشي الأوبئة والأمراض بها عن طريق المسافرين القادمين من موانئ البحر المتوسط عامة، وأخذ الاحتياطات الوقاية اللازمة لهم خاصة القادمين من الموانئ الشرقية ، وقد زاد الاهتمام بالحجر الصحي أواخر عهد يوسف باشا القرمانلي نتيجة لضغوط القناصل الأوربيين في طرابلس عليه ، يتضح ذلك من رسالة وجهها يوسف باشا إلى محمد بيت المال مؤرخة في 2 ربيع الثاني 1247هـ / 1831م، يخبره فيها بقدوم مركب يملكه شخصياً محمل بالحجاج الطرابلسيين قادم من ميناء الإسكندرية (يظهر أنها كانت موبوءة) إذ طلب منه القناصل المعتمدون لدية ضرورة تطهير المركب والحجاج قبل نزولهم إلى البر، ويبدوا أن هذه

* الحجر في اللغة يعني المنع من التصرف، وتحديد حركة الشخص حتى يزول السبب ، كان يطلق على الحجر الصحي في إلايالة (الكرنتينة أو كر نطين أو كرنته) وتعنى في اللغة الايطالية أربعين يوماً، وهي الفترة التي يقضيها الوباء في جسد الانسان حتى تظهر معالمةي اللغة الايطالية أربعين يوماً، وهي الفترة التي يقضيها الوباء في جسد الانسان حتى تظهر معالمة. للمزيد أنظر: (27 صفحة 47)

العملية مكلفة جداً، مما أضطر يوسف باشا أن يأمر المركب بالعودة إلى ميناء الاسكندرية بحمولته وعودة الحجاج عن طريق البر من هناك إلى طرابلس (19 صفحة وثيقة رقم 24) كما قام يوسف باشا عام 1807م بوضع سفينة روسية بحمولتها في الحجر الصحي وذلك حين ما توفي أحد أفرادها بوباء الطاعون، برغم أن السفينة كانت تحمل بطاقة صحية تثبت سلامتها. وكان من نتائجها المحافظة على سلامة المواطنين وعدم أصابه البلاد بالأوبئة المدمرة في أغلب الأحيان (20 صفحة 67 . 68) وقد أطلعنا حسن الفقيه حسن في يومياته عن إجراء محاجر صحية (كرنتينة) لعدة سفن قادمة من مناطق يعتقد أنها موبوءة بأمراض سارية (21 صفحة 878 . 1098 .1375 . 1395 . 1400) لم تقتصر المحاجر الصحية على الركاب والسفن القادمة من خارج الايالة، بل شملت إلايالة نفسها، ووضعت قيوداً مشددة على الانتقال من منطقة إلى أخرى داخل إلايالة خاصة في المناطق المشبوهة، أو المصابة بأمراض سارية للحيلولة دون تفشي الوباء في المناطق الأخرى من الايالة (13 صفحة 97)

ثانياً : الأبراج الدفاعية:

اتخذ القرمانليون طرق صحية للوقاية من الأمراض التي تسبب في نقل العدوة بين عامة الناس والجند بصفة خاصة، وهي الأبراج الدفاعية التي اتخذت على شكل ثكنات عسكرية للجنود للدفاع على الإيالة من المخاطر الخارجية، حيث كان مخصصاً لكل واحد منها موظف مسئول يسمى آغا البرج، وكان المجاهدون لا يغادرونها في حالة النفير حتى لأداء شعائر (9 صفحة 179) الجمعة التي أقيمت فيها أثناء حملة نابولي على طرابلس سنة (1241 هـ/ 1825 م) بناء على أمر الباشا يوسف القرمانلي؛ حيث يقيم فيها القادمون إلى المدينة المدة الزمنية المقررة للتأكد من خلوهم من الأمراض كما حدث في الثاني عشر من محرم سنة (1242 هـ/ 1826م) (22 صفحة 95) ومن بين هذه الأبراج البرج الجديد الذي قام بإنشائه (1817 م) بالقرب من برج المندريك *احتفل بتدشينها في أوائل سنة (1825 م) بحضور رجالات الدولة وأعيان البلاد (10 صفحة 148) وكان من بين الأبراج والحصون الأخرى المطلة على البحر الحصن البرج الذي أنشئ على ستارة الميناء بين حصن الطاحونة وحصن المندريك سنة 1820 م، ثم حصن الطاحونة وحصن التراب واخيراً برج سيدي الهدار فحصن درغوث (23 صفحة 254) الذي حجر بها الأشخاص الذين هم أكثر إصابة بالطاعون فقد تم نقلهم بقاعة بالطابق السفلي من قصر درغوث باشا الواقع بشارع الاسبانيول (حسنين، 1999، صفحة 86) وكان هناك مكان شبه معزول تحتم الانتقال إليه، ألا وهو الموقع القائم حالياً بميدان بنك روما، حيث يوجد حمامان متجاوران هما حمام ميكال والحمام القديم، بشارع الأسبنيول الراهن كان – على مسافة غير بعيدة - نواة مستشفى خاص الأرقاء جرى أنشؤه

* أنشئ من أجل الحماية الساحلية للميناء والمدينة بطريقة مؤقتة قرب باب البحر على الجزيرة الصخرية المجاورة لمدخل المدينة، كان ذلك نواة لخلق عظيم تم في العهود اللاحقة اشتهرت بها طرابلس ، أو حصن الصخرة أو بيت الرايس أي (Castellego) وأخذ عدة أسماء أهمها حصن المندريك والكاستيلاجو و ريس المرسي، وكان قد أقيم سنة 1567م، في عهد عثمان الساقزلي داي ، وقدقام في سنة 1661م بتحصين الحصن وذلك بأنشاء حصن متكامل يشابه القلعة الصغيرة، وهو عبارة عن قاعدة مربعة علها سور شبه هلالي يطل على مدخل المدينة الشمالي الواقع بين الجزر . (23 صفحة 213)

على أطلال سراي درغوث حيث استخدمت كمحجر صحي حين تفشى الطاعون بالمدينة (حسنين، 1999، صفحة 87) ومن الوقاية الأخرى التي اتخذها الأهالي لحماية أنفسهم وباء الطاعون هي الهجرة، حيث هاجر بعض الأهالي إلى تونس قبل أن يحل وباء الطاعون بقوة في المدينة، وذلك عندما حدثت المجاعة التي سبقت الطاعون، إذ تبدوا العديد من البيوت خالية من سكانها، وعند المرور من شوارعها تكاد لا تلتقي مع اثنين يمشون مع بعضهم، مما جعل طابع الحزن يدب في أرجاء المدينة ببيوتها الخالية من سكانها من كل جانب، مما جعل المار منها لا يفكر في أي جانب اقتصادي، وهذا ما أثر في الجانب الاقتصادي والمادي للمدينة (10 صفحة 126).

ثالثاً: المستشفيات:

لقد ظهرت فكرة إنشاء أول مستشفى بالمعنى المعروف في إيالة طرابلس، حينما كان السجناء الأسرى من المسحيين يحشرون بأعداد كبيرة، فيما كان يسمى بحمام سان ميكيلي الذي أنشئ سنة 1630م في أطار حرب القرصنة الدائرة بين البحارة المسلمين والمسحيين في البحر المتوسط، (1 صفحة 141) حيث أن اختلاط هؤلاء الأسرى في السجون شكل نواة عدوي لعدة أمراض خطيرة، وخوفاً من تفاقم الوضع وتأثيره على السكان (3 صفحة 85) وتأثيره على الاهالي المجاورين للسجن، أمر الباشا العثماني (مصطفى شريف داي) بتهيئة مكان أرضي من بقايا قصر درغوث لإيواء المرضى وتزويدهم بما يحتاجون إليه من أدوية من صيدلة السراي حسب وصفة الطبيب الخاص بالأسرى (25 صفحة 22) أن منظمة فرسان مالطا المنبثقة عن هيئة دينية (أمالفيتانية)، كانت تشرف على شئون المستشفيات المسحية، التي كان لها نشاط في ليبيا قبيل الحكم العثماني وتمثل في المعالجة والمساعدة في افتداء الأسرى المسحيين في السجون العثمانية. وفي العهد العثماني الاول ثم العهد القرمانلي انتشرت المستشفيات الحديثة حسب الطراز المعماري في ذلك العصر، وكان للإرساليات المسيحية دور كبير في تسييرها، وتقديم الخدمات العلاجية (1 صفحة 141 . 142)

خاتمة:

تناولت في هذه الدراسة الأوضاع الصحية في إيالة طرابلس الغرب في عهد الأسرة القرمانلية في ليبيا (1711م / 1835م)

ختاماً لهذا البحث نشير إلى بعض النتائج التي توصلت إليها، والتي لا يمكن أن تضع إطاراً نهائياً لموضوع الدراسة ، وإنما هي مساهمة بسيطة ومتواضعة حاولت من خلالها أن نسلط الضوء ولو قليلاً على مجمل الأحداث ، التي تحتاج إلى مزيد من مجهودات الباحثين، فعسى أن يوفقني الله ويوفق غيري في مواصلة ذلك وأسال الله تعال أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به غيري إنه سميع مجيب.

النتائج:

أولا: الاهمال الواضح من جانب الدولة، وحكومة الايالة في الجوانب الصحية وعدم تطويرها الامر الذي ساعد على تفشي الأوبئة ولأمراض.

ثانيا: عدم اهتمام الايالة بالمسافرين القادمين من مناطق موبوءة في حوض البحر المتوسط، والقادمين صحبة القوافل التجارية.

ثالثا: غياب الوعي الصحي ،وانتشار الجهل والفقر بين السكان، وركونهم إلى القضاء والقدر، جعلهم يؤمنون بالخرافات والشعوذة، ومعالجة أمراضهم بالتعويد والتمائم .وعدم مقاومتهم لتلك الامراض، مما زاد من سرعة انتشارها وفتكت بأرواحهم.

رابعا: قد تركت تلك الأمراض والأوبئة تداعياتها على الحياة الأسرية بالإيالة، حيث ترك وباء الطاعون نتائجه المدمرة في هذا الجانب من خلال سحقه لأسر بكاملها، وقد خفض عدد سكان إيالة طرابلس كثيراً ، وغالباً ما ذهب بعوائل بأسرها ، وأن هناك بعض البيوت التي خلت أو دمرت نتيجة لهذا البلاء .

خامسا: كما كانت الاوبئة الامراض سبب في فزع وقلق السكان، مما زاد الامر سوءاً كثرة الوفيات، وهذا بدوره أدى إلى الهجرة والهروب خارج الاقليم أو الهجرة الداخلية من المدن إلى البوادي أو العكس.

سادسا: حددت الأوبئة والامراض معلماً من معالم الجهل والتخلف، الذي عاشت فيه الايالة في تلك الفترة.

سابعاً: لقد ترك الواقع الوبائي مردوداته السلبية على مجمل الأنشطة، اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً.

ثامنا: ومما ساعد على تفاقم الأزمة الاقتصادية من جراء الأوبئة والأمراض، اغلقت ادارة الاقليم الاسواق اثناء فترة ظهور الاوبئة كإجراء وقائي فأدى ذلك إلى غلاء الأسعار.

قائمة المراجع:

1) محمود أحمد الديك. الاوضاع الصحية في طرابلس (ليبيا) منذ العهد العثماي حتى فترة الاحتلال الايطالي، أعمال الندوة العلمية الاسعة التي عقدت في بمدينة المرج في الفترة 30/ 6 / 2001م . [المحرر] محمود الديك. المرج : منشورات مركزجهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2009.

2) رتشارد توللي. عشر سنوات في بلاط طرابلس، ترجمة عمرأبوحجلة. طرابلس : مكتبة الفرجاني، 1976.

3) . المبروك محمود سليمان. الاوضاع الصحية في أقليم برقة خلال العهد العثماني الثاني. 2006.

4) عبد الكريم ابوشويرب. الصحة والمرض وطرق العلاج في بعض الواحات الليبيةالرقن 19. طرابلس : منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، 2000.

5) فوزي السيد المصري. تاريخ الاوبئة والصحة العامة في مصر1813 . 1882م رسالة دكتوراه غير منشورة. طنطا : كلية الاداب جامعة طنطا، 1989.

6) شارل فيرو. الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الايطالي. [المحرر] عبد الكريم الوافي. طرابلس : النشأة الليبية العامة للنشر والتوزيع الاعلان، 1983. المجلد 2.

7) امال محمد المحجوب. الاوبئة والمجاعات في ولاية طرابلس الغرب (1911 . 1935م) رسالة ماجستير غير منشورة. طرابلس : كلية الاداب جامعة الفاتح، 2002.

8) جيمس هاملتون. جولات في شمال أفريقيا. [المحرر] المبروك الصويعي. طرابلس : اسم غير معروف، (د . ت).

9) سليمان أحمد كريمش. تجارة المدن والواحات الليبية خلال القرنين الثامن عشر و التاسع عشر الميلاديين. طرابلس : منشورات المركز الوطني للمحفوظات والدراسات التاريخية ، 2010.

10) خليفة محمد التليسي . حكاية مدينة طرابلس لدى العرب والاجانب. طرابلس : الدار العربية للكتاب ليبيا تونس، 1974.

11) ابن غلبون. التذكار فمن ملك طرابلس وما كان بها من الاخيار. [المحرر] الطاهر أحمد الزاوي. طرابلس : اسم غير معروف، 1967.

12) كوستا نزيو برنيا. طرابلس من 1510 . 1850م. [المحرر] خليفة محمد التليسي. مصراتة : الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والاعلان، 1985.

13) محمد عمر مروان. الاوضاع الصحية والاجراءات الوقاية خلال العهد العثماني أعمال الندوة العلمية التاسعة التي عقدة في المرج في الفترة30 / 6 /2001م. [المحرر] محمود الديك. المرج : منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2009.

14) أتوري روسي. ليبيا منذ الفتح حتى عام1911. [المحرر] خليفة التليسي. بيروت : دار الثقافة بيروت، 1991.

15) رودلفو ميكاكي. طرابلس الغرب تحت حكم الاسرة القرمانلية. [المحرر] طه فوزي. مكان غير معروف : معهد الدراسات العالمية، 1961.

16) دي لاشيلا. أخبار الحملة العسكرية التي خرجت من طرابلس إلى برقة في عام 1817م. [المحرر] الهادي أبولقمة. طرابلس : دار مكتبة الفكر، 1968م.

17) محمد مصطفى بازاما. بنغازي متصرفية ثلاثة أجزاء. قبرص : دار الحوار، 1994.

18) محمد بيت المال . م . ج . ل . ط. الوثائق العربية . 1831م.

19) محمد بيت المال. شعبة الوثائق العربية. مكان غير معروف : مركز جهاد الليبين.

20) أمحمد سعيد الطويل. الوقاية الصحية في إيالة طرابلس الغرب في عهد الاسرة القرمانلية. مكان غير معروف : تراث الشعب، 1999.

21) حسن الفقيه حسن. اليوميات الليبية1551 . 1835م. [المحرر] محمد الاسطى و عمار جحيد. مكان غير معروف : مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1984.

22) أحمد الطويل. التحصينات الساحلية في إيالة طرابلس في عهد يوسف باشا القرمانلي (1795 . 1832م . 1999.

23) علي الميلودي عمور(. طرابلس المدينة الغربية ومعهارها الاسلامي . طرابلس . القاهرة . لندن : دار الفرجاني للنشر والتوزيع، 1993.

24) علي الصادق حسنين. من معالم مدينتنا القديمة سراي طرغود باشا. مجلة أثار العرب. 1999.

25) سعيد داود طوقدمير. الاطباء والصيادلة في ليبيا منذ التاريخ القديم إلى سنة 1910م،. مجلة الافكار. فبراير، 1957.

26) بدون اسم. مجلة البحوث التاريخية . طرابلس : منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 1991.

المجاعات والأوبئة في الوطن العربي دراسة لواقع المجتمع العربي في ظل طاعون عمواس في عهد الخلافة العمرية

Famines and Epidemics in the Arab World: A Study of the Reality of Arab Society in the Shadow of the Plague of Emmaus in the Era of the Omari Caliphate

د. عمر حسيني/جامعة الجزائر 2/الجزائر

Dr.Omar Hassini / University of Algiers2 /Algeria

د. زهرة شوشان/جامعة البويرة/ الجزائر

Dr.Zahra Chouchene/ Bouira University/Algeria

الملخص:

هدفت هذه الورقة البحثية للتعرف على المجاعات والأوبئة في الوطن العربية دراسة لواقع المجتمع العربي في طاعون عمواس في ظل الخلافة العمرية وركزت الدراسة على تحديد واقع المجتمع العربي في الوطن العربي في طاعون عمواس ي عهد الخلافة العمرية، وتحديد أثر ذلك الطاعون على سلامة المجتمع العربي وأفراده في المناطق التي أصابها والتي شهدت انتشار قوي وعنيف للطاعون خلال تلك الفترة التي إلى عهد الخلافة العمرية في تلك الفترة، بالإضافة إلى التعرف على أهم المظاهر التي خلفها الطاعون في المجتمع العربي في شتى المجالات وكيف تمت مكافحة هذه الظاهرة التي تواجهت المنطقة العربية في تلك الفترة.

الكلمات المفتاحية: المجاعات والأوبئة، الوطن العربي، طاعون عمواس، الخلافة العمرية

Abstract:

This research paper aimed to identify famines and epidemics in the Arab world, as a study of the reality of the Arab community in the plague of Emmaus under the age of the Caliphate. It also aimed to identify the most areas that date back to the era of the Omari caliphate in that period, in addition to identifying the most important manifestations left by the plague in Arab society in various fields and how This phenomenon faced by the Arab region in that period was combated..

keywords: Famines and epidemics ، Arab world ، Plague of Emmaus ،Omari Caliphat

مقدمة:

في العام الثامن عشر من الهجرة وقع شيءٌ فظيعٌ مروِّعٌ، وهو ما تذكره المصادر باسم (طاعون عِمَواس) وقد سمِّي بطاعون عِمَواس نسبة إلى بلدةٍ صغيرة، يقال لها: عِمَواس، وهي: بين القدس، والرَّملة؛ لأنَّها كانت أول ما نجم الدَّاء بها، ثمَّ انتشر في الشَّام منها، فنسب إليها، وأفضل من ذكر صفة هذا الدَّاء على حسب علمي القاصر ابن حجر حيث قال بعد أن ذكر الأقوال في الطاعون: فهذا ما بلغنا من كلام أهل اللُّغة، وأهل الفقه، والأطباء في تعريفه، والحاصل: أنَّ حقيقته ورمٌ ينشأ عن هيجان الدَّم، أو انصباب الدَّم إلى عضوٍ فيفسده، وأنَّ غير ذلك من الأمراض العامَّة الناشئة عن فساد الهواء يسمّى طاعوناً بطريق المجاز، لاشتراكهما في عموم المرض به، أو كثرة الموت.

والغرض من هذا التَّفريق بين الوباء والطَّاعون التَّدليل على صحَّة الحديث النَّبويِّ الَّذي يخبر: أنَّ الطاعون لا يدخل المدينة النَّبويَّة، أمَّا الوباء؛ فقد يدخلها، وقد دخلها في القرون الَّتي خلت. وكان حصول الطَّاعون في ذلك الوقت بعد المعارك الطَّاحنة بين المسلمين، والروم، وكثرة القتلى، وتعفُّن الجو، وفساده بتلك الجثث أمراً طبيعياً، قدَّره الله لحكمةٍ أرادها.)

الإشكالية:

من أجل التقصي عن هذه الظاهرة جاء هذ المقال للكشف عن المجاعات والأوبئة في الوطن العربي من خلال دراسة لواقع المجتمع العربي في ظل طاعون عمواس في عهد الخلافة العمرية.

من خلال ما تم عرضه في المقدمة فإن مشكلة الدراسة من خلال التساؤل الآتي:

- ✓ ماهو واقع المجتمع العربي في ظل طاعون عمواس في عهد الخلافة العمرية ؟

أهداف الدراسة: يمكن حصرها فيما يلي:

- ✓ لتعرف على أهم الآثار التي تركتها طاعون عمواس على المجتمع العربي في عهد الخلافة العمرية.
- ✓ معرفة نوعية الآثار السلبية التي واجهت المجتمع العربي في ظل طاعون عمواس في عهد الخلافة العمرية.

أهمية الدراسة:

1.الأهمية النظرية:

- ✓ المساهمة في إثراء أحد مجالات الدراسات الاجتماعية والتاريخية، وذلك من خلال تبيان أهم الآثار التي تركها طاعون عمواس في المجتمع العربي بصفة خاصة والاقتصاد بصفة عامة.

2. الأهمية العملية:

- ✓ لفت انتباه المختصين في مجال العلوم الاجتماعية والاقتصادية وكل العاملين في هذا القطاع إلى أهمية دراسة الأوبئة التي ضربت المجتمعات العربية عبر العصور الوسيطة من جانب تأثيرها على الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ومن ثم العمل على استخلاص العبر من الاحداث السابقة لمعالجة الظواهر المتشابهة معها في عصرنا الحالي.

تحديد مصطلحات الدراسة:

1.المجاعات والأوبئة (Famines and epidemics): " تعني ندرة في الغذاء على نطاق واسع، تسببها عدة عوامل بما في ذلك الحرب، والتضخم، وفشل المواسم الزراعية، وعدم التوازن السكاني، أو السياسات الحكومية. هذه الظاهرة عادة ما ترتبط بالتوسع إقليميا، ونشر الأوبئة، وزيادة معدل الوفيات. شهدت كل قارة مأهولة في العالم فترة من المجاعة

عبر التاريخ. في القرنين التاسع عشر والعشرين، كان جنوب شرق وجنوب آسيا عمومًا، وكذلك شرق ووسط أوروبا، يعانيان من أكبر عدد من الوفيات بسبب المجاعة. بدأت الأرقام التي تموت بسبب المجاعة في الانخفاض بشكل حاد من السبعينيات.(https://ar.wikipedia.org.2021.p01)

2. الوطن العربي (Arab world): " الوطن العربي (ويُعرف كذلك باسم الوطن العربي الكبير والعالم العربي) هو مصطلح جغرافي-سياسي يطلق على منطقة جغرافية ذات تاريخ ولغة وثقافة مشتركة. يُمتدُّ الوطن العربي من المحيط الأطلسي غربًا إلى بحر العرب والخليج العربي شرقًا، شاملًا جميع الدول التي تنضوي في جامعة الدول العربية في غرب آسيا وشمال أفريقيا وشرقها.". (https://ar.wikipedia.org.2021.P.01).

3. طاعون عمواس (Plague of Emmaus): " طاعون عَمْواس هو طاعون وقع في ولاية بلاد الشام الإسلامية التابعة للخلافة الراشدة في أيام خلافة عمر بن الخطاب سنة 18 هـ/639م بعد فتح بيت المقدس، وسُميت هذه السنة بعام الرمادة لما حدث بها من المجاعة في المدينة المنورة أيضًا. ويُعتبر هذا الطاعون أحد امتدادات طاعون جستنيان."((https://ar.wikipedia.org.2021.P.01

4. الخلافة العمرية: (Omari Caliphate): " هي كتاب كتبه الخليفة عمر بن الخطاب لأهل إيلياء (القدس) عندما فتحها المسلمون عام 638 للميلاد، أمنهم فيه على كنائسهم وممتلكاتهم. وقد اعتبرت العهدة العمرية واحدة من أهم الوثائق في تاريخ (القدس). (https://ar.wikipedia.org.2021.p01)

1. أصل الطاعون:

يعتبر طاعون عمواس أحد امتدادات طاعون جستنيان الذي ظهر في 541-542م، وظل يتكرر عدة مرات في القرن السادس والسابع الميلادي حتى 750م. ظهر في البداية كوباء أصاب الإمبراطورية البيزنطية (الرومانية الشرقية) وخاصة عاصمتها القسطنطينية، وكذلك الإمبراطورية الساسانية والمدن الساحلية حول البحر الأبيض المتوسط بأكمله، حيث كانت السفن التجارية تؤوي الفئران التي تحمل البراغيث المصابة بالطاعون. يعتقد بعض المؤرخين أن طاعون جستنيان كان أحد أكثر الأوبئة فتكًا في التاريخ، وأنه أدى إلى وفاة ما يقدر بنحو 25-50 مليون شخص خلال قرنين، وهو ما يعادل 13-26% من سكان العالم في وقت تفشي المرض لأول مرة. قورن التأثير الاجتماعي والثقافي للطاعون بتأثير الموت الأسود الذي دمر أوراسيا في القرن الرابع عشر، ويُعتقد أن سببه هو اليرسينيا الطاعونية، وهي نفس البكتيريا المسؤولة عن الموت الأسود (1347-1351). كان الأخير أقصر بكثير، لكنه مع ذلك قتل ما يقدر بنحو ثلث إلى نصف الأوروبيين. عُثِر على سلالات يرسينيا طاعونية قديمة وحديثة مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بسلف سلالة طاعون جستنيان في جبال تيان شان، وهي سلاسل جبلية على حدود قيرغيزستان وكازاخستان والصين، مما يشير إلى أن طاعون جستنيان قد نشأ في تلك المنطقة أو بالقرب منها. وتكرر ظهوره بشكل دوري حتى القرن الثامن الميلادي.

2. رجوع عمر من سَرْغ على حدود الحجاز والشَّام:

في سنة 17هـ أراد عمر رضي الله عنه أن يزور الشَّام للمرَّة الثَّانية، فخرج إِليها، ومعه المهاجرون، والأنصار حتّى نزل بِسَرْغٍ على حدود الحجاز والشَّام، فلقيه أمراء الأجناد، فأخبروه: أنَّ الأرض سقيمةٌ، وكان الطَّاعون بالشَّام، فشاور عمر رضي الله عنه واستقرَّ رأيه على الرُّجوع. وبعد انصراف عمر رضي الله عنه حصل الطَّاعون الجارف المعروف

بطاعون عِمَواس وكانت شدَّته بالشَّام، فهلك به خلقٌ كثيرٌ، منهم: أبو عبيدة بن الجرّاح، وهو أمير النَّاس، ومعاذ بن جبل، ويزيد بن أبي سفيان، والحارث بن هشام، وقيل: استشهد باليرموك، وسهيل بن عمرو، وعتبة بن سهيل، وأشراف النَّاس، ولم يرتفع عنهم الوباء إلا بعد أن وليهم عمرو بن العاص، فخطب النَّاس، وقال لهم: أيُّها الناس! إنَّ هذا الوجع إذا وقع إنما يشتعل اشتعال النَّار، فتجنَّبوا منه في الجبال، فخرج، وخرج النّاس، فتفرقوا حتّى رفعه الله عنهم، فبلغ عمر ما فعله عمرو، فما كرهه. (على محمد محمد الصلابي،2005، ص ص. 230-235)

3. خروج الفاروق إلى الشَّام، وترتيبه للأمور:

تأثَّر الفاروق وحزن حزناً عظيماً لموت قادته العظام، وجنوده البواسل بسبب الطَّاعون في الشَّام، وجاءته رسائل الأمراء من الشَّام تتساءل عن الميراث الَّذي تركه الأموات خلفهم، وعن أمورٍ عديدةٍ، فجمع النَّاس، واستشارهم فيما جدَّ من أمورٍ، وعزم على أن يطوف على المسلمين في بلدانهم، لينظِّم لهم أمورهم، واستقرَّ رأي عمر بعد تبادل وجهات النَّظر مع مجلس الشُّورى أن يبدأ بالشَّام، فقد قال: إنَّ مواريث أهل الشَّام قد ضاعت، فأبدأ بالشام فأقسم المواريث، وأقيم لهم ما في نفسي، ثمَّ أرجع فأتقلَّب في البلاد، وأبدي لهم أمري، فسار عن المدينة واستخلف عليَّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه فلمَّا قدم الشَّام، قسم الأرزاق، وسمَّى الشَّواتي، والصَّوائف، وسدَّ فروج الشَّام، ومسالحها، وولَّى الولاة، فعين عبد الله بن قيس على السَّواحل من كلِّ كورة، واستعمل معاوية على دمشق، ورتَّب أمور الجند، والقادة والنَّاس، وورَّث الأحياء من الأموات. (محمد رشيد رضا،دت، ص. 230)

ولمَّا حضرت الصَّلاة قال له الناس: لو أمرت بلالاً فأذَّن! فأمره، فأذَّن فما بقي أحدٌ أدرك النَّبيَّ (صلى الله عليه وسلم) وبلالٌ يؤذِّن إلا وبكى، حتَّى بلَّ لحيته، وعمر أشدُّهم بكاءً، وبكى من لم يدركه ببكائهم، ولذكرهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وقبل أن يرجع إلى المدينة خطب في النَّاس: ألا وإنِّي قد وَلَّيْتُ عليكم، وقضيت الَّذي عليَّ في الَّذي ولأن الله من أمركم إن شاء الله، فبسطنا بينكم فيئكم ومنازلكم، ومغازيكم، وأبلغناكم ما لدينا، فجنَّدنا لكم الجنود، وهيَّأنا لكم الفروج، وبوَّأنا لكم، ووسَّعنا عليكم ما بلغ فيئكم، وما قلتم عليه من شامكم، وسمَّينا لكم أطعماتكم، وأمرنا لكم بأعطياتكم وأرزاقكم، ومغانمكم، فمن علم شيئاً ينبغي العمل به، فليعلمنا؛ نعمل به إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله. وكانت هذه الخطبة قبل الصَّلاة المذكورة. (محمد شراب، 1997، ص ص. 220، 232- 235)

لقد كان طاعون عمواس عظيم الخطر على المسلمين وأفنى منهم أكثر من عشرين ألفاً، وهو عددٌ يوازي نصفهم بالشَّام وربما تخوَّف من ذلك المسلمون يومئذٍ، واستشعروا الخطر من قبل الرُّوم، وفي الحقيقة لو تنبَّه الرُّوم لهذا النَّقص الَّذي أصاب جيش المسلمين بالشَّام يومئذٍ، وهاجموا البلاد؛ لصعب على الجيوش المرابطة دفعهم، ولكن ربما كان اليأس تمكَّن من نفوس الرُّوم، فأقعدهم عن مهاجمة المسلمين خصوصاً إذا كان أهل البلاد راضين بسلطة المسلمين مرتاحي القلوب إلى سلطانهم العادل، وسيرتهم الطَّيبة الحسنة، وبدون الاستعانة بهم لا يتيسَّر للرُّوم مهاجمة الشَّام لا سيَّما إذا أضفنا إلى هذا مَلَلَ القوم من الحرب، وإخلادهم إلى الرَّاحة من عناء المقاومة لقوم أصبح النَّصر حليفهم في كلِّ مكانٍ، ودبَّ الرُّعب من سطوتهم في قلب كلِّ إنسان. (أحمد إبراهيم الشريف، د.ت، ص ص. 253-254)

شكل رقم (01): يوضح خريطة ولاية بلاد الشام التي أصابها طاعون عمواس وتقسيماتها الإدارية.

4. حكم الدُّخول، والخروج في الأرض الَّتي نزل بها الطَّاعون:

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «إذا سمعتم به بأرضٍ؛ فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرضٍ، وأنتم بها؛ فلا تخرجوا فراراً منه»، وقد اختلف الصَّحابة في مفهوم النَّهي عن الخروج، والدُّخول، فمنهم من عمل به على ظاهره، ومنهم من تأوَّله، والَّذين تأوَّلوا النَّهي أباحوا خروج من وقع في أرضه الطَّاعون، وقد مرَّ علينا حرص الفاروق على إخراج أبي عبيدة من الأرض الَّتي وقع فيها الطَّاعون إلا أنَّ أبا عبيدة اعتذر. رضي الله عنه كما أنَّ الفاروق طلب من أبي عبيدة أن يرتحل بالمسلمين من الأرض الغمقة الَّتي تكثر فيها المياه، والمستنقعات إلى أرضٍ نزهةٍ عالية، ففعل أبو عبيدة، وكانت كتابة عمر إلى أبي عبيدة بعد أن التقيا في سَرْغٍ، وسمعا حديث عبد الرَّحمن بن عوف بالنَّهي عن الخروج، والقدوم إلى أرض الوباء، ورجع عمر إلى المدينة، ويظهر: أنَّ الوباء كان في بدايته، ولم يكن قد استشرى، واشتعل لهيبه، فلمَّا رجع عمر إلى المدينة؛ وصلته أخبارٌ بكثرة الموت في هذا الطَّاعون. (عبد الوهاب النجار،1986،ص ص. 222- 224)

ومفهوم عمر رضي الله عنه بجواز الخروج من أرض الطَّاعون نُقل أيضاً عن بعض الصَّحابة؛ الَّذين عاصروا أبا عبيدة في الشَّام، وعاشوا محنة المرض، كعمرو بن العاص، وأبي موسى الأشعريّ رضي الله عنهم . والخلاف جارٍ في مسألة الخروج من أرض الطَّاعون، لا في الدُّخول إلى أرض الطَّاعون. فبعضهم أباح الخروج على ألا يكون الخروج فراراً من قدر الله، والاعتقاد بأنَّ فراره هو الَّذي سلَّمه من الموت، أمَّا مَنْ خرج لحاجةٍ متمحِّضَةٍ، فهو جائزٌ، ومن خرج للتَّداوي فهو جائزٌ، فإنَّ تَرْكَ الأرض الوبئة، والرَّحيل إلى الأرض النَّزهة مندوبٌ إليه ومطلوبٌ.(محمد أحمد الذهبي، دت، ص. 174)

وأمَّا تعليل أبي عبيدة رضي الله عنه بقاءه واعتذاره للفاروق عن الخروج، فراجعٌ إلى أسبابٍ صحِّيَّةٍ، واجتماعيَّةٍ، وسياسيَّةٍ، وقياديَّةٍ ينظمها الدِّين في نظامه، وتعدُّ مثلاً أعلى للقيادة الأمينة، وأبو عبيدة أمين هذه الأمَّة، حيث قال معلِّلاً سبب ثباته: إنِّي في جند المسلمين، ولا أجد بنفسي رغبة عنهم. وقد أصاب بعض العلماء المفصل عندما ذكر في حكمة النَّهي عن الخروج فراراً من الطاعون: أنَّ النَّاس لو تواردوا على الخروج، لصار مَنْ عجز عنه بالمرض المذكور أو غيره . ضائع المصلحة، لفقد من يتعهَّده حيّاً وميتاً، ولو أنَّه شُرع الخروج، فخرج الأقوياء؛ لكان في ذلك كسر قلوب الضُّعفاء. وقد قالوا: إنَّ حكمة الوعيد من الفرار من الزَّحف؛ لما فيه من كسر قلب مَنْ لم يفرَّ، وإدخال الرُّعب فيه بخذلانه.

أنَّ البقاء رخصةٌ، والخروج رخصةٌ، فمن كان في الوباء، وأصيب، فلا فائدة من خروجه، وهو بخروجه ينقل المرض إلى النَّاس الأصحَّاء، ومن لم يُصَبْ فإنَّه يرخَّص له في الخروج من باب التَّداوي على ألا يخرج النَّاس جميعاً، فلا بدَّ أن يبقى من يعتني بالمرضى. أودى هذا المرض الخبيث بحياة الكثير من الناس، وجلهم من كبار الفاتحين المسلمين، وقد كان تعامل عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع هذا البلاء في منتهى الحذر حيث لم يدخل هو ومن معه إلى الشام، كما حاول إخراج المعافين من أرض الوباء، كما قام بتحمل المسؤولية كاملة بعد انجلاء هذا الوباء فرحل إلى الشام وأشرف على حل المشكلات وتصريف تبعات هذه الأزمة، كما كان مرجعه ودليله في كل ما فعله هو الشريعة الإسلامية وفقهها فاجتهد ونفذ، وأمر ووجه الولاة وفق ذلك، فأصبح بذلك مثالاً لكل الأمراء والحكام من بعده في كيفية مواجهة الأزمات وإدارتها. (محمد حميد الله، 1985، ص.490)

5.طاعون عمواس يقتل عشرات الآلاف

قتل مرض طاعون عمواس المدمر الآلاف من المسلمين، إذ روى المؤرخ عبد الله الواقدي: "توفي في طاعون عمواس من المسلمين في الشام خمسة وعشرون ألفاً"، وقال غيره: "ثلاثون ألفاً". من أبرز من ماتوا في الوباء صحابة النبي عليه السلام؛ أبو عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، ويزيد بن أبي سفيان، وسهيل بن عمرو، وضرار بن الأزور، وأبو جندل بن سهيل وغيرهم. وعُرفت تلك السنة بعام الرمادة للخسارة البشرية العظيمة التي حدثت فيها.

فبماذا نصح الخليفة عمر بن الخطاب لتجنب المزيد من الخسائر البشرية جراء الطاعون؟

في سنة 17هـ أراد عمر أن يزور الشام للمرة الثَّانية، فخرج إليها، ومعه المهاجرون، والأنصار حتى نزل بِسَرْغٍ على حدود الحجاز والشَّام، فلقيه أمراء الأجناد، فأخبروه: أنَّ الأرض سقيمة، وكان الطَّاعون بالشام، فشاور عمر، رضي الله عنه، واستقرَّ رأيه على الرُّجوع.

وبعد انصراف عمر، رضي الله عنه، حصل الطَّاعون الجارف، وكانت شدَّته بالشام، فهلك به خلقٌ كثيرٌ، ولم يرتفع عنهم الوباء إلا بعد أن وليهم عمرو بن العاص، فخطب النَّاس، كما يذكر د. علي محمّد الصلابيّ، وقال لهم: أيُّها الناس إنَّ هذا الوجع إذا وقع إنما يشتعل اشتعال النَّار، فتجنَّبوا منه في الجبال، فخرج، وخرج النّاس، فتفرقوا حتّى رفعه الله عنهم، فبلغ عمر ما فعله عمرو، فما كرهه.

وثمة رواية تقول إنّ عمر بن الخطاب كتب إلى عمرو بن العاص بالتوجه بسكان المدن إلى الجبال، فالطاعون لا ينتشر عند أهل الجبال؛ عندها اختفى الوباء بهذه الحيلة.

ويكشف مؤرخون أنّ تعامل عمر بن الخطاب مع ذلك البلاء كان في منتهى الحذر، حيث لم يدخل هو ومن معه إلى الشام، كما حاول إخراج المعافين من أرض الوباء، فضلاً عن قيامه بتحمل المسؤولية كاملة بعد انجلاء هذا الوباء، فرحل إلى الشام وأشرف على حل المشكلات وتصريف تبعات هذه الأزمة.

6. حين بلغ خبر المرض إلى عمر:

وقبل أن يبلغ خبر المرض إلى عمر بن الخطاب، كما تذكر الروايات التاريخية، كتب عمر إلى أبي عبيدة ليستخرجه منه: (أن سلام عليك، أما بعد فقد عرضت لي إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها فعزمت عليك إذا أنت نظرت في كتابي هذا ألا تضعه من يدك حتى تقبل إلي). فعرف أبو عبيدة ما أراد، فكتب إليه: يا أمير المؤمنين قد عرفت حاجتك إلي، وإني في جند من المسلمين لا أجد بنفسي رغبة عنهم، فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله في وفيهم أمره وقضاءه فحللني من عزيمتك.

فلما قرأ عمر الكتاب بكى، فقال الناس: يا أمير المؤمنين أمات أبو عبيدة؟ فقال: لا وكأن قد. ثم كتب إلى أبي عبيدة قائلاً: ليرفعن بالمسلمين من تلك الأرض.

فسار أبو عبيدة، امتثالاً لأمر الخليفة عمر، بالناس حتى نزل الجابية، وهي قرية من أعمال دمشق من ناحية الجولان، ثم قام بهم خطيباً فقال: أيها الناس إنّ هذا الوجع رحمة ربكم، ودعوة نبيكم، وموت الصالحين قبلكم، وإنّ أبا عبيدة سأل الله أن يقسم له منه حظه. ثم طعن قبل أن يتم كلامه ومات.

7. خروج الناس إلى الجبال

واستخلف الناس معاذ بن جبل، فقام خطيباً بعده فقال: أيها الناس إنّ هذا الوجع رحمة ربكم، ودعوة نبيكم، وموت الصالحين قبلكم وإنّ معاذاً يسأل الله أن يقسم لآل معاذ حظهم. فطعن ابنه عبد الرحمن فمات، ثم قام فدعا به لنفسه فطعن في راحته ومات. فلما مات معاذ استخلف على الناس عمرو بن العاص، فقام خطيباً في الناس فقال: أيها الناس إنّ هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار فتجبلوا منه في الجبال. وخرج الناس إلى الجبال، ورفعه الله عنهم فلم يكره عمر ذلك.

ويعد الطاعون من أكثر الأوبئة فتكاً بالبشر، ويسمى "الموت الأسود"؛ نظراً لأنّ المرضى يظهر عليهم بقع سوداء نتيجة النزف الحاد للدم تحت الجلد وموت الأنسجة. وهو أول وباء حقيقي على الأرض. وقضى هذا الوباء على جماعات سكانية كاملة في آسيا وأوروبا في القرن الرابع عشر.

ومن أعراض المرض تورّم الغدد الليمفاوية، والحمى، والسعال، والبلغم الدموي، والصعوبة في التنفس. ويتسبب في هذا المرض بكتيريا عصوية صغيرة تعرف باسم يرسينيا بيستس Yersinia pestis. وتنتقل عن طريق البراغيث التي تتطفل على الجرذان، ويمكن أن تنتقل أيضاً من شخص إلى آخر حال وصول الميكروب وصول إلى الجهاز التنفسي.

وذكر بعض المؤرخين أنّ الأوروبيين استخدموا المرضى بالطاعون كقنابل جرثومية كانت تقذف جثثهم إلى حصون الأعداء ليتفشى فيهم الطاعون ويستسلموا بسرعة. ولا زال الميكروب يصنف تحت العوامل البيولوجية المحتملة في الحروب البيولوجية.

قتل الوباء الآلاف من المسلمين، إذ روى الواقدي: توفي في طاعون عمواس من المسلمين في الشام خمسة وعشرون ألفاً

وروى ابن كثير في الجزء السابع من كتابه الموسوعي "البداية والنهاية"، أخبار الوباء الذي ضرب بلاد الشام، وسمي طاعون عمواس؛ لأن ثمة مراحل تاريخية انتشر فيها هذا الوباء في عدة أماكن، كالبصرة مثلاً، وسمي ذلك الطاعون "الجارف" وحلّ بالبصرة سنة 69هـ/ 688م. حسبما ذكر نصير بهجت في بحثه "الطواعين في صدر الإسلام والخلافة الأموية" المنشور بمجلة جامعة كركوك، مضيفاً أنّ الطاعون وقع في عهد عبد الله بن الزبير. وسمي هذا الطاعون بـ "الجارف" لكثرة ما مات فيه من الناس، ومن أشهر من مات فيه عالم النحو أبو الأسود الدؤلي.

وفي رواية ابن كثير، قال محمد بن إسحاق: عن شعبة، عن المختار بن عبد الله البجلي، عن طارق بن شهاب البجلي قال: أتينا أبا موسى وهو في داره بالكوفة لنتحدث عنده، فلما جلسنا قال: لا تحفوا فقد أصيب في الدار إنسان بهذا السقم، ولا عليكم أن تتنزهوا عن هذه القرية فتخرجوا في فسيح بلادكم ونزهها، حتى يرتفع هذا البلاء، فإني سأخبركم بما يكره مما يتقى(..https://www.hafryat.com.2021, Pp.01-02.

8. طاعون عمواس أول تطبيق عربي للتباعد الاجتماعي:

من المعروف أن منطقة الهلال الخصيب من الشام إلى العراق عانت في عصر ما قبل ظهور الإسلام دورات مستمرة من الأوبئة الفتاكة نتيجة الفوضى، والأضرار التي سببتها الحروب الدامية بين الفرس والروم.

كما يروي المؤرخون، أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان يهم بدخول أرض الشام عندما حل الوباء، فنصحه عبد الرحمن بن عوف بالعودة عملاً بالحديث النبوي الذي يعتبر الأساس الذي قامت عليه مبادئ الحجر الصحي في العصور الحديثة: «إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه، وإذا وقع الوباء وأنتم فيه فلا تخرجوا فراراً منه». فعاد عمر وأصحابه إلى المدينة، وظل يتلمس أخبار أبي عبيدة بن الجراح قائد الجيوش الإسلامية في الشام، وأرسل إليه يستدعيه، ولكن أبا عبيدة اعتذر عن الحضور، وأصر على أن يبقى مع جنده ليشاركهم المصير، ويروى عنه أنه قال مقولة شهيرة: «إني في جند المسلمين ولا أجد بنفسي رغبة عنهم».

واستمر هذا الطاعون شهراً في أغلب الروايات، وأدى إلى وفاة خمسة وعشرين ألفاً من المسلمين، ومن أبرزهم أبو عبيدة بن الجراح، الذي دفن في قرية بالقرب من بيسان بأرض فلسطين، ومعاذ بن جبل وابنه عبد الرحمن، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، والفضل بن العباس بن عبد المطلب، وأبو جندل بن سهيل، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وعتبة بن سهيل، وغيرهم من كبار الصحابة الذين اشتركوا في فتوحات بلاد الشام، أو ذهبوا إليها بعد الفتح.

ولم ينتهِ الوباء إلا بعد أن طبق المسلمون مبدأ التباعد الاجتماعي، لأول مرة في التاريخ، واتبعوا نصيحة الخليفة عمر بن الخطاب، حيث أمر عمرو بن العاص أن يخطب في أهل الشام قائلاً: «**أيها الناس إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار فتجنبوا منه في الجبال». وهكذا اعتزل الناس بعضهم، وتجنبوا الاختلاط لعدم نشر العدوى، فكانت أهم وأقدم وسيلة فعالة للانتصار على الوباء**«. (https://www.alkhaleej.ae.2021.P.01-02)

10.كيف تعامل المسلمون مع الأوبئة في تاريخهم؟:

في موجة طاعون عمواس، ذُكر أن المسلمين تحركوا في إطار قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطاعون: «إذا سمعتم به بأرضٍ؛ فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرضٍ، وأنتم بها؛ فلا تخرجوا فراراً منه »، وهذا الحديث النبوي فيه إشارة واضحة إلى ما يطبق اليوم علمياً وعملياً من الحجر الصحي بهدف مواجهة الأوبئة المنتشرة، فرسول الله لم يكتفي بأن يأمرهم بعدم القدوم إلى الأرض الموبوءة، بل أتبعها بأن أمر من كان في أرض أصابها الطاعون أن لا يخرج منها، وذلك لمنع انتشار العدوى فينتقل الوباء إلى مناطق أخرى، وبذلك فإن هذا الحديث لفتة إعجازية تضاف إلى سجل الطب النبوي. وقد رجع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بناء على هذا الحديث إلى المدينة ولم يدخل الشام بعد أن كان قد قصدها ولم يكن ذلك هرباً من الموت المقدر إلّا أن عمر أجاب أبا عبيدة بن الجراح عندما سأله عن سبب رجوعه إلى المدينة، قائلاً: أفراراً من قدر الله؟، فأجاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو غيرك يقول هذا، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله... وعليه فقد أباح بعض العلماء الخروج على ألا يكون الخروج فراراً من قدر الله، والاعتقاد بأنَّ فراره هو الَّذي سلَّمه من الموت، أمَّا مَنْ خرج لحاجةٍ متمحِّضَةٍ، فهو جائزٌ، ومن خرج للتَّداوي فهو جائزٌ، فإنَّ تَرْكَ الأرض الوبئة، والرَّحيل إلى الأرض النَّزهة مندوبٌ إليه، ومطلوبٌ. وقد طلب الفاروق بعد ذلك من أبي عبيدة أن يرتحل بالمسلمين من الأرض الغمقة الَّتي تكثر فيها المياه، والمستنقعات إلى أرضٍ نزهةٍ عالية، ففعل أبو عبيدة. وفي ذلك درس في الأخذ بأسباب الوقاية من المرض والوباء والابتعاد عن مصادره وأماكن استفحاله (الصلابي،2005 ص.233).

بينما بقي أبو عبيدة بن الجراح وغيره من الصحابة في الشام ولم يخرجوا منها بعد أن أصابها الوباء. وقد أصاب بعض العلماء عندما ذكروا في حكمة النَّهي عن الخروج فراراً من الطاعون: أنَّ النَّاس لو تواردوا على الخروج، لصار مَنْ عجز عنه بالمرض المذكور أو غيره . ضائع المصلحة، لفقد من يتعهَّده حيّاً وميتاً، ولو أنَّه شُرع الخروج، فخرج الأقوياء؛ لكان في ذلك كسر قلوب الضُّعفاء. وقد قالوا: إنَّ حكمة الوعيد من الفرار من الزَّحف؛ لما فيه من كسر قلب مَنْ لم يفرَّ، وإدخال الرُّعب فيه بخذلانه، وفي رواية أن الوباء لم يرتفع إلا بعد أن ولي عمرو بن العاص رضي الله عنه الشام، فخطب النَّاس، وقال لهم: أيُّها الناس! إنَّ هذا الوجع إذا وقع إنما يشتعل اشتعال النَّار، فتجنَّبوا منه في الجبال، فخرج، وخرج النّاس، فتفرقوا حتّى رفعه الله عنهم، فبلغ عمر ما فعله عمرو، فما كرهه. وهنا نجد أنه نصح القوم المصابين بأن يتفرقوا عن بعضهم ولا يتجمعوا، حتى يقلل من نسبة انتقال العدوى، وحتى لا يهلكهم المرض كجماعات، بل يهلك من كان مصاباً به من الأفراد فيبقى الآخرون في معزل عن الإصابة به (الصلابي،2005، 231ص ص. 232).

وقد طور المسلمون طرق مواجهتهم للطاعون والأوبئة فيما بعد، ففي العهد المملوكي ولمواجهة الأوبئة المنتشرة، والكثيرة التي أصابت أهالي الشام ومصر، عمد بعض السلاطين والميسورين من الناس بقصد الثواب والتقرب إلى الله،

إلى بناء البيمارستانات في مدن الشام جميعها، لمداواة ورعاية المطعونين والمصابين بالأوبئة كالحمى وغيرها. ولأن الناس كانت تموت بأعداد كبيرة في فترة الوباء فإن الجثث كانت تترك ثلاثة أيام أحياناً على الأرض ولا يوجد من يواريها خوفاً من العدوى، ولذلك فقد عمد بعض الحكام والأثرياء استجابة لتعاليم الدين الإسلامي والتي تحض على دفن الميت بأسرع وقت ممكن حفاظاً على حرمته وكرامته، إلى إنشاء ما سمي بحوانيت أو مغاسل الموتى، والتي تهتم بتغسيل وتكفين الفقراء من موتى المسلمين ثم يتم دفنهم وفق الشريعة الإسلامية (الطراونة، 2010، ص.55).

ولم ينس الناس أهمية التقرب من الله والدعاء إليه والرجاء منه في تلك الأوقات العصيبة، فأخذ أهل الصلاح والعباد من الناس يتوبون إلى الله ويستغفرون ويزيدون من العبادات، ومن أجل التقرب إليه فقد شرع بعضهم في إغلاق حوانيت الخمر، وابتعد الناس عن ارتكاب الفواحش والمنكرات (الطراونة،2010، ص.57)، وللمسلمين تجارب في تطبيق الحجر الصحي، فقبيل انتشار طاعون 1798م في المغرب، استطاع المغاربة تطبيق حجر صحي واتخاذ إجراءات للوقاية من الوباء الذي قدم من الشرق، فهم وإن لم يستطيعوا أن يتفادوه ولكنهم استطاعوا تأخير قدومه عدة سنوات، فهذا الطاعون أول ما بدأ في الإسكندرية في عام 1783م. والذي ساهم في تأخير قدوم الوباء مجموعة التدابير التي اتخذها سيدي محمد بن عبدالله لوقاية مملكته من الوباء المتفشي في الجزائر وذلك بأن أقام نطاقاً عسكرياً على الحدود الشرقية للمغرب، وبدأت الهيئة القنصلية المقيمة في طنجة في عام 1792م باتخاذ اجراءات صحية وقائية على الواجهة البحرية، بعد أن استطاعت انتزاع موافقة مولاي سليمان على فرض حجر صحي ضد الجزائر التي كان الوباء فيها قد تفشى آنذاك (البزاز،1992، ص.87).

خاتمة:

في أخر المطاف فإننا حاولنا معالجة هذا الموضوع من خلال إبراز المجاعات والأوبئة في الوطن العربي دراسة لواقع المجتمع العربي في ظل طاعون عمواس في عهد الخلافة العمرية، خصوصا وأن الدول العربية شهدت عبر مر العصور ولفترات متعددة طويلة عبر مختلف ربوعها عزات قوية في جميع المجالات وخاصة الاقتصادية والاجتماعية منها، وهذا ما تعرضنا له في هذه الدراسة، إن هذه الاثار التي تركها طاعون عمواس مع تعدد أنماطه واختلاف أثاره، سواء كانت آثار واقعة ضمن النظام الاقتصادي أو الاجتماعي لاشك أنها كانت خطيرة على للأسر والمجتمع، و لها جوانب سلبية كثيرة تنفع بالمجتمع والاقتصاد على السواء والأمن باختلاف أنماطه الذي تعرضنا له في هذه الدراسة.

قائمة المصادر المراجع:

1) مبارك محمد الطراونة، (2010)، الأوبئة وآثارها الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الشراكسة، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار.
2) أحمد إبراهيم الشريف، (د ت)، دراسات في الحضارة الإسلامية، دار الفكر العربي،
3) محمد شراب، (1997)، أبو عبيدة عامر بن الجراح، دار القلم
4) علي محمد محمد الصلابي، (2005)، سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب شخصيته وعصره، مؤسسة اقرأ، القاهرة.
5) عبد الوهاب النجار، (1986)، الخلفاء الراشدون، دار القلم، بيروت.

6) علي الصلابي، (2005) مؤرخ وفقيه ومفكر سياسي ليبي حاز درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية
7) بمؤلفه فقه التمكين في القرآن.
8) محمد رشيد رضا، (دت)، الفاروق عمر بن الخطاب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، صفحة.
9) محمد شراب، (1997)، أبو عبيدة عامر بن الجراح، دار القلم.
10) محمد أحمد الذهبي، (دت)، تاريخ الإسلام في عهد الخلفاء، دار الكتاب العربي.
11) محمد حميد الله، (1985)، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، ط.5.
12) محمد الأمين البزاز، (1992)، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر
13) منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس. https://www.hafryat.com. 2021.

شروط النشر بالمجلة

- ✓ أن يتسم البحث بالأصالة والتجديد والموضوعية، وألا يكون البحث نشر سابقاً، كلياً أو جزئياً، أو يكون مرشح للنشر في وسائل نشر أخرى في الوقت نفسه.
- ✓ ألا يكون البحث مستلاً من كتاب منشور، أو جزء من مذكرة تمت مناقشتها أو بحث.
- ✓ يجب التقيد بشروط البحث العلمي، القائمة على الأصول العلمية والمنهجية المتعارف عليها في كتابة البحوث والدراسات الأكاديمية.
- ✓ التزام الدقة والسلامة اللغوية.

يرفق البحث أو الدراسة بملخصين لا يزيد كل منهما عن 10 أسطر، على أن يكون أحدهما بلغة أخرى غير لغة تحرير البحث، بالإضافة إلى المصطلحات الأساسية للدراسة، ويُرفقه ببيان سيرته الذاتية وتعهد يحمل من موقع المجلة.

المراسلات من خلال البريد الالكتروني المرفق:

j.conferences@democraticac.de

المركز الديمقراطي العربي

للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية ألمانيا/برلين

Tel : 0049-code Germany

030-54884375

030-91499898

030-86450098

المركز الديمقراطي العربي
للدراسات الاستراتيجية، الاقتصادية والسياسية
Democratic Arabic Center
for Strategic, Political & Economic Studies

مجلة المؤتمرات العلمية الدولية
International Journal of Scientific Confrences

رئيس التحرير: د. شاهر إسماعيل الشاهر، جامعة صن يات سين الحكومية، الصين

رئيس اللجنة العلمية: د. طرشان حنان، جامعة باتنة1، الجزائر

مدير التحرير: د.بن دريدي منير، جامعة سوق أهراس، الجزائر

مساعد رئيس التحرير: د. عمارة بوجمعة، جامعة برج بوعريريج، الجزائر

اللجنة العلمية: أد. البوسيفي حميدة-أد. إبريعم سامية-د .بن عون الزبير-د. طرابلسي عبد الحق -د. مراد جمال -د. ليفة آسيا- در محمد -د. لفقير علي-د. بداوي عبد القادر-د. العيمش محمد-د. بن عيسى الأزهاري- د. حميدان سلمى-د.زويتي سارة – د.عيشوش رياض-عطا الله النوعي-د. جميل إطميزي-د. عكة محمد

الطبعة الأولى

جانفي 2021 م

البريد الالكتروني للمجلة:

j.conferences@democraticac.de

Nationales ISSN-Zentrum für Deutschland

ISSN 2701-3995

لا تُعبّر بالضرورة الأبحاث المنشورة في المجلة عن رأي المجلة وإنما عن آراء أصحابها